هنري ميللر

كابوس مُكيَّف الهواء

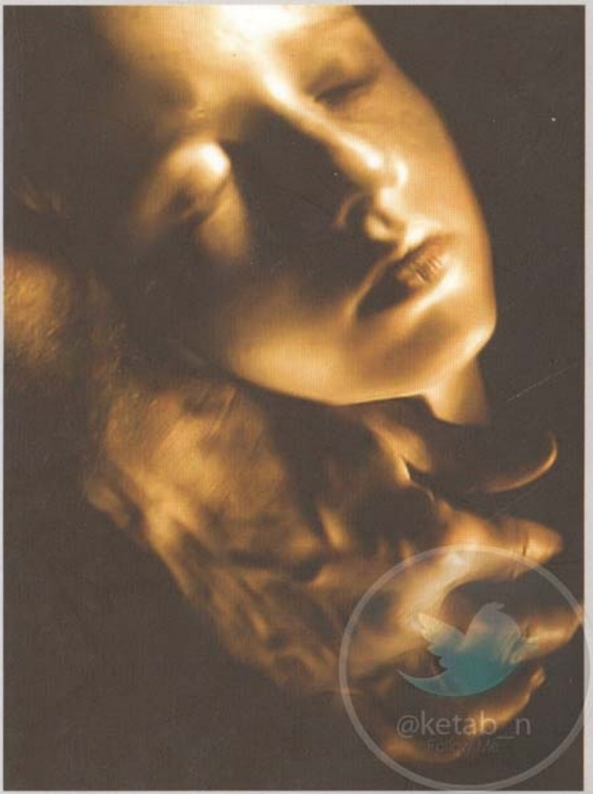
@ketab_n

ترجمة: أسامة منزلجي

رواية

هنري ميللر

كابوس مُكيّف الهواء

ترجمة: أسامة منزلجي

كابوس مُكيّف الهواء

المؤلف: هنري ميللر
عنوان الكتاب: كابوس مكيّف الهواء
المترجم: أسامة منزلجي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
جميع الحقوق محفوظة

Author: Henry Miller
Title:The air-conditioned nightmare
Translator:Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2012
Arabic Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289
www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-84306-104-2

إهداء المؤلِّف

إلى مارغريت وغيلبرت نايمن

في الأصل هما من بنكر هيل (لوس أنجليس)، والآن هما في مكان ما فوق وبعد حدائق الآلهة (كولورادو). وفي ذاكرتي وعاطفتي هما أعلى قليلاً من ذلك، فوق وبعد الآلهة نفسها، لأنهما إنسانيّان بصورة تامة وشاملة.

" إنَّ أعظم رجالات العالم ماتوا مجهولين. وأشباه بوذا والمسيح الذين نعرفهم ما هم إلا أبطال من الدرجة الثانية إذا قارناهم بأعظم الرجال الذين لا يعرف العالم عنهم أيّ شيء. ومئات من هؤلاء الأبطال المجهولين عاشوا في كل بلد وعملوا في صمت. في صمتٍ عاشوا وفي صمتٍ ماتوا؛ وفي الوقت المُحدَّد وَجَدَتْ أفكارهم لها تعبيراً في أشباه بوذا والمسيح؛ وهذان الأخيران هما اللذان أصبحا معروفين لنا. إنَّ أرقى الرجال لا يسعون إلى الحصول على أي لقب أو شُهرة من خلال معرفتهم. إنهم يتركون أفكارهم للعالم؛ ولا يقدّمون أية مطالب لأنفسهم ولا يؤسسون مدارس أو أنظمة فكرية تحمل أسماءهم. إنَّ طبيعتهم بأكملها تنكص عن فعل مثل هذا الشيء. إنهم ساتفيكات[1] صِرف، ***لا يُحركون ساكناً ولكنهم فقط يذوبون عشقاً...***

" في حياة غوتاما بوذا نلاحظ أنه على الدوام يقول إنه بوذا الخامس والعشرون. البوذات الأربعة والعشرون الذين سبقوه يجهلهم التاريخ، على الرغم من أنَّ بوذا الذي يعرفه التاريخ قام على أساسٍ من وضعهم. ***إنَّ أعظم الرجال هادئون، صامتون ومجهولون.*** إنهم الذين يعرفون حقاً قوة التفكير؛ وهم واثقون من أنهم حتى لو لَجؤوا إلى الكهوف وأغلقوا على أنفسهم الأبواب وخرجوا ببساطة بخمس أفكار حقيقية ثم ماتوا، فإنَّ تلك الأفكار الخمس الخاصة بهم سوف تخترق

الجبال، وتجتاز المحيطات وتعبر العالم. سوف تدخل إلى أعماق القلوب والعقول الإنسانية وتستنهض الرجال والنساء الذين سيعبّرون عنها عملياً من خلال منجزات الحياة الإنسانية... سوف يتنقَّل أشباه بوذا والمسيح من مكانٍ إلى آخر يبشرون بتلك الحقائق... هؤلاء الرجال الساتفيكا هم الأقرب إلى الله حيث إنهم خاملون ولا يُقاتلون، ولا يعملون، أو يُناضلون، أو يعظون أو يفعلون الخير، كما يُقال، هنا على الأرض لصالح الإنسانية... "

سوامي فيفيكانادا

استهلال

راودتني فكرة تأليف كتاب عن أميركا قبل سنوات وأنا في باريس. في ذلك الوقت بدت إمكانية تحقيق حلمي بعيدة المنال، ذلك أنه لكي أؤلّف الكتاب يجب أنْ أقوم بزيارة أميركا، وأنْ أسافر كثيراً، وأحمل نقوداً في جيبي، وما إلى ذلك. ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن موعد مجيء ذلك اليوم.

بما أني لم أكن أمتلك الوسائل للقيام بالجولة، فإنَّ الشيء الأفضل التالي كان أنْ أُعايشها في مخيّلتي، وهو ما فعلت في أوقات متفرقة. وأذكر أنَّ تلك الرحلة التمهيدية بدأتْ بوراثة كتاب ضخم يضمُ مُلصقات من الصُحف كان يخصّ ذات يوم والتر لوينفل[2] الذي دعاني، عشيّة رحيله عن فرنسا، لكي أُساعده في حرق كم هائل من المخطوطات كان قد أمضى سنين عديدة في إنتاجها.

إبّان عودتي إلى محترفي في منتصف الليل، كنتُ غالباً ما أقفُ عند الطاولة وأسجّل في ذلك السجّل السماوي بنوداً صغيرة لا حصر لها تؤلّف دفتر حسابات الكاتب: أحلاماً، خُطط هجوم ودفاع، ذكريات، عناوين كتب صمَّمتُ على قراءتها، أسماء وعناوين دائنين مُحتملين، تعبيرات آسرة، مُحرّرين يجب حثّهم على الإسراع في العمل، ساحات

فـال، نُصُب تذكارية، مُعتزلات رهبانيّة، وما إلى ذلك. وأتذكر بوضوح الإثارة التي انتابتني وأنا أُدوِّن كلمات مثل موبايل، نهر سواني، نافاخوس، الصحراء المرسومة، النحل القاتل، الكرسي الكهربائي.

يبدو الآن من المؤسف أنني لم أدوّن سرداً لتلك الرحلة الوهمية كما اتضح. شعرت بالحاجة إلى التصالُح مع بلدي الأصلي. وكانت حاجة مُلحّة لأني، خِلافاً لغالبية الأولاد العباقرة، كنتُ أعود ليس مع نية البقاء في حضن الأسرة بل بالعودة إلى التجوال من جديد، وربما على ألا أعود أبداً. أردتُ أنْ أُلقي نظرة أخيرة على بلدي ثم أغادره مع ذكرى جميلة. لم أرغب في الهرب منه، كما كانت النية في الأصل. أردتُ أنْ أعانقه، أنْ أشعر بأنَّ الجراح القديمة قد التأمت حقاً، وأنطلق نحو المجهول والمباركة على شفتيّ.

لدى مغادرتي اليونان كنتُ في مزاجٍ صافٍ. ولو أنّه وُجِدَ هناك شخص واحد متحرر من الكراهية، والتحامُل والمرارة، أعتقد أنه كان أنا. كنتُ واثقاً من أنَّي للمرة الأولى في حياتي سوف أنظر إلى نيويورك وإلى ما تعنيه من دون أدنى إحساس بالامتعاض أو الاشمئزاز.

لقد اتّضحَ أنَّ السفينة سترسو في بوسطن أولاً. ربما كان ذلك أمراً مؤسفاً، لكنه كان اختباراً ممتازاً. فلم أكنْ قد زرت بوسطن من قبل وقد سُررت لأنَّ القدَرَ خدعني. فقد كنتُ مستعداً لأحب بوسطن.

عندما صعدتُ على متن السفينة لألقي أول نظرة على خط الشاطئ سرعان ما أُصِبتُ بخيبة الأمل. وليس فقط خيبة الأمل، بل في الواقع بالحزن. لقد بدا لي الساحل الأميركي كئيباً وغير جذاب. لم يُعجبني منظر المنزل الأميركي؛ ثمة شيء بارد، متقشف، شيء عقيم ويُصيب

بالقشعريرة، في الهندسة المعمارية للمنزل الأميركي. لقد كان **منزلاً**، بكل ما تحمله الكلمة من دلالات فاسدة، وشريرة وقبيحة بالنسبة إلى روح قلقة. كان فيه جانب أخلاقي، جامد، أصابني بالقشعريرة حتى العِظام.

كان يوماً عاصفاً من أيام الشتاء. نزلتُ إلى الشاطئ مع أحد المسافرين. لم أعد أذكر اسمه أو شكله، مما يدل على الحالة العقلية التي كنتُ فيها. فلسبب مجهول رحنا نتمشى على طول محطة سكة الحديد، وكان مكاناً كئيباً ملأني بالفزع، وأحيى لديّ على الفور ذكرى محطات مُشابهة في مدن مُشابهة، وكلها ذكريات مؤلمة، مُعذِّبة. وما أذكره بحيوية أشدّ عن محطة بوسطن لسكة الحديد هو أكوام الكتب والمجلات، التي بدورها تبدو رخيصة، وسوقيّة، وتافهة كما في الماضي. والدفء الشبيه بدفء الرحم للمكان - أميركي بشدة، إلى درجة لا تُنسى.

كان يوم أحد والحشود في الخارج، مُعزَّزة بجماعات من التلاميذ الصاخبين. المشهد أثار اشمئزازي. أردتُ أنْ أعود إلى السفينة بأسرع ما يمكن. في غضون ساعة أو نحوها شاهدتُ كل ما أردتُ مشاهدته من بوسطن. بدت لي شنيعة.

في طريق العودة إلى السفينة مررنا بجسور، وسكك حديد، ومستودعات، ومصانع، وأرصفة تحميل وما إلى ذلك. وكأننا نتبع آثار عملاق معتوه فرش الأرض بأحلامٍ مجنونة. ليتني رأيت حصاناً أو بقرة، أو حتى عنزة مشاكسة تمضغ علبة من التنك، لكان ذلك مصدر ارتياح هائل. ولكن لم يكن هناك أي أثر لحيوان، أو نبات أو لمملكة الإنسان في الأفق. لقد كانت أرضاً يباباً مترامية الأطراف سبّبها وحوش ما قبل الإنسان أو ما بعده في حالة من الطمع المسعور. كان شيئاً سلبياً، عدماً

من نوع ما. كان كابوساً ومع نهايته رحت أهرول، يحدوني شعور بالاشمئزاز والقرف، وعاصفة الصقيع العاوية التي تلسع كل ما يبدو للعيان وتحوله إلى طبقة من الجليد. وعندما رجعتُ إلى السفينة رحتُ أصلي كي يُقرر القبطان بمعجزة ما أنْ يُغيِّر مساره ويعود إلى بيريوس.

لقد كانت بداية سيئة. ولم يفعل مشهد نيويورك، والميناء، والجسور، وناطحات السحاب، أيّ شيء لمحو انطباعاتي الأولى. فإلى صورة القُبح القاتم الصارخ التي استحضرتها بوسطن أُضيفَ إحساس مألوف بالرعب. أبحرنا حول باتري من نهر إلى آخر، وانزلقنا مقتربين من الشاطئ، وحلّ الليل، ولمعت الشوارع بنقاط من الحشرات المهرولة، وانتابني اتّجاه نيويورك الشعور الدائم - بأنه المكان الأشدّ بثّاً للرعب على أرض الله. ومهما تكررت مرات هروبي منه أعود إليه، كعبدٍ فارّ، وفي كل مرة مع إحساس بالامتعاض منه، بالكراهية، يزداد باطّراد.

ها قد عدت إلى مصيدة الفئران. أحاولُ أنْ أختبئ من أصدقائي القدامى؛ لا أريد أنْ أعيش الماضي من جديد معهم لأنَّ الماضي مملوء بذكريات بائسة، خسيسة. الفكرة الوحيدة التي تشغل بالي هي أنْ أخرج من نيويورك، أنْ أخوضَ تجربة أميركية أصيلة. أريد أن أزور من جديد بعضاً من الأماكن التي عرفتها سابقاً. أريد أنْ أخرج إلى الهواء الطلق.

لكي تفعل أي شيء أنت في حاجة إلى المال. وقد وصلت وأنا خالي الوفاض، تماماً كما غادرت البلد قبل سنين عديدة. في سوق غوثام للكتاب وجدتُ مبلغاً من المال كانت الآنسة شتيلوف[٢] قد جمعته من أجلي من رؤسائها. كانت مفاجأة سارة. وتأثّرت. ومع ذلك، لم يكن

كافياً لأعيش به أية فترة من الوقت. كان عليّ أنْ أجد نقوداً. ربما عليّ أنْ أجد عملاً - ويا لها من فكرة قابضة للنفس.

في تلك الأثناء كان والدي يحتضر. كان في حالة احتضار منذ ثلاث سنوات. ولم يُطاوعني قلبي على زيارته وأنا خالي اليدين. وأخذ اليأس يتسلل إلى نفسي. يجب أنْ يحدث شيء، شيء مُعجز. وقد حدث فعلاً. فقد مررتُ مُصادفة برجل كنتُ أعتقد أنه عدوّي. وأول كلمات خرجت من فمه كانت: " كيف الحال؟ هل أستطيع أنْ أساعدك؟ "، ومن جديد تأثّرت، هذه المرة إلى درجة ذرف الدموع.

في غضون بضعة أشهر كنتُ في الجنوب في منزل صديق قديم. أمضيتُ جزءاً كبيراً من الصيف هناك، ثم رجعتُ إلى نيويورك. كان والدي ما يزال حياً. ورحتُ أزوره بانتظام في منزله في بروكلن، وتحدثنا عن الأيام الخوالي في نيويورك (خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر)، وقابلت الجيران، واستمعتُ إلى الراديو (دائماً ذلك البرنامج اللعين "معلومات من فضلك!"[٤])، وناقشت طبيعة غدة البروستات، وحساسيات المثانة، و" الصفقة الجديدة "[٥] التي كانت فكرة جديدة عليّ وحمقاء ولا معنى لها. وأسمع الجيران يقولون " ***ذلك الروزفلت!*** "، وكأنهم يقولون " ***ذلك الهتلر!*** ". كان قد طرأ تغيير كبير على أميركا، لا شك في ذلك. وكنتُ واثقاً من أنَّ تغييرات أكبر ستطرأ. كنا فقط نشهد مقدمة شيء لا يمكن تخيُّله. كل شيء كان جاحظ العينين، وتتسع عيناه أكثر فأكثر. قد ينتهي بنا الأمر إلى السير على أربع، نبربر كالسعادين. كان الجميع يشعرون بأنَّ شيئاً كارثياً ينتظرنا. نعم، لقد تغيَّرتْ أميركا. الافتقار إلى المرونة، والشعور بانعدام الأمل،

الاستسلام، النزوع إلى الشك، إلى الانهزام - في أول الأمر كدتُ لا أصدق عينيّ. وفوق هذا كله ذلك المظهر من التفاؤل الزائف نفسه - الآن فقد تشقّقَ بوضوح.

كان قلقي يزداد. ولم يبدُ أنَّ والدي كان مستعداً للموت. ويعلم الله كم من الوقت كنتُ سأبقى مستقراً في نيويورك. وقرّرت أنْ أُمضي قُدُماً بخُططي. إذ لابد من القيام بالرحلة في وقت ما - فلِمَ الانتظار؟ المال من جديد، طبعاً. إنَّ المرء في حاجة إلى المال ليسافر حول البلد على مدى عام أو نحوه. أعني، مال حقيقي. ولم تكن لديّ أية فكرة كيف الحصول عليه؛ كل ما كنت أعرف هو أنَّ عليّ أنْ أباشر سريعاً في ذلك أو أجلس عاجزاً إلى الأبد.

منذ عودتي من الجنوب وأنا أتردّد على محترف آبيه راتنر[6] في أوقات فراغي، في محاولةٍ لتطوير مهارتي كرسام بالألوان المائية. وذات يوم فتحت موضوع رحلتي القادمة. وكم دُهِشتُ عندما أبدى راتنر رغبته في الانضمام إليّ. وسرعان ما باشرنا نتناقش حول الكتاب الذي سنؤلفه - سيكون ضخماً ومُزوّداً بلوحات ملوّنة وما إلى ذلك. سيكون شيئاً ممتازاً، أشبه بالكتب الفرنسية الجميلة التي نعرفها. لم نكن نعلم مَنْ سينشره لنا. الأمر الأساسي هو أنْ نكتبه - ثم نفتش عن ناشر. وإذا لم تُسفِر عنه أية نتيجة فسوف نكون قد كسبنا رحلتنا في كل الأحوال.

شيئاً فشيئاً انتقلنا إلى فكرة الحصول على سيارة. إنَّ السبيل الوحيد لمشاهدة أميركا هي بوساطة السيارة - هذا ما يقوله الجميع. وهذا، طبعاً، غير صحيح، لكنها بدت فكرة رائعة. ولم أكن قد امتلكت

قط أية سيارة، ولم أكن حتى أُحسِن قيادتها. والآن أتمنى لو أننا اخترنا زورقاً طويلاً بدائياً.

السيارة الأولى التي تفحصناها هي التي اخترناها. ولم يكن أي منا يفهم أي شيء عن السيارات؛ وصدّقنا الرجل عندما قال إنها سيارة جيدة، ويُعتمَد عليها. وقد كانت كذلك، حقاً، في ظل تلك الظروف كلها، على الرغم مما فيها من عيوب.

قبل أنْ نُصبح مستعدين للانطلاق ببضعة أيام قابلتُ رجلاً اسمه جون وودبرن من شركة دبلداي، دوران وشركاهما. بدا مهتماً اهتماماً استثنائياً بمشروعنا. وكم كان ذهولي شديداً عندما وجدتني بعد ذلك ببضعة أيام أوقِّع عقداً للكتاب في مكتبه. وبدا أنه لم يكن قد سمع باسمي وكان متردداً في التوقيع باسمه. لكنه وقَّع مع ذلك.

كنتُ أتوقّع أنْ أتلقّى خمسة آلاف دولار مقدَّم فحصلت على خمسمئة. تلاشى المبلغ قبل أنْ أغادر نفق هولندا. ومساهمة راتنر كانت غير واردة. لقد كان نشر كتاب كالذي خطّطنا له مسألة مُكلفة جداً. وشعرت بالحرج وبالحزن، وتفاقم هذا الشعور لأنَّ راتنر تقبّل الأمر عن طيب خاطر. لقد كان قد توقّع ذلك، بلا أدنى شك. أما أنا، من ناحية أخرى، فلطالما توقّعت أنْ تُنعم عليّ الملائكة. قال راتنر " المهم أنْ نشاهد أميركا". وافقته. وفي سرّي غذّيتُ الأمل في أنْ أتمكن من نشر رؤية راتنر الخاصة لأميركا بالخط واللون. كان ذلك حلاً وسطاً، وأنا أكره الحلول الوسط، ولكن هذه هي أميركا بالنسبة إليّ. " في المرة القادمة سوف تتمكن من أنْ تفعل ما تشاء " - هذا هو المهم. إنها كذبة خسيسة، ولكن لكي تُخفف من وطأتها يقدّمون لك رشوة.

هكذا بدأتْ الرحلة. لكنّ معنوياتنا كانت عالية عندما غادرنا نيويورك. كنا متوترين قليلاً، يجب أنْ أعترف، لأننا لم نكن قد حصلنا إلا على بضعة دروس في القيادة في مدرسة قيادة السيارات. كنتُ أعرف كيف أحرك المقود، وكيف أُغيِّر السرعة، وكيف أستعمل المكبح - هل هناك شيء ضروري آخر؟ كما كنتُ أقول، عندما باشرنا بمغادرة نفق هولندا كنا في حالة نفسية عالية. كان الوقت ظهيرة يوم سبت. ولم أكن قد اجتزت النفق اللعين، اللهم إلا مرة واحدة في سيارة أجرة في حياتي. كان الأمر أشبه بكابوس. بل يجب أنْ أقول، بداية كابوس بلا نهاية.

عندما وجدنا أننا ندور بلا هدى في نيوارك سلّمت المقود لراتنر. بعد ساعة من القيادة أصبحت منهمكاً في الأمر. إنَّ بلوغ نيوارك سهل، لكنَّ الخروج منها بعد ظهيرة يوم سبت تحت وابل المطر، والعثور من جديد على الطريق العالية، أمر آخر. على أية حال، في غضون ساعة أخرى أصبحنا في الريف المفتوح، وكانت حركة المرور شبه معدومة، والهواء ذا رائحة نفّاذة، والمشهد الطبيعي يعِد بالكثير. كنا نمضي في طريقنا! وكانت بلدة نيو هوب هي نقطة توقفنا الأولى.

نيو هوب (أمل جديد)! غريبٌ أننا انتقينا مدينة بذلك الاسم لتكون نقطة توقفنا الأولى. وكانت مكاناً جميلاً أيضاً، تذكّرني بصورة ما بقرية أوروبية هاجعة. وكان بيل ناي، الذي كنا في ضيافته، تجسيداً لرمز الأمل الجديد، والحماسة الجديدة، والمعاملات الجديدة. كانت بداية ممتازة؛ وكان الجو ممتلئاً بالأمل.

نيو هوب هي واحدة من مستعمرات أميركا المُخصصة للفن. ولديّ ذكرى حيّة عن حالتي الذهنية لدى مغادرتي المكان، مفادها: ***لا أمل***

للفنّان! الفنانون الوحيدون الذي لا يعيشون حياةً مضطربة كانوا الفنانين التجاريين؛ إنَّ لديهم منازل جميلة، وأثاث جميل، وموديلات جميلات. والآخرون يعيشون كمجرمين سابقين. هذا الانطباع تأكَّدَ وتعمَّقَ أثناء الرحلة. أميركا لا مكان فيها للفنان: لكي يصبح المرء فناناً عليه أن يكون مجذوماً أخلاقياً، منبوذاً اقتصادياً، ومُعاقاً اجتماعياً. وخنزيرٌ يقتات على الذرة يستمتع بالحياة أفضل من كاتب خلاّق، أو رسّام أو موسيقي. والأفضل أنْ يكون المرء أرنباً.

في الفترة الأولى بعد عودتي من أوروبا كنتُ دائماً أتذكَّر أنني "هجرت وطني"، وغالباً بالمعنى السيئ للتعبير. وكان يُنظَر من هجَرَ وطنه على أنه متهرِّب. وقبل أنْ تندلع الحرب كان حلم كل فنان أميركي هو أنْ يذهب إلى أوروبا - وأنْ يمكث هناك أطول مدة ممكنة. لا أحد كان يفكّر في نعت رجل بالهروبيّ أيام زمان؛ كان أشد الأمور طبيعيةً، ولياقة، ومناسبة أنْ يفعل هذا، أعني أنْ يذهب إلى أوروبا. ومع اندلاع الحرب نشأ نوع من النزعة الشوفينية، الوقحة والصبيانية. وكانت التحية المعتادة " ألستَ سعيداً لأنكَ عدتَ إلى الولايات المتحدة الأميركية العزيزة الحبيبة؟ ليس هناك مكان يُضاهي أميركا، ***أليس كذلك؟***"، وكان من المتوقع منا أنْ نُجيب " حتماً! ". وطبعاً كان يكمن خلف تلك التصريحات شعورٌ مُبهم بالإحباط؛ والفنان الذي اضطرّ إلى أنْ يلجأ من جديد إلى وطنه الأم غضبَ من أصدقائه الأوروبيين لأنهم حرموه من امتياز عيش الحياة التي يتوق إليها. لقد انزعجَ لأنهم سمحوا لمثل ذلك الشيء البشع، وغير الضروري كالحرب أنْ يندلع. وكما نعلم جميعاً، أميركا مؤلّفة من أناسٍ فرّوا من مثل تلك الأوضاع الشنيعة. أميركا هي

بامتياز أرض الذين هجروا أوطانهم والهاربين، ***والخونة***، ولأستخدم الكلمة الأقوى. كان يمكن أنْ نجعل من هذه القارة الجديدة عالماً رائعاً لو أننا تخلينا حقاً عن إخواننا في أوروبا، وآسيا وإفريقية. كان سيُصبح عالماً جديداً وشجاعاً، لو أننا تحلّينا بالشجاعة وأعطينا ظهورنا للقديم، لكي نبني من جديد، لنتخلّص من السموم التي تراكمت عبر قرون من المنافسة المريرة، والغيرة والكفاح.

إنَّ العالم الجديد لا يُصنَع ببساطة بمحاولة نسيان القديم. العالم الجديد يُصنَع بروحٍ جديدة، بقيمٍ جديدة. قد يكون عالمنا قد بدأ بهذه الطريقة، أما اليوم فهو مشوّه. عالمنا هو عالم ***الأشياء***. مُصنوع من وسائل الراحة والرفاهية، أو من الرغبة فيها. وأشدّ ما يُرعبنا، في مواجهة الكارثة الوشيكة، هو أننا سوف نُضطر إلى التخلي عن أشيائنا التافهة، عن أدواتنا الغريبة، عن وسائل راحتنا الصغيرة التي جعلتنا أبعد ما نكون عن الراحة. إنَّ موقفنا خالٍ تماماً من أي عنصر شجاع، أو شهم، أو بطوليّ أو رحب الصدر. نحن لسنا أرواحاً مسالمة؛ نحن أنيقون، رعاديد، موسوسون ومهتزون.

أنا أتحدث عن الحرب لأنني أثناء قدومي من أوروبا كنتُ دائماً مُحاصراً بمن يطلب رأيي حول الوضع الأوروبي. وكأنَّ مجرد كوني عشتُ هناك ثلاث سنوات يُضفي على كلامي معنى خصباً! مَنْ يستطيع أنْ يحل اللغز الكامن في مثل ذلك الصراع الواسع الامتداد؟ الصحفيون والمؤرخون سوف يدّعون قدرتهم على ذلك، لكنَّ إدراكهم المتأخِّر متفاوت كثيراً مع بصيرتهم حيث إنَّ ريبة المرء في تحليلاتهم مُبرَّرة. إنَّ ما أحاول أنْ أقول هو ما يلي: على الرغم من أني أميركي بالولادة، وعلى الرغم

من أني أصبحت ما يُسمّى المُهاجر من وطنه، فإني أنظر إلى العالم ليس كموالٍ لهذا البلد أو ذاك بل كأحد سكان الكرة الأرضية. وكون المُصادفة شاءتْ أنْ أولَد هنا ليس سبباً لأنَّ يبدو أسلوب الحياة الأميركية هو الأفضل؛ وكوني اخترتُ أنْ أعيش في باريس ليس سبباً لأدفع حياتي تعويضاً عن أخطاء السياسيين الفرنسيين. إنَّ كون المرء ضحية أخطائه الخاصة أمرٌ سيئ بالقدر الكافي، أما أنْ يكون ضحيةَ أخطاء شخص آخر أيضاً فهذا شيء لا يُطاق. وزيادة على ذلك، لا أرى مُبرراً لأفقد توازني بسبب مجنون اسمه هتلر خرج يعيثُ فساداً. سوف يزول هتلر، كما زال نابوليون، وتيمورلنك، والإسكندر وآخرون. إنَّ الكارثة العظمى لا تحدث إلا إذا كان هناك سبب لحدوثها. لقد كان هناك ألف سبب ممتاز لظهور الطغاة الأوروبيين والآسيويين. ونحن لدينا طاغيتنا، إلا أنه متعدد الرؤوس. والذين يعتقدون أنَّ الوسيلة الوحيدة للقضاء على مَنْ يُجسّدون الشر هو تدميرهم، فليُدمّروا. دمرّ كل ما يقع عليه بصرك، إذا كنتَ تؤمن بهذا النوع من التدمير. أنا لا أؤمن إلا بالتدمير الطبيعي، الطارئ على الخلق والمتأصِّل فيه. وكما قال جون مارين[٧] في رسالةٍ وجّهها إلى شتيغليتز[٨] ذات مرة: " بعض الناس يغنّون وهم يجرحون أنفسهم، وبعضهم الآخر وهم يجرحون الآخرين".

والآن بعد انتهاء الرحلة يجب أنْ أعترف بأنَّ التجربة التي تبرز جليّة في ذهني هي قراءة كتاب رومان رولان المؤلَّف من جزأين ويدور حول راماكريشنا وفيفيكاناندا[٩]. دعني أُضيف على عَجَل بضع مواد أخرى...

إنَّ أجمل امرأة قابلتها، ملكة بكل ما في الكلمة من معنى، كانت زوجة شاعر أسود. والرجل ذو البراعة العالية، الوحيد ممَّن قابلت الذي

يمكن أنْ يوصف بصاحب "روح عظيمة"، كان سوامياً[١٠] هندوسياً هادئاً في هوليوود. والرجل الذي كان يحمل رؤيا عظيمة للمستقبل كان بروفسوراً يهودياً في الفلسفة اسمه مجهول تماماً بين الأميركيين على الرغم من أنه عاش بيننا قرابة عشر سنوات. والكتاب الذي كان في طور الإنجاز ويعِد بالكثير كان يدور حول رسّام لم يكتب سطراً واحداً من قبل. واللوحة الجدارية الوحيدة التي وجدتُ أنها تستحق أنْ تُسمّى جدارية كانت في سان فرانسيسكو نفّذها أميركي مُهاجر. ومجموعة اللوحات الفنية الأشد إثارة ويملكها شخصياً والتر أرنسبرغ[١١]، من هوليوود. والشخص الوحيد الذي وجدت أنه راضٍ بما قسمه الله له، ومتلائم مع بيئته، وسعيد في عمله، ويمثل أفضل ما في التراث الأميركي، كان أمين مكتبة عادياً ومتواضعاً في U.C.L.A. (لوس أنجليس) سُمّيتْ باسم لورنس كلارك باول. هنا يجب أنْ أُضيف صديق جون شتاينبك، إد ريكتس، من مختبرات باسيفيك البايولوجية، وهو إنسان استثنائي بامتياز في شخصيته ومزاجه، رجل يشع سلاماً، وفرحاً وحِكمة. والرجل الأكثر شباباً والأشدّ حيوية ووجدتُ صعوبة في التعامل معه كان الدكتور ماريون سوشون من نيو أولينز صاحب السبعين عاماً. ومن الطبقة العاملة بدا لي أنَّ أرقى النماذج هم رجال محطة الخدمة في فار ويست، ولاسيما أولئك الملتزمين بمحطات ستاندارد. إنهم من نسل مختلف تماماً عن أولئك الذين في الشرق. والشخص الذي يتكلّم أنقى لغة إنكليزية يمكن تصورّها كان ثيوصوفيّاً اسمه فرانتز كونتز. والبلدة الوحيدة التي أدهشتني دهشة حقيقية وممتعة كانت بيلوكسي، في ميسيسيبي. وعلى الرغم من أنَّ مئات مخازن بيع الكتب في أميركا فإنَّ

عدداً قليلاً جداً منها يمكن تصنيفه مع تلك التي في القارة، ومن أبرزها مكتبة أرغوس، في نيويورك، وسوق الكتاب في غوثام، نيويورك، ومكتبة تيرانس هوليداي، نيويورك، ومكتبة ساطير في هوليوود. وأشد المدارس إثارة للاهتمام التي قمت بزيارتها كانت مدرسة بلاك ماونتن في كارولاينا الشمالية؛ والمُثير للاهتمام فيها هم الطلاب، وليس الأساتذة. وأشدّ الجماعات إثارة للضجر من بين التجمعات كلها هم أساتذة الجامعات- وزوجاتهم. ولاسيما زوجاتهم. وفوجئت بأنَّ مدينة جيمستاون في فرجينيا هي أشد بقاع أميركا مأساوية. والمنطقة الأشد غموضاً في البلد بدا لي أنها المنطقة المثلثة الضخمة المحصورة بين الولايات الأربع يوتاه، وأريزونا، وكولورادو ونيومكسيكو.

كان ينبغي أنْ أقطع مسافة عشرة آلاف ميل قبل أنْ أتلقّى الإلهام وأكتب سطراً واحداً. كان في إمكاني أنْ أضع كل ما يستحق القول عن أسلوب الحياة الأميركية في ثلاثين صفحة. من الناحية الطبوغرافية البلد رائع - ومُرعب. لماذا مرعب؟ لأنه ليس هناك في أي مكان آخر في العالم مثل هذا الطلاق التام بين الإنسان والطبيعة. لم أقابل في أي مكان آخر غير أميركا مثل هذا النسيج المُمل، الرتيب للحياة. هنا يصلُ الضجر إلى ذروته.

نحن متعودون على التفكير في أنفسنا بوصفنا شعباً متحرِّراً؛ نقول إننا ديموقراطيون، محبّون للحرية، متحررون من الضغائن والكراهية. هذه هي البوتقة، موطن التجريب الإنساني العظيم. كلام جميل، مفعم بالنُبل، وبالعاطفة المثالية. في الواقع نحن رعاع سوقة، وقحون، يمكن حشد انفعالاتنا بسهولة عبر المُهيِّجين والصحفيين، والمتدينين الدجالين،

والدُعاة ومَن شابههم. إنَّ وصف هذا بأنه مجتمع من أناسٍ أحرار كُفر. ماذا لدينا نقدّمه للعالم غير الغنائم الوافرة التي نسلبها بتهورٍ من الأرض تحت تأثير الوهم المسعور بأنَّ هذا النشاط المجنون يمثّل التقدُّم والتنوير ؟ إنَّ أرض الفُرص أضحتْ أرض العرق والكفاح العبثيين. إنَّ الهدف من كفاحنا كله نسيناه منذ أمدٍ بعيد. لم نعد نرغب في التخفيف عن المُضطهَدين والمشردين؛ فليس هناك متسع على هذه الأرض الشاسعة، الخاوية، لأولئك الذين، كأسلافنا من قبلنا، يفتشون الآن عن ملجأ. إنَّ ملايين الرجال والنساء يتلقون، أو كانوا يتلقون حتى عهد قريب، إعانة، ويُحكَم عليهم كخنازير غينيا بعيشِ حياة بطالةٍ إجبارية. في تلك الأثناء ينظر العالم إلينا بيأسٍ لم يعرف مثله من قبل. فأين الروح الديموقراطية؟ أين القادة؟

لكي نُجري تجربة إنسانية عُظمى يجب أنْ يكون لدينا أولاً ***رجال***. وخلف مفهوم "الرجل" يجب أنْ تكمن العظمة. لا يوجد حزب سياسي قادر على جلب مملكة الإنسان. **يمكن** لعمال العالم أنْ يُنظِّموا ذات يوم، إذا كفّوا عن الإصغاء إلى قادتهم المتعصبين، أخويّةَ الإنسان. ولكن لا يمكن للرجال أنْ يكونوا إخوة ما لم يُصبحوا أولاً أنداداً، أي، متساوين بالمعنى الفخم للكلمة. وما يمنع الرجال من الاتحاد كأخوة هو انعدام كفاءتهم الأساسية. العبيد لا يستطيعون الاتحاد؛ والجماهير الغفيرة لا تستطيع الاتحاد؛ والجهلة لا يستطيعون الاتحاد. إننا نعجز عن الاتحاد إلا بإطاعة أرقى دوافعنا. على حافز التفوُّق على الذات أنْ يكون غريزياً، وليس فقط نظرياً أو قابلاً للتصديق. وإذا لم نبذل مجهوداً لإدراك الحقائق التي في داخلنا سوف نفشل مراراً وتكراراً.

وكالديموقراطيين، والجمهوريين، والفاشستيين، والشيوعيين، نحن جميعاً نقف على أرضية واحدة. وهذا أحد الأسباب الذي يجعلنا نخوض الحرب بطريقة جميلة جداً. إننا ندافع بحياتنا عن المبادئ التافهة التي تفرّقنا. والمبدأ العام، الذي هو تأسيس ***إمبراطورية الإنسان على الأرض***، لا نرفع إصبعاً لندافع عنه. نحن خائفون من أي حافز يرفعنا من القذارة. إننا نحارب فقط من أجل الوضع الراهن، ***وضعنا الراهن***. نحارب ورؤوسنا منكّسة وعيوننا مُغمضة. في الحقيقة لا يوجد هناك أبداً وضع راهن، اللهم إلا في أذهان الحمقى السياسيين. كل شيء جارٍ. وأولئك الذين على جانب المدافع يُحاربون الأشباح.

ما هي الخيانة الأعظم؟ إنها الشك فيما يُحارب المرء من أجله. هنا يسير الجنون والخيانة يداً بيد. إنَّ الحرب هي شكل من أشكال الجنون - سواء أكان من أنبلها أم أحطّها، حسب زاوية نظرك. ذلك أنَّ الجنون الجماعي هو الذي يعجز الحكماء عن القضاء عليه. والفوضى هي السبب الأول الذي يمكن أنْ يورَد كتفسير للحرب. عندما تفشل الأسلحة الأخرى كلها يلجأ المرء إلى القوة. ولكن قد لا يكون هناك بأس في الأسلحة التي ننبذها بسهولة ويُسر. لعلها في حاجة إلى شحذ، أو لعلنا نحن في حاجة إلى تحسين مهاراتنا، أو كلاهما. أنْ تقاتل يعني أنْ تعترف بأنكَ مشوّش؛ إنه تصرف يدل على اليأس، وليس على القوة. يمكن لجرذ أنْ يُقاتل بشكل رائع عندما يتورط، فهل يجب أنْ نحاكي الجرذ؟

لكي يعرف الإنسان السلام يجب أنْ يُجرب الصراع. عليه أنْ يمرّ بالمرحلة البطولية قبل أنْ يتمكن من التصرُّف كحكيم. يجب أنْ يُصبح ضحية انفعالاته قبل أنْ يتمكن من التعالي عليها. ولكي تستنهض

طبيعة الإنسان الانفعالية، لتسلّمه إلى الشيطان وتُخضِعه للاختبار الأسمى، يجب أنْ يجري صراع يتضمن شيئاً أكثر من الوطن، والمبادئ السياسية، والأيديولوجيات، إلخ. إنَّ الحرب الحقيقية هي ثورة الإنسان ضد طبيعته المُغالية. وهذه حرب تستمر إلى الأبد دون إراقة دماء، تحت عنوان مُسالم هو الارتقاء. في هذه الحرب يُصنف الإنسان نفسه إلى الأبد في صفوف الملائكة. وعلى الرغم من أنه ربما، كفرد، يُهزَم، إلا أنه يمكن أنْ يتأكّد من النتيجة - لأنَّ الكون كله معه.

هناك اختبارات تُجرى ببراعة وبدقة، لأنَّ النتيجة معروفة سلفاً. مثلاً، العالِم دائماً يُعدّ لنفسه مسائلَ قابلة للحل. لكنَّ الاختبار الذي يُجريه الإنسان ليس من هذا النوع. إنَّ نتيجة الاختبار الأعظم تكمن في القلب؛ فالبحث يجب أنْ يجري في الداخل. نحن نخاف أنْ نثق في القلب. نحن نسكن عالماً عقلياً، متاهةً يكمن في سراديبها المُظلمة وحشٌ ليلتهمنا. إلى هذا الحد كنا قد وصلنا في سلسلة الحلم الأسطوري، دون أنْ نجد الحلول لأننا كنا نطرح الأسئلة الخطأ. إننا لا نعثر إلا على ما نبحث عنه، ونحن نفتّشُ في المكان الخطأ. يجب أنْ نخرج من الظلام، ونتخلى عن هذه الاكتشافات التي ليست إلا من تأثيرات الخوف. يجب أنْ نكفّ عن الحبو على أربع. يجب أنْ نخرج إلى الهواء الطلق، منتصبي القامة، وعراة تماماً.

إنَّ هذه الحروب لا تعلّمنا أي شيء، ولا حتى كيف نتغلّب على مخاوفنا. إننا لا نزال من ساكني الكهوف. ساكنو كهوف ديموقراطيون، ربما، ولكن هذا مصدر راحة ضئيل. ***إنَّ معركتنا هي للخروج من الكهف***. ولو أننا نبذل أقلّ مجهود في هذا الاتجاه لألهمْنا العالم كله.

إذا كنا سنقوم بدور فولكان[١٢] فلنطرق أسلحة جديدة مُذهلة تحطم الأغلال التي تقيِّدنا. دعونا لا نحب الحقيقة بأسلوبٍ منحرف. دعونا نكفّ على تأدية دور الانتكاسي. دعونا نكفّ عن قتل أحدنا الآخر. الأرض ليست مخبئاً، ولا سجناً. الأرض جنّة، الجنة الوحيدة التي سنعرفها. سوف ندرك ذلك حالما نفتح عيوننا. لسنا مضطرين إلى أنْ نجعلها جنة - هي جنة فعلاً. ليس علينا إلا أنْ نكون مؤهّلين لسُكناها. ومَنْ يحمل المسدس، مَنْ يحمل رغبة القتل في قلبه، لا يمكنه أنْ يُميِّز الجنة حتى ولو ظهرت أمامه.

في ليلة قريبة، وأنا في منزل صديق هنغاري، انخرطتُ معه في نقاشٍ حول النفي والهجرة. كنتُ فقط أعطيه انطباعاتي عن أميركا، وانتهيت بالتوكيد على أنَّ كل ما قدّمته الرحلة إليّ هو أنْها جعلتني أُعزِّز حدوسي. وعلى سبيل الجواب قال لي إنني ربما أفرطتُ في حبي لأميركا. وبعد هنيهة قادني إلى طاولة مكتبه بجوار النافذة وطلب مني أنْ أجلس على كرسيه. قال " انظر إلى ذلك المشهد! أليس رائعاً؟" نظرتُ إلى نهر هدسن فرأيتُ جسراً عظيماً يتلألأ مع الأضواء المتحركة. كنتُ أعلم كيف شعر عندما نظر إلى ذلك المشهد؛ علمتُ أنه مثّلَ بالنسبة إليه المستقبل، العالمَ الذي سيرثه أولاده. لقد كان بالنسبة إليه عالماً من الوعود. أما بالنسبة إليّ فكان عالماً أعرفه معرفة تامة، عالماً جعلني حزيناً حزناً لا نهاية له.

قلت "غريبٌ أنْ تجلبني إلى هذه النافذة. أتعلم بماذا فكّرتُ وأنا أجلس هناك ؟ فكّرتُ في نافذةٍ أخرى، في بودابست، حيث وقفتُ ذات أمسية وألقيت أول نظرة على المدينة. أنتَ تكره بودابست. واضطررتَ

إلى الهرب منها. أما بالنسبة إليّ فبدت مكاناً سحرياً. لقد وقعتُ صريع حبها في الحال. كنتُ في بيتي حينئذٍ. في الواقع، أنا أشعر كأني في بيتي في أي مكان، إلا في بلدي الأصلي. هنا أشعر بأني غريب، ولاسيما هنا في نيويورك، مسقط رأسي".

أجاب بأنه طوال حياته وهو يحلم بالمجيء إلى أميركا، إلى نيويورك بالتحديد.

سألته " وكيف وجدتها عندما ألقيتَ عليها النظرة الأولى ؟ هل كانت تشبه الصورة التي تخيّلتها بها؟ "

قال إنها كانت بالضبط كما حلمَ بها، حتى بجوانبها القبيحة. العيوب لم تزعجه: لقد كانت جزءاً من الصورة التي قبلها سلفاً.

وخطرت على بالي مدينة أوروبية أخرى - باريس. انتابني الشعور نفسه حيال باريس. بل يمكنني القول إنني أحببتُ العيوب والقبح. لقد كنتُ صريع حب باريس. ولا أعرف أي جزء من باريس أثار فيَّ النفور، اللهم إلا إذا كان القسم الرصين، الممل، البورجوازي من باسي. في نيويورك أشدّ ما يُعجبني حي الأقليات. إنه يمنحني حساً بالحياة. سكان حي الأقليات أجانب؛ وعندما أكون بينهم لا أعود في نيويورك بل وسط شعوب أوروبا. وهذا ما يُثيرني. إنني أمقت كل ما هو تقدّمي وأميركيّ في نيويورك.

أما إذا كنتُ قد شعرت بالخديعة، بخيبة الأمل..أعتقد أنَّ الجواب هو نعم. لقد كنتُ عاثر الحظ إذ تغذّيتُ على أحلام ورؤى الأميركيين العظام - الشعراء والمتنبئين. لقد انتصرَتْ سلالة أخرى من البشر. أما هذا العالم الذي في طور التكوُّن فيملأني بالرعب. لقد رأيته وهو ينبت؛

أستطيع أنْ أقرأه بسهولة. إنه ليس عالماً أرغبُ في العيش فيه. إنه عالم يُناسب المهووسين بفكرة التقدُّم – لكنه تقدُّم زائف، تقدم نتِن. إنه عالم مملوء بفوضى أشياء لا فائدة منها علَّمَ الرجالَ والنساء، بغرض استغلالهم والحطّ من قيمتهم، أنْ يعتبروه قيِّماً. والحالم صاحب الأحلام غير المفيدة لا مكان له في هذا العالم. وأي شيء لا يعرض نفسه للبيع والشراء، سواء في عالم الأشياء، أم الأفكار، أم المبادئ، أم الأحلام أم الآمال، يُضرَب حوله حظر. في هذا العالم الشاعرُ كائن بغيض، والمفكِّر أبله، والفنان هروبيّ، وصاحب الرؤى مجرم.

* * *

منذ أنْ كتبتُ ما سبق أُعلِنتْ الحرب. بعضهم يعتقدون أنَّ إعلان الحرب يُغيِّر كل شيء. ليت هذا صحيحٌ! ليتنا نستطيع أنْ نصبو إلى تغييرٍ جذري، كاسح، كامل وشامل! لكنَّ التغييرات التي تجلبها الحرب لا شيء مقارنةً باكتشافات إديسون واختراعاته. ومع ذلك، يمكن للحرب أنْ تُحدِث تغييراً، خيِّرة أو شريرة، في روح شعب ما. وهذا ما أنا مهتمٌ به بصورة حيوية – تغيير القلب، هدايته.

لدينا الآن حالة تُسمّى "حالة طوارئ وطنية". وعلى الرغم من أنَّ المُشرّعين والساسة قد يتبجّحون على هواهم، وعلى الرغم من أنَّ جماعة الصحافة قد تهذي وتنشر الهستريا، وعلى الرغم من أنَّ جماعة الجيش قد تهدد، وتتوعّد وتُشدّد على كل ما ليس على هواها، من المفترض بالمواطن الفرد، الذي تُشَن الحرب من أجله وبمساعدته، أنْ يُمسك لسانه. وبما أني لا أكنُّ أدنى قدر من الاحترام لهذا الموقف، لأنه لا يُساعد على التقدُّم في قضية الحرية، تركت دون تغيير تلك التصريحات الجديرة

بإثارة الإزعاج والغضب حتى في زمن السِلم. إنني أؤمن مع جون ستيوارت ميل بأنَّ " الأمة التي تُقزِّم رجالها، لكي يُصبحوا أدوات طيِّعة أكثر في يديها حتى من أجل أهداف مفيدة، سوف تجد أنَّه لا يمكن إنجاز شيء عظيم برجال صِغار ". كنتُ أودّ أنْ يثبت أنَّ آرائي وتخميناتي خاطئة - بظهور روح جديدة وحيوية. إذا احتاج الأمر حدوث كارثة كالحرب لإيقاظنا وتحويلنا، بشكلٍ تام وجيد، فليكن. دعونا نرى الآن إنْ كان العاطلون عن العمل سيجدون عملاً والفقراء سيُكسَون جيداً ويُطعَمون ويؤوون؛ دعونا نرى إن كان الأغنياء سيُجرَّدون من غنائمهم لكي يُعانوا حرمان المواطن العادي وآلامه؛ دعونا نرى إن كان عمال أميركا كلهم، على اختلاف طبقاتهم، ومقدرتهم وفائدتهم، يمكن إقناعهم بقبول أجرٍ موحَّد؛ دعونا نرى إنْ كان الناس سيتمكنون من الجهر برغباتهم بشكلٍ مُباشر، من دون توسُّط، وتحريف، والتصرف الأخرق للسياسيين؛ دعونا نرى إنْ كنا نستطيع أنْ نوجِد ديموقراطية حقيقية لتحل محل تلك الزائفة التي استُنهِضنا لندافع عنها؛ دعونا نرى إنْ كنا نستطيع أنْ نكون عادلين ومُنصفين مع أقراننا، ناهيك عن العدو الذي سنقهر بلا أدنى شك.

نبأ طيب! الله محبّة!

انتهيت من قراءة كتاب حول راماكريشنا من تأليف رومان رولان وأنا في فندقٍ في بيتسبرغ. بيتسبرغ وراماكريشنا - أيمكن أنْ يوجد تناقض أشد عنفاً من هذا؟ فأحدهما رمز القوة الهمجية والثراء، والآخر تجسيدٌ حيّ للمحبة والحِكمة.

فلنبدأ إذن من هنا، من قلب الكابوس، في البوتقة التي تُختَزَل فيها القيمُ كلها وتغدو خُبثاً.

أنا في غرفة صغيرة، من المفترَض أنها مُريحة، في فندقٍ حديث مُجهَّز بأحدث وسائل للراحة. السرير نظيف ووثير، والدش يعمل على أحسن ما يُرام، ومقعد المرحاض عُقِّمَ منذ رحيل النزيل الأخير، إذا صدّقتُ ما كُتِبَ على الشريط الورقي الذي يُحيط به؛ والصابون، والمناشف، والأضواء، والقرطاسية، كل شيء مزوَّد بوفرة.

أنا مُبتئس، مبتئس بصورة تعجز عن وصفها الكلمات. إذا طال مكوثي في هذه الغرفة أكثر من هذا فسوف أجنّ - أو أنتحر. إنَّ روح المكان، روح الرجال الذين جعلوا منها المدينة الشنيعة التي هي عليها، تتسرّب من خلال الجدران. الجو يعبق بجرائم القتل. ويخنقني.

قبل لحظات خرجتُ لأستنشق بعض الهواء النقي. وعدتُ إلى روسيا

القيصرية. شاهدتُ إيفان الرهيب يتبعه موكب من الوحوش البشعين. ها هم، مُدججون بالهراوات والمسدسات. يحملون نظرات رجال يطيعون بحماس، يُطلقون النار ليقتلوا أقل مصدر للاستفزاز.

لم يبدُ الوضع الراهن لي من قبل شنيعاً أكثر مما هو عليه. هذا ليس أسوأ مكان، أعلم. لكنني موجود هنا وما أراه يوجِعني.

لعله كان من حُسن الحظ أني لم أبدأ رحلتي حول أميركا ببيتسبرغ، ينغتاون، في ديترويت؛ من حسن الحظ أني لم أبدأ بزيارة بيون، بيت لحم، في سكرانتون وما شابهها. ربما ما كنتُ ذهبتُ أبعد من شيكاغو. ربما كنتُ تحولتُ إلى قنبلة بشرية وانفجرت. وبدافعٍ من غريزةٍ حكيمة من حبّ البقاء اتّجهتُ أولاً جنوباً، لاكتشاف ما يُسمّى بولايات الاتّحاد "المتخلّفة". وإذا كان الملل قد نالني في مُعظم مراحل الرحلة، فإنني عرفت خلالها السكينة. ألم أرَ المعاناة والبؤس في الجنوب أيضاً ؟ طبعاً رأيت. هناك معاناة وبؤس في كل مكان من أرجاء تلك الأرض الشاسعة. ولكن هناك أنواعاً ودرجات من المعاناة؛ أسوأها، في رأيي، النوع الذي يُقابله المرء في قلب التقدُّم.

في هذه اللحظة نحن نتحدث عن حماية بلدنا، ومؤسساتنا، وأسلوبنا في الحياة. من البديهي أنْ نُدافع عنها، سواء أتعرّضنا للغزو أم لا. ولكن هناك أشياء ينبغي عدم الدفاع عنها، يجب أنْ تُترك لتموت؛ هناك أشياء يجب أنْ ندمّرها طوعاً، بأيدينا.

دعونا نُجري تلخيصاً خيالياً. دعونا نحاول أنْ نعود بذاكرتنا إلى الأيام السالفة عندما وصل أجدادنا للمرة الأولى إلى هذه الشواطئ. أولاً، كانوا هاربين من شيء ما؛ كالمنفيين والذين هجروا أوطانهم وكان

من عادتنا أن نشوّه سمعتهم ونشتمهم، هم أيضاً تخلوا عن أوطانهم بحثاً عن شيء أقرب إلى ما ترغبه قلوبهم.

أحد الأشياء الغريبة عن أسلافنا هو أنه على الرغم من أنهم أعلنوا أنهم يبحثون عن السكينة والسعادة، عن الحرية السياسية والدينية، إلا أنهم بدؤوا بسرقة، وتسميم واغتيال، وتقريباً إبادة السلالة التي تنتمي إليها هذه القارة الشاسعة. ولاحقاً، عندما بدأتْ هجمة الذهب، فعلوا مع المكسيكيين كما كانوا قد فعلوا بالهنود الحمر. وعندما ظهرت جماعة المورمون مارسوا الأعمال الوحشية ذاتها، والتعصُّب والاضطهاد نفسهما على إخوتهم البيض.

إنني أفكر في تلك الحقائق البشعة لأنني وأنا في طريقي من بيتسبرغ إلى ينغتاون، عبر جحيمٍ يفوق أيّ شيء تخيَّله دانتي، خطرتْ لي فجأةً فكرة مفادها أنه كان يجب أنْ أصطحب معي هندياً أميركياً، ينقل إليّ بصمت أو بغيره مشاعره أو انطباعاته. وإذا أردنا التفضيل فإني كنتُ أفضّل شخصاً منحدراً من إحدى القبائل الهندية المُعتَرَف بأنها "متحضّرة". فلنقُل من قبيلة السيمينول، أمضى حياته في مستنقعات فلوريدا المتشابكة.

تصوّر أننا نحن الاثنين واقفان نتأمّل أمام العظمة الشنيعة لإحدى تلك الطواحين الفولاذية التي تنتشر على طول الخط الحديدي. أكاد أستطيع أنْ أسمع أفكاره - " إذن من أجل هذا حرمتمونا من حقّنا في المولد، وأخذتم منا عبيدنا، وأحرقتم بيوتنا، وذبحتم نساءنا وأطفالنا، وسمَّمتم أرواحنا، وخرقتم العهود كلها التي عقدتموها معنا وتركتمونا نموت في مستنقعات وأدغال إيفرغليدز؟ "

أتعتقد أنَّ من السهل دفعه إلى تبادل الأماكن مع أحد عمالنا الثابتين؟ أيّ أساليب للإقناع سوف تستخدم؟ بأي شيء مُغرٍ حقاً تستطيع الآن أنْ تعده ؟ بسيارة مُستعملة يستطيع أنْ يعمل عليها ؟ أم بكوخٍ من ألواح الخشب يستطيع، إذا كان يتسم بقدرٍ كافٍ من الجهل، أنْ يُسميه منزلاً ؟ أم بتعليم أولاده مما سينتشلهم من الرذيلة، والجهل والخرافة لكنه سيُبقيهم في العبودية ؟ أم بحياة نظيفة، صحّية وسط الفقر، والجريمة، والقذارة، والمرض والخوف ؟ وبأجور بالكاد تبقيك على قيد الحياة وغالباً لا تفعل ؟ وبجهاز راديو، وهاتف، وسينما، وصحيفة، ومجلة تافهة، وقلم حبر، وساعة يد، ومكنسة كهربائية أو أجهزة أخرى لا نهاية لها؟ أهذه هي الأشياء الرخيصة التي تجعل الحياة تستحق العيش؟ أهذا ما يجعلنا سعداء، بلا هموم، وبقلوب سمحة، متعاطفة، رقيقة، ملؤها السكينة والورع ؟ هل أصبحنا الآن أثرياء وآمنين، كما يحلم الكثيرون بحماقة أنْ يكونوا ؟ هل أي منا، حتى أشدنا ثراءً وسلطة، على يقين من أنَّ هبوب ريح غير مواتية لن تطيح بممتلكاتنا، وسلطتنا، أو بالخوف أو الاحترام اللذين يكتنفاننا ؟

هذا النشاط المسعور الذي أصبحنا جميعاً، أغنياء وفقراء، ضعفاء وأقوياء، في قبضته - إلى أين يقودنا ؟ هناك شيئان في الحياة يبدو لي أنَّ الناس جميعاً يرغبون فيهما ولا تحصل عليهما إلا القلّة القليلة (لأنَّ كليهما ينتميان إلى المجال الروحي) وهما الصحة والحرية. إنَّ الصيدلي، والطبيب، والجرّاح كلهم عاجزون عن منح الصحة؛ والمالُ، والقوة، والأمان والسلطة لا تمنحَ الحرية. والثقافة لا تزودنا أبداً بالحكمة، ولا الكنائسُ بالدين، ولا الصحةُ بالسعادة، ولا الأمان بالسكينة. فما مغزى نشاطنا إذن؟ ما غايته؟

إننا لسنا فقط جهلة، ومتطيرين، وأشراراً في سلوكنا مثل "الهمجيين الجهلة والمتعطشين للدماء" الذين جرّدناهم من ممتلكاتهم وأعدمناهم لدى وصولنا إلى هنا - بل نحن أسوأ منهم بما لا يُقارن. لقد انحللنا؛ حططنا من قيمة الحياة التي سعينا إلى تأسيسها على هذه القارة. نحن أغزر الأمم إنتاجاً في العالم، ومع ذلك عاجزون عن إطعام وإلباس وإيواء أكثر من ثلث سكانه. إنَّ مساحات شاسعة من التربة الثمينة تتحول إلى أرضٍ يباب بسبب الإهمال، واللامبالاة، والطمع والتخريب. وعلى الرغم من أنَّ أشد الحروب الأهلية دموية في تاريخ البشرية مزّقتها قبل نحو ثمانين عاماً إلا أنها حتى هذا اليوم غير قادرة على إقناع القسم المنهزم من بلدنا بعدالة قضيتنا. وغير قادرين، كمُحرّرين وعاتقين للعبيد، على منحهم حرية حقيقية ومساواة، وبدل ذلك نستعبد إخوتنا البيض ونهينهم. نعم، لقد هزم الشمالُ المُصنَّع الجنوبَ الأرستقراطي - وثمار ذلك النصر أضحت الآن جليّة. فأينما وجِدَتْ الصناعة وُجِدَ القبح، والبؤس، والاضطهاد، والكآبة واليأس. المصارف التي امتلأت خزائنها بالمال جراّء تعليمنا بورع كيف نوفّر، لكي تسلبنا مالنا الخاص، أضحت الآن تتوسل إلينا كي لا نجلب مدّخراتنا إليها، مُهدِّدَة بإلغاء حتى معدّل الفائدة السخيف الذي تدفعه الآن إذا تجاهلنا نصيحتها. إنَّ ثلاثة أرباع ذهب العالم مطمور تحت كنتكي. والمخترعات التي ستُجرِّد المزيد من الملايين من أعمالهم، بما أنَّ من مفارقات نظامنا الغريبة أنَّ كل نعمة مُحتمَلة للجنس البشري تُحوِّل إلى شر، تقبع بتكاسُل على أرفف مكتب براءات الاختراع أو أنَّ القِوى التي تتحكَّم في مصيرنا تشتريها ثم تدمّرها. والأرض، القليلة السكان وتُنتج بطريقة

متلافة، اعتباطية، فائضاً هائلاً من كل نوع، يعتبرها مالكوها، وهم مجردُ حفنةٍ من الرجال، عاجزة عن كفاية ليس فقط الملايين الجائعة في أوروبا بل حشودنا الجائعة أيضاً. والبلد الذي يُعرِّضُ نفسه للسخرية بإرسال بعثات تبشيرية إلى أبعد بقاع الأرض، لتجمع مبالغ تافهة من أناس فقراء لكي تحافظ على النشاط المسيحي لشياطين ضالين لا يمثّلون يسوع المسيح إلا بقدر ما أمثّلُ أنا البابا، ومع ذلك يعجز عبر كنائسه وبعثاته التبشيرية في أرض الوطن عن إنقاذ الضعفاء والمهزومين، والبائسين والمُضطهَدين. والمستشفيات، والمصحات العقلية، والسجون ممتلئة حتى الزُّبى. ودول، بعضها كبير كدولة أوروبية، تكاد تكون غير مأهولة، تملكها شركة غير مُدركة يصل نفوذها إلى كل مكان ولا أحد يستطيع أنْ يُحدّدها أو يُبيّنها. ورجل يجلس على كرسي وثير في نيويورك، أو شيكاغو، أو سان فرانسيسكو، رجل مُحاط بوسائل الرفاهية كلّها ومع ذلك مشلول من فرط الخوف والقلق، يتحكّم بحياة ومصائر آلاف من رجالٍ ونساء لم يرهم مرة في حياته، ولم يرغب قط في أنْ يراهم وليس لديه أي اهتمام بقَدَرهم.

هذا هو ما يُسمّى بالتقدُّم في عام ١٩٤١ في هذه الولايات المتحدة الأميركية. وبما أني لستُ من أصل هنديّ، أو زنجي أو مكسيكيّ فإني لا أستمدّ أي متعة انتقامية من رسم هذه الصورة لحضارة الإنسان الأبيض. أنا سليل رجلَين هربا من أرض الوطن لأنهما لم يرغبا في أنْ يُصبحا جنديين. أسلافي، ويا للمفارقة، لن يعود في استطاعتهم أنْ يهربوا من أداء هذا الواجب: لقد تحوّلَ كامل العالم الأبيض أخيراً إلى معسكر مُسلّح.

حسن، كما كنتُ أقول، كنتُ مُترعاً براماكريشنا لدى مغادرتي بيتسبرغ. راماكريشنا الذي لم ينتقد أبداً، ولم يعظ أبداً، الذي قبل الأديان كلها، وقال إنَّ الله موجود في كل مكان وفي كل شيء: أعتقد أنه أشد الكائنات نشوة قاطبة. ثم وصلنا كوراوبوليس، وأليكويبا، وامبَم. ثم نايلز، مسقط رأس الرئيس ماكنلي، ووارن، مسقط رأس كينيث بيتشن. ثم ينغستاون وفتاتان تهبطان الجرف المجاور لخط الحديد وسط أجمل منظر طبيعي وقعت عليه عيناي منذ أن غادرت جزيرة كريت. وفي الحال عدتُ إلى تلك الجزيرة الإغريقية العتيقة، ورأيتني أقف على حافة حشد من الناس في ضواحي هيراكليون على بُعد بضعة أميال من كنوسوس[١٣]. ليست هناك سكة حديد في الجزيرة ووسائل المحافظة على الصحة رديئة، والتراب متراكم، والذباب في كل مكان، والطعام كريه - لكنه مكان رائع، إنه أحد أروع الأماكن في العالم كله. وكما في ينغستاون بجوار محطة القطار يوجد جرف عال هنا وفلاحة إغريقية تهبط ببطء، حاملة سلة على رأسها، حافية القدمين، وقامة جسمها معتدلة. ***إلى هنا وينتهي الشَبَه...***

كما يعلم الجميع، لقد أعطت ولاية أوهايو من رؤساء الجمهورية أكثر مما فعلت أية ولاية أخرى في الاتحاد. رؤساء جمهورية أمثال ماكنلي، وهيز، وغارفيلد، وغرانت، وهاردنغ - رجال ضعفاء، معدومو الشخصية. وأعطتنا أيضاً كُتّاباً مثل شروود أندرسُن وكينيث باتشن[١٤]، واحدٌ يبحث عن الشعر في كل مكان والآخر جرفه الشرُّ والقبح السائدان في كل مكان إلى الجَنون.. واحد يجوب الشوارع ليلاً وحيداً ويُخبرنا عن الحياة المتخيَّلة التي تجري خلف الأبواب المُغلقة؛ والآخر مُبتلٍ بالألم

الشديد والحزن بسبب ما يرى إلى درجة أنه يُعيد خلق الكون بوساطة الدم والدموع، ويقلبه رأساً على عقب ويطأه امتعاضاً واحتقاراً. أنا سعيد لأنه أُتيحت لي الفرصة لمشاهدة تلك البلدات في ولاية أوهايو، ونهر ماهونينغ هذا الذي يبدو وكأنَّ السُمّ الزعاف للإنسانية كلها صُبَّ فيه، على الرغم من أنه لا يحتوي في الواقع من الشر أكثر مما في المواد الكيميائية والنفايات التي تطرحها المعامل والمصانع. أنا سعيد لأنه أُتيحت لي الفرصة لأشاهد لون الأرض هنا في فصل الشتاء، ليس لون الشيخوخة والموت بل لون المرض والحزن. وسعيدٌ لأنَّ عينيَّ تكحّلتا بمرأى الضفتين اللتين تُشبهان جلد وحيد القرن وترتفعان عن حافة النهر وتعكسان على الضوء الشاحب بعد ظهيرة يوم شتائي جنونَ كوكبٍ كُرِّسَ للمنافسة والكراهية. وسعيدٌ لأني ألقيتُ نظرة على تلك الأكوام من الخَبَث التي تبدو أشبه بتجمُّع لبراز وحش مريض من ما قبل التاريخ مرَّ من هناك أثناء الليل. إنه يُساعدني على فهم الشِعر السوداوي والشنيع الذي يُقطّره الرجل الأصغر سناً لكي يُحافظ على سلامة عقله؛ ويُساعدني على فهم السبب الذي جعل الكاتب الأكبر سناً يتظاهر بالجنون لكي يهرب من السجن الذي وجد نفسه داخله عندما كان يعمل في مصنع الدهانات. ويُساعدني على فهم كيف يستطيع الازدهار الذي عمَّ متن هذه الحياة أنْ يجعل من أوهايو أمّ رؤساء الجمهورية ومُضطهدة العباقرة.

إنَّ أشد المشاهد بثاً للحزن هو السيارات المتوقفة خارج المعامل والمصانع. مشهد السيارات يبرز جلياً في ذاكرتي بوصفها رمزاً للزيف والوهم. ها هي، آلاف وآلاف منها، وافرة إلى درجة أنه يبدو كأنّه لا

يوجد إنسان فقير إلى درجةِ ألا يمتلك واحدة. في أوروبا، في آسيا، في إفريقيا ترنو الجماهير الكادحة من الإنسانية بعيون رقيقة إلى تلك الجنَة التي يستطيع فيها العامل أنْ يركب سيارته الخاصة ويذهب إلى مركز عمله. ويقولون في أنفسهم، ما أروعه من عالم من الفرص المتاحة. (على الأقلّ نحب أنْ نعتقد أنهم يفكرون هكذا!) إنهم لا يسألون أبداً ماذا على المرء أنْ يفعل لكي يحصل على تلك السعادة العظمى. ولا يُدركون أنه عندما يترجل العامل الأميركي من عربته من القصدير اللامع يهبُ نفسه جسداً وروحاً لأشدّ أنواع الكدّ الذي يمكن لإنسان أنْ يُمارس إفساداً. إنهم لا يعرفون أبداً أنَّ من الممكن، حتى عندما يعمل الواحد منهم في أفضل الظروف الممكنة، أنْ يخسر حقوقه كلها ككائن بشري. إنهم لا يعلمون أنَّ أفضل الظروف قاطبة (باللغة الأميركية الصريحة) يعني أكبر الأرباح لرئيس العمل، وبذل أقصى خدمة من جانب العامل، والفوضى العارمة والوهم للجماهير عموماً. إنهم يرون سيارةً جميلة، برّاقة تمرّ بهم مسرعة كقطة؛ يرون طرقاً من الإسمنت لا نهاية لها سلسة ولا عيب فيها حتى إنَّ السائق يجد صعوبة في البقاء يقظاً؛ ويرون دوراً للسينما تبدو كالقصور؛ ويرون مخازن تنويعية تضم عارضات أزياء يرتدين كالأميرات. إنهم يرون التلألؤ والدهان، والحلي الرخيصة، والأدوات الغريبة، ووسائل الرفاهية؛ ولا يرون المرارة في القلب، ونزعة الشك، والسخرية، والخواء، والعقم، واليأس، وانعدام الأمل الذي ينهش العامل الأميركي. إنهم لا يُريدون أنْ يروا هذا - لأنهم ممتلئون بالبؤس. إنهم يبحثون عن مخرج: يريدون وسائل الراحة القاتلة، والظروف الملائمة، وأنواع الرفاهية. ويتبعون خُطانا - بلا وعي، وبلا هُدى، وبتهورٌ.

طبعاً ليس العمال الأميركيون كلهم يذهبون إلى عملهم راكبين سياراتهم الخاصة. في بوفورت، كارولاينا الجنوبية، قبل بضعة أسابيع رأيتُ رجلاً على عربة بدولابين يجرّ كلب بولدوغ في الشارع العام. كان رجلاً أسود، في الواقع، ولكن فهمت من النظرة المرسومة على وجهه أنه أفضل حالاً بكثير من الفقير المسكين في معمل الفولاذ الذي يقود سيارته الخاصة. وفي ولاية تنيسي شاهدتُ رجالاً بيضاً يكدحون كحيوانات تحمل الأثقال؛ شاهدتهم يُكافحون بيأس لينتزعوا رزقهم من تربة ضحلة على سفوح الجبال. شاهدتُ الأكواخ التي يعيشون فيها وتساءلتُ إنْ كان من الممكن جمع أشياء بدائية أكثر من هذه. ولكن لا أستطيع أنْ أقول إني شعرتُ بالأسى عليهم. كلا، إنهم ليسوا من النوع الذي يُثير الشفقة من الناس. على العكس، إنهم يُثيرون الإعجاب. وإذا كانوا يُمثّلون شعب أميركا "المتخلّف" فنحن في حاجة إلى المزيد من الشعب المتخلّف. وفي قطارٍ نفقي في نيويورك تستطيع أنْ ترى النمط الآخر، المدمن على قراءة الصحف، الذي يجد متعةً بالغة في الخوض في النظريات الاجتماعية والسياسية ويعيش حياة كدح، يمدح نفسه بحماقة لأنه لا يعمل بيديه (ولا حتى بذهنه) إنه أفضل حالاً من حثالة الجنوب من الفقراء البيض.

هاتان الفتاتان في ينغستاون الهابطتان على المنحدر الزلق - كان مشهدهما أشبه بكابوس، أؤكد لك. لكننا ننظر إلى هذه الكوابيس باستمرار بعيون مفتوحة وعندما نسمع أحدهم يُعلّق على هذا نقول "نعم، هذا صحيح، هكذا هو الأمر!" ثم نستأنف عملنا أو نصبح مدمنين، الإدمان الأسوأ على المدى الطويل من الأفيون أو الحشيش - أعني

الصحف، والراديو، والسينما. والإدمان الحقيقي يمنحك الحرية على أنْ تحلم أحلامك الخاصة؛ والنوع الأميركي يُجبرك على ابتلاع الأحلام المنحرفة لرجال طموحهم الوحيد الاحتفاظ بعملهم بغض النظر عمّا يؤمروا بفعله.

إنَّ الشيء الرهيب في أميركا هو أنه لا مهرب من الروتين الذي أوجدناه بأنفسنا. لا يوجد بطل واحد شجاع في قول الحقيقة في عالم النشر، ولا شركة إنتاج أفلام واحدة مُكرّسة للفن بدل الأرباح. وليس لدينا مسرح يستأهل اسمه، وما لدينا من مسرح متمركز عملياً في مدينة واحدة؛ وليست لدينا موسيقى تستحق الذكر ما عدا ما أعطانا إياه الزنوج، ومجرد حفنة صغيرة من الكُتّاب نستطيع أنْ نصفهم بالمبدعين. لدينا جداريات تزيِّن أبنيتنا العامة تعادل في مستواها تقريباً تطور التذوُّق الجمالي لدى طلاب المرحلة الثانوية، وأحياناً أقل من هذا المستوى في مجال التصوُّر والتنفيذ. لدينا متاحف فنية مزدحمة بحثالة بلا حياة في مُعظمها. لدينا نُصُب حربية في ساحاتنا العامة جديرة بأنْ تجعل الأموات الذين أُقيمت بأسمائهم يتململون في قبورهم. ولدينا ذوق في الهندسة المعمارية يقترب من نقطة العدم بحيث يستحيل تنفيذه عملياً. وعلى امتداد الأميال العشرة آلاف التي قطعتها في سفري حتى الآن مررت بمدينتين تحتوي كل منهما مقطعاً صغيراً يستحق إلقاء نظرة ثانية عليه – أعني بقولي تشارلستن ونيوأورلينز. أما المدن الأخرى، والبلدات والقرى التي مررت بها فآمل ألا أراها مرة أخرى. بعضها يحمل أسماء رائعة، أيضاً، تجعل الخداع أقسى. أسماء مثل تشاتانوغا، بنساكولا، تالاهاسا، ومانتوا، وفيبوس، وبيت لحم، وباولي، والجزائر، وموبايل، وماتشيز، وسافانا، وباتون روج، وساغيناو، بوكيبسي: أسماء

تُحـيي ذكـريات رائعـة من الماضي أو توقظ أحـلامـاً بـالمسـتـقـبل. قُم بزيارتـهـا، أنا أحـثّك. شـاهدها بنفـسك. حـاولْ أنْ تفكّرٍ فـي شـوبرت أو شكسبـير وأنتَ في فـيـبوس، ولاية فـرجـينيـا. حاول أنْ تفكر فـي شمـال إفـريقـيا وأنت في بلدة الجزائر، ولاية لـويزيانا. حـاول أنْ تفكّر في الحيـاة التي كـان الهنـود يعيشـونها ذات يوم هنا وأنتَ عـلى ضِفـاف بحيـرة، أو على قمة جبل أو ضفة نهر تحمل أسماءَ استعرنـاها منهم. حاول أنْ تفكّر في أحلام الإسـبان وهم يسيـرون على طريق الإسبـان القـدمـاء. امشِ في أرجاء الحي الفـرنسي القـديم في نيـوأورلـينز وحـاول أنْ تُعـيـد بنـاء الحيـاة التي عـرفـتـهـا هذه المدينة ذات يـوم. لقد انصرم أقلّ من مئـة عـام منذ أنْ انطفـأ بريق درّة أمـيـركـا هذه، وتبـدو كـأنـهـا ألف عـام. إنَّ كل مـا كـان ينطوي على جـمـال أو أهمـيـة أو وعـد دُمِّـرَ ودُفِنَ تحت جلمـود التـقـدم الزائف. وخلال ألف عـام مـن الحرب المتـواصلة تقـريبـاً لـم تفـقـد أوروبا مـا فـقدناه نحن في غـضـون مئـة عـام من "السـلام والتقدُّم". لـيس الأجنبي هو الذي دمّـر الجنـوب. ولا المخـربون البـرابرة عــاثـوا فــسـاداً فـي الأراضي الشـاسعـة العـقـيمـة والشـنيـعـة كـسطح القـمـر الميت. نحن لا نسـتطيع أنْ ننسب إلى الهنود تحـوُّل جـزيرة هادئة، وهاجـعـة مثل مـانهـاتن إلى أشـد المدن قُبـحـاً في العـالم. ولا نسـتطيـع أنْ نضـع اللوم فـي انهـيـار نظامنا الاقـتصادي على حشـود المهـاجرين المسالمين، والمُجدّين الذين لم نعد نرغب في وجـودهم. كـلا، قـد تـضـع الدول الأوروبيـة اللوم إحداها على الأخـرى على بؤسـهـا، ولكـن نحن لـيـس لدينـا مـثـل هذا العــذر - لـيـس لدينـا إلا أنفسنا لنلومها.

قبل أقلّ من مئتي عام بدأتْ تجربة اجتماعية عظمى على أرض هذه

القـارة العـذراء. فـالهنود الذين جـرّدناهم من ممتلكاتهم، وأهلكناهم وحططناهم إلى مرتبة المنبوذين، كما فعل الأريانيون مع الدرافيديين في الهند، كانوا يبجّلون الأرض. فالغابات كانت سليمة، والتربة غنية وخصبة. وقد عاشوا في تناغم مع الطبيعة حياةً اخترنا نحن أنْ نُسمّيها حياة منخفضة المستوى. وعلى الرغم من أنهم لم تكن لديهم لغة مكتوبة كانوا شاعريين حتى اللب ومتدينّين بعمق. ثم جاء أجدادنا، باحثين عن ملجأ فراراً من مُضطهديهم، وبدؤوا بتسميم الهنود بالكحول والمرض التناسلي، عبر اغتصاب نساءهم وقتل أطفالهم. واحتقروا حكمة الحياة التي كان يمتلكها الهنود وشوّهوها. وبعد أنْ أنهوا عملهم أخيراً في الغزو والإبادة ساقوا البقية البائسة من سلالة عظيمة إلى معسكرات اعتقال واستمروا في تحطيم ما تبقى من روحهم.

مؤخراً تصادفَ أني مررتُ بمنطقة صغيرة مخصصة لهنود الشيروكي في جبال كارولاينا الشمالية. والفرق بين هذا العالم وعالمنا يكاد لا يُصدَّق. فمنطقة الهنود الصغيرة كانت جنّة حقيقية. تسودها سكينة وصمت عظيمَان، مما يُعطي المرء الانطباع بأنه قد وصل أخيراً إلى أرض الصيد السعيدة التي يذهب إليها الهندي الشجاع إبّان موته. ولم أكن في رحلتي حتى ذلك الحين قد صادفت إلا مجتمعاً واحداً آخر يُشبه هذا المناخ، وكان ذلك في مقاطعة لانكستر، ولاية بنسلفينيا، وسط شعب أميش. هنا توجد مجموعة صغيرة متدينة، متمسكة بعناد بأساليب أسلافهم في السلوك، والملبس، والمعتقدات والتقاليد، حولّتْ الأرض إلى حديقة حقيقية من السكينة والوفرة. ويُقال أنه منذ أنْ استقروا هنا لم يعرفوا أي موسم حصاد فاشل. إنهم يعيشون حياة مناقضة تماما لحياة

الغالبية العظمى من الشعب الأميركي - والنتيجة جلية بصورة صاعقة. وعلى مسافة بضعة أميال فقط توجد بؤر الجحيم في أميركا حيث يرفرفُ العلم الأميركي بوقاحة وسخرية مُهينة من فوق الأسطح والمداخن، وكأنما ليُثبت للعالم أنه لا يُسمح لأية أفكار أو نظريات أو أيديولوجيات غريبة بأنْ تطأ هذه الأرض. وكم تبدو مؤسفة تلك الأعلام التي ينشرها مالكو تلك المباني العدائيون، المتعصبون! حتى إنكَ لتعتقد أنَّ تلك النزعة الوطنية المتّقدة لا تتلاءم مع نشر رموزٍ ممزقة، ومسودّة أكل الزمن عليها وشرب. وقد تعتقد أنهم من الأرباح الضخمة التي يجمعونها سوف يضعون جانباً مبلغاً كافياً لشراء شعار برّاق، جديد، لامع يمثّل الحرية. ولكن كلا، في العالم الصناعي كل شيء يُلوَّث، يُحطّ، ويُشوَّه. وقد استفحل الأمر هذه الأيام إلى درجة أنكَ عندما تشاهد علماً منشوراً بجرأة وافتخار فإنّك تشمُّ رائحة جرذ في مكان ما. لقد أضحى العلم عباءة تُخفي تحتها الظلم. إنَّ لدينا دائماً علَمَين أميركيين: واحد للأغنياء وواحد للفقراء. عندما ينشره الأغنياء فهذا يعني أنَّ كل شيء تحت السيطرة؛ وعندما ينشره الفقراء فإنه يعني الخطر، والثورة، والفوضى. وفي غضون أقلّ من مئتي عام غيَّرتْ أرض الحرية، وطن الأحرار، وملجأ المُضطَهَدين، معنى النجوم والأشرطة إلى درجة أنَّه اليوم عندما ينجح رجلٌ أو امرأةٌ في الفرار من فظائع أوروبا، عندما يقفُ أخيراً أمام حاجز المكوس تحت رمزنا الوطني المجيد، فإنَّ أول سؤال يُطرَح عليه هو: "كم معك من نقود؟"، فإذا لم يكن في حوزتك نقود بل فقط حب الحرية، فقط صلاة الرحمة على شفتيك، فإنكَ تُمنع من الدخول، وتعود إلى المشرحة، منبوذاً كمجذوم. هذه هي الصورة الكاريكاتيرية

المريرة التي صنع منها المنحدرون من أسلافنا مُحبّي الحرية الرمزَ الوطني.

إنَّ كل شيء كاريكاتيريٌ هنا. استقللت الطائرة لأزور والدي على فراش الموت، وبينما نحن فوق بين السحب، وسط عاصفة عاتية، وصل إلى سمعي حديث رجلَين خلفي يتناقشان حول الطريقة التي يجب اتّباعها للفوز بصفقة كبيرة، والصفقة الكبيرة تتعلق بصناديق ورقية، ولا أقلّ. والمضيفة التي تدرَّبت على أنْ تتصرف كأمّ، وكممرضة، وسيدة محترمة، وطبّاخة، وكادحة، وألا تبدو غير مُرتّبة، وألا تُفسد عقصة الشَعر، ولا تُبدي أية دلالة على التعب أو الإحباط أو الحزن أو الوحدة، المضيفة تضعُ يدها ذات بياض الزنبق على جبين أحد بائعي صناديق الورق وبصوت ملاك حارس تقول "هل تشعر بالتعب هذا المساء؟ هل تشعر بصداع ؟ هل ترغب في تناول قرص أسبرين؟". نحن فوق بين السحب وهي تقوم بعرضها كحيوان فقمة مُدرَّب. وعندما تمايلت الطائرة فجأةً وقعت وكشفت عن فخذين مُغريين. البائعان يتحدثان الآن عن الأزرار، من أين يمكن الحصول عليها بسعر رخيص، وكيف يبيعانها بسعر مرتفع. ورجل آخر، صاحب مصرف مرهق، يقرأ أخبار الحرب. ثمة إضراب واسع النطاق يجري في مكان ما - في الواقع، العديد منها. نحن بصدد بناء أسطول من السفن التجارية لكي نساعد إنكلترا - ***في شهر كانون أول القادم***. العاصفة تحتدم. الفتاة تسقط من جديد - البقع السوداء والزرقاء تغطيها. لكنها تنهض وهي تبتسم، وتوزع القهوة والعلكة، وتضع يدها ذات بياض الزنبق على جبين شخص آخر، وتسأله إنْ كان يشعر بشيء من الضجر، أو بقليل من التعب ربما. وأسألها إنْ كانت تحب عملها، فتجيب "إنه أفضل من عمل الممرضة المُدرَّبة". البائعان يستعرضان

مواصفاتها، وكأنها سلعة استهلاكية. إنهما يشتريان ويبيعان، يشتريان ويبيعان. ولهذا كان ينبغي أنْ يحصلا على أفضل الغرف في أفضل الفنادق، على أسرع الطائرات وأشدّها راحة، وعلى أسمك المعاطف وأشدها تدفئة، وعلى أضخم المحافظ، وأكبرها. نحن في حاجة إلى صناديقهما الورقية، وأزرارهما، وفرائهما الاصطناعي، وبضائعهما المصنوعة من المطاط، وإلى ملابسهما المحبوكة، وهذا الشيء وذاك البلاستيكي. نحن في حاجة إلى صاحب المصرف، إلى عبقريته في أخذ أموالنا ليُصبح هو أشد ثراءً. ونحتاج إلى موظف التأمين، إلى سياساته، وإلى حديثه عن الأمان، والأرباح - إننا في حاجة إليه أيضاً، ***أحقاً نحتاجه*** ؟ لا أعتقد أننا في حاجة إلى أي من هؤلاء الصقور. لا أعتقد أننا في حاجة إلى هذه المدن، إلى بؤر الجحيم تلك التي زرتها. لا أعتقد أننا في حاجة حتى إلى أسطول عابر للمحيطين. لقد كنتُ في ديترويت قبل بضع ليال. وشاهدتُ سفينة مانرهايم الحربية في السينما. رأيت كيف دمّرها الروس. أنا تعلّمتُ الدرس. ***فهل تعلمته أنت*** ؟ قُل لي ما الذي يستطيع إنسان أنْ يبنيه، لكي يحتمي به، ولا يستطيع إنسان آخر أنْ يُدمّره ؟ ما الذي نحاول أنْ نحميه؟ فقط ما هو قديم، وعديم الفائدة، وميت، ولا يمكن الدفاع عنه. إنَّ كل وسيلة دفاع تحرِّض على الاعتداء. فلِمَ لا نستسلم ؟ لِمَ لا نعطي - نعطي كل شيء ؟ إنها خطوة عملية لعينة، وفعّالة وتنزع السلاح بصورة شاملة. ها نحن الآن، شعب الولايات المتحدة: أعظم شعوب الأرض، أو هكذا نعتقد. لدينا كل شيء - كل ما يلزم لجعل شعب ما سعيداً. لدينا الأرض، والمياه، والسماء وكل ما يتماشى معها. كان في استطاعتنا أنْ نصبح أعظم قدوة مُشعّة

في العالم؛ كان في استطاعتنا أنْ نشع سلاماً، وفرحاً، وقوة، وإحساناً. لكنَّ الأشباح منتشرة في كل مكان، أشباح يبدو أننا نعجز عن الإمساك بها. نحن لسنا سعداء، لسنا راضين، لسنا مُشعّين، ولا نخلو من خوف. إننا نحقق المعجزات ونجلس في السماء نتناول الأسبرين ونتحدث عن الصناديق الورقية. وعلى الطرف المقابل من المحيط يجلسون في السماء يُنزِلون الموت والدمار دون تمييز. إننا لا نفعل هذا الآن، ***حتى الآن***، لكننا متورطون في الإمداد بما يُسمّى أدوات التدمير. أحياناً، في غمرة جشعنا، نمدّها للجانب الخطأ. ولكن هذا لا شيء - فكل شيء سوف يخرج إلى العراء في نهاية المطاف. في نهاية المطاف سوف نكون قد ساعدنا على محو أو إنهاك جزء كبير من الجنس البشري - ليس الهمجيين هذه المرة، بل "البرابرة" المتحضرين. باختصار، رجال مثلنا، ما عدا أنهم يحملون وجهات نظر مختلفة عن الكون، أو مبادئ أيديولوجية مختلفة، كما نقول. طبعاً، إذا لم ندمّرهم، سوف يدمّروننا. هذا كلام منطقي - لا جِدال في ذلك. إنه منطق سياسي، وهذا ما نعيش ونموت من أجله. حالة مزدهرة. إنها مُثيرة، ألا تعلم. "إننا نعيش أوقات حماسية". ألستَ سعيداً بهذا ؟ إنَّ العالم يتغيَّر بسرعة وهذا هو الأمر كله - أليس هذا رائعاً؟ فكِّر كيف كان الوضع قبل مئة عام. إنَّ الزمن يسير قُدُماً...

عبقري كنتُ أعرفه يُفضِّل أنْ يُستثنى من محنة القتل دون تمييز التي يُعدّونها له. إنه ليس مهتماً بإصلاح العالم، وليس مهتماً بتدوين أفكاره على الورق. ولكن لديه مجموعة جيدة من الأسنان، وليست قدماه مُسطّحتين، وقلبه ورئتاه سليمة، وليس مُصاباً باضطرابات

عصبية. إنه في تمام صحته وعبقريّ حتى أخمص قدميه. ولا يتكلم عن الصناديق الورقية أو الأزرار أو الأدوات العصرية. إنه يتحدث عن الشِعر، وعن الله. لكنه لا ينتمي إلى إحدى الطوائف الدينية ولذلك هو غيرُ مؤهَّل ليكون مُعارِضاً حيّ الضمير. والجواب هو أنه يجب أنْ يستعد لكي يُنقَل إلى الجبهة. يجب أنْ يُدافع عن مبادئنا الأيديولوجية. إنَّ صاحب المصرف عجوز جداً ولا نفع له في الخدمة، وإنّ البائعين اللذَين كنتُ أتحدث عنهما بارعان أكثر مما ينبغي؛ لذلك على العبقري أنْ يقدم خدماته، وإنْ كان يعلم الله، بما أنه ليس لدينا إلا القليل منهم، أنكَ قد تعتقد أنَّ في وسعنا أنْ نُعفي شخصاً بين حينٍ وآخر.

آمل أنْ يكون والت ديزني مُستثنى، لأنه القادر، على الرغم من أني أشكّ في أنه يُدرك هذا، على توضيح ما أقول بالرسوم. في الحقيقة، إنه يفعل ذلك طوال الوقت، دون أنْ يعي. إنه سيد الكابوس. إنه غوستاف دوريه[15] عالم شركة هنري فورد وشركاه. وما سفينة مانرهايم الحربية إلا خدش على السطح. صحيح أنَّ درجة الحرارة كانت غير عادية – نحو أربعين درجة تحت الصفر في المتوسط. (مذهلٌ كيف يمكن تدريب الرجال على القتل في ظروف الطقس كلها. إنَّ ذكاءهم لا يقلّ عن ذكاء الجياد) ولكن كما كنتُ أقول، إنَّ ديزني لديه درجات الحرارة المتنوعة – درجة حرارة تناسب كل رعب جديد. إنه ليس مُضطراً إلى التفكير: الصحف دائماً في المتناوَل. طبعاً هم ليسوا رجالاً ونساء حقيقيين. أوه كلا! إنهم حقيقيون أكثر من الرجال والنساء الحقيقيين: إنهم من نسج الأحلام. يُخبروننا عن شكلنا تحت غطاء اللحم. إنه عالم فاتن، ما رأيك ؟ إنه الحقيقة، عندما تفكر فيه، فاتن أكثر من فطائر دالي[16] المتنفخة

بالكريما. إنَّ دالي يُفرط في التفكير. ثم إنه ليس لديه إلا يدان. أما ديزني فكان لديه مليون يد. وإلى جانب اليدين لديه أصوات - عواء الضبع، ونهيق الحمار، وزئير الديناصور. الفيلم السوفييتي، على سبيل المثال، مُرعب بقدرٍ كافٍ، لكنه بطيء، مُضجِر، مُزعج وصعب الاستيعاب. في الحياة الواقعية يستغرق تدمير المعاقل الصغيرة الإسمنتية كلها، وقطع الأسلاك الشائكة كلها، وقتل أولئك الجنود كلهم، وإحراق تلك القُرى كلها، وقتاً. إنه عمل بطيء. ديزني يعمل بإيقاع أسرع - كبرقٍ مُشحَّم. هكذا سنعمل كلنا قريباً. سوف نُصبح كما نحلم. قريباً سوف نبرع في ذلك. سوف نتعلَّم كيف ندمِّر الكوكب برمّته في غمضة عين - فقط انتظر وسوف ترى.

عاصمة الكوكب الجديد - أعني، تلك التي سوف تنتحر - هي طبعاً ديترويت. لقد أدركتُ هذا حالما وصلت. في أول الأمر حسبت أني سأذهب لأقابل هنري فورد[١٧]، وأهنِّئه. ولكني أعدتُ التفكير وقلت - ما الفائدة ؟ لن يعرف عمّا أتكلم. ولا حتى السيد كاميرون في الغالب. كم كانت ممتعة الساعة المسائية التي أمضيتها مع فورد! وكلما أسمعها تدق أتذكّر سيلين - فرديناند، كما يُسمّي نفسه بحب. نعم، أفكّر في سيلين وهو واقف خارج بوابة المصنع (أعتقد، الصفحات ٢٢٢ - ٢٢٥، من رواية " ***رحلة إلى آخر الليل*** "). هل سيحصل على عمل ؟ طبعاً سيفعل. سيحصل عليه. إنه يمرّ بالتجربة الأولى في حياته - تجربة تعريض نفسه للسخرية. وهناك يغني أغنية رائعة على مدى بضع صفحات عن الآلة، عن النِعَم التي تفيض بها على الإنسانية. ثم يُقابل مولي. ومولي مجرد عاهرة. سوف تجد عاهرة أخرى اسمها مولي في رواية "***يوليسيس***"،

ولكن مولي عاهرة ديترويت أفضل منها بكثير. مولي لديها روح. مولي هي حليب الجنس البشري. وسيلين يُقدم الثناء لها في نهاية الفصل الأول. وهذا شيء مُلفِت لأنَّ الشخصيات الأخرى كلها يتم التخلُّص منها بطريقة أو بأخرى. مولي ناصعة البياض. ومولي، صدِّق أو لا تصدِّق، تبدو أكبر وأشدّ رهبة من مشروع فورد الضخم. نعم، هذا هو الجميل والمُدهِش في الفصل الذي كتبه سيلين عن ديترويت - أنه يجعل جسد عاهرة ينتصر على روح الآلة. وإذا ذهبتَ إلى ديترويت لن يخطر في بالك أبداً أنَّ لها روحاً. فكل شيء جديد، ومصقول، وبرّاق، وبلا رحمة بصورة مُبالغ فيها. الأرواح لا تنشأ في المصانع. الأرواح تُقتَل في المصانع - حتى الشحيح منها. يمكن لديترويت أنْ تفعل للإنسان الأبيض في أسبوع ما يمكن للجنوب أنْ يفعله في مئة عام للزنجي. لهذا أحب ساعة فورد المسائية - إنها مُريحة جداً، ومُلهِمة جداً.

طبعاً ديترويت ليست المكان الأسوأ - ليس على المدى الطويل. هذا ما قلتُ عن بيتسبرغ. هذا ما سأقول عن أماكن أخرى أيضاً. وليس أي منها هو الأسوأ. ليس هناك مكان أسوأ أو الأسوأ. السيئ ما زال في طور الصيرورة. إنه في داخلنا الآن، لكننا لم نُخرِجه. ديزني يحلم به - ويتلقّى نقوداً في مقابل ذلك، وهذا هو الأمر الغريب. الناس يجلبون أطفالهم ليتفرجوا ويصرخوا وهم يضحكون. (بعد ذلك بعشر سنوات يتصادفُ بين حين وآخر أنْ يفشلوا في تمييز الوحش الصغير الذي يُصفّق بيديه بمرح ويصرخ طرباً. إنَّ من الصعب دائماً تصديق أنَّ جاك السفّاح يمكن أنْ يخرج من صُلبك) ومع ذلك... الجو بارد في ديترويت. ثمة ريح زمهرير تهب. ولحسن الحظ لستُ أحد أولئك الذين بلا عمل، بلا طعام،

وبلا مـأوى. إنني أتوقف في سـينمـا ديتـرويتـر المرحـة، قـبلة البـاعـة العـبثـيين. هناك محل خردوات أنيق في البهـو. الباعـة يحبون القمصان الحريرية. أحياناً يشترون أيضاً ملابس داخلية نسائية صغيرة وظريفة - من أجل ملائكة الرحمة في الطائرات. يشترون أي شيء وكل شيء - فقط يظل المال في التداول. ورجال ديترويت الذي تُرِكوا خارجاً في البرد يتجمَّدون حتى الموت وهم بملابس داخلية صوفيّة. درجة الحرارة في فصل الشتاء شبه استوائية بصورة واضحة. والأبنية مستقيمة وقاسية. والريح أشبه بسكين ذات حدّين. وإذا كنتَ محظوظاً يمكنك أنْ تلجأ إلى حيث الدفء وتشاهد سفينةماينرهايم الحربية. مشهد مُبهج. انظر كيف تستطيع المبادئ الأيديولوجية أنْ تنتصر على الرغم من درجات الحرارة الأدنى من العادية. انظر إلى الرجال بمعاطفهم البيضاء يزحفون خلال الثلوج على بطونهم؛ إنهم يحملون مقصّات بأيديهم، مقصّات كبيرة، وعندما يبلغون السلك الشائك يقطعون، ويقطعون، ويقطعون. وبين حينٍ وآخر يُصابون بطلقٍ ناري وهم يفعلون ذلك - لكنهم حينئذٍ يُصبحون أبطالاً - ثم هناك دائماً آخرون ليحلّوا محلهم، وكلهم مزوّد بالمقصات. شيء مُثقِّف جداً، مفيد جداً. بل يجب أنْ أقول، يشدّ العزم. وفي الخارج، في شوارع ديترويت، الريح تزأر والناس يتراكضون طلباً للملجأ. لكنَّ الجو في دار السينما دافئ وأليف. وبعد العرض أشرب كوباً دافئاً ولذيذاً من الشوكولاة في بهو الفندق. ثمة رجال يتحدثون عن الأزرار ويمضغون العلكة هناك. ليسوا رجال الطائرة أنفسهم - بل غيرهم. دائماً تجدهم حيث الدفء والراحة. دائماً يشترون ويبيعون. وطبعاً بجيوب مملوءة بالسيجار. في ديترويت كل شيء ينقُل. طلبات هيئة الدفاع، كما تعلم.

أخبرني سائق سيارة الأجرة أنه يتوقع أنْ يستعيد عمله قريباً. أعني، في المصنع. لا أستطيع أنْ أتصور ماذا سيحدث إذا توقفت الحرب فجأة. سوف تتحطم قلوب كثيرة. قد تحدث أزمة أخرى. لن يعلم الناس ماذا يفعلون بأنفسهم إذا ما أُعلن السلام فجأة. سوف يُصبح الجميع عاطلين عن العمل. وتتشكّل طوابير شراء الخبز. غريبٌ كيف نستطيع أنْ نُطعِم العالم ولا نتعلّم كيف نُطعِم أنفسنا.

أذكُر عندما أصبح الاتصال اللاسلكي مُتاحاً كيف فكَّر الجميع - ما أروع هذا! الآن سوف نتواصل مع العالم أجمع! ثم التلفزيون - ما أروعه! الآن سوف نتمكن من مشاهدة ما يجري في الصين، وفي إفريقيا، وفي أنأى بقاع العالم! كنتُ أعتقد أنني سوف أمتلك ذات يوم جهازي الصغير الخاص الذي بإدارة المفتاح سوف يُمكّنني من مشاهدة صينيين يسيرون في شوارع بكين أو شانغهاي أو البرابرة في مجاهل إفريقيا وهم يؤدون شعائر الانتساب. فما الذي نشاهد في الواقع أو نسمع اليوم ؟ فقط ما تسمح لنا الرقابة بمشاهدته أو بسماعه. إنَّ الهند ما تزال نائية كما كانت دائماً - بل إنني، في الواقع، أعتقد أنها أضحت أشدّ نأياً مما كانت عليه قبل خمسين عاماً. ثمة حرب ضارية تدور رحاها في الصين - ثورة تنطوي على مغزى أعظم بكثير بالنسبة إلى الجنس البشري من تلك الحرب الصغيرة الدائرة في أوروبا. هل تشاهد أي شيء عنها في نشرة الأخبار؟ حتى الصحف لا تقول إلا أقلّ القليل عنها. يمكن أنْ يموت خمسة ملايين من الصينيين بسبب فيضان، أو مجاعة أو وباء أو أنْ يُطرَدوا من منازلهم على يد الغازي، والأخبار (خبر واحد كبير في كل يوم عادة) يتركنا مُشوّشين. في باريس شاهدتُ

خبراً واحداً عن قصف شانغهاي وهذا كل شيء. كان شيئاً رهيباً يفوق الوصف - الفرنسيون لم يتمكنوا من تحمّله. وحتى يومنا هذا لم يعرضوا علينا الصور الحقيقية عن الحرب العالمية الأولى. يجب أنْ يكون لديك نفوذ لكي تتمكن من إلقاء نظرة على تلك الفظائع الحديثة جداً... هناك صور "تثقيفيّة"، طبعاً. هل شاهدتها ؟ إنها قصائد جميلة، بليدة، مُخدِّرة، صحيّة وإحصائية ومشوّهة بالكامل ومُلوّثة بالزيت؛ من النوع الذي يمكن للكنيسة المعمودية أو المنهجية أنْ تقرّه.

إنَّ نشرة الأخبار تتعامل بكثرة مع الجنازات الدبلوماسية، وتعميد البوارج الحربية، والحرائق والتفجيرات، وحطام الطائرات، والمباريات الرياضية، واستعراضات الجمال، والموضة، ومساحيق التجميل والخُطب السياسية. والصور التثقيفية تتعامل مع الآلات، والأقمشة، ووسائل الراحة والجريمة. وإذا كانت هناك حرب دائرة نلقي نظرة على المشهد الأجنبي. ونحن نحصل على المعلومات عن الشعوب الأخرى على هذا الكوكب، عبر السينما والإذاعة، بقدر ما يحصل ساكنو المريخ على معلومات عنا. وهذه الفجوة الشاسعة تنعكس في علم الفراسة الأميركي. وفي البلدات والمدن تجد الأميركي النموذجي في كل مكان. تعبير وجهه معتدل، رقيق، يتلبّس الجدية الزائفة وأحمق دون أدنى شك. في المعتاد ملابسه أنيقة من النوع الجاهز والرخيص، وحذاؤه لمّاع، ويضع قلم حبر وقلم رصاص في جيب صدارته، ويتأبّط حقيبة أوراق - وطبعاً يضع نظارات، يتغيَّر طرازها مع تغيُّر الموضة. يبدو وكأنه مطرود من إحدى الجامعات بعون من عباءة من أحد المتاجر المتسلسلة ومحل بيع البذلات. وكلها متشابهة، كالسيارات، وأجهزة الراديو والهاتف. هذا هو

طراز مَنْ عمرهم ما بين الخامسة والعشرين والأربعين. وبعد ذلك السن نحصل على طراز آخر - طراز رجل منتصف العمر الذي ركّبَ تواً طقماً من الأسنان الاصطناعية، وبدأ يلهث وينفث، ويصرّ على ارتداء حزام خصر في حين أنه يجب أنْ يرتدي حزام فتق. إنه رجل يُفرِط في الأكل والشرب، وفي التدخين، يُكثِر من الكلام ودائماً تجده على شفا الانهيار. وغالباً يموت متأثراً بنوبة قلبية في غضون السنوات القليلة التالية. في مدينة مثل كليفلاند يبلغ هذا النمط حد التأليه. كذلك الأمر مع الأبنية، والمطاعم، والحدائق العامة، ونُصُب الحرب. إنها المدينة الأميركية الأمثل التي قابلتها حتى الآن. مزدهرة، ناجحة، حيوية، نظيفة، فسيحة، صحيّة، تضجُّ بالتلاحم الليبرالي للدم الأجنبي وبالهواء النقي المنعش الذي يهب من البحيرة، تبرزُ جليّة في ذاكرتي كنقيضٍ للعديد من المدن الأميركية. إنها بما تمتلك من المزايا، والمتطلبات الأساسية كلها للحياة، والنمو، والازدهار، تبقى مع ذلك مكاناً ميتاً تماماً - مكاناً ميتاً، وكليلاً، ومميتاً. (في كليفلاند يُعتَبَر عرض مسرحية "***ورطة الطبيب***"[١٨] حدثاً مُثيراً) إنني أفضّل الموت في ريتشموند بصورة ما، على الرغم من أنّه يعلم الله أنَّ ريتشموند ليس لديها ما تقدِّم. ولكن في ريتشموند، أو في أية مدينة جنوبية في هذا المجال، ترى بين حينٍ وآخر أنماطاً خارجة عن المألوف. إنَّ الجنوب مملوء بالشخصيات الغريبة الأطوار؛ إنه ما يزال يُعزّز النزعة الفردية؛ والأشخاص الأشدّ فردية يأتون من المناطق الداخلية، من الأماكن النائية. وعندما تتغلغل في ولاية لا تكاد تكون مستقرة مثل كارولاينا الجنوبية تقابل رجالاً، رجالاً مُثيرين للاهتمام - مخلوقات مرحة، مُشاكسة، مُحبّة للجدل، وللملذات، وذات فكر مستقلّ

تختلف مع كل شيء، كمبدأ، لكنها تجعل الحياة فاتنة وسمحة. ولا يمكن أنْ يكون هناك تباين أكبر بين ديانتين في هذه الولايات المتحدة، في اعتقادي، مما هو بين ولاية كأوهايو وولاية ككارولاينا الجنوبية. ولا يمكن أنْ يكون هناك تباين أكبر في هاتين الولايتين مما هو بين مدينتين ككليفلاند وتشارلستن، على سبيل المثال. ففي المكان الأول عليك أنْ تُثبّت رجلاً بالمعنى الحرفي في مكانه لكي تتمكّن من التحدث في الأعمال معه. وإذا تصادف أنْ كان هذا الشخص من تشارلستن رجل أعمال جيداً، فقد يتصادف أنْ يكون أيضاً متعصباً لشيء غير معروف. ويطرأ على قسمات وجهه تغييرات، وتضيء عيناه، وينتصب شعره عن آخره، ويمتلئ صوته بالشغف، وتنزلق ربطة عنقه عن مكانها، وتُوشك حمالتا بنطلونه أن تسقط، ويبصق ويسب، ويتحدث بودّ ويتبختر في مشيته، وبين حين وآخر يدور حول نفسه على إصبع واحد. وهناك شيء واحد لا يدلّيه أمام عينيك - إنها ساعة يده. إنَّ لدية وقت، الكثير من الوقت. ويُنجز كل ما يرغب في إنجازه في وقته المُحدَّد، والنتيجة أنَّ الهواء لا يعجُ بالغبار وبزيت الآلات وبقرقعة صندوق النقود. واكتشفتُ أنَّ مُبدّدي الوقت موجودون في الشمال، بين الفضوليين. وقد يقول قائل، إنَّ حياتهم كلها وقتٌ مُبدَّد. الرجل البدين، المُنتفخ، ذو الوجه المتهدل وعمر الخامسة والأربعين وأصبح معدوم الجنس هو أعظم تجسيد للعقم أنجبته أميركا. إنه مُفعم بطاقة ولا يُنجز أي شيء. إنه هلوسة إنسان العصر الحجري. إنه كتلة إحصائية من الشحم والأعصاب المتشاحنة لا يستطيع موظف التأمين أنْ يُحولها إلى فرضيّة مُخيفة. إنه يبذر الأرض بأرامل ثريات، قلقات، فارغات الرؤوس، عاطلات، يجتمعن معاً في نوادٍ كئيبة تسير فيها السياسة مع مرض السكر جنباً إلى جنب.

بالنسبة إلى ديترويت، وقبل أنْ أنسى - نعم، هنا تمرّدَ سوامي فيفيكاناندا. وقد يكون بعض ممّن يقرؤون هذا في سن متقدمة بقدر يُتيح لهم أنْ يتذكروا الهياج الذي تسبّب فيه عندما خطب أمام أعضاء برلمان الأديان في شيكاغو في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر. إنَّ قصة رحلة حج هذا الرجل الذي هيَّجَ الشعب الأميركي تُقرأ كأنها أسطورة. في أول الأمر لم يلاحظه أحد، ونُبذَ، وعانى الجوع واضطرَّ إلى الاستجداء في الشوارع، وأخيراً احتُفيَ به كأعظم زعيم روحي في عصرنا. عُرضَتْ عليه أنواع العروض كلها؛ وقَبِله الأغنياء وحاولوا أنْ يجعلوا منه قِرداً. في ديترويت، وبعد مرور ستة أسابيع، تمرّد. ألغى العقود كلها وأخذ يتنقَّل وحده من بلدة إلى أخرى تلبية لدعوات من جمعيات شتى. وإليك ما قال رومان رولان:

" كان أول شعور انجذاب وإعجاب بالطاقة الهائلة للجمهورية الناشئة قد ذوى. وسرعان ما اصطدم فيفيكاناندا بالوحشية، واللا إنسانية، وضآلة الروح، والتعصُّب ضيِّق الأفق، وبالجهل الهائل، وبانعدام الفهم الساحق الشديد الصراحة والواثق من نفسه اتجاه كل مَنْ يفكّر، ويؤمن، وينظر إلى الحياة بمنظار مختلف عن نظرة الأمة المثالية للجنس البشري... وهكذا نفد صبره. لم يُخفِ شيئاً. وصمَ آثام الحضارة الغربية وجرائمها بما تتصف به من عنف، ونهب وتدمير. وفي إحدى المرات عندما نوى أنْ يخطب في بوسطن عن موضوع ديني جميل ومُحبَّب إلى قلبه (راماكريشنا)، شعر بالاشمئزاز من مشهد جمهوره، الحشد الزائف والقاسي من رجال الأعمال ومن العالم، حيث إنه رفضَ أنْ يُسلّمهم مفتاح ملاذه، وغيَّر الموضوع بفظاظة، وراح يُندّد بغضب بالحضارة التي

يُمثّلها أولئك الثعالب والذئاب. وكانت الفضيحة فظيعة. غادر المئات القاعة مع ضجيج وثار غضب الصحافة. وكان قاسياً ولاسيما على المسيحية الزائفة والنِفاق الديني: " مع كل ما تتصفون به من تفاخر وتباهي، أين نجحتْ مسيحيَّتكم من دون سيف؟ إنَّ مسيحيتكم هي تديُّن يوعظُ به باسم الرفاهية، وكل ما سمعتُ في هذا البلد نِفاق. إنَّ هذا الازدهار كله، كله من المسيح! إنَّ الذين يُناشدون المسيح لا يهمهم غير تكديس الأموال! لن يعثر المسيح على حجرٍ يضع رأسه عليه بينكم... أنتم لستم مسيحيين. عودوا إلى المسيح! ".

ويتابع رولان كلامه ليُقارن ردّ الفعل هذا بذاك الذي ألهمته إنكلترا. " لقد جاء كعدو وتمّ قهره". وقد اعترفَ فيفيكاناندا بنفسه بأنَّ أفكاره عن إنكلترا قد طرأ عليها تغيير ثوريّ. قال " لا أحد نزل في أرض إنكلترا وقلبه مملوء بالحقد على جنس بشري أكثر مما حمله قلبي على الشعب الإنكليزي... والآن لا أحد بينكم... يحب الشعب الإنكليزي أكثر مني".

إنه موضوع مألوف - يسمعه المرء مراراً وتكراراً. وأتذكّر العديد من الرجال البارزين الذين زاروا هذه الشواطئ ثم عادوا إلى أوطانهم وهم أشدّ حزناً، واشمئزازاً وخيبة. وهناك شيء واحد تمنحه أميركا، وهو ما يتفقون كلهم حوله: **المال**. وأثناء كتابتي لهذه الأسطر يخطر على بالي قضية شخص مغمور عرفته في باريس، رسّام روسيّ المولد خلال السنوات العشرين التي عاشها في باريس لم يكد يمرّ عليه يوم إلا وهو جائع. كان شخصية معروفة في مونبرناس- وكان الجميع يتساءلون كيف نجح في البقاء على قيد الحياة طوال تلك المدة من دون نقود. وأخيراً

قابلَ أميركيّاً مكّنه من زيارة هذا البلد الذي طالما تاق إلى رؤيته والاستقرار فيه. مكث فيه مدة عام، يسافر في أنحائه، يرسم صوراً شخصية، ولقيَ حفاوة من الغني والفقير. وللمرة الأولى في حياته كلها عرفَ معنى أنْ يحمل نقوداً في جيبه، وأنْ ينام على سرير نظيف ومريح، وأنْ يشعر بالدفء، وأنْ يتغذّى جيداً - والأهمّ من ذلك، أنْ يتم الاعتراف بموهبته. وذات يوم، بعد عودته ببضعة أسابيع قابلته في الحانة. كنتُ شديد التوق لأسمع ما لديه ليقول عن أميركا. وكنتُ قد سمعت عن نجاحه وتساءلتُ لماذا رجع.

بدأ بالكلام عن المدن التي زارها، والناس الذين قابلهم، والمنازل التي استضافته، والوجبات التي قُدِّمتْ له، والمتاحف التي تردَّد عليها، والمال الذي كسبه. قال " في أول الأمر كان الوضع رائعاً، حسبتُ أني في الجنة. ولكن بعد مرور ستة أشهر بدأ الملل يتسرب إلى نفسي. وكأني كنتُ أعيش مع أطفال - أطفال شريرين. ما فائدة أنْ يمتلئ جيبك بالنقود إذا لم يكن في استطاعتك أنْ تستمتع بحياتك ؟ ما فائدة الشهرة إذا لم يكن أحد يفهم ما تفعل ؟ أنت تعلم كيف هي حياتي هنا. أنا رجل بلا وطن. ولو أنَّ هناك حرباً دائرة لكانوا إما وضعوني في معسكر اعتقال أو طلبوا مني أنْ أُقاتل لصالح الفرنسيين. في أميركا كان يمكن أنْ أتجنب هذا. كان يمكن أنْ أصبح مواطناً وأعيش حياة رغيدة. لكني أفضّل أنْ أجازف هنا. وحتى إذا لم يتبقَّ لي أكثر من بضع سنين من حياتي فإنَّ تلك السنوات القليلة قيمتها أكبر وأنا هنا من قضاء حياتي كلها في أميركا. ليست هناك حياة للفنّان في أميركا - هناك فقط موتٌ حيّ. وبالمناسبة، هل معك بضعة فرنكات تقرضني إياها ؟ لقد عدتُ

مُفلساً من جديد. لكني سعيد. واستعدتُ محترفي القديم - أصبحتُ أُقدِّر قيمة ذلك المكان القذر الآن. لعل ذهابي إلى أميركا أفادني - حتى وإنْ كان فقط لجعلي أدرك مدى روعة الحياة التي حسبتُ ذات يوم أنها لا تُحتَمَل ".

كم من رسالة استلمتُ وأنا في باريس من أميركيين عادوا إلى الوطن - كلهم يغني الأغنية نفسها: " ليتني أعود إلى هناك من جديد. إنني مستعد للتخلي عن ذراعي اليُمنى مقابل أنْ أتمكن من العودة. لم أُدرك ما الذي تخلّيتُ عنه " إلخ، إلخ. ولم أتلقَّ رسالة واحدة من أميركي عائد إلى وطنه يقول فيها إنه سعيد بعودته إلى الوطن. وعندما تنتهي هذه الحرب سوف تحدث حركة نزوح إلى أوروبا لم يرَ هذا البلد لها نظير. فلماذا نحاول أنْ نتظاهر الآن بأنَّ فرنسا انحلّت لأنها انهارتْ. هناك فنانون ونقّاد فن في هذا البلد يحاولون دون أي إحساس بالخجل، استغلالاً للموقف، أنْ يُقنعوا الجمهور الأميركي بأنه ليس هناك ما نتعلّم من أوروبا، وأنَّ أوروبا، ولاسيما فرنسا، ميتة. يا لها من كذبة بغيضة! إنَّ فرنسا المغلوبة والمهزومة حيّة أكثر مما كنا في أي وقت. إنَّ الفن لا يموت بسبب هزيمة عسكرية، أو انهيارٍ اقتصاديّ، أو كارثة سياسية. لقد أنتجت فرنسا المحتضرة من الفن أكثر من أميركا الفتية والحيوية، ومن ألمانيا المتعصّبة أو روسيا المهتدية حديثاً. إنَّ الفنّ لا يُنتِجه الموتى.

هناك أدلة على وجود فنٍ عظيم جداً في أوروبا حتى قبل خمسة وعشرين ألف عام، وفي مصر حتى قبل ستين ألف عام. ولم يكن للمال صلة بإنتاج تلك الكنوز. ولن يكون للمال صِلة بالفن في المستقبل. سوف يزول المال. وحتى في الوقت الحاضر نحن عاجزون عن إدراك عقم المال.

ولو لم نُصبح مستودعَ تسليح العالم، ثم تسبّبنا في الانهيار الهائل لنظامنا الاقتصادي، لشهدنا أغنى أمة على الأرض تموت جوعاً وسط تراكُم ذهب العالم كله. وما الحرب إلا فترة انقطاع تأتي بعدها الكارثة المحتومة والوشيكة. أمامنا فقط بضع سنوات ثم سينهار البناء كله من حولنا. وتشغيل بضعة ملايين في صناعة آلات الدمار ليس حلاً للمشكلة. فعندما سيحدث الدمار الشامل الذي سبّبته الحرب سيليه دمار آخر. وسيكون من العنف، والفظاعة ما يفوق على الدمار الذي نشهده الآن. سوف يُصبح العالم كله في معمعة الثورة. وسوف تستعر الحرائق إلى أنْ تنهار أُسس العالم الحاضر نفسها. عندئذٍ سوف نرى مَنْ لديه الحياة، الحياة الأكثر وفرة. عندئذٍ سوف نرى ما إذا كانت المقدرة على صنع المال ومقدرة البقاء على قيد الحياة هما شيء واحد. عندئذٍ سوف ندرك معنى الثروة الحقيقية.

يجب أنْ أمسح امتداداً شاسعاً من البلد قبل أنْ أحصل على الإلهام للبدء بتأليف هذا الكتاب. وعندما أفكر في ما كان يمكن أنْ أشاهد في أوروبا، أو آسيا، أو إفريقيا، على امتداد عشرة آلاف ميل، أشعر كأني خُدِعت. أحياناً أعتقد أنَّ أفضل ما كُتِبَ عن أميركا هي مؤلفات وهمية كتبها أشخاص لم يُشاهدوا البلد. وقبل أنْ أتابع رحلتي أنوي أنْ أصِفَ بعض المشاهد الأميركية كما رسمتها في مخيّلتي وأنا في باريس. بلدة موبايل هي أحدها.

في هذه الأثناء لدي خبر جيد أزفّه إليك - سوف أصطحبكَ إلى شيكاغو، إلى شقق مكّة في الحي الجنوبي. إنه صباح يوم أحد ودليلي السياحي اقترضَ سيارة ليأخذني بها في جولة. في الطريق نتوقف في

سوق السلع الرخيصة. ويشرح لي صديقي قائلاً إنه نشأ في حي الأقليات؛ ويُحاول أنْ يعثر على المكان الذي كان يقع فيه منزله. إنه أرض بور الآن. هناك مساحات شاسعة من الأراضي البور هنا في الحي الغربي. إنه أشبه ببلجيكا بعد الحرب العالمية. بل أسوأ، إذا كان لابد من المقارنة. يُذكرني بعَظْمة فكٍ مريضة، بعضها مُهشَّم ومسحوق، وبعضها متفحِّم ومتقرِّح. سوق السلع الرخيصة يُذكِّر بمدينة كراكاو[19] أكثر مما يُذكِّر بكلينيانكور[20]، لكنَّ التأثير هو نفسه. إننا عند الباب الخلفي للحضارة، وسط بقايا وحثالة المحرومين. إنَّ آلاف، ومئات الآلاف، وربما ملايين الأميركيين، ما زالوا فقراء إلى درجة أنهم يُنقبون في هذه النفايات بحثاً عن غرض يحتاجون إليه حاجة ماسّة. لا شيء خرِبٌ أو صدِئ أو مُمرِض إلى درجة تُثني المشتري الجائع. قد تعتقد أنَّ مخزن السلع الرخيصة قد يُلبّي أشدّ الحاجات تواضعاً، ولكن سرعان ما تكتشف أنه يُكلّف غالياً حقاً. الازدحام خانق - علينا أنْ نشق طريقنا شقاً. وكأننا على ضفاف نهر الغانج ما عدا أنه لا تفوح من المكان رائحة الطهارة. وأثناء شق طريقنا بصعوبة بين الحشد يلفت انتباه قدميّ مشهد غريب. ففي وسط الشارع يقفُ هنديُ أميركي، بكامل لباسه التقليدي، يبيع زيت الأفاعي. وفي الحال يتلاشى التفكير في المنبوذين البائسين الآخرين الذين يتخبطون في القذارة والغلّ. كتب جيمس فاريل[21] "***إنه عالم لم أصنعه***". حسن، هذا هو المؤلّف الحقيقي للكتاب - منبوذ، غريب الأطوار، بائع متجول لزيت الأفاعي. في تلك البقعة ذاتها احتشدت الثيران ذات يوم؛ أما الآن فهي مُغطّاة بقدورٍ ومقالٍ، وساعات قديمة، وثريات مفكّكة، وأحذية بالية جدير حتى بأحد أفراد الإيغوروت[22] أنْ تعفّ نفسه عنها.

وطبعاً إذا مشيت مسافة ليست بالطويلة يمكنك أنْ ترى الجانب الآخر من الصورة - الواجهة الفخمة لجادة ميتشغان حيث يبدو وكأنَّ العالم برمّته يتألّف من أصحاب الملايين. وليلاً ترى نُصُباً عظيماً للإعلان عن علكة مُضاء بأنوارٍ ساطعة وتتعجّب من أنَّ هذه الهندسة الضخمة والقبيحة مُخصّصة لجذب انتباه خاص. وإذا هبطت الدَرج المؤدي إلى الجزء الخلفي من البناء ودقّقت النظر وشحذتَ مخيلتك قليلاً تستطيع حتى أنْ تتخيَّل نفسك في باريس، في شارع بروكا. لا يوجد بوبو[٢٢] هنا، طبعاً، ولكنك قد تصادف أحد رفاق آل كابون السابقين. لابد أنَّ من الممتع أنْ تشمخ خلف تلألؤ الأضواء البرّاقة.

نلج عميقاً داخل الحي الجنوبي، وبين حينٍ وآخر نخرج لكي نُمدِّد سيقاننا. ثمة حركة تطور مُلفتة تجري هنا. هناك صفوف من القصور القديمة تحف بها أراض بور. ويبرز فندقٌ قذر كأطلالٍ من حضارة المايا وسط أنيابٍ صفراء وأسنان بلون الطباشير. ومساكن كانت ذات مرة محترمة أضحت الآن ملك أصحاب البشرة السوداء الذين "حرّرناهم". بلا تدفئة، بلا وقود، بلا تمديدات صحية، بلا ماء، بلا أي شيء - أحياناً حتى بلا زجاج للنوافذ. مَنْ هم مُلاك تلك المنازل ؟ يُستحسن عدم الإمعان في الاستفسار. ماذا يفعلون بها عندما يرحل عنها السود ؟ يهدمونها، طبعاً. من أجل إقامة مشاريع أبنية سكنية فدرالية. مساكن نموذجية.. أتذكّر جنوا، أحد آخر المرافئ التي توقفتُ عندها في طريق عودتي إلى أميركا. هذا القِطاع قديم جداً. لا شيء فيه يستحق التباهي به بما يخص وسائل الراحة. ولكن شتّان بين فقراء جنوا وفقراء شيكاغو! حتى القِطاع الأرمني من مدينة أثينا أفضل من هذا. على مدى عشرين

عاماً عاش اللاجئون الأرمن في أثينا كالمَعْز في حي صغير اختصوا به أنفسهم. لم تكن هناك قصور يحتلونها - ولا حتى مصنع مهجور. كان هناك فقط قطعة أرض أنشؤوا عليها منازلهم من كل ما وصل إلى أيديهم من مواد. وقد ساهم رجالٌ كهنري فورد وروكفلر بلا قصد في إيجاد هذه الجنة التي بُنيَتْ بالكامل من البقايا والأغراض المنبوذة. إنني أتذكر ذلك الحي الأرمني لأننا أثناء سيرنا بين فقراء شيكاغو لفتَ صديقي انتباهي إلى أصيص زهور على حافة نافذة كوخ بائس. قال "أترى، حتى الأشدّ فقراً بينهم لديهم أزهار". ولكن في أثينا رأيت أبراج حمام، وحجرات مُشمسة، وشرفات تطفو بلا دعم، وأرانب تتشمّس على الأسطح، ومعز يركع أمام إيقونات، وديوك رومية موثقة إلى أكر الأبواب. الجميع لديهم أزهار - ليس فقط أُصص أزهار. قد يكون هناك بابٌ مصنوع من حاجز اصطدام سيارة فورد ويبدو جميلاً؛ أو كرسي مصنوع من علب الوقود ويكون الجلوس عليه مريحاً. وكانت هناك محلات لبيع الكتب يمكنك فيها أنْ تقرأ عن بوفالو بيل أو جول فيرن أو هرمز تريسماجيستوس[٢٤]. كانت هناك روح لم تنجح آلاف السنين من البؤس في إخمادها. والحي الجنوبي من شيكاغو، من ناحية أخرى، أشبه بمصحة نفسية شاسعة، تعيث فيها الفوضى. لا شيء يمكن أنْ يزدهر هنا إلا الرذيلة والمرض. وأتساءل ماذا يمكن للمُخلِّص العظيم أنْ يقول لو أنه استطاع أنْ يرى الحرية المجيدة التي يرتع فيها الرجل الأسود الآن. لقد حرّرناهم، نعم، أصبحوا أحرار كجرذان في قبو مُظلم.

حسن، ها قد وصلنا - مجمَّع مكة السكني! إنه تجمُّع مستطيل من الأبنية، أعتقد أنه كان ذات يوم يتسم بذوقٍ رفيع - في هندسته

المعمارية. وبعد أنْ رحل البيض حلّ محلهم السود. وقبل أنْ تصل إلى وضعها الحالي مرّت بما يُشبه الصيف الهندي. إنَّ نصف الشقق في حالة مزرية. والمكان يفوح بالدعارة. إنها دون أدنى شك قِبلة السود الباحثين عن عمل.

إنه الآن بناء غريب الأطوار. الأقفال خُلِعَتْ، والأبواب نُزِعَت عن مفاصلها، والمصابيح الكهربائية هُشِّمتْ. وتلج ما يبدو أشبه برواق أو مؤسسة كاثوليكية كئيبة، أو مصحة للصُم والبُكم، أو مصحة في حي برونكس لإجراء عمليات الإجهاض السريّة. وتصل إلى منعطف فتجد نفسك في فناء تكتنفه صفوف عديدة من الشرفات. وفي مركز الفناء نافورة مُهملة مغطاة بشبكة سلكية ضخمة كأغلفة الجبن العتيقة الطراز. ويمكنكَ أنْ تتخيَّل مدى سحر البقعة أيام كانت السيدات ذوات الفضيلة السلسة يُسيطرن على المكان هنا. تستطيع أنْ تتخيَّل قصف الضحك الذي كان يعم الفناء ذات يوم. أما الآن فيسود صمت متوتر، ما عدا هدير المزلجات ذات العجلات، وسُعال جاف، وتجديف في الظلام. ثمة رجل وامرأة يميلان على درابزين شرفة فوقنا. ينظران إلى الأسفل نحونا بوجهَين خاليين من أي تعبير. فقط ينظران. أهما يحلمان؟ لا أظن. جسداهما مُستهلكان، وروحاهما قزمتان، بحيث لا تسمحان لهما بالاستمتاع بتلك الرفاهية الأشد رداءة. إنهما يقفان هناك كحيوانين في حقل. الرجل يبصق. عندما يرتطم البصاق بالرصيف يُحدِثُ صوتاً مسموعاً غريب الشكل، وكليلاً. لعلها طريقته في التوقيع على إعلان الاستقلال. لعله لا يعلم أنه بصق. لعلّ شبحه هو الذي بصق. أنظرُ إلى النافورة من جديد. إنها جافة منذ أمدٍ بعيد. ولعلها مُغلَّفة كقطعة من

الجبن القديم حتى لا يبصق الناس فيها ويُعيدونها إلى الحياة. سيكون أمراً فظيعاً بالنسبة إلى شيكاغو إذا ما تفجّرت نافورة الحياة هذه فجأةً! صديقي يؤكّد أنه لا خطر في ذلك. وأنا لستُ واثقاً تماماً من هذا. لعله على صواب. لعلّ الزنجي سيبقى دائماً صديقاً لنا، مهما فعلنا له. وأتذكّر حديثاً دار مع خادمة ملوّنة في منزل أحد أصدقائي. قالت " إنني أؤمن بأننا نكنّ لكم من الحب أكثر مما تكنّون لنا ". سألتها "ألا تكرهوننا أبداً؟" أجابت " يا إلهي كلا. إننا فقط نشعر بالأسى لأجلكم. إنكم تملكون السلطة كلها والثراء كله لكنكم لستم سعداء ".

في طريق عودتنا إلى السيارة سمعنا صوتاً عالياً يهتف كأنما من فوق الأسطح. مشينا مسافة أخرى والصوت لا يزال يهدر بقوة كالسابق. أصابتنا الحيرة. استدرنا وعدنا أدراجنا. ازداد الصوت قوة باطّراد. كان صوت واعظ وكان يهتف بكل ما أوتي من قوة: "إنّ **يسوع** هو نور العالم!" ثم انضمتْ إليه أصوات أخرى "***يسوع! يسوع! هو نور العالم!***" تلفّتنا حولنا بارتباك. لم نجد في الأفق شيئاً غير كنيس يهودي. بدا أنَّ منه، من جدرانه نفسها، ينبعث ذلك الصوت الجهير يجأر حول نور العالم. وأخيراً لاحظنا بعض الزنوج يدخلون المعبد وعندما رفعنا عيوننا رأينا مُكبّرات الصوت المُثبَّتة إلى رؤوس الحيوانات المرعبة البارزة من إفريز المبنى. لحقَ بنا الصوت، بصفاء تام، مسافة أخرى. كان أشبه بصوت رجل مهووس يتصاعد من القِفار ويبشّر بالسلام! عندما ولجنا السيارة شاهدتُ امرأة جميلة ملونة تطلّ من إحدى النوافذ في ما بدا أنه منزل مهجور. يا له من مشهد أطلّت عليه من الطابق الخامس من تلك المشرحة المسودّة. حتى هناك فوق كان في استطاعتها أنْ تسمع الواعظ

يتكلّم عن نور العالم. كان يوم أحد وليس لديها ما تفعل. في الطابق السفلي كان طفل رث يدون رقماً على الباب بطباشير أخضر اللون - لكي يوصِل ساعي البريد الرسائل إلى العنوان الصحيح، ولا شك. وبعده بمسافة كان يقع المسلخ وفي الأيام الصافية، إذا كانت الرياح مواتية، يمكن للمرء أنْ يشم من حيث يقف رائحة دم الحمل، بل آلاف الحملان، بل الملايين منها، في الواقع. كان صديقي يقول "قبل سنين لم يكن هناك غير الأكواخ هنا". أكواخ، أكواخ. لم أكن منتبهاً. قلتُ في نفسي، عمَّ يتحدث. كنتُ أفكّر في حَمَل الله متمدداً في مِذود مصنع بيت لحم للفولاذ. قال، وهو يلكزني وينظر عالياً إلى المرأة الزنجية في الطابق الخامس، " هناك، أتراها ؟ ". كانت تومئ إلينا. لقد عثرتْ على الله، ولا شك، هناك في السماء الزنجية. إذا كانت تفكر في شيء آخر فلا عِلم لي به. بدت منتشية بوضوح. لا تدفئة، لا وقود، لا مياه؛ النوافذ تهشّمتْ، والفئران تمرح، والقمامة في المجرور. تومئ لنا كأنها تقول: "تعالا! أنا نور العالم! أنا لا أدفع إيجاراً، ولا أعمل، ولا أشرب إلا الدم".

ندخل السيارة، نسير قليلاً ثم نخرج لنزور حفرة أخرى أحدثتها قنبلة يدوية. الشارع مُقفِر إلا من بعض الدجاج ينبش الأرض بحثاً عن طعام بين بقايا شرائح البيتزا. ثم المزيد من الأراضي البور، والمزيد من المنازل المُهدَّمة؛ سلالم الحريق مُثبتة إلى الجدران بأسنانها الحديدية، كلاعبي سيرك سكارى. هنا يسود جو يوم الأحد. كل شيء هادئ ويسوده السلام. مثل لوفين أو رامز بين غارات القصف. مثل فيبوس، أو فرجينيا، تحلم في جلب جيادها إلى الماء، أو مثل إليوسيس مختنق

بجورب مبلل. ثم فجأةً رأيتُ العبارة مكتوبة بالطباشير على جانب أحد المنازل بأحرفٍ على علوّ عشرة أقدام:

نبأ طيب! الله محبّة

عندما رأيت هذه الكلمات ركعتُ على رُكبتيّ في المجرور المفتوح الذي وُضِعَ هناك بشكلٍ مناسِب للغرض وصليتُ صلاةً قصيرة، صامتة، لابد أنها بلغت وسُجِّلَتْ حتى في مونت سيتي، ولاية إلينويز، حيث بَنَتْ جرذان المسك الملونة أكواخها. كان الوقت قد حان لشرب كأس كبير من زيت كبد سمك القدّ ولكن بما أنَّ مصانع الطِلاء كانت كلها مُغلقة اضطررنا للاستعاضة عنها بالمسلخ لنعبّ مقدار دلو من الدم. لم أذُق مرة أطيب من ذلك الدم! كان أشبه بتناول فيتامينات A, B, C, D, E بتسلسُلٍ سريع ثم مضغ قضيب من الديناميت البارد. نبأ طيب! نعم، نبأ رائع – لشيكاغو. أمرتُ سائق السيارة بأخذنا على الفور إلى مندلين لكي أُبارك الكاردينال وعمليات العقارات كلها، لكننا لم نصل إلا إلى معبد البهائيّة[٢٥]. فتح لنا باب المعبد عامل كان يجرف الرمال وراح يُرينا المكان. كان لا يكف عن إخبارنا أننا جميعاً نعبد إلهاً واحداً، وأنَّ الأديان كلها متشابهة في الجوهر. وفي الكُتيِّب الصغير الذي ناولنا إياه لكي نقرأه علِمتُ أنَّ السابق في الإيمان، مؤسس الإيمان، والمُفسِّر المُخوَّل وقدوة تعاليم بهاء الله[٢٦] كلهم عانوا الاضطهاد والشهادة لجرأتهم في جعل محبة الله شاملة وعامة. إنه عالم غريب الأطوار، حتى في هذه الفترة المُستنيرة من الحضارة. كان معبد البهائية يبلغ من العمر عشرين عاماً ولم ينته بناؤه بعد. كان اسم المهندس هو السيد بورجوازي، صدق أو لا تصدّق. داخل المعبد، غير المنتهي، يُذكِّر بمشهد مسرحي في

مسرحية "*جان دارك*". مكان التجمُّع في الطابق الأرضي يُشبه تجويف صَدَفة ويُلهم بالسكينة والتأمُّل كما لا تفعل إلا حفنة من دور العبادة. كانت الحركة قد بدأتْ تدب على أغلب الكرة الأرضية، بفضل مُضطهديها ومُفسديها. ليس فيها تفرقة عرقية، كما في الكنائس المسيحية، ويستطيع المرء أنْ يؤمن كما يشاء. ولهذا السبب قُدِّرَ لحركة البهائية أنْ تدوم بعد زوال المنظمات الدينية الأخرى على هذه القارة. والكنيسة المسيحية بتعزيزاتها وازدهارها الغريب الأطوار كله ميتة كمسمارٍ في باب؛ سوف تزول تماماً عندما ينهار النظامان السياسي والاجتماعي اللذان تستكين فيهما الآن. الدين الجديد سيكون قائماً على الأفعال، لا المعتقدات. قال راماكريشنا " الدين ليس للبطون الخاوية ". الدين دائماً ثوريّ، ثوريّ أكثر بكثير من فلسفات كسب الرزق. إنَّ الكاهن دائماً مناصر للشيطان، تماماً كما أنَّ الزعيم السياسي دائماً يقود إلى الموت. يبدو لي أنَّ الناس يُحاولون أنْ يتكاتفوا. وممثلوهم، في مجالات الحياة كافة، يُفرِّقون بينهم بتغذية الحقد والخوف فيهم. والاستثناءات نادرة جداً حيث إنها عندما تظهر يكون الدافع هو التفرقة بينهم، وجعلهم أناساً متفوقين، أو آلهة، أو أي شيء ما عدا رجال ونساء مثلنا. وبنقلهم هكذا إلى العوالم الأثيرية تُكبَتْ ثورة المحبة التي جاؤوا للتبشير بها في المهد. لكنَّ النبأ الطيب موجود دائماً، وقريب، مكتوب على جدار منزل مهجور: **الله محبّة**! وأنا واثق من أنه عندما يقرأ مواطنو شيكاغو هذه العبارة سوف ينهضون دفعةً واحدة ويحجّون إلى المنزل. ويمكن العثور عليه بسهولة لأنه يقوم في وسط أرض بور في الحي الجنوبي. ثم تنحدر أسفل تلك الحفرة في شارع لا سال وتترك نفسك

تنجرف مع مياه المجرور. لا يمكنك أنْ تُخطئها لأنها مدونة بالطباشير الأبيض بأحرف تعلو عشرة أقدام. كل ما أنت في حاجة إليه هو أنك عندما تعثر عليها تهزّ جسمك كما يفعل جرذ المجارير وتنفض الغبار عنك. والله سيقوم بالباقي...

Vive La France !

تعيش فرنسا!

المتنزّه الصغير - بين شهر حزيران وشوارع مانسفيلد، ويا للغرابة. إنه مكان كئيب، حتى تحت أشعة الشمس الساطعة. لم أجد متنزّهاً في أميركا ملأني بأي شيء آخر غير الحزن أو الضجر. إنني أُفضل ألف مرة أنْ أجلس في متنزّه مجرّد كالذي أعطانا إياها هيلير هايلر[٢٧] في لوحاته الأولى. أو حديقة عامة كالتي يجلس فيها أحياناً هانس رايخل[٢٨] عندما يرسم لوحه بالألوان المائية لذاته فاقدة الذاكرة. إنَّ المتنزّه الأميركي هو فراغٌ مُطوَّق ببلهاء مُصابين بالتخشُّب. وكالهندسة المعمارية للمنزل الأميركي، ليس هناك مقدار ذرة من الشخصية المتميِّزة في المتنزه. إنه، كما يُقال عنه بحق، "مجرد فسحة ضئيلة للتنفُّس"، واحة وسط عفن الإسفلت، والأدخنة الكيميائية والغازولين البائت. يا الله، عندما أفكّر في لوكسمبور، في زابيون، في البراتر! بالنسبة إلينا هناك فقط المتنزهات الطبيعية - قطع شاسعة من الأرض مُرصّعة بعجائب الطبيعة المُذهلة وتسكنها الأشباح.

من بين المتنزهات التي صنعها الإنسان الضئيل كلها أعتقد أنَّ تلك التي في جاكسونفيل، في فلوريدا هي الأشد خِسّة، وكآبة، ورثاثة.إنها

تنتمي إلى لوحة لجورج كروتز[٢٩]. إنها تفوح بروائح السل، والبَخر، وتوسُع الشرايين، وبجنون الارتياب، وبالكذب، والاستمناء والإيمان بالقوى الخفية. يبدو أنَّ كل اللا اجتماعيين، واللا متلائمين، الذين أفل نجمهم والمدَّعين في أميركا ينجرفون إلى هنا في نهاية المطاف. على المرء أنْ يخوض في مستنقع من العواطف لكي يصل إلى إفرغليد. قبل خمسة عشر عاماً، عندما جلست للمرة الأولى في هذه الحديقة، نسبتُ مشاعري وانطباعاتي إلى سوء حالتي النفسية وتشرّدي، إلى جوعي وعدم وجود مأوى أنام فيه. وفي زيارة العودة كنتُ أشدّ بؤساً. لم يتغيَّر شيء. المقاعد ملوّثة كما في الماضي ببقايا الأيام الغابرة - ليس بالنوع الرث كما في لندن ونيويورك، ليس بالنوع الرائع الذي يغطي رصيف ميناء باريس، بل بتلك التشكيلة الرخوة، المُلطَّخة التي تلفظها الطبقة المتوسطة المحترمة: ***كُتلٌ نقيّة من البلغم***، إنْ صحّ التعبير. النوع الذي يحاول أنْ يرتقي بالعقل حتى وإنْ لم يكن هناك أي عقل. القاذورات والنفايات التي تجرفها مياه المجرور داخل وخارج كنائس العلم المسيحي، والمعابد الروزيكروشية[٣٠]، وصالونات التنجيم، والمستوصفات المجانية، واجتماعات الإنجيليين، ومكاتب الإعانات، ووكالات التشغيل، والمنازل رخيصة الإيجار وما إلى ذلك. النوع الذي قد يقرأ " ***باغافاد غيتا***"[٣١] على بطنٍ خاوية أو يؤدي تمارين رياضية في خزانة الملابس. إنه النموذج الأميركي بامتياز، المستعد دائماً لتصديق كل ما يُكتب في الصحف، والمترقّب دائماً لمجيء المسيح. لم تتبقّ ذرة واحدة من الإنسانية. الدودة البيضاء تشق طريقها متلوية في ملزمة الاحترام!

أحياناً يلمس مشهد تلك الأكوام الإنسانية المتراكمة وتراً حساساً

فـأهرع إلى سـيـارة أجـرة لكي أصـل إلى الآلة الـكاتبـة وأدوِّن الأفـكار المُشـتـتـة، الشـيـطانيـة، المجنونـة، والتي لن يشـك حـتـى أذكى النقّـاد أنَّ منشـأها هو حديقـة عامـة أميـركيـة. وقد يحدث في مثل تلك الأمـثلة أني أتذكـر فـجأةً بقرةً كنتُ قد رأيتـهـا قـبل زمنٍ بعـيـد، أو قـد تكون بقـرة من عـهدٍ قـريب كتلك التي شاهدتـهـا في دكتـاون، ولاية تنيـسي، بقـرة ذات سبعة وتسعين ضلعاً وليس لديها ما تمضغ غير قطعة من القصدير. أو قد أتذكّـر فـجـأةً لحظةً كـتلك التي راودتني في الجـزائر، ولاية لويـزيانا، وأنا أتحـدث مع رجل إطفـاء في مـحـطة قطار وهو يقـول - " الـغـريـب في هذه البلدة أنها لا تحتوي فندقاً واحداً؛ الناس هنا ليس لديهم أي طموح". لقد ارتبطت كلمـتـا فـندق وطمـوح مـعـاً بصـورة غـريبـة في ذهني، وفـي تلك اللحظة، بينما كنتُ أتسـاءل ما الـشيء الغريب في هاتين الكلمتين؟ مرت حـافـلة مـتـوجـهـة إلى مـدينة البندقـيـة وعندئذٍ بدا كل شيء غـريـبـاً وغـيـر حقيقي بصورة مذهلة. مدينة الجزائر القائمة على نهر المسيسيبي، ومدينة البندقـيـة في لويـزيانا، والبـقـرة النحـاسيـة تبـخّـرتْ تحت الشـمس الحـارقـة، وموسيقى الكنيس في جاكسونفيل التي أبـكتني بسبب الجوع، وتمشـيـتي بحـزن جـيـئـة وذهـاباً على جسـر بروكلن، وقـلاع قـرن-أوسطـيـة على طول الدوردوني، وتماثيل الملكات في حديقـة لوكـسمبـور، وسـتـة دروس روسيـة مع كونتيـسة تهذي في حُجيرة تغيير الملابس في خلفية وكالة التـشغيـل، حوار صحفي مع الدكتـور فيزيتيللي، أعلم أثناءه أنَّه يجب أنْ يكون لدي مخزون من المفردات لا يقلّ عن خمسة وسبعين ألف كلمة مع أنَّ شكسبير لم يكن لديه أكثر من خمسين ألفاً... وألف بند غريب وبند من هذا النوع يمكن أنْ يمر في خاطري خلال لحظات قليلة.

إنّ صورة البقرة تتملكني بصورة هائلة - ولن أعرف السبب أبداً. لعلي في الحديقة الأميركية أنا مجرد بقرة تمضغ قطعة صغيرة من القصدير. لعلّ كل ما هو عزيزٌ عليّ تلاشى وأنا لست أكثر من أحمق كئيب تطقطق أضلاعه تحت أشعة الشمس الجنوبية. لعلي واقف على كوكب ميت في فيلم علميّ ولأنّ كل شيء غريب وجديد أفتقدُ جماله. لعلّ رغباتي مفرطة الإنسانية، والواقعيّة، والآنيّة. على المرء أنْ يكون صبوراً، قادراً على الانتظار ليس آلاف السنين، بل ملايين السنين. على المرء أنْ يبقى حياً بعد فناء الشمس والقمر، ويدوم أكثر من الله أو من فكرة الله، ويبزّ الكون، ويتفوق في الدهاء على النواة، والذرة، والإلكترون، على المرء أنْ يجلس في تلك المتنزهات كما يجلس في مرحاض عمومي، ويؤدي عمله - كالبقرة البارزة الأضلاع فوق التل الأحمر. لا تفكّر في أميركا هكذا. أميركا في حد ذاتها، أميركا ad astra (المتجهة صوب النجوم): فكّر في السموات بلا غلاف جوي، في قنواتٍ بلا مياه، في سكان بلا ملابس، في كلمات بلا فِكر، في حياة بلا موت، في شيءٍ يحدث بلا توقف وليس له اسم، ولا إيقاع أو سبب، ومع ذلك له معنى، معنى عظيم حالما تفقد الهوس بالزمن والمكان، بالقدر، بالمُصادفة، بالمنطق، بالأنتروبي[٢١]، بالإبادة، بالنرفانا[٢٢] وبالمايا.

تجلسُ في المتنزه ذات أشجار النخيل الضخمة وملايين أوراق العشب والجو دافئ والمقاعد مدهونة باللون الأخضر وقد يكون هناك كلب يعبث عند إحدى الشجرات، ويكتنفك من كل جانب أعضاء من أنواع أخرى، يرتدون ملابس مثلك، وداخلها الأعضاء الحيوية ذاتها تعمل بجنون ليلاً ونهاراً. وتقول لنفسك إنهم مختلفون، مختلفون إلى درجة

أنكَ تشمئز من مجرد النظر إليهم. ثم تنتقل إلى كوكب آخر، عبر استئجار سيارة أجرة رخيصة، وأمام آلة عالية الضجيج تقفُ وحيداً وتنطق كلاماً عشوائياً، وتفرقع ألعاباً نارية تبدو، بعد انفجارها، أشبه بأعقاب سجائر مسحوقة. وتفكّر في رجل واقف على منصّة المحاضرات، وحش قادم من العالم الثيوصوفي[٢٤] بجسم من الخضروات ومتزوج من حيوان خرافي، عفريت هادئ نوَّمَ نفسه مغناطيسياً بقدرٍ يسمح له بالسير منتصب القامة من الأجنحة الجانبية وحتى مركز المنصّة من دون أنْ يفضح نفسه. إنه يوشك أن يبدأ بالكلام على مدى ثلاث ساعات كاملة دون توقف، ودون أنْ يتناول رشفة ماء، ودون أنْ يرفّ له جفن. سوف يرفع نفسه بسهولة نحو ذلك التنين المُثبَّتْ والمُعلَّق في السماء ويُبقي الساعة النجمية[٢٥] ممتلئة على الرغم من كل ما يُقال عن الأنثروبي القُدسي أو انفصام الشخصية الكوني. على مدى ثلاث ساعات كاملة سوف يتكلّم بصوتٍ يصدر من خلف القبر، صوت وسيط روحاني مدفون في مخروط فضّي تحت أرضية كهف. وفي الختام ستكون جالساً في المتنزه وسط أوراق أشجار ميتة وأوراق لف فضّية، دون أنْ تزيد معرفتك أو تنقص عما كانت من قبل، لكنك تشعر بسعادة هادئة، كرجلٍ صرَّفَ تواً صيغة فعلٍ شاذ وحتى تناغمات وتنافرات الصيغة الشرطية.

ثم ينطلقُ صفير داخلك ويأتيك التفكير في الأكل والجنس، ست دقائق من التفكير تتذبذب خلالها بين مطعم فوستر في كليفلند وملهى النشارة في شارع لو شابليه **(entre la rue Helene et la rue des Dames)** "بين شارع هيلين وشارع السيدات"، على مقربة من جادة كليشي. وفي مطعم فوستر أدركتُ فجأةً سبب فقدان شهيتي للطعام. ليس لأنَّ الطعام

كان رديئاً، وليس لأنَّ المكان تفوح منه رائحة كريهة، وليس لأنَّ الخدمة سيئة. على العكس، كل شيء كان الكمال مُجسّداً - ***كمال المطعم الأميركي***. النادلة بدت كالملاك الذي خرج تواً من حمّامٍ مُعطّر؛ والطعام كان له مظهر لا غبار عليه كشيءٍ أُعِدَّ من دون أنْ تلمسه أيدٍ إنسانية؛ والمطبخ كان خفياً ولا يبعثُ روائح عبقة، مُستتراً بشكلٍ سرّي بعيداً عن الأنظار كمبولة في ماخور درجة أولى. كانت الموائد مكسوة بقماش الكتّان الأبيض، والمناديل ذات حجم سخيّ، وهناك أباريق زجاجية أنيقة للزيت والخل، ورجّاجات الملح والفلفل، وربما حتى عسلوج من الأزهار. وربما يصدر صوت عزف موسيقى أرغن - لم أعُد أذكر. ولكن إذا لم يكن هذا متوفراً، فيجب أنْ يتوفّر. كان على الأرغن أنْ يعزف لحناً بسيطاً بينما صاحب المكان، المندمج تماماً، يُخلل أسنانه بخلال أسنان فضيّ. كان ينبغي أنْ تكون هناك جوقة إنشاد من الفتية ذوي أصوات عالية وحادّة يحملون الصواني جيئة وذهاباً. على أي حال، كان مُكيَّف الهواء، ومزوَّداً بأكمله بالسجاد، ومزدحماً بأسلوب أنيق، ومُناراً بأضواء خافتة، ويبدو فعّالاً بطريقة استعراضية بتفاصيله كلها. ولم يكن المرء يفكر في الطعام بوصفه مؤلّفاً من أشياء خشنة، خام كأجزاء الحيوانات أو الخضروات المدفونة في التربة القذرة. الطعام كان بالأحرى نوعاً من الرحيق المُركَّب مغمور بالكريما، أو شيئاً يُزدَرَد والعينان مُغمضتان والمنخران مُغلقان، أو موعظة قصيرة مُخصّصة للذائقة التي تسمح للمرء بالعودة إلى المكتب وكتابة رسائل مُلهِمة عن تمديدات المجاري وأقنعة الغاز. في مثل ذلك الجو تُصبح الإكرامية عطيّة تتنازل النادلة وتقبلها كنجمة تتلقّى مديحاً من مراسل صحيفة. إنها تشعر بأنها استُدعيَتْ

لتُبلغك بأنَّ الظروف، ظروف العمل، فوق كل شيء آخر، وأنَّه عند أقلّ دلالة على التعب تُحمَل إلى غرفة الاستراحة وتُمدَّد على نقّالة مكسوّة بالساتان، وبأنَّها إذا شعرتْ بأي انحراف في المزاج يُطلَب منها بكل رصانة أنْ تلجأ إلى مضمار لعبة البولينغ الرخامي المُخصص للمُستخدمين. وتنساب متنقّلة من طاولة إلى أخرى كراقصة باليه، بوجه هادئ وابتسامة القصد منها التذكير بصورة مُبهمة بالموناليزا. وينبغي ألا تُسرع كثيراً لكي لا تفرز عرقاً تحت إبطيها. ويجب أنْ تؤدي الخدمة الشخصية بموضوعية جثّة. وقبل كل شيء يجب أنْ تُبقي أكواب الماء الزجاجية مُترعة بالثلج.

أعتقد أنه في مدينة روستون، في لويزيانا، استيقظتُ ذات ليلة وأنا أُفكّر في المطعم الصغير الكائن في شارع لو شابليه. كنتُ قد تناولت وجبة رديئة في مقهى قبالة الشريط الإسمنتي؛ وكنتُ قد تجولت في البلدة ثلاث مرات أو أربع مُتظاهراً بأني أتفرّج على أشياء مثل محطة السكة الحديد، ومكتب الصحيفة، وصهريج المياه، إلى آخره. كان بعض الفتية يلعبون كرة المضرب في الملعب الإسمنتي تحت الأضواء الكهربائية؛ وكانت سياراتهم الجميلة متوقفة عند حافة الرصيف. فيما عدا ذلك كان يمكن أنْ يكون الوقت هو منتصف الليل، أو الرابعة فجراً أو السادسة في صباح السابق. لم يكن هناك أحد لأتحدث معه. كان معي بعض الكتب ولكن لم أكن ميالاً إلى القراءة. لجأتُ إلى السرير يملؤني الاشمئزاز ورحتُ أتقلّب حتى بزغ الفجر. ثم، بعد أنْ شاهدت حلماً جميلاً عن فقرة وردت في أحد كتب جيونو، استيقظتُ وظننتُ أني ما أزال في فرنسا، في مكان ما في منطقة بروفانس ربما. ولكن سرعان ما

أدركت أني كنتُ مخطئاً. ثم عدتُ إلى النوم وبعينين مفتوحتين بدأتُ أحلم بحياتي في باريس. باشرت من البداية، بتلك الوجبة الأولى المتواضعة على رصيف جادة سان جيرمان، وأنا لا أُحسن من الفرنسية إلا كلمتي oui و non. وعندما أعود بذاكرتي إلى ذلك الآن يبدو لي كأني حشرت ألف عام داخل ذلك العقد القصير من الزمن الذي انتهى بنشوب الحرب.

تسللت إلى تلك الفترة في كليشي عندما كنتُ أتسكع مع صديقي فريد في جادة أناطول فرانس. فترة ركوب الدراجات، والنزهات المسائية على طول البولفار الممتد من باتينيول إلى الأوبرفيه، الفترة التي بلغت فيها نشوتي درجة حاولتُ عندها أنْ أؤلف خمسة كتب دفعة واحدة. لكنَّ الصورة التي تبرز أكثر من غيرها كانت صورة المطعم الصغير الذي كنتُ أتردّد عليه بانتظام نهاراً وليلاً. كان مطعماً رخيصاً، مُعتماً في النهار، وكريه الرائحة دون أدنى شك. ولم يكن الطعام ممتازاً، بل عادياً، كصديق عرفته منذ عهد الطفولة. النادلات كنّ بذيئات، ولسن مؤدبات، وحريصات على جمع الإكراميات المستحقة لهن. ومقابل فرانك أو اثنين زيادة كان يمكنك الحصول على شيء لذيذ حقاً، كالدجاج المشوي.

كان المكان يتسم بشيئين مُثيرين للاهتمام - الزبائن المواظبين الذين لا يتغيرون أبداً ومشهد الباب المقابل الذي كان مدخل **maison publique** (ماخور) صغير وأليف. وعند المنعطف كانت تقف في المعتاد عاهرتان، وإذا كانت تُمطر، يمكنك أنْ تراهما واقفتين بصبر مع مظلات مرفوعة في محاولة لتبدُوَا مرحتين ومُغريتين. لقد كان شارعاً لا يُلفت انتباه أحد لكنه تعرَّض للمراقبة اللصيقة؛ فرجل ككاركو، الذي كان زبوناً مخلصاً للمطعم المذكور، كان جديراً بأنْ يؤلف رواية عنه.

حسن، كان هناك - طعام وجنس. تارة يسود أحدهما وتارة الآخر. وكان هناك قزم أحدب، أيضاً، ينبغي ألا أغفل عنه، إسباني له خصلتا شعر طويلتان ودهنيتان وهو ذو شهية نهمة. وكان لابد أنْ أمرّ بطاولته في كل يوم. وفي كل ليلة أقول "Bon soir, monsieur" فيُجيب "Bon soir, monsieur" ولا يزيد عليها كلمة واحدة. بقينا على هذا الأداء عاماً كاملاً حتى كسرنا أخيراً الحواجز وقلت "Bon soir, monsieur, common ca va ce soir?" ولا أذكر أني تكلمت مع أي زبون آخر. كنتُ في المعتاد أتناول الطعام وحدي وبحالة رائعة من السكينة والقناعة. وكان صاحب المحل، الذي ينحدر من أوكسير، يقترب مني ويقول لي بضع كلمات. كان عادة يتكلم عن حالة الطقس أو عن غلاء الطعام المستمر. وبين حين وآخر يسألني متى سأقوم بزيارة أخرى إلى أوكسير لأني كنتُ قد أخبرته ذات مرة أني قمت برحلة على متن دراجة إلى هناك. فإذا تطرّقنا إلى ذلك الموضوع كان حتماً يُنهي الحديث بالقول - " إنه ليس كباريس! إنه مجرد بقعة صغيرة وهادئة "، فأبتسم وأهزّ رأسي بدماثة قصوى، وكأني لم أسمعه يقول ذلك من قبل. وأحياناً، عندما أكون في مزاج رائق، بعد أنْ يختم لازمته الصغيرة، كنتُ ألقي مناجاة ذاتية طويلة بالفرنسية عن الروعة الرعوية لأوكسير. كانت مناجاتي لنفسي تتطلّب مني دائماً لغة فرنسية ممتازة؛ ومن المؤسف أنه لم يكن يستمع إلى تلك الخطب، التي كانت ستُدفئ قلبه.

وصلتُ إلى بلدة أوكسير مع اقتراب الغروب، وكانت تقوم على نهر يون إذا لم أكن مخطئاً. كان هناك جسر، كما هو الحال في البلدات الفرنسية، ووقفنا هناك فترة طويلة، أنا وزوجتي، ننظر إلى الأشجار في

الأسفل تتمايل في المياه. وتأثّرنا بالمشهد إلى درجة أننا عجزنا عن الكلام؛ وعندما نظرتُ إليها رأيت الدموع في عينيها. كان ذلك أحد أشد الأيام التي أمضيتها معها في فرنسا سعادة. كنا قد غادرنا باريس قبل ذلك بيوم أو يومين، على متن دراجتين، ممتلئين بالأحلام. كنا نحاول قدر استطاعتنا أنْ نلتزم بدروب الجر الضيقة بمحاذاة القنوات. وكانت قد تعلمت ركوب الدراجة قبلها ببضعة أيام وكانت متوترة عندما وصلنا إلى دروب الجر. أحياناً كنا نترجّل ونتمشّى على طول ضفتي القنال، ولم يكن عنصر الزمن هاماً بالنسبة إلينا. في أميركا لم نكن قد عرفنا غير الأعمال الشاقة والبؤس. والآن فجأةً أصبحنا حرّين وأوربا بأكملها تمتد أمامنا. سوف نذهب إلى إيطاليا والنمسا ورومانيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وروسيا. سوف نشاهد كل شيء. حسن، بدأ الأمر بشكلٍ رائع. ونشأت بيننا مشاجرات صغيرة بسبب عصبيتها ولكن في داخلها كان كل شيء هادئاً وجميلاً. كنا نأكل كل يوم، على الأقلّ.

في أمسيتنا الأولى في أوكسير تناولنا الطعام على ضفة النهر. كان نُزُلاً صغيراً ومتواضعاً ولأننا كنا في إجازة دلّلنا نفسينا بشرب نبيذ فاخر. أتذكّر مشهد الكنيسة من مكان جلوسنا بينما النبيذ ينزل ببطء على طول بلعومي. وأتذكّر تحديق المياه الصافية، والأشجار الباسقة تتمايل في وجه السماء الفرنسية الرقيقة. أتذكّر أنني شعرتُ بسكينة عظيمة حينئذٍ، سكينة لم أشعر بمثلها في بلدي. نظرتُ إلى زوجتي وإذا بها أضحت شخصاً آخر. حتى الطيور بدت مختلفة. إنَّ المرء ليودّ لو يحتفظ بتلك اللحظات إلى الأبد. لكنَّ جزءاً من الفرح العميق الذي تنطوي عليه يأتي من معرفة أنها عابرة. قد يأتي الغد ويجلب معه

واحدة من تلك المشاحنات التي تزيل جمال المكان كله وتدمّرك أكثر من المعتاد، لأنكَ موجود في بلد أجنبي.

كما قال صاحب مطعم شارع او شابليه - إنها حتماً ليست باريس! لكنها من أوجه معيَّنة أفضل بكثير من باريس. كانت فرنسية أكثر، وأصيلة أكثر. كانت تولّدُ نوعاً آخر من الحنين، الحنين الذي اكتشفتُه لاحقاً في كتبٍ فرنسية معيَّنة أو من خلال حديث تبادلته مع عاهرة في السرير وأنا أُدخّن بهدوء. لا يمكن لأي غازٍ أنْ يُدمّره. إنه شيء غير ملموس، كالامتداد المُميَّز للسماء الفرنسية. الغازي هو الذي سيستسلم.

لقد كنا بصورة ما الغزاة. بدولاراتنا الأميركية القذرة كنا نشتري الأشياء التي نريد. ولكن مع كل مادة اشتريناها كنا نُعطي شيئاً مجانياً، شيئاً لم نتوقعه، نَهَشَنا وحوّلنا، إلى أنْ خضعنا بشكل كامل في نهاية المطاف.

عندما غادرتُ نيويورك منطلقاً في هذه الجولة الكئيبة حول أميركا كان أحد آخر الأشياء الذي سعيت إليه هو خريطة لباريس ولفرنسا. كنتُ أعلم أني في بقعة نبذها الله سوف أبدأ فجأةً بالتصبُّب بالعرق وسوف أريد أنْ أبحث عن أسماء الشوارع والبلدات والأنهار التي بدأتْ منذ الآن تتلاشى من ذاكرتي. في القطار، ونحن في طريقنا من كنساس سيتي إلى سينت لويس، يبرز المشهد الطبيعي من الامتداد المألوف لمنطقة دوردوني. خلال الساعة الأخيرة أو نحوها، على وجه الدقة. أعتقد أنَّ ذلك كان على طول نهر ميسوري. عبرنا بسلام، نطوي السهول المُنقّطة بالمنازل الريفية الأليفة. كان الوقت أوائل فصل الربيع وألوان الأرض تتنوَّع من لون التبن إلى الأخضر الفاتح. وعلى البُعد بدت جروف

ونتوءات صخرية، باهتة، لونها في الغالب رمادي، وذات أشكال رائعة تُذكّر بقلاع وقصور الدوردوني.

ولكن أين هو ذاك الذي يسير يداً بيد مع التربة، زواج السماء والأرض، البُنية الفوقية التي يُنشئها الإنسان لكي يجعل من الجمال الطبيعي شيئاً عميقاً ودائماً ؟ لقد كنتُ أقرأ تواً كتاب رولان عن فيفيفكاناندا؛ وكان لابد أنْ أُنحّيه جانباً لأني لم أعد قادراً على القراءة، فقد غلبتني انفعالاتي. والفِقرة التي أثارتني إلى درجة النشوة كانت تلك التي يصفُ فيها رولان عودة فيفيفكاناندا منتصراً إلى الهند من أميركا. لم يسبق لملِك أنْ استُقبل بمثل ذلك الاستقبال من قِبل أهل بلده: إنه يبرز فريداً من بين أحداث التاريخ. وماذا فعل، فيفيفكاناندا، ليستحق تلك الحفاوة ؟ لقد جعل الهند معروفة في أميركا؛ نشر الضياء. وبفعلِه ذلك فتح عيون أبناء بلده على نقاط ضعفهم. لقد استقبلته الهند كَلها بأذرع مفتوحة؛ ملايين الناس سجدوا أمامه، وهم يُحيّونه كقديس وكمُخلّص، وقد كان كذلك فعلاً. كانت تلك هي اللحظة التي اقتربت فيها الهند أكثر من أي وقت في تاريخها الطويل من الاتّحاد. كان انتصاراً للحب، وللامتنان، وللتكريس. وسأعود إليه لاحقاً، إلى كلماته النقية، القوية، التي نطقها كبطل جسور ليس للهند بل للإنسانية جمعاء. في الوقت الحاضر يجب أنْ أسرع، أنْ أتابع اختراق الأسطورة من الدوردوني وحتى قبر القديس لويس الذي يُسمّى مدينة ولكنها جثّة عفنة، كريهة الرائحة تنهضُ من السهل كإعلانٍ عن لوحةِ ألبريشت دورير " الكآبة ". وكأختها التوأم، ميلووكي، تُعطي هذه المدينة الأميركية العظيمة الانطباع بأنّ فن العمارة نفسه فيها فقد عقله

وجُنّ. إنَّ الطبيعة المَرَضيّة الحقيقية للروح الأميركية تجد متنفساً لها هنا. إنَّ بشاعتها ليست فقط مرعبة بل وخانقة. المنازل تبدو وكأنها مزيَّنة بالصدأ، وبالدماء، والدموع، والعرَق، والمرارة، والمخاط وروث الفيل. ويمكن للمرء أنْ يتخيَّل الحياة التي تجري هناك - شيئاً على طراز ثيودور درايزر[٢٦] في أسوأ حالاته. لا شيء يمكن أنْ يُرعبني أكثر من الاعتقاد بأنه مُقدَّر لي أنْ أُمضي ما تبقّى من حياتي في مثل ذلك المكان.

لقد قضيت برهة أو اثنتين رائعتين في سينت لويس، والفضل في ذلك يعود إلى الرعب والبؤس السائدين حولي. فأثناء عبوري القِطاع القديم من المدينة، حيث تجري إعادة تشييد بناء ضخم، أثناء اجتيازي شيئاً أشبه بمسلخ ضَرَبَه زلزال أو إعصار، تعاظم إحساسي بالاشمئزاز إلى درجة أني انتقلتُ إلى نقيضه - إلى حالة من الانتشاء. ذلك أنه لكي أحافظ على سلامة عقلي اضطررتُ إلى الانتقال بحركة يائسة إلى شيء يتوازن مع الرعب الذي أتنقَّل فيه. وإذا بذكرى ليلة ساحرة أمضيتها في سارلا تبرز فجأة في ذهني. وكأوكسير، تقع بلدة سارلا أيضاً في ذهني في بداية جولتي المجيدة. هي آخر ما رأيت من فرنسا، لدى خروجي إلى اليونان. كنتُ قد استقللتُ القطار ليلاً من باريس وعند الفجر ترجّلت في روكامادور. مكثتُ في روكامادور بضعة أيام، قمت خلالها بزيارة غوفر دو باديراك الشهير، حيث تناولت وجبة لا تُنسى وأنا مُعلَّق بين أسفل الكهف وسطح الأرض، ومن ثم استقللت حافلة في الحال إلى سارلا التي لم أكن حتى قد سمعت بها من قبل.

كانت الساعة تبلغ الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر. كنتُ قد ترجّلت تواً من الحافلة وأحدِّقُ بذهنٍ شارد إلى الكتب المعروضة في واجهة

محل بيع الكتب. لفتَ انتباهي عنوان أحد الكتب: كان كتاباً جديداً حول تنبؤات نوستراداموس. كان سعره أعلى من قدرتي على شرائه في تلك اللحظة لذلك وقفتُ أحدّق إليه بإمعان، وكأني أؤمن بقدرتي على القراءة من خلال الغلاف إذا أمعنتُ النظر مدة كافية. ومن خلال تثبيت النظر تلك أدركتُ تدريجياً أنَّ هناك رجلاً يقفُ إلى جواري، ينظر إلى الكتاب نفسه ويتكلّم بصوت عالٍ، وأدركتُ أخيراً أنه يُكلمني أنا.

كان صاحبَ المحل وصديقاً حميماً لمؤلّف الكتاب الذي، كما بدا، يُقيم في سارلا. وبدت عليه البهجة لكوني أميركياً، ولأني أقمتُ طويلاً في باريس ولأني خرجت عن خط جولتي لأزور سارلا. قال إنه سيُقفل أبواب المحل بعد قليل وسألني إنْ كنتُ أقبل أنْ أنضمّ إليه في المقهى الصغير على الطرف المقابل من الشارع. لقد كان جلياً أنه شديد التوق للتحدُّث معي مطولاً.

اجتزت الشارع وجلستُ في المسطبة أمام المقهى. كان الشارع الرئيس للبلدة لا يتّسم بأي سِحر مميَّز؛ كان يمكن أنْ يكون في أي مكان آخر في المقاطعات. لكنّي أُعجِبتُ بـ **librairien** (صاحب المكتبة). كان شديد الود والحماس ومن الواضح أنه كان مُتيَّماً بالأميركيين، كما كان حال الفرنسيين في ذلك الوقت. راقبته وهو يُغلق المحل. كان يفعل ذلك بنشاط، كتلميذ مدرسة يُنهي على عَجَل وظائفه اليومية لكي ينطلق وينضم إلى الأصدقاء. لوَّح لي بيده وهتف: **"Dans un moment ! "** (سأكون معك بعد لحظة!).

لم يكد يجلس حتى بدأ يتكلّم بأقصى سرعة - عن الحرب، حرب عام ١٩١٤. لقد تعرَّف إلى بعض الأميركيين في الجبهة، رجال رائعون،

حسب رأيه. لقد كانوا كالأطفال، شديدي السذاجة، والكرم، ومفعمين بالبهجة. قال " ليسوا مثلنا. نحن عفنون، مرهقون. لقد فقدت فرنسا روحها المرحة ". وأراد أنْ يعرف من أي جزء من أميركا جئت. وعندما قلت نيويورك نظر إليّ وكأنه لا يُصدق أُذنيه. هتف " عم تمزح ؟ يا لك من محظوظ! لطالما حلمت بالذهاب إلى نيويورك ذات يوم. أما الآن..." وهزّ كتفيه دلالة على اليأس. نعم، لقد مررنا بحرب أخرى. وسيكون محظوظاً حقاً إذا نجا مرة ثانية. حسن ما رأيي في باريس؟ أين أُقيم في باريس؟ هل أعرف فلان الفلان أو فلان العلان ؟ أخبرته عن حياتي هناك في البداية. قال " Tiens ! ، أنت حقاً شجاع. أنتم الأميركيون رومانسيون"

تناولنا صنفاً آخر فاتحاً للشهية وبدأ يتحدث عن نفسه، عن حياته في سارلا مسقط رأسه وحيث ربما سيموت إذا لم يُقتَل في الحرب. بالمناسبة، الغريب في الفرنسيين أنهم دائماً يتحدثون عن الحرب التي توشك أنْ تندلع. ولا يتحدثون أبداً عن إنزال الهزيمة بالعدو، ولم يُظهروا أية كراهية للألمان؛ كانوا يتحدثون عنها بوصفها عملاً عليهم إنجازه، عملاً مقيتاً، يُنجزونه من دون نقاش لأنهم مواطنون فرنسيون. لكنَّ الفكرة الأسمى التي تدور في أذهانهم، عندما يُناقشون الموضوع، كانت العودة إلى الوطن، واستعادة حياتهم الاعتيادية، والعودة إلى محرابهم الصغير، على أي صورةٍ كان. بالنسبة إليّ يبدو أنَّ موقفهم يكشف دائماً عن أعلى شكل من أشكال الشجاعة: لقد كان موقفاً مُسالما بصورة جليّة. إنهم يُحاربون بدافع الإحساس بالواجب ومن دون كراهية. لهذا فرنسا قوية وسوف تنهض من جديد وتستعيد مكانتها في العالم. لقد غُزيتْ فرنسا لكنها لم تُهزم.

وسط حديث مفعم بالحيوية سمعنا فجأةً صوت فرقة موسيقية تعزف وبعدها بلحظة أو اثنتين مرّ بنا عرض من صفوف من الأطفال يسبقهم مهرّجون ومشعوذون. كان سيُقام احتفال في وقت لاحق، كما فسّر لي، على شرف أحد القديسين الكاثوليك. فهلا شرّفته وتناولت معه وجبة العشاء ؟ إنه يودّ أنْ يُريني البلدة بعد هبوط الليل - سوف تكون في أحسن حالاتها هذا المساء بسبب روح الاحتفال. وقد أسعدني كثيراً أنْ أقبل دعوته. كان الظلام قد حلّ فعلاً وسرعان ما حولّت أنوار الشارع المشهد الممل، الريفي للمكان إلى شيء واعدٍ أكثر. قال بسرعة " أنا أعرف كل بيت في هذه البلدة "، ونحن نمشي نحو أقرب مطعم. " أبي كان نجّاراً وبنّاءً. وكنتُ أعمل معه صبياً معاوناً. إنه عمل رائع - أفضل بكثير من عمل صاحب مكتبة. ما أروع العمل باليدين - وبحب! آه إنني أندم عليه الآن. لكني ما أزال نجّاراً في قلبي "

أكلنا في أشد المطاعم تواضعاً وأتبعنا الطعام بـ **petit vin du pays** (بقليل من الخمر المحلي) وكان لذيذاً. وبعد العشاء تمشينا عائدَين إلى الفندق لكي نُحضِر المفتاح - كانت الأبواب توصد عند الساعة العاشرة. كان المفتاح، كالباب نفسه، ضخماً؛ كمفتاح حصن. وقفنا أمام الباب نتفحّصه هنيهة. أراني الإصلاحات التي كان والده قد أجراها على الباب والمفصل الكبير الذي ثبّته بنفسه عليه لاحقاً. قال، وهو يقبض على ذراعي، " هيا، سأُريك بعضاً من الشوارع الصغيرة، في سارلا القديمة التي نسي أمرها أهالي باريس"، وبهذا باشر بالكلام عن شارلمان، وعن رونسار وفيّون، عن دوقات برغندي وحسناء أورلينز. تكلّم عن الماضي ليس كمثقّف أو كطالب في قسم التاريخ بل كرجل يتذكّر شيئاً عاشه

حقاً. بعد هنيهة صمت قال " ذلك الكتاب الذي كنت تنظر إليه بعد الظهيرة، سوف نعود إلى المحل ونحضره. أريدك أنْ تأخذه كتذكار من سارلا. لعلك تترجمه ذات يوم..." ثم باشر بالحديث عن أفينيون ومونبلييه، عن آرل ونيم وأورانج، عن لغة البروفنسال، وعن عظيمات فرنسا، والروزيكروشيين[٢٧]، ومداخل كاتدرائية نوتردام السرية، وعن باراسيلوسوس[٢٨] ودانتي. قال " يا صديقي العزيز "، بعد أنْ توقف فجأةً في ظل مدخل باب كبير من القرون الوسطى، "إنَّ فرنسا بالنسبة إليّ هي البلد الوحيد في العالم. لقد خاضت التجارب كلها. لكن عظمتها تكمن في الأشياء الصغيرة - في الرقّة، في الصبر، في المهابة. إنَّ فرنسا لا تطمع في الهيمنة على العالم. إنها في الحقيقة تشبه المرأة التي تغويك. وهي ليست من نوع النساء التي تراها جميلة من النظرة الأولى. لكنها تعرف كيف تنضفر مع عواطفك. إنها تتعرّى ببطء، بحذر، ودائماً تحجب السحر الحقيقي، الكنوز الحقيقية، حتى اللحظة التي تتلقى فيها الاستحسان الحقّ. إنها لا ترتمي عليك كعاهرة. إنَّ روح فرنسا طاهرة ونقيّة، كزهرة. ونحن صبورون ليس لأننا رعاديد بل لأنَّ لدينا الكثير لنُعطي. إنَّ فرنسا كنز لا ينضب ونحن، شعب فرنسا، الحراس المتواضعون لذلك الكنز العظيم. نحن لسنا كرماء مثلكم - ربما لأنَّ ما نملك كسبناه بعد عناء عظيم. وكل بوصة من أرضنا خضنا من أجلها حروباً كثيرة. فإذا كنا نحب أرضنا، كما لا تفعل إلا شعوب قليلة في العالم، فذلك لأنها ارتوت بدماء آبائنا السابقين. قد تبدو حياتنا بالنسبة إليكم حياة ضحلة لكنها بالنسبة إلينا عميقة وغنية - ولاسيما نحن الذين نقيم في الريف. لقد عشت في باريس وتولهت بها، ولكن هنا توجد الحياة

الحقيقية بين القريبين من الأرض. صحيح أننا أحياناً نُصاب بالضجر، لكنه أمر عابر. إننا نبقى فرنسيين - هذا هو المهم "

كنا قد مشينا عائدين عبر باب المدينة القديم وانتقلنا إلى قلب العصور الوسطى. أحياناً كان يُضطر إلى الإمساك بيدي ويقودني بسبب الأزقة الضيقة، الملتوية التي يغمرها الظلام. وفي أحد تلك الأزقة تحسَّسَ دربه على طول الجدار بإحدى يديه، وعندما وصل إلى البقعة الصحيحة، أشعل عود ثقاب وطلب مني أنْ أدعك يدي على خشب بوابة ضخمة. ونجحنا بإشعال عود ثقاب بعد آخر، في تفحُّص الباب كله، وهو إجراء جعل ذلك الباب يحيا في ذاكرتي كما لم يفعل أي باب آخر. ثم ساد الظلام من جديد، ظلام دامس لا يقطعه إلا ضجيج مرح في الأسفل حيث كانت الاحتفالات البريئة على أشدّها.

كانت عيناي تطفح بالدموع. لقد عاد الماضي حياً من جديد؛ عاشَ في كل واجهة، كل بوابة، كل طيف، في كل حجر تحت أقدامنا. الأطفال بملابسهم البيضاء خرجوا أيضاً من الماضي. وفجأةً شددته من كُمه، قلت " قُلْ لي، هل تذكُر رواية " ***لو غران مولان*** "(المولان الكبير)؟ "

قال، وهو يقبض على ذراعي، " الحفلة؟ "

" نعم، الحفلة! ***الأطفال***! "

لم نُضِف كلمة أخرى على ذلك. ولفّنا صمت عميق. كان الكتاب يتكلّم من خلالنا وسط صمت الشارع الصغير، يُناشدنا ألا نقطع تسلسل الحلم، ألا نجرّ الأطفال خارج عالمهم الوهمي.

لدى هبوطنا الدَرَج العريض المؤدي إلى الحاجز الذي تبدأ عنده مجموعة من الدَرَج على شكل نعل الفرس منحدر لم أرَ غير لهب قليل

ينبعث من الدرابزين ومن عتبات النوافذ. كانت الساحة كلها ترقص مع لهب صغير تتمايل من خلاله أشكال الراقصين ويترنحون كما في عرض لخيال الظل. ومن جديد طفرت الدموع من عينيّ. كان المشهد كله أثيرياً، لا يُشبه في شيء المفهوم الأميركي للمرح. ومع ذلك كانت الخلفية رصينة، ضخمة، وتكاد تكون شريرة في قوتها الجديرة بالعصور الوسطى. ذكّرتني بصورة ما بزهرة الزنبق على شِعارات النبالة الثقيلة للفرسان الرحّالة - ذلك التبايُن بين القلب وقبضة اليد، صدمة المعركة القديمة تلك عندما كانت ضربة الموت تأتي كنعمة وكتحرُّر. ذكّرتني أيضاً بالأوبئة وبالفرح الذي لابد أنه تلا خلال فترات استرخاء قصيرة جداً. وذكّرتني بالطريقة التي يعالج بها لحام شارع دو لا تومب-إسوار باللحم، وبجمال ورقّة ضربة سكينه، بالحب الذي يرقى إلى حب الأم الذي كان يحمل به ربع عجل من نضد التقطيع إلى قطعة الرخام في الواجهة. نعم، كانت فرنسا تحيا من جديد أمام عينيّ، فرنسا الزمن الغابر، فرنسا الأمس، فرنسا الغد. فرنسا الرقيقة والعظيمة! يا إلهي، كم أنظر إليك بحب وتوقير الآن. ولم أكن أعلم أنها ستكون نظرتي الأخيرة. كم كنتُ محظوظاً! وها أنتِ الآن قد سقطت، سجدتِ تحت أقدام الغازي. أكاد لا أُصدِّق. يبدو أنني الآن فقط، في هذه اللحظة، وأنا أعيش تلك الليلة من السحر الصِرف، أدركتُ هول الجريمة التي ارتُكِبت بحقك. ولكن حتى لو دُمِّر كل شيء، حتى ولو دُمِّرت كل مدينة مهمة، وسُوِّيت بالأرض، فإنَّ فرنسا التي أتحدث عنها ستبقى حيّة. وإذا انطفأ لهب الروح العظيم فإنَّ ألسنة اللهب الصغيرة لا تنطفئ؛ سوف تنبجس من الأرض بألف لسان صغير ولسان. سوف تولد فرنسا أخرى؛ سوف يُضاف يوم مقدس آخر

إلى التقويم. كلا، إنَّ ما رأيت لا يمكن سحقه تحت أقدام الغازي. إنَّ قول إنَّ فرنسا سوف تزول لهو من قبيل طعن الروح الإنسانية. فرنسا ستعيش. Vive la France !

روح الخُدار

" فلتسقط القوة، والعدالة، والتاريخ! "
رامبو

سوف أُسمّيه بدْ كلوزن لأنَّ هذا ليس اسمه الصحيح. ولن أقول أين قابلته، لأني لا أرغب في أنْ يناله أي أذى. لقد لقيَ ما يكفي من التعذيب على أيدي حرّاسنا الساديين الساهرين على الأمن. وكائناً ما كان ما فعل، في هذه الحياة أم في الحياة الآخرة، سوف أبقى دائماً قادراً على إيجاد الأعذار له.

لا أريد أنْ أجعل منه بطلاً؛ أريد أنْ أرسمه بصدق.

حينئذٍ كان راتنر في صُحبتي. كنا نقوم برحلة طويلة على متن القطار. وكنا قد انتهينا تواً من زيارة مؤسسة لإنزال العقاب أفضِّل ألا أذكر اسمها. أبدى لنا آمر السجن كل كياسة. ولكن هناك تفصيلا واحدا في المكان بقيَ راسخاً في ذاكرتي ويصلح مقدِّمة جيدة لقصة بدْ كلوزن.

لكي تلج أبواب هذه المؤسسة الشهيرة عليك أنْ تمرّ بحارس يقفُ فوقك فيما يشبه منصّة الفرقة الموسيقية. عليك أنْ تتعرَّض لاستجوابٍ قاسٍ قبل أنْ يمنحك الإشارة الواضحة. كان يحمل بندقية بيده، ويضع

مسدساً في جرابه، وربما يضع قنبلتين يدويتين في جيبيّ بنطلونه. كان مُسلّحاً حتى أسنانه. وخلفه كان القانون، القانون الذي يقول أطلقْ النار أولاً ثم اطرح الأسئلة. كان يُجري عليّ فحصاً شاملاً لأني نسيت أنْ أُعلِم آمر السجن عبر الهاتف بأني أُحضِر معي صديقي راتنر. ووجدتُ صعوبة في إفهامه كيف أني نسيت مثل هذا التفصيل التافه.

ليس هذا هو المكان المناسب للشكوى من الإجراءات الشكلية لأنظمة السجن. أنا أعلم أنَّ عليهم أنْ يتّخذوا كل حذر ممكن. وكل ما أرغب في نقله هو الأثر الذي تركه هذا الشخص عليّ. وقد مرت أشهر طويلة على تلك الحادثة وما أزال لا أستطيع أنْ أنسى وجهه، وسلوكه، وكيانه كله. إنه رجل، وأقولها بهدوء وبجدّية، يمكنني أنْ أقتله بدم بارد. يمكنني أنْ أطلق النار عليه في الظلام ثم أعود بهدوء إلى عملي، وكأني أزلتُ بعوضة عن ذراعي.

كان قاتلاً، رجلاً يتصيَّد فرائس بشرية - ويقبل مالاً في المقابل. كان قذراً، وغير مؤهل للارتباط بالجنس البشري، حتى بأولئك المنبوذين خلف القضبان. ولن أنسى ما دمتُ حياً الوجه القاسي، الشاحب، وتينك العينين الباردتين، الصغيرتين، الجديرتين بصائد بشر. إنني أكرهه وأكره كل ما يُمثّله. أكرهه كراهية لا تخمد. وأفضّل ألف مرة أنْ أكون محكوماً لا سبيل إلى تقويمه على أنْ أكون هذا المأجور من قِبَل الذين يُحاولون أنْ يُحافظوا على القانون والنظام. القانون والنظام! أخيراً، عندما تراه يُحدِّق إليك من خلال فوهة البندقية، تعلم معناه. A bas puissance, justice, histoire! (فلتسقط القوة، والعدالة، والتاريخ!) وإذا كان لابد من حماية المجتمع من قِبَل تلك الوحوش اللاإنسانية إذن فليذهب المجتمع إلى الجحيم! وإذا

كان القانون والنظام لا يعتمدان إلا على رجلٍ مُسلَّح حتى أسنانه، رجل بلا قلب، بلا ضمير، فلا معنى للقانون وللنظام.

لنعُد إلى كلوزن... إنَّ بدْ لم يكن قاتلاً بلا قلب. لقد بذل أقصى جهده كي لا يقتل، إذا صدّقنا حكايته. لقد كان ضعيفاً وتافهاً - كغالبيتنا. لقد ارتكب بعض السرقات في أول الأمر، لكنها لا تُقارَن بما يفعله أرباب الصناعة المشهورون والجذابون، أصحاب المصارف، والسياسيون والمستعمرون المُستغلون. كلا، لقد كان بدْ مجرد مخادع عادي، مُخادع صادق، إنْ صحّ التعبير، يتحلّى بحس مُغالٍ بالولاء والشرف. كان يُعامل الجنس اللطيف برومانسية وشهامة حمقاء، أكثر بكثير مما يفعل ملاكم محترف أو رجل دين محروم جنسياً. كان هناك شيئان لم يستطع أنْ يقرّهما - معاملة الأطفال بقسوة وعدم احترام المرأة. كان صلباً في هذه النقطة.

لا يمكن أنْ يُطلق النار على إنسان إلا في حالة الدفاع عن النفس، كما قال، وأنا أُصدّقه. كان يتّسم بقدر من الغندرة، وبتبجُّح متفاخر أيضاً، وهما سمتان نجدهما بين أصحاب المقام الرفيع أيضاً. كان كذّاباً من الطراز الأول، ولكن ما الدبلوماسي، والسياسي، والمحامي؟ وأسوأ ما فيه، وأنا أحاول أنْ أنظر إليه بحياد، أنه تخلّى عن أدنى إيمان بأخيه الإنسان. والسبب في ذلك هم أولئك الذين يتحدثون عن كونهم مؤمنين ولا يُقدّمون أي دليل على ذلك. وقد سُجن على الأقل خمس مرات ولعله كان مطلوباً من السلطات عندما تقابلنا.

لقد دفع ثمن جرائمه كاملاً، في اعتقادي. وإذا ارتكب جرائم أخرى فسوف أضع اللوم على رجال الشرطة، والمُشرّعين، والمُعلّمين، ورجال

الدين، وعلى كل الذين يؤمنون بإنزال العقاب، الذين يرفضون أنْ يُساعدوا إنساناً عندما يسقط أو يُحاولوا أنْ يفهموه عندما ينقلب ضد العالم في ثورة غضب عقيم. لا يهمني نوع الجرائم المحسوبة على كلوزن؛ إنَّ جرائمنا، نحن الذين في الخارج، الذين لم نُعاقَب، أعظم. وإذا لم نكن قد أجبرناه على أنْ يُصبح مجرماً فإننا حتماً ساعدناه على أنْ يبقى كذلك. وبكلامي عن بدْ كلوزن إنما أتكلَّم بالنيابة عن الغالبية العظمى من الرجال والنساء الذين عانوا من المصير نفسه؛ إنني أتكلَّم بالنيابة عن الذين سيأتون لاحقاً، الذين سيتبعون خطاه ولم يحصلوا على الإنصاف إلا بعد أنْ نصبح نحن الذين في الخارج أكثر استنارة وأكثر إنسانيّة.

تقابلنا على متن القطار. كان بائعاً جوالاً، و"فحلاً جذاباً"، كما يُقال. كان يرتدي زياً زوّدته به شركة الأخبار ويمرّ جيئة وذهاباً على فترات يعرض الحلوى، والسجائر، واللبان، والصحف والمياه الفوارة، إلى آخره. ولم يكن يبدو عليه الإجرام. كان رقيقاً، ولطيفاً، وحلو الكلام – وفي أسوأ الأحوال، رجلاً ضاقت به الأحوال، كما نقول. ولو أنه يجلس في مجلس النواب لما لاحظ أحد أي شيء غريب فيه. كان يمكن أنْ يكون صاحب مصرف، أو زعيماً عمالياً، أو سياسياً، أو مُحرّضاً. وما كنتُ لأوليه أي انتباه لولا الكلمات القليلة التي نطق بها ونحن نترجل من القطار. طوال فترة وجودنا في القطار لم نتبادل كلمة واحدة: لم أشترِ منه أي شيء، ومرة جعلني أجفل من غفوتي عندما مال فوقي لكي يُرخي الستارة. حينئذٍ انتابني شعور غريب بالانزعاج ولكن سرعان ما نفضته عني. إنَّ كل ما أراد هو أنْ يحميني من أشعة الشمس، كما قال.

عندما توقف القطار في المحطة كنتُ أنا وراتنر واقفَين على المنصّة وأمتعتنا مكوّمة حولنا. كان بائعو الصحف يترجلون أيضاً- كان ذلك آخر الخط بالنسبة إليه. عندما مرّ بنا تمنّى لنا حظاً سعيداً. عندئذٍ أصدر القطار ارتجاجاً مُفاجئاً؛ فتوقف هنيهة أو نحوها لكي يتوازن، متمسّكاً بدرابزين الأمان الذي تمسّكنا نحن أيضاً به.

قلت، على سبيل التعبير عن امتناني لنواياه الطيبة، " لابد أنكَ سعيد بالعودة إلى المنزل ".

قال، وهو ينظر إليّ بطريقة غريب، " ليس لدي منزل ". وساد صمت مشحون ومن ثم أخبرنا باقتضاب، من دون إبداء أية مشاعر، أنه خرج من السجن قبل وقت قصير، وأنه لم يتعوّد بعد على حياة الحرية. أما عن صورة المنزل، والمرأة التي تنتظره، في الواقع... حسن، لم يعُد لديه إلا هذا... لم يعُد يعرف كيف يُطوّق امرأة بذراعيه. لم يعُد في استطاعته أنْ يأمل في حصول هذا. من الرائع أنْ يكون المرء حراً فقط، أنْ يخرج إلى العالم، أنْ يتمكن من التحدث مع الناس. وبعد ذلك بلحظة كان قد هبط الدرَج، ومن جديد وهو يتمنى لنا الحظ الحسن.

كان علينا أنْ نُجري مكالمة هاتفية هامة في المحطة وفي غمرة الإثارة التي تلتْ سقط كلوزن من ذهني. ولكن أثناء إيوائنا إلى السرير في تلك الليلة أثار راتنر الموضوع. قال إنه يشعر بالأسف لأننا تركنا الرجل يفلت من بين أيدينا. أراحني قوله هذا؛ أنا أيضاً شعرتُ بأننا تركنا أمراً لم نُنهه.

قال راتنر" دعنا نبحث عنه في صباح الغد. يجب أنْ نتمكن من اقتفاء أثره عبر شركة الأنباء. قد نتمكن من فعل شيء من أجله ".

في المحطة في صباح اليوم التالي عثرنا على الرجل الذي وجد له عملاً. كان شخصاً شرساً ومتوتر المزاج. قال إنَّ الرجل سيترك العمل. وكل ما كان يُقلقه هو الزيّ الرسمي - فهل سيُعيده أم لا. بدا أنه يعتقد أننا نحن اللذان أبعدنا كلوزن عنه، وأننا سنستخدمه لصالحنا.

" أتعلمان ماذا هو... إنه مجرد خريج سجون، ولا نفع يُرجى منه لأحد، ولن يكون كذلك في المستقبل. سوف يسرق أي شيء يستطيع أنْ يضع يده عليه. ولكن إذا أردتما أنْ تستخدماه فهذا شأنكما. كل ما أريد هو تلك البذلة. سوف يأخذها ويختفي. لا يمكن الوثوق بأحد هذه الأيام "

استمر على هذا المنوال، دون أنْ يدع لنا فرصة للكلام. وأخيراً نجحنا في إعلامه، وإنْ لم نُقنعه، بأنه لا نيّة لنا في استخدام كلوزن بما أننا لا نعمل في المجال نفسه، ولكننا أردنا أنْ نساعده قدر استطاعتنا. بدا محتاراً بسبب عدم اكتراثنا، ثم تفاقم شكّه. وأخيراً، أعطانا عنوان النُزُل الذي يُقيم فيه كلوزن متذمراً وحذّرنا قائلاً " احذرا منه لئلا يمارس عليكما خدعة قذرة" أثناء خروجنا من الباب. ثم هتف، ونحن نمشي مبتعدَين، "واخبراه أنني سأسعى للحصول على تلك البذلة، أتسمعان؟".

توجهنا على الفور إلى العنوان الذي أعطاه لنا. كان مكاناً قذراً وكئيباً ومشبوهاً قليلاً أيضاً - أشبه بالمخبأ. قيل لنا إنَّ كلوزن غادر قبل بضع دقائق فقط لكي يشتري قبعة ويقصّ شعره. أراد الرجل أنْ يعرف إنْ كنا من أصدقائه. شرحنا له أننا تقابلنا على متن القطار. نعم، أردنا أنْ نكون أصدقاء له. هزّ الرجل رأسه إيجابياً وكأنه فهم ما قلنا.

تمشينا ثم عدنا بعد ساعة. لم يكن كلوزن قد عاد. جلسنا وحاولنا أنْ نفتح حديثاً مع الرجل، لكنه كان منغلقاً تماماً. وأخيراً قررتُ أنْ أترك

له رسالة قصيرة، أدعوه فيها للمجيء ومقابلتنا. كانت رسالة مكتوبة بأسلوب ودّي وشعرتُ بيقين من أنَّ كلوزن لن يتجاهلها. أعطيته رقم الهاتف وأخبرته بأننا يمكن أنْ نعرّج عليه إذا شاء. كنا نقيم على بُعد بضعة أميال خارج البلدة في كوخ للسياح.

مرَّ النهار دون أنْ تصلنا أية كلمة منه أو نراه. وفي اليوم التالي عند الظهيرة وصلتنا رسالة عبر الهاتف تقول إنه في طريقه لكي يتناول طعام الغداء معنا.

كان يوماً بارداً وفوجئنا بمجيء كلوزن من دون قبعة ولا معطف، يبدو كأنه يتظاهر بأنه يوم ربيعي ممتع. لاحظت تسريحة شعره على الفور- كان مفروقاً من المنتصف. بدا أنه يُغيِّر مظهره كله. ولاحظت أيضاً القميص المُنشّى والنظيف وربطة العنق الأنيقة. كان يرتدي سترة من الصوف الأزرق كُويَتْ حديثاً ودعمت الانطباع الذي أعطاه بالأناقة والنظافة. حتى ليعتقد المرء أنه بحّار. وقد يُخطئ المرء أيضاً ويعتقد أنه سمسار بورصة أو مُحرِّض. كانت حركاته تحاول بارتياح ودقّة، مع قليل من المُغالاة، كما بدا لي، أنْ تكون طبيعية. لعله كان يُحاول أنْ يُخفي توتر أعصابه؛ لعله كان خجلاً من مشاعره الحقيقية. هكذا ظننت للوهلة الأولى. ولكن سرعان ما أدركتُ أنَّ القِناع أصبح جزءاً منه، وأنَّ الأمر يتطلّب جهداً خارقاً لدفعه إلى خلعه. ولم أكن متيقناً من أني أهتم لرؤيته يتقدّم نحوي وهو عارٍ؛ مجرد التفكير في هذا أثار انزعاجي.

كان هناك أيضاً في سلوكه شيء أنبأنا بأنه يُقدِّم لنا معروفاً لأنه جاء لزيارتنا. لم يعُد هناك فيه أي شيء من بائع الصحف، ولا حتى من الرجل الذي تحدث معنا لبضع دقائق وجيزة على منصة القطار. كان

هادئاً، ثابتاً، متورد الوجنتين ومتّزناً. وكاد يكون مستبداً. لكنَّ أصابعه كانت مُلطخة بشكل شنيع بالنيكوتين. بدا أنها تناقض حركاته كلها. وطوال فترة تناول الطعام راقبت يديه. كانت الأصابع أشبه بمخالب قذرة؛ وإحدى اليدين مُعاقة.

عندما سألناه لماذا أخَّر زيارته لنا أجاب بأنه كان عليه أنْ يرى أحد أصدقائه في مخيَّم للجيش في مكان بعيد. كانت لديه طريقة في النظر إلى المرء في عينيه بثبات، أثناء كلامه، تربكُ قليلاً. كانت ثابتة أكثر مما ينبغي. يشعر المرء بأنه تدرَّب عليها أمام المرآة.

بعد الغداء عُدنا إلى الكوخ لكي نتحدث بارتياح. قال، وهو يتراخى على كنبة كبيرة، " أعتقد أنك تريد أنْ تسمع قصتي. هل لديك سيجارة أخرى؟ "

الطريقة التي قال بها هذا فجأةً أعطتني على الفور المفتاح لهيئة التنازُل التي تلبَّسها منذ البداية. كان ذلك يعني أنه لم يُصدّق رغبتنا في مساعدته من دون مُقابل. وكان يعني أيضاً أنه كان يعرف قيمة نفسه، كمادة مُثيرة للاهتمام إنسانياً، وأنه يرغب في عقد صفقة. إذ لا أحد يريد أنْ يساعد محكوماً سابقاً حباً في ذلك فقط. اللهم إلا إذا كان عاطفياً مخنّثاً. لقد قيَّمنا كما يفعل بائعو الصحف، كما أبلغنا بهدوء، وقد جاء وهو مستعدٌ لتقديم بضاعته. في الحقيقة، كان الأمر يتضمّن كتاباً لشخص ما، إذا كان لدينا الصبر لسماعه حتى النهاية. كان يمكن أنْ يكون هو مؤلفه لكنه لا يتحلّى بالموهبة اللازمة في هذا الاتجاه. التفت إليّ وقال " لقد عرفت أنكَ كاتب منذ أنْ وقعت عليك عيناي. أما هو " وهزّ إبهامه المُبقَّع في اتجاه راتنر، " فأي شخص يمكن أنْ يُلاحظ أنه فنان. ثم إني رأيته وهو يرسم في القطار".

فوجئ تماماً عندما أخبرناه أننا لسنا صحفيين، وأننا لا نريد أنْ نستغل قصة حياته، وأنه ليس في حوزتنا إلا القليل من النقود، وأننا نقوم بشيء قد لا يكون مُجزياً على الإطلاق. أخبرناه أنَّ هدفنا الأول من القيام برحلتنا هو لتجديد تعرّفنا إلى بلدنا. شرحنا أننا كنا نُقيم في الخارج منذ بضع سنوات. كلا، يهمنا أنْ نصغي إلى أي شيء يهمّه أنْ يُخبرنا به عن تجاربه، ولكن ليس هذا هو الهدف. إننا نريد منه أنْ يعلم أننا نكنّ له شعوراً ودياً نقياً. إننا لا نعلم ماذا يمكن أنْ نفعل لأجله، ولكننا نرغب في مساعدته - هذا إذا كان في حاجة إلى مساعدتنا.

لانَ بوضوح لدى علمه هذا. نعم، إنه في حاجة إلى مساعدتنا. ومَنْ لا يحتاج؟ ولاسيما إنْ لم تكن قد حصلت إلا على الأسوأ طوال حياتك. لقد تخلّى تواً عن عمله؛ على أية حال لم يكن فيه شيء مميَّز. لقد قبِله لأنه لم يتوفر له غيره: لا أحد يريد أنْ يستخدم رجلاً خرج تواً من السجن. لكنَّ آماله أعرض من أنْ يكون " فحلاً جذاباً ". إنه يريد أنْ يذهب إلى نيويورك. لديه أصدقاء هناك، أصدقاء يرغبون في إخراجه من أزمته. كان هناك صديق بعينه، يُدير محلاً لبيع الأدوات الموسيقية في شارع برودواي. كانا قد قطعا شوطاً طويلاً معاً في مكان ما. كان واثقاً تماماً من أنَّ صديقه سوف يكون طيباً بحيث يمنحه بضع مئات في الحال.

حتى لو أفرغنا ما جيوبنا لما تمكّنا من جمع ما يكفي لأجرة الحافلة المتوجهة إلى نيويورك، كما شرحنا له. أنا واثق من أنَّنا لم نكن مُقنعين كثيراً، بسبب الأمتعة الموزعة في أرجاء الغرفة، والسيارة المتوقفة في الخارج، والأميال الـ ٢٥٠٠٠ أو نحوها الأخرى التي سنقطعها. كدتُ أشعر أني كذّاب وأنا أشرح له وضعنا.

على الرغم من هذا الفشل غير المتوقع تابع كلوزن الحديث عن نفسه. كان جلياً ارتياحه لبوحه بما في مكنونات صدره، وإنْ لم ينتج عنه أي شيء. لقد كنا مُستمعَين *متعاطفَين*، وهذا بحد ذاته كان يعني الكثير بالنسبة إليه.

ليس هدفي أنْ أعيد سرد قصة حياته. لم يكن فيها ما هو غير عادي: كانت تقع ضمن العادي. وفي لحظة ضعف، عندما بدا أنَّ الجميع انقلبوا ضده، تجاوز القانون. وعيشه في ذلك العالم الآخر يوماً بعد يوم جعل من الصعب عليه أكثر فأكثر أنْ يعود للانضمام إلى الحشد. إنَّ الجرائم التي تنتج عن الحاجة سرعان ما تؤدي إلى جرائم تُرتَكَب بدافع التبجُّح المحض. أثناء إطلاق سراحه المشروط، بعد أنْ أمضى فترة سجنه الأولى، ارتكبَ جريمة من دون أي مُبرر - من النوع الذي يرتكبه فنان لمجرّد أنْ يُحافظ على لياقة يده. والسجن هو مدرسة الجريمة بامتياز par excellence. وقبل أنْ يلتحق المرء بتلك المدرسة يكون مجرد هاوٍ. في السجن يؤسس صداقات، غالباً بفضل شيء تافه، كلمة لطيفة، نظرة، عَظمة. ولاحقاً، في العالم الخارجي، يبذل المرء كل ما في وسعه ليُثبت ولاءه. وحتى لو رغب من كل قلبه وروحه أنْ يستقيم، عندما تأتي اللحظة الحاسمة، عندما تُصبح مسألة الاختيار بين الإيمان بالعالم أو الإيمان بصديقه على المحكّ، سوف يختار الثاني. لقد كان قد تذوَّقَ طعم العالم؛ وعرِفَه جيداً بحيث لا يتوقَّع منه العدالة أو الرحمة. لكنه لا ينسى أبداً فعل عطف في لحظة الحاجة الماسّة إليه. ***هل تنسف منزلاً بأكمله*** ؟ طبعاً، إذا كان هذا سيساعد صديقك. ***لكنَّ هذا قد يعني السجن مدى الحياة، أو الحكم بالإعدام على الكرسي الكهربائي!*** وماذا

في هذا؟ إنَّ أمراً جيداً يستحق آخر. لقد تعرَّضتَ للمذلة، والتعذيب، واختُزِلتَ إلى مستوى حيوان ضار. مَنْ يهتم ؟ لا أحد. لا أحد في الخارج، كلا، ولا حتى الله نفسه، يعرف ما يُعانيه الإنسان في الداخل. ليست هناك لغة قادرة على التعبير عنه. إنه يتجاوز الفهم الإنساني كله. إنه من الامتداد، والاتّساع، والعمق بحيث إنه حتى الملائكة بكل قدراتها على الفهم والحركة لا يمكنها أبداً أنْ تسبره كله. كلا، عندما يُناديك صديق فيجب أنْ تلبي النداء. عليك أنْ تقدم له ما عجز الله نفسه عن تقديمه. هذا قانون. وإلا ستنهار، ستنبح في الليل ككلب.

كما قلت، إنَّ أخطاءه ليست مهمة. إنها ليست غريبة كثيراً. ولا يهمني أيضاً أنْ أُركِّز على ما حلّ به من صنوف العذاب. هي أيضاً ليسَت غريبة كثيراً، بالنظر إلى العصر، على الرغم من أنها جعلت شَعري ينتصب. وعندما تعلم ما يقدر الناس على فعله لا تتعجَّب من نُبلهم ولا من خسّتهم. فمن الواضح أنه لا حدود لكليهما.

إنَّ التحفُّظ الهادئ الذي وصف به كلوزن جرائمه وعقابه أذهلني أكثر فأكثر. ونبذتُ فكرة أنَّ سلوكه كان مدروساً ودقيقاً. وبدأتُ أصدِّق أنَّ انعزاله حقيقيّ. إنني أُصدِّق أنه خلال فترات السجن الطويلة التي سربلها الصمت والعزلة راجع كل ما حدث له مراجعة شاملة، وفي الغالب كان يعيش من جديد حياته، وكثيراً ما تناوبت عليه فترات التوبة والجنون، حيث إنه عندما أُطلِقَ سراحه إلى العالم الخارجي كان لابد للانضباط الذي لا يمكن أنْ يتحمّله إلا قدّيس أو خبير أنْ يجد له تعبيراً. لم تكن تصريحاته تنطوي على أي غلّ، أو خبث أو حقد. لقد تكلَّم عن مُعذّبيه - الذين كانوا بكل وضوح شياطين يتقنّعون بلحم بشر - أقول،

تكلَّم عنهم ليس بروح الغفران التي يمكن أنْ تتوقعها من رجل دين، بل بفهمٍ شديد القُرب منها. حتى هنا لستُ واثقاً من أني أُنصِفه. لعله كان **فعلاً** مستعداً للغفران – لو أنه استطاع أنْ يقتنع بأنه نال الغفران. لقد كان شديد القرب منه. كان أشبه بشجرة عجوز تتدلى نامية على حافة جُرف، وقد ظهرت منها جذورها النخرة، معلّقة هناك بصورة مُعجزة بسبب هبوب عاصفة والرياح العاتية واللامبالاة والإهمال، وكأنها تجسِّد عملية التدلّي الخاوية. هو تدلٍ في الخواء حقاً، ذلك أنَّ تلك الجذور القديمة لا يمكن حقاً أنْ يكون فيها من القوة ما يُمكّنها من تخليد ذلك العمل الإرادي.

كل شيء يمكن أنْ نفعله بذلك البرج المائل للقوة! لنفرض هنيهة أنَّ للعقاب بركاته: فأين إذن الكؤوس التي ستتلقاها؟ مَنْ يُنزِل العقاب بشخص آخر ويرغب في تحمُّلها هو نفسه؟ مَنْ، بعد أنْ يُنجز غايته المقدَّسة في حماية المجتمع، يرغب في قبول الجائزة التي تُقدِّمها كل ضحية؟ إننا نُعاقب بتهوُّر وبتهوُّر نُبعد الكأس عنا. هناك أناس يدرسون المجرم؛ وهناك أناس يبتكرون المزيد من الأساليب الإنسانية للتعامُل معهم؛ وهناك أناسٌ يُضحون بحياتهم ليُعيدوا إلى هؤلاء الرجال ما أخذه آخرون منهم. إنهم يعرفون أشياء لم يحلم بها المواطنون العاديون. كان في استطاعتهم أنْ يُخبرونا بألف طريقة أفضل عن معالجة الوضع من طريقتنا التي لا تفعل الآن. ومع ذلك أقول إنَّ شهراً في السجن يساوي عشر سنوات من الدراسة يُجريها رجل حرّ. وحكم ضالّ يصدر عن شخص محكوم أفضل من حكم مستنير يصدر عن متفرّج. إنَّ المحكوم يصل في نهاية المطاف إلى براءته، أما المتفرِّج فإنه حتى لا يعي

ذنبه. ومقابل جريمة واحدة يتم التكفير عنها في السجن يرتكبُ المُدينون عشرة آلاف بلا تفكير. وليست هناك بداية أو نهاية لهذا. الجميع متورطون، حتى الأشدّ قداسة. الجريمة تبدأ مع الله. وسوف تنتهي مع الإنسان، عندما سنعثر على الله من جديد. الجريمة منتشرة في كل مكان، في أنسجة وجودنا وجذوره كلها. وفي كل دقيقة من كل يوم تُضاف جرائم جديدة إلى القائمة، تلك التي تُكتَشَف وتُعاقَب، وتلك التي لا تُكتَشَف. إنَّ المجرم يتصيَّد المجرم. والقاضي يحكم على القاضي. والبريء يُعذّب البريء. وفي كل مكان، في كل أسرة، وقبيلة، وفي كل مجتمع عظيم، جرائم، جرائم، جرائم. إنّ الحرب بالمقارنة عمل نظيف. والجلاّد يمامة وديعة بالمقارنة. وأتيلا، وتيمورلنك، وجنكيزخان - أناسٌ آليون متهورون بالمقارنة. ووالدك، وأمك العزيزة، وأختك الرقيقة: هل تعرف أي نوع من الجرائم البشعة يضمرون في صدورهم ؟ هل تستطيع أنْ تضع مرآة في وجه الظلم إذا توفرت لك واحدة ؟ هل نظرت في متاهة قلبك الخسيس؟ هل شعرت أحياناً بالحسد من قاطع الطريق على صراحته؟ إنَّ دراسة الجريمة تبدأ بمعرفة الذات. وكل ما تشمئز منه، وتمقته، وترفضه، وتُدينه وتسعى إلى هدايته بالعقاب ينبع منك. ومنشؤه الله الذي تضعه في الخارج، وفوق، وفي المدى البعيد. الجريمة هي التطابُق، أولاً مع الله، ثم مع صورة ذاتك. الجريمة هي كل ما يقع خارج المجموع وما يُحسَد، ويُشتهى، ويُرغب فيه. الجريمة تومض بمليون حد سكين وامض في كل دقيقة من كل يوم، وفي الليل أيضاً عندما تُفسِحُ اليقظةُ المجالَ للحلم. الجريمة قماشٌ مُشمَّع قويّ، ومتين، يمتد من الأزل إلى الأبد. أين الوحوش التي لا تعرف الجريمة ؟ أية عوالم تسكن ؟ وما الذي يمنعها من القضاء على العالم ؟

في أحد السجون وقع كلوزن في حب امرأة، كانت أيضاً نزيلة. لم يتمكنا قط من تبادل الحديث، ولا أنْ يتلامسا حتى بأطراف الأصابع. وبين حين وآخر كانا يُهرّبان رسالة قصيرة. استمر الأمر خمسة أعوام. كانت المرأة قد قتلت أولادها بفأس - تلك كانت جريمتها. كانت جميلة، ومفعمة بالحيوية. لم تكن هي التي ذبحت الأطفال، بل حد الفأس الحاد. كانت عيونهما تتبادل النظرات، عن بُعد. ليلاً ونهاراً، شهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام ظلّت عيونهما تتقابل رغم الحواجز كلها. وأضحت عيونهما ألسنةً، وشفاهاً، وآذاناً؛ تعكس كل فكرة، ودافع. كم يمكن للحب أنْ يُصبح ألماً مُعذِّباً، يائساً وعنيفاً تحت مثل تلك الظروف! إنَّ الحب يُحررِّ، يحوم في العالم على هواه، يصل إلى كل مكان، حراً، حراً كمجنون. مجرمان يعشق أحدهما الآخر حتى الموت بعيونهما. أليس هذا أروع عذاب يمكن تصوُّره ؟ مَنْ اخترع هذا ؟ أهو موجود ليشهد عليه ؟ أهناك مُخططات له ؟ نعم، في مكان ما... في مكان ما في الهوة، تحت الامتداد العظيم من الأزل إلى الأبد، في مكان ما هناك مُخطط دقيق للحب النهِم. وفي مكان ما، يتدلى رأساً على عقِب، مُخترِع الحب النهِم، الوحش الملائكي الذي بالنسبة إليه لا وجود لكلمة جريمة. كان هناك ما يعرفه كلوزن، وهناك الديناميت. آه، الديناميت! كلمة أليفة، واضحة. لا شيء غامضاً أو متضارباً فيها. ديناميت! كلمة حتى الشيطان نفسه يحترمها! كلمة يمكنكَ أنْ تفعل أشياء بها. كلمة تفجِّر. وعندما تفعل هذا، ووووبي! حتى المسيح نفسه يتمزَّقُ إرباً. نعم، إنَّ حب السجون هو جَذر لوغاريتمي. أما الديناميت! الديناميت بسيط. الديناميت شيء تحمله بيديك وتفعل أشياء به. الديناميت يحتوي كل

سعادة يمكن تدميرها ولا تجدها في قلوب البشر. إنه ليس فقط تدمير، إنه ما يُدمَّر أيضاً. الديناميت هو عزاء اليأس. عندما تنسف جناحاً في سجن يطلب منك الديناميت أنْ تجعل ساطوراً حاداً في المتناول، لتطيح به يميناً ويساراً، تشَبْ، تشَب، تشَبْ. كم كان نهاراً دموياً جميلاً عندما فجّروا الديناميت في الطرف الشمالي من السجن! كنتَ تجد أذرعاً وسيقاناً في كل مكان، وأحياناً آذاناً وأنوفاً، ورؤوساً مع جذورها تتدلى، وجذوعاً تخترقها أسياخ. إنها عشية عيد القديس بارلتولوميو على طريقة فرانكنشتاين. نعم، يا صديقي، أنت طلبت هذا. ها هي يدي، مرهونة بالدم. لقد فعلناها! في أعلى الجحيم يجلس رجل مع مدفع رشاش في قفص مُعلَّق من السقف ويتحرك كحافلة تطلق الرصاص على الزنزانات. هذا هو العالم في الداخل في ذروة هياجه. في أماكن أخرى يسأل أحدهم بصوت قلق إنْ كان الكعك حاراً، وإنْ كانت القهوة دافئة. في الظلام، وربما بلا أي قصد، يدوس أحدهم على خنفساء، إحدى مخلوقات الله الصغيرة ذات الهيكل الخارجي العظمي، وينتزع منها الحياة. وفي المُدرَّج، تحت الأضواء الكاشفة، يبدأ رجلٌ بيدين نظيفتين بصورة خارقة في استكشاف أحشاء جسم بشري دافئ لكي يعثر على اللحم الفاسد الذي يُريد أنْ يستأصل. وتُنقَذ حياة إنسان واحد لكي يموت ألف. إنَّ الذين يسأمون الحقيقة يتلقّون الغذاء والرعاية على حساب الدولة. ويُجمَع الأفضل صحة، وذكاء، والواعدون أكثر من غيرهم، ويُعطَون أرقاماً، ويُرسلون إلى المسلخ المفتوح على تسع وستين جبهة. ويموت الأطفال جوعاً وهم بين أذرع أمهاتهم، لأنَّ الإبقاء على حياتهم يُشكل مشكلة كبرى على الرغم من أنهم أبرياء. هذا هو العالم في

الخارج. وسواء في الداخل أم في الخارج العالم أشبه بالبندول، ومن سقف العالم ينهمر وابل من الرصاص بدل المَنْ. هذا هو حال العالم، فأين هو موقع بدْ كلوزن فيه، أو موقعكَ أنتَ أو موقعي أو موقع أي شخص؟ البوابة دائماً موصدة، وحتى إذا نجحتَ في تحطيمها بسيارة جبارة القوة فسوف يتم القبض عليك وإعادتك. ثم سيتوجه الشياطين المُقنَّعون بجسد إنساني إلى العمل بدلاً عنك مُسلَّحين بالابتكار الذي لا يستطيع إلا العفاريت أنْ يحشدوه. ما هو الوضع الأشد ثباتاً في الحياة ؟ إنه ممارسة القسوة بعضنا على الآخر. وفي منتصف الليل، عندما تعتقد أنكَ حتماً ستموت من شدة المعاناة، يبدأ العذاب الحقيقي. وكل ما كنتَ قد عانيت ليس أكثر من استهلال للألم الذي أنت مُقبل على معاناته. إنَّ الإنسان الذي يُعذِّب إنساناً هو شيطان يعصى على الوصف. وفي الظلام عند منعطف الشارع تجده أمامك. وتتجمد في مكانك من فرط الخوف الذي يشلّ حركتك. وتُصبح كتلة من الخُدار. ولكن لا سبيل إلى الفرار منه. إنه دورك الآن...

الحب من جديد. دعنا نسمع كيف يُغني آمر السجن. بكل كياسة، تذكَّر. تحت أمرك، سيدي، ليس لديّ ما أُخفي. كل شيء يسير على نسق إنسانيّ، حتى المطبخ... ***ولكن ماذا عن الجنس***؟ الجنس؟ هذا شيء نُحاولُ ألا نفكّر فيه. السجين مُجرَّد من الجنس. إنه خصي الله الخاص. ثم يسير كل شيء بسلاسة وسكينة، أليس كذلك ؟ كالمزمور الثالث والعشرين ؟ كلا، ليس بالضبط. إنَّ غياب الجنس ينتج عنه المزيد من الجنس؛ لا يولد المزيد من الأطفال لأنه لا توجد أمهات لتنجبهم. داخل الجدران حتى أُنثى الضبع مُحرَّمة. فإذا كنتَ مسجوناً لفترة طويلة فإنَّ

أبسط ما في وسعك القيام به هو أنْ تترك مخيلتك تهيج على هواها. وإذا كنتَ مسجوناً مدى الحياة يمكنك أيضاً أنْ تستسلم للملك استمناء في الحال؛ لا أحد أبداً سيقوم بفتح باب زنزانتك وتقديم امرأة عارية إليك على طبق. تستطيع أنْ تعشق أحداً من نوعك وتنسى أنَّ للمرأة وجود، أو يمكنك أنْ تعشق طاولة أو حذاء. ويمكن تمييز أنواع جوع أخرى، ولكن ليس الجوع إلى الجنس. قد لا تحتاج إلى طعام أو هواء أو إلى الاستجمام، لكنكَ حتماً ستحتاج إلى الجنس - ولن تتمكن من الحصول عليه. وإذا كنت حسن السلوك، فقد تتمكن بين حين وآخر من النظر إلى امرأة، ولكن دائماً وهي في كامل ملابسها ودائماً عن بُعد. قد تقول أشياء تُثيرك جنسياً على مدى شهر، ولكن لا أحد سيُحضر إليك من يُطفئ نارك. إنهم يعتبرونك حيواناً وفي الوقت نفسه أنت لست حيواناً. سوف تكون أحسن حالاً لو أنك قرد في حديقة حيوان. ماذا يهم الآن إنْ كنتَ ما تزال تحمل اسماً وحِرفة، وأنكَ مواطن في هذا البلد أو ذاك ؟ أنت لستَ إنساناً ولست حيواناً؛ لست ملاكاً ولا شبحاً. بل إنك لست حتى ديك فيلادلفيا. كم سيكون مُريحاً إذا جاؤوا إليك ليلاً مع سكين حادة، كما فعلوا مع أبيلار. نعم، سيكون ذلك فعل رحمة. ولكن لا وجود للرحمة هنا. لا شيء هنا غير إثارة التعذيب الرتيبة.

التعذيب. هذا هو اسم الإنسان الأوسط. إنسان-يُعذِّب-إنسان. وسط الخواء كله، حيث حتى نبض الأبدية يخفت، يوجد ذلك الشيء الوسيط المُسمى التعذيب. هذا هو حجر زاوية عالم الإنسان، الصخرة التي بُنيَ عليها قبر رحم العالم. هذا هو العالم، نهايته وبدايته، بدايته، وارتقاؤه، هدفه وتفريخه. ***التعذيب***. إذن هذا هو العالم! وإلى أنْ يضعوك

خلف القضبان قد لا تدرك مدى بساطته، وأنه يمكن اختصاره بكلمة واحدة. هناك فقط كلمة واحدة يجب تذكّرها، أثناء ولوجك وخروجك من الحياة، وتلك الكلمة، كما قال كل صاحب روح عظيمة، هي **الحب**. ولكن في سجن الحياة يتلبَّس الحب كل شكل من أشكال السخرية. ***هل تعاني، أيها الإنسان الصغير*** ؟

هل أعاني؟ أوه يا يسوع، مَنْ سألني هذا ؟
أعني، هل تعاني أكثر من باقي البشر؟
مَنْ يجرؤ على سؤالي هذا ؟ مَنْ أنتما ؟
فقط كيف تعاني، أيها الإنسان الصغير؟
يا يسوع! أوه يا يسوع! تسألاني كيف أعاني؟
نعم، ***كيف*** ؟ فقط كيف، هل تستطيع أنْ تخبرنا ؟

صمت

إنه يُفكر في طريقة يستطيع أنْ يشرح بها كيف وماذا يُعاني. إنه يتساءل إنْ كان هناك في العالم أجمع شخص واحد له قلب كبير إلى درجة أنْ يحتوي ما يُريد أنْ يقول. هناك الكثير من الأشياء الصغيرة التي يجب البوح بها أولاً، وهل هناك مَنْ لديه الصبر الكافي ليُصغي حتى النهاية ؟ إنَّ المعاناة ليست شيئاً واحداً: إنها تتألّف من عددٍ لا يُحصى من الذرات غير المرئية، وكل واحدة هي كونٌ وسط عالم الألم العظيم المُصغَّر. إنه يستطيع أنْ يبدأ من أي موقع، بأي شيء، حتى بكلمة سخيفة، كلمة مثل هراء، ويستطيع بها أنْ يُشيد صرحاً بأبعادٍ مُذهلة لا يشغل أكثر من جيبٍ في شقٍ في أصغر ذرّة. بغض النظر عن

المنطقة المحيطة، والهالة المحيطة، وأشياء مثل الشواطئ الساحلية، وفوهات البراكين، وبحيرات بأعماق لا يُسبر غورها، ومستخرجي اللؤلؤ وريش الدجاج. الموسيقي لديه آلة يعزف عليها، والجرّاح لديه أدواته، والمهندس المعماري لديه مخططاته، والقائد العسكري لديه عناصره، والأحمق لديه حمقه، لكنَّ الذي يُعاني لديه كل شيء في الكون إلا الراحة. إنه يستطيع أنْ يطوف محيط العالم تريليون مرة لكنَّ الدائرة لا تصبح مستقيمة أبداً. ويعرف كل قِطر ولكن لا يعرف أي منفذ. فالمنافذ كلها مغلقة، سواء أكان على بُعد بوصة أم على مسافة مليار سنة ضوئية. وتحطم بوابة مصنوعة من أذرع وسيقان وتتلقّى ضربة قوية خلف أُذنك. وتنهض وتركض على أرض لعينة من بقايا الزرع، وتقع في وهدٍ لا نهاية له. وتجلس في قلب الخواء، تنشج بصمت، وتومض النجوم في وجهك. وتدخل في غيبوبة، وعندما تبدأ بالاعتقاد بأنك عثرت على طريق عودتك إلى الرحم يلاحقونك بالمعول والمجرفة، وبالأضواء الكاشفة. وحتى إذا عثرت على مكان الموت فسوف يجدون طريقة لطردك منه. أنت تعرف الزمن بانعطافاته وخياناته. لقد عشتَ زمناً أطول مما يستغرق نمو عدد لا يُحصى من الأجزاء المنفصلة لألف كونٍ جديد. لقد راقبتَها وهي تنمو ثم تتداعى من جديد. وما زلت سليماً، كمقطوعة موسيقية تُعزَف إلى الأبد. لقد تعطّلت الأدوات، واللاعبون أيضاً، لكنَّ الأنغام أبدية، وأنت لستَ مصنوعاً إلا من النغمات الخفيّة التي يمكن حتى لأخفّ النسمات أنْ تُخرِج منك لحناً.

وهذا ليس أكثر من العنصر الشجي فيه، المتعلّق بالزمن والهجمات والغزوات غير المتكافئة. هناك أيضاً الشكل، الشكل الوهمي، الذي

يتضمّن الارتقاء كله، والتحولات، وبراعم النباتات كلها، والإجهاض، والانحراف الضئيل والتشوُّه، والموت والمولد الجديد، والبذرة، وغشاء الجنين، والنسيج الغشائي والمشيمة. هناك المزاج والجو، والجزء الأمامي والخلفي، والأعماق المائية والتجاويف النجمية: هناك فصول، ومناخات، ودرجات حرارة؛ هناك تصنيفات وأقسام، منطق داخل منطق، ومواقف يقينية صارمة كالجليد، ثم ضفاف الضباب تنزّ وتنجرف، وحل وحطام، أو فقط طبقة الأوزون تتسرّب من عنق زجاجة بلا سدادة.

وكأنَّ هذا لا يكفي، هناك الأشياء العنيفة المفهومة بذاتها، وذكريات العصر الجيولوجي الحديث، ومقطوعات الفوغ[٢٩] المشيمية والخدع. وذكريات معلّقة من شَعرها، وأثناء احتضارها تلد قشرة رأس؛ ووجوه تحترق باللومينول، تشع ضوءاً هستيرياً على مشاكل خلوية؛ وأسماء تهرع عائدة إلى منابع مميتة، وتتردّد أصداؤها كآلات قيثارة مغزولة؛ وكلمات مطمورة في السائل الليمفاوي والكييس، التي لا يمكن لأي شكل من الديناميت أنْ يُفجّرها؛ ودموع تنهمر على بزّة دافئة وتشكّل شلالات في إفريقيا النائية؛ وطيور تستقر بين العينين لتحرق أجنحتها وتسقط كعكازات مكسورة؛ وبخار ماء يتصاعد من الشرايين ويتجمّد على شكل شِباك فوسفورية من الميكا؛ وشياطين يضحكون كغزلان الأنتيلوب، تقفز داخلة وخارجة من بين الأسنان المكسورة أو الأحلام المتهرئة؛ ووحوش من أعماق الماء، تمتص كالتيارات في أعماق المياه أو تثغو كقردة حبلى؛ ومطارق مُثبّت عليها نبات إبرة الراعي متخمة، تعلن عن العفن والدخان والهذيان؛ وملوك كإبينيزر سوك، الذي وُلِدَ شاحباً من الرعب، ويقتات على الألفاظ اللطيفة؛ والمزيد من نوعه،

والمزيد، ثم لا شيء غير مكعب فوق مكعب، وعمود فوق عمود، وقبر فوق قبر، إلى أبعد ما يستطيع الذهن أنْ يصل وأكثر. وكأنما لم يعد هناك أخيراً أحد، صدّقني، لا أحد، لا أحد. وعلى البُعد يلوح وجه المحبوب. ويُصبح أكبر، وأكثر امتلاءً، ووضوحاً: كضياء القمر الذي يلتهم سماء خالية. ويصل السديم ببطء، بطيئاً كحمّى التنسُّك. وميداليات صغيرة ترصِّع الرعب الذي يحجب فوهات الخوف. والأعماق السحيقة تلمع من الجدران الشديدة الانحدار لقلوب العالم الجديد. ومن خلال الفم الضاحك تقفز المحيطات إلى الوجود ويُنتقَص الألم المُجهَض من جديد. وتستعرض عجائبُ الخواء صفوفَها، وتستل الأجنّة روعتها. وتعتلي المُصاداة[1] عرشها. وتمتد شبكة العنكبوت وتُصبح أكثر متانة، والساحر يُسحَر. واللوح يتنحّى، ويسقط الفأس؛ ويتساقط الأطفال كأزهار على الموقد المصقول تحت الباب المفتوح. إنه صباح اليوم بعد الليلة السابقة على عتبة التكرار المُستعبَد. إنه متطابق كتطابُق سِوار مُرصَّع بالفضة على رسغٍ دافئ.

" الظلال "

في باريس بدأتُ أحلم بزيارة نيو أيبريا - في كافيه دو فرساي، مونبرناس، على وجه الدقة. وآبيه راتنر، الرسّام، هو الذي أدخل الفكرة إلى رأسي. أمضى الأمسية كلها في سرد تجاربه كفنّانٍ مُتخفٍ في الحرب العالمية. وفجأةً، غيّرَ الموضوع بطريقة غريبة، وبدأ يتحدث عن صديقه ويكس هول الذي كما قال عاش في جزء غريب من العالم، في هذا العالم المُسمّى نيو أيبيريا، بالقرب من آفري أيلند. كان وصفه لصديقه، وللمنزل الذي عاش فيه ولأرجاء البلد، شديد الحيوية، خارج العالم، كما نقول، إلى درجة أني صممت في التو واللحظة أنْ أذهب إلى لويزيانا ذات يوم وأرى بأمّ عينيّ الأعاجيب التي وصفها.

غادرتُ باريس قبل نشوب الحرب بثلاثة أشهر، لكي أُمضي عاماً من الراحة في اليونان. ولم أحلم حينئذٍ بأني سأُقابل آبيه راتنر في نيويورك أو أنْ أُخطط معه للقيام بهذه الجولة في أميركا التي أقوم بها الآن. ومن قبيل المُصادفة النادرة أيضاً، أنْ يتمكّن من مُرافقتي في هذه الجولة فقط حتى نيو أيبيريا! وعندما أسترجع هذا، يكاد يبدو لي كأنَّ كل شيء خطّطت له وأعدّته قوة خفيّة.

وصلنا إلى "الظلال "[١] مع الغروب في أحد أيام شهر كانون ثاني.

كان مُضيفنا ينتظرنا عند محطة وقود على الشارع العام، أمام المنزل. كان ينتظر لكي يستوقفنا، كما شرح لنا، ويجعلنا ندخل من الجزء الخلفي. ووجدتُ على الفور أنه ذو شخصية غريبة، غنية ومُحبّبة، كما وصفه صديقي راتنر بصدق. كان لابد من القيام بكل شيء بطريقة مُعدّة مُسبقاً، ليس لأنه كان ذا طباع مُهيمنة أو استبدادية، بل لأنه أراد لضيوفه أنْ يعيشوا أقصى ما يمكن لأي وضع أو حادث أنْ يُعطيه.

"الظلال"، كما يُسمى المنزل، لم يكن مُصمماً على الإطلاق على طراز لويزيانا التقليدي في البناء. من الناحية التقنية يمكن تعريفه بأنه على الطراز الدوري الروماني، ولكنَّ التحدُّث بلغة الهندسة المعمارية لمنزلٍ حيويّ عضوياً، وحسيّ وناضج كشجرةٍ عظيمة يعني قتل سِحره. وبالنسبة إليّ، ربما بسبب الآجر ذي اللون الوردي الغني التي يُضفي على جو المكان برمّته وَهَجاً دافئاً، ومُشعاً، أعاد "الظلال" إلى ذاكرتي صورة كورنيث[٤٢] التي كنتُ محظوظاً أيضاً وصادفتها في نهاية النهار. والحجارة الرائعة للأعمدة، شديدة الضخامة وشديدة الجمال أيضاً، التي توحي بالفخامة وبالبساطة، ذكّرتني أيضاً بكورنيث. ولطالما كانت كورنيث بالنسبة إليّ رديفاً للوفرة، الوفرة الغاوية، المتفائلة، التي تفوح بعطر أزهار الصيف الكثيفة.

على طول الجنوب وعيتُ باطراد مغزى ماضٍ حديث. أيام المزارع العظيمة التي أورثت النمط السريع والكئيب لحياتنا الأميركية لوناً ودفئاً يوحي، بطرق معيَّنة، بتلك الحقبة العنيفة، الرهيبة في أوروبا المعروفة باسم عصر النهضة. في أميركا، حسب تعبير ويكس هول، كانت الأسَرُ العظيمة تتبع المحاصيل العظيمة: في فرجينيا هناك التبغ،

في كارولينا الجنوبية الأرز، في مسيسيبي القطن، وفي لويزيانا السُكّر. وكان دعم هذا كله، هذه المؤسسة الحية، الشبيهة بنهر من الدماء، يتطلّب كدح العبيد. وحجارة آجر جدران المنازل الشهيرة شكّلتها أيدي الزنوج. وعلى طول الروافد كان المشهد العام مزروعاً بأكواخ أولئك الذي أعطوا عرقهم ودماءهم للمساعدة في خلق عالم باهر الروعة. ومظاهر التكبُّر التي نتجت عن هذا السخاء، والتي ما تزال ظاهرة وسط أطلال المنازل المُعمّدة العظيمة الخالية من الروح، تتعفّن، لكنَّ الأكواخ تبقى. إنَّ الزنجي راسخ في التربة؛ أسلوبه في الحياة لم يتغيَّر البتّة منذ الانهيار العظيم. إنه المالك الحقيقي للأرض، على الرغم من كل التغيرات الاسمية في المُلكيّة. ومهما يقول البيض، لا يمكن للجنوب أنْ يحيا من دون الخدمة السهلة، المتقطّعة، للسود. السود هم العمود الفقري الضعيف والطيِّع لمنطقة أميركا المقطوعة الرأس.

كانت الرحلة رائعة من نيوأورليانز، مروراً ببلدات وقُرى ذات أسماء فرنسية غريبة، مثل بارادي دو ديزلمان، في أول الأمر طرقنا الدرب الملتوي الخطير الذي يسير على طول رصيف الميناء، ثم لاحقاً بمحاذاة البايو بلاك الملتوي وأخيراً البايو تك. كان الوقت أوائل شهر كانون ثاني والجو حاراً مُلتهباً منذ بضعة أيام، وعندما ولجنا نيو أولينز، كان الجو بارداً جداً ويتغلغل في الجسم حتى إنَّ أسناننا كانت تصطك. وكانت نيو أيبيريا هي قلب البلد الأكادي[٤٣]، ولا تبعد أكثر من بضعة أميال عن سينت مارتنسفيلد حيث ذكريات إيفانجيلان[٤٤] تلوّن الجو.

شهر كانون ثاني في لويزيانا! كانت بوادر الربيع الأولى قد بدأتْ بالظهور تواً في أفنية الأكواخ: النرجس الأبيض والسوسن الألماني الذي

يعلو أشواكه ذات اللون الأخضر-الرمادي الباهت ما يُشبه الريشة البيضاء تُثير الازدراء. وفي المياه السوداء الرقراقة للروافد ترتفع شجرة السرو الخالدة، رمز الصمت والموت، على عمق الرُكبة. السماء في كل مكان، تُهيمن على كل شيء. كم تختلف السماء عندما يُسافر المرء من منطقة إلى أخرى! ما أعظم التغيُّرات بين تشارلستن، وآشفيل، وبيلوكسي، وبنساكولا، وأيكن، وفيكسبرغ، وسينت مارتنسفيل. هناك دائماً شجر السنديان الحي، والسرو، وشجرة الأزادرخت؛ وهناك دائماً المستنقع، والفسحة المكشوفة، والغاب؛ والقطن، والأرز وقصب السكّر؛ وأكثف غاب لقصب البامبو، وأشجار الموز، والصمغ، والمغنولية، وأشجار الخيار، وآس المستنقع، والساسفراس. والكثير من الأزهار البرية: الكاميلية، والأزاليا، والورود من الأصناف كلها، والمريمية، وليلك العنكبوت العملاق، والدريقة، والياسمين، وزهر النجمة؛ وأفاع، والبوم الصيّاح، والراكون، وأقمار بأحجام مُخيفة، شاحبة، حُبلى، ثقيلة كالزئبق. وكما أنَّ الكتل المتشابكة من الطحلب الإسباني أشبه بالفكرة المُهيمنة على اتّساع السماء، كذلك حال النتاج الخاص الغزير للجنوب المتّحد بأسرة الصنوبريات. إنه يعيش، كنبات هوائي، وليس طفيلياً، في وجود مستقل، يتغذّى على الهواء والرطوبة؛ يزدهر بقوة على شجرة ميتة أو على عمود التلغراف كما على شجرة سنديان حيّة. يقول ويكس هول " لا أحد غير الصينيين يأمل في رسم هذا الطحلب. إنه ينطوي على سر مُحيِّر من الخط والكتلة لم يقترب أحد من حلّه. هو صعب الحلّ كصعوبة زهرة الحواشي. إنَّ شجرة السنديان الحية تتحمّله- ويبدو أنها لا تتحد معه. لكن سرو لويزيانا يبدو أنه يرغب في أنْ يتصرَّف كحارسٍ

خاص. ظاهرة غريبة ". وهو أيضاً مفيد، كما تُشير صناعة الفراش والأثاث في لويزيانا.

هناك أُناسٌ من الشمال والغرب الأوسط ارتجفوا حقاً عندما صادفوا للمرة الأولى أشجار سنديان عملاقة حية لها شوارب؛ شعروا بشيء مُخيف ومُحرَّم فيها. ولكن عندما يراها المرء مصطفة بجلال، وفخامة، على عقارات عظيمة حول بوفورد، و س. سي، أو في بيلوكسي - في بيلوكسي تصل إلى مرتبة التأليه - ينبغي أنْ ينحني باحترامٍ كبير أمامها في تعبُّد متواضع لأنها، إذا لم نقُل ملوك أشجار العالم، فهي حتماً الحكماء أو المجوس.

في ظل إحدى تلك الأشجار العظيمة جلسنا نحن الثلاثة نُبدي إعجابنا بخلفيّة المنزل. أقول نحن الثلاثة لأنَّ مضيفنا - وهذه إحدى الأشياء التي أحبها في ويكس هول - يستطيع أنْ يتوقف ويتفحَّص المكان الذي يعيش فيه في أية ساعة من النهار أو الليل. يستطيع أنْ يتكلَّم على مدى ساعات عن أي تفصيل في المنزل أو الحدائق؛ إنه يتكلَّم عنه وكأنه من إبداعه، على الرغم من أنَّ المنزل والأشجار التي تكتنفه ظهرت إلى الوجود على مدى قرنٍ مضى. إنه كل ما تبقّى من العقارات التي تتكون من بضعة آلاف من الإكرات، بما فيها جزيرة ويكس، وهي هدية مَلَكيّة قَدَّمها بارون كاروندليت عام ١٧٩٢ إلى ديفيد ويكس. يقع مدخل المكان، الذي تقلَّصَ الآن إلى مساحة ثلاثة إكرات، على الشارع الرئيس، الذي هو امتداد للطريق العامة رقم ٩٠. ولدى المرور به بالسيارة لن يشك المرء أبداً في أنه يكمن متخفياً خلف السياج النباتي الكثيف من قصب البامبو الذي يُطوِّق المكان.

أثناء وقوفنا هناك نتحدث، اقترب تيوفيل ليُخبر صديقنا أنَّ بعض النسوة يقفن عند البوابة الأمامية ويطلبن السماح بزيارة المكان. قال مُضيفنا " قُلْ لهنّ إني في الخارج "، ثم التفت إلى راتنر وقال ساخراً "يا للسياح! إنهم يتدفّقون إلى هنا كالنمل؛ إنهم يجتاحون المكان. آلاف وآلاف منهم - إنهم كالوباء "، ثم بدأ يسرد نادرةً بعد أخرى عن النسوة اللواتي يصررنَ على تفتيش الغرف، وهذا ممنوع. قال " لو أسمح لهنَّ لتبعنني إلى المرحاض. يكاد يكون من المستحيل الحصول على أي قدر من الخصوصية عندما تقيم في مكانٍ كهذا ". كان معظمهم من الغرب الأوسط، كما فهمت: من النوع الذي يراه المرء في باريس، وروما، وفلورنسا، ومصر، وشنغهاي - أشخاص غير مؤذين مولعون بمشاهدة العالم وجمع معلومات عن أي شيء وكل شيء. والغريب في أمر تلك الأماكن المعروضة للفرجة، وقد زرتُ عدداً منها، هو أنَّ مالكيها، على الرغم من العذاب الذي يُلاقونه بسبب الحشود الثابتة من الزوار، لا يشعرون بأنهم أحرار في صد الناس. يبدو أنَّ لديهم جميعاً إحساساً بالذنب بعيشهم وحدهم وسط تلك الروعة العريقة. وطبعاً بعضهم لا يستطيعون أنْ يرفضوا الريع البسيط الذي تجلبه تلك التجارة، ولكن في الغالب يكون هناك إحساس بالالتزام اتّجاه الجمهور، عن وعي أو بلا وعي.

لاحقاً، لدى مراجعتي السجل، مررتُ على العديد من الأسماء المُثيرة للاهتمام، حيث إنَّ اسم بول كلوديل[٥] لم يُدهشني البتّة. "كلوديل، آه نعم! لقد قال شيئاً رائعاً عن أزهار الكاميلية - كيف أنهم في اليابان يصِفون سقوط الأزهار بأنه رؤوسٌ تُقطَع "، وتابع الحديث عن

الكاميلية، التي لديه منها تشكيلة رائعة، بما فيها أكبر زهرة "تورُّد ليدي هيوم" في أميركا. إنها نادرة، كما قيل لي، وتكاد تكون أسطورة؛ بل إنَّ نبتة بهذا الحجم، في الواقع، تُقارَن بلؤلؤة سوداء. وتوقفَ مطوّلاً عند النغمات والألوان، وأصرَّ على أنَّ زهرة " تورُّد ليدي هيوم" هي أشد ألوان العاج الوردي شحوباً، في حين أنَّ زهرة مدام ستريكالوف هي بلون قرنفلي مصفرّ مع خطٍ وردي، وردي مع خطوط حمراء. وتحدَّث عن الأزهار الصغيرة المحتشدة التي لابد أنها نمت تحت الأوعية الزجاجية للأزهار الشمعية. " إنَّ التشكيلة الجديدة غزيرة الأوراق لكنها ليست حسيّة؛ وتتمتع بجمالٍ مُحرَّم. إنها باردة لا تتأثّر بالمديح وبتلقّي الإعجاب. إنها ثمرات ملفوف وردية اللون، لا أكثر! " إلى آخره. وبدا لي أنَّ الرجلَ وهبَ حياته لدراسة أزهار الكاميلية، ناهيك عن ثروته. ولكن كلما أطلتُ الإصغاء إليه أدركتُ أكثر أنَّ لديه ما يُشبه المعرفة الموسوعية حول أشياء كثيرة. وعلِمتُ أنه كان دائماً مُحدِّثاً عظيماً، حتى قبل أنْ تحدّ إصابته بجرحٍ في ذراعه من ممارسة الرسم. وفي أمسية ذلك اليوم، وبعد إزالة الأطباق، راقبته بافتتان وهو يخطو جيئة وذهاباً في الغرفة، يُشعل السيجارة بعد الأخرى - كان يُدخّن ما يُقارب المئة سيجارة في اليوم - ويُخبرنا عن أسفاره، وأحلامه، ونقاط ضَعفه وآثامه، عن أشواقه، وأهوائه، وطموحاته، ومشاهداته، ودراساته، وإحباطاته. وفي الساعة الثالثة صباحاً، عندما استأذنا أخيراً بالمغادرة لكي نستريح، كان في كامل يقظته، يصنع لنفسه كوباً آخر جديداً من القهوة السادة التي يتقاسمها مع كلبته، ويستعد للتمشية حول الحديقة والتفكُّر في أشياء من الماضي والمستقبل. وإحدى آثامه، كما سأسميها،

التي تتملّكه في الساعات الأولى من الصباح هي رغبته في الاتصال بالهاتف بأحدهم في كاليفورنيا أو أوريغون أو بوسطن. وحكايات فورات الحماسة الصباحية المبكّرة تُتداول في طول البلاد وعرضها. والاتصال الهاتفي ليس الدافع الخاص الوحيد لديه؛ الآخر الأكثر إدهاشاً، وغرابة، تخيُّله أخاً توأماً أحمق لا وجود له...

عندما ينسحب الضيوف ليرتاحوا يجتمع مع الكلبة. هناك نوع مروِّع من الرباط يجمع بينهما، شيء غير عادي على الإطلاق. لقد نسيت اسم الكلبة - سبوت أو كويني، أو ما شابه. كانت كلبة صيد إنكليزية، وكانت قد أضحت متوعكة الصحة وتفوح منها روائح كريهة، وجدير بكلامي هذا أنْ يُحطم قلب سيدها. ووجهة نظر ويكس هول في هذه الأليس أو الإلسي هو ما يلي - أنها لا تعرف أنها كلبة. وحسب رأيه، هي لا تحب باقي الكلاب، بل لا تلاحظ وجودهم، إنْ صح التعبير. يدّعي أنها تتمتع بسلوك حسن - سلوك سيدة محترمة. ربما. أنا لستُ حَكَماً على الكلاب. لكني أتّفق معه في أمر واحد - أنها تتمتع بعينين إنسانيتين حقاً. وأنَّ شعرها أشبه بشلال من المياه، وأنَّ أذنيها تُذكّراني بلوحة السيدة براوننغ، وأنها تجعل الأشياء تبدو أنيقة بجلستها المتراخية- مثل هذه الأشياء المُرهفة تتجاوز فهمي. ولكن عندما تنظر في عينيها، مهما كثرت أو قلّتْ معرفتك بالكلاب، لابد أنْ تعترف بأنَّ هذا الحيوان المُحيِّر ليس مجرد كلبة عادية. إنها تنظر إليك بعينين عاطفيتين لمخلوق بشري راحل أُدينَ وحُكِمَ عليه بالسير على أربع في جسد كلب صيد وفيّ. ويدّعي ويكس هول بأنها حزينة بسبب عجزها عن الكلام، لكنها توحي لي بأنها حزينة لأنَّ لا أحد غير سيدها لديه من

الذكاء ما يجعله يعاملها ككائن بشري وليس كمجرد كلب. ولم أتمكن من النظر في عينيها أكثر من خمس لحظات متواصلة. والتعبير، الذي كنتُ قد لمحته على وجه كاتب أو رسّام يظهر فجأة وسط لحظة إلهام، كان تعبير رحّال بين عالَمين. كانت نظرة من النوع الذي يجعلك ترغب في الانسحاب خِفية، خشية أنْ يُصبح الفصل بين الجسد والروح عملية لا يمكن إصلاحها.

في صباح اليوم التالي، بعد طعام الإفطار، حين هممت بفتح الباب الذي انغلقَ بقوة، رأيتُ وأنا مندهش تواقيع بالقلم الرصاص على خلفية الباب لمئة من المشاهير، بمختلف أنواع الخط التي يمكن تخيّلها. وطبعاً كان علينا أنْ نُضيف توقيعنا إلى المجموعة. وضعتُ توقيعي تحت توقيع شخص هنغاري اسمه بلور شليبي، اسم رائع ذكّرني بقصة عن الباب تستحق السرد. ويبدو أنَّ الأسماء الحالية كلها حديثة العهد. في الأصل كان هناك المزيد من الأعداد الغفيرة من الأسماء اللامعة، ولكن في زمن توقيع اسم بلور شليبي، ربما لأنَّه كان للاسم تأثير غير عادي على مضيفنا، فإنَّ هذا الأخير شعر، بسبب الأيام الأخيرة الصاخبة، بامتعاض شديد من وضع المنزل حتى إنه أمر الخدم بتنظيفه من أعلاه إلى أسفله. أمرهم " أريده أنْ يكون مثالياً في نظافته عندما أستيقظ ". وحاولوا أنْ يُخبروه أنَّ من المستحيل ترتيب منزل بهذه الأبعاد في مثل تلك المدة القصيرة من الزمن. لم يكن هناك إلا خادمان. فقال مضيفنا "حسن إذن، استخدما مجموعة منهم"، ففعلا. وعندما استيقظ من نومه كان المنزل بالفعل كأنه جديد، كما أمر أنْ يكون. ولاشك في أنَّ بعض الأشياء قد اختفتْ، في غمرة حماسة خدم المنزل وحركتهم المسعورة. والانقلاب

الحقيقي جاء عندما لاحظَ، في سياق تدقيقه، أنَّ الباب بما عليه من أسماء قد غُسِل وأنَّ الأسماء قد أُزيلتْ. تلك كانت ضربة. في أول الأمر ثار وغضب، ولكن عندما هدأ فجأةً جاءه الإلهام. سوف يخلع الباب عن مفاصله، ويضعه في قفص الشحن ويُرسله لكي يوقَّع من جديد من قبَل الزوار من المشاهير. ويا لها من رحلة! كانت الفكرة فاتنة إلى درجة أنه بدأ في الحال يعتقد أنها أجود من أنْ يستحقها مجرد باب - كان سينتقل بنفسه من مكان إلى آخر، حاملاً الباب معه، ويستجدي كراهب للحصول على توقيع جديد. كان بعض الزوار قد جاؤوا من الصين، وبعضهم الآخر من إفريقيا، وبعضهم من الهند. وكان من الأفضل له أنْ يُشرف على العملية شخصياً على أنْ يكِلَ أمرها إلى وكالة بريد عادي أو سريع. وحسب علِمه، لا أحد سافرَ حول العالم حاملاً باباً. سوف يكون إنجازاً فريداً من نوعه، بل رائعاً، في الواقع. وكان العثور على بلور شليبي يُعتَبَر إنجازاً استثنائياً. والله وحده يعلم أين اختفى. رأى أنَّ الآخرين هم في أماكن ثابتة نسبياً، كبعض النجوم. أما بلور شليبي - لم تكن لديه أدنى فكرة إلى أين ذهب. ثم، بينما كان يضع مُخطط رحلته - وهي متعة استمرت أربعة أسابيع - مَنْ سيظهر، دون دعوة، وفي منتصف الليل، مصطحباً معه ثلاثة من الكلاب القوية ذات الشَعر الناعم، غير بلور شليبي نفسه! حسن، باختصار، أُعيد تركيب الباب إلى مفاصله، وخطَّ بلور شليبي توقيعه من جديد، وتلاشت بالتدريج فكرة القيام برحلة حول العالم حاملاً الباب على ظهره، كما يحدث للأفكار الغريبة كلها. ثمة شيء غريب في الناس تطابقَ مع هذا الباب، أشعر أني مُلزَم بإضافته في الخاتمة، وهو - أنَّ العديد منهم، وكأنما

استجابةً لاستدعاء صامت، عادوا ليوقّعوا بأسمائهم من جديد. وقد يكون أيضاً، طبعاً، أنَّ بعضهم قد استُدعوا للعودة عبر الاتصال بهم هاتفياً في الصباح الباكر- مَنْ يدري؟

لابد من أنَّ بعض الأحداث الغريبة قد وقعت على مدى قرنٍ من الزمان في منطقة نائية وريفية هادئة كهذه. ليلاً، وأنا مُستلقٍ على سرير ضخم ذي عواميد أربعة أحدِّقُ إلى الزخرفة النحاسية في وسط الظلّة، بدا سكون المنزل ليس كسكون منزل فارغ بل كسكون منزل تستغرق فيه أسرة كبيرة في نومٍ عميق وهادئ كهجوع الموتى. استيقظتُ من نومٍ خفيف بسبب طنين بعوضة ورحتُ أفكر في التماثيل التي في الحديقة، وفي ذلك الاجتماع الصامت، السلِس، الذي انساب كالموسيقى بين حرّاس الفصول الأربعة أولئك. أحياناً كنتُ أنهض وأخرج إلى الشرفة العريضة وأطلّ على الحديقة، أقفُ هناك شبه عار أدخن سيجارة، مُنوَّماً بالدفء، والصمت، وبالعِطر الذي يُغلّفني. كانت عبارات عديدة غريبة، ومذهلة، قد قيلَتْ أثناء النهار - كانت تعود إليّ ليلاً وتجتاحني. ملاحظات صغيرة، كتلك التي قالها عن البركة، مثلاً. " إنَّ بركة مساحتها بضعة أقدام مربَّعة كانت بالنسبة إليهم أهمّ من الأرض كلها: إنها لغز شفّاف". البركة! لقد أعادتْ إليّ ذكريات نافورة مُهملة كانت تُجمِّل مدخل مصحّة مسيسيبي العقلية المهجورة الآن. أعلم أنَّ المياه تُهدِّئ أعصاب المجانين، تماماً كالموسيقى. وبركة صغيرة في حديقة مُطوَّقة ومسحورة، كهذه، هي منبع لا ينضب من العجائب والسِحر. وذات أمسية، أثناء وقوفي هكذا وسط حلم، تذكّرتُ أنّه كان هناك وصفٌ مطبوع للمكان مُؤطّر ومُلصَق بالقرب من البركة. هبطتُ الدَرَج الخارجي وبمساعدة عود ثقاب قرأتُه.

أعدتُ قراءة الفِقرة التي تصف الحديقة، وكأنها تحتوي تعويذة سحرية. وها هي:

" ثمة حديقة تقليدية مستطيلة الشكل إلى الشرق من المنزل مُطوَّقة بسياج من قصب البامبو المقصوص وتحدّها دروب للمشي من الآجر المرصوف بالأيدي، وعلى زواياها الأربع تماثيل من الرخام تمثّل الفصول الأربعة كانت موجودة ذات يوم في حدائق مزرعة هستر القديمة. وفي وسط المرج المربّع الشكل أكمة من أشجار الكاميلية القديمة زُرِعَتْ عندما بُنيَ المنزل. والساعة الشمسية الرخامية الموقّعة مكتوب عليها مَثَل بالفرنسية - " الوفرة هي ابنة الاقتصاد والعمل "، ومؤرخ بعام ١٨٢٧"

كان قد هبط ضباب كثيف. مشيتُ بحذر بقدميّ الحافيتين لأنَّ درب الآجر القديم كان زلقاً ويكسوه الطحلب. لدى وصولي إلى الزاوية البعيدة من المربّع سطع نور القمر البدر صافياً على الوجه الهادئ للإلهة الموضوعة هناك. ملتُ عليها بتهوُّر وقبّلت شفتيها الرخاميتين. انتابني إحساس غريب. وانتقلتُ إلى كلٍ منها بدوره وقبّلت شِفاهها العفيفة، الباردة. ثم تمشيتُ عائداً إلى منزل الحديقة ذات التعريشة الذي يقع على ضفاف نهر بايو تك. كان المشهد الممتد أمامي أشبه بلوحة صينية. كانت السماء والمياه ممتزجين: العالم كله كان يعوم على ضباب سديميّ. كان جميلاً وفاتناً بصورة تعصى على الوصف. كدتُ لا أصدّق أني في أميركا. ولاح للحظة قارب نهريّ عن بُعد، بدّدت أضواؤه الملوَّنة الضباب الكثيف وأضحى مشكالاً مُحطّماً من الضوء الممزق. تردد صدى نفخ بوق الضباب العميق وأجابه نعيب بوم غير مرئي. إلى اليسار رفع الجسر المتحرك ببطء امتداده المقطوع، وأضاءت الحواف الناعمة بأنوار حمراء

وخضراء وامضة. انساب القارب النهري ببطء، كطائرٍ أبيض، أمام ناظريّ، وانغلقَ خلفها الضباب، مُنسدلاً على السماء، وعلى حفنة من النجوم المُخيفة، وعلى الأطراف الرطبة والثقيلة للأشجار المكسوة بالطحالب، وعلى كثافة الأضواء، والأصوات المائية المختنقة. قفلتُ عائداً إلى السرير واستلقيت هناك ولم أعد يقظاً تماماً بل واعياً وعياً خارقاً، وحيّاً حتى أطراف كياني كله ومسامه. وحدّقت صورة أحد الأجداد إليّ من الحائط- صورة لمنشوريّ، بثوبٍ مثنيّ ومكويّ داخل الإطار. تخيّلتُ سماعي صوت ويكس هول الهادر يقول لي: " أودّ أنْ أُصمم حديقة لا تكون لائحة بذور في النهار، بل أزهار غريبة، مهيبة، في الليل، أشياء تتدلى من الأشجار وتتحرك كالمسْرّعات، بلاستيكية شفّافة بأشكال هندسية، ظلال جانبية مُضاءة بالأضواء وتتغيّر مع تغيُّر ساعات النهار. الحديقة هي صالة عرض - لِمَ لا أصمم حديقة ضخمة، عرضاً كبيراً، متبدلاً؟". استلقيت هناك أتساءل حول آلاف الرسائل والوثائق التي كان قد نبشها من العليّة ومُخزّنة في الأرشيف في باتون روج. كم ستشكّل قصة ممتعة! والعليّة نفسها - الغرفة الضخمة الكائنة في الطابق الثالث ذات الصناديق الأربعين! أربعون صندوقاً، والشَعر ما زال سليماً على جلد الدب. تحتوي صناديق ضخمة للقبعات خاصة بالقبعات العالية لحقبة الخمسينيات، ومجساماً من الماهوغاني وصوراً لها التُقطت في الستينيات، ولفائف للتسييج، صناديق للبنادق، ومُكبِّراً قديماً، وسرجاً جانبياً بدائياً، وسلالاً للكلاب، ملابس رقص من الكتّان مع أقراط تتلاءم معها فوق السجاد في غرفة الجلوس، آلات بانجو، وقيثارة، وقانون. وصناديق للدمى أيضاً، ومنزل للدمى نسخة عن المنزل

العظيم نفسه. كل شيء كان يفوح برائحة جافة وعطِرة قليلاً. رائحة الزمن، وليس الغبار.

العليّة مكان غريب، فيها اثنتا عشرة خزانة كبيرة والسقف مائل على طول المنزل. منزل غريب. لكي تصل إلى أية غرفة فيه كان عليك أنْ تخترق كل غرفة أخرى في المنزل. ثمة تسعة أبواب تؤدي إلى الخارج- أكثر مما يجده المرء في غالبية الأبنية العامة. مطلعا الدرج بُنيا في الأصل في الخارج- فكرة مجنونة قليلاً. لا وجود لقاعة مركزية. ثمة صف من ثلاثة أبواب خشبية مُزدوجة متطابقة موجودة في مركز الواجهة الرصينة في الطابق الأرضي.

والسيد بيرساك الغريب الأطوار، الرسّام المتجوِّل الذي ترك لوحتين مائيتين مُصغَّرتين بإطارين مُذهبَين مطليين بالمينا السوداء على جدران غرفة الاستقبال حيث كنا نعقد اجتماعاتنا الليلية. لقد جال طول البلاد وعرضها، ولاسيما منطقة تك، قُبيل نشوب الحرب ببضع سنوات بين الولايات؛ يرسم لوحات للمنازل الكبيرة ويعيش على ما تجود به الأرض. كان رساماً صادقاً، عندما كان يرى أنَّ المهمة تجاوزت طاقاته، يقتطع رسماً من مجلة ويُلصقه على اللوحة. وهكذا في إحدى تُحفِه الفنية اختفت طفلة كانت تقفُ بجوار بوابة الحديقة - لكنَّ البالون الذي كانت تحمله بيدها ما يزال مرئياً. إنني أعبد أعمال أولئك الفنانين الجوالين. كم هم مُحبّبون وأكثر غنى بما لا يُقارَن من حياة فنان هذه الأيام! كم هي أصيلة ومتجانسة أعمالهم أكثر من الجهود المُدّعية لمعاصرينا! فكِّر في وجبة الغداء البسيطة التي كانت تُقدَّم إليهم في أيام المزرعة القديمة. إنني أنتقي لائحة وجبات لا على التعيين من أحد كتب لايل ساكسون

حول لويزيانا القديمة: "شريحة من الخبز ممسوحة بمقدار من الزبد مع المربّى أو هُلام الجوافة، بالإضافة إلى مقدار من معجون الجوجوبا وتُهضم بعصير الليمونادة أو بشراب زهرة البرتقال أو بعصير التمر الهندي". فكّر في فرحِهِ إذا ما حظي بالحظ الحسن ودُعيَ إلى حفل. وها أنا أعطي وصفاً لواحدة انتقيتها من الكتاب نفسه:

"... أزياء رائعة من المخرمات الأصيلة... جواهر، ريش. كان الدرج مُزيَّناً بأكاليل الورود على امتداد ثلاثة مطالع. ومزهريات موضوعة على أرفف المدفآت والكتيفات مملوءة بأزهار عطرة... وثمة رجال يتذوقون عينات من الويسكي الاسكتلندي أو الأيرلندي... وعند نحو منتصف الليل أعلنَ عن وجبة العشاء وقادت المضيفة الطريق إلى غرفة الطعام. على لائحة الطعام، أنواع اللحوم الباردة، والسلطات، وسجق السلامي، واللحوم الباردة تهتز على عزلة من الهلام، وتشكيلة لا حدّ لها من a las ***، كانت تُجلَب من موائد جانبية، تاركة الامتداد الشاسع من خشب السنديان المحفور مكسواً بالفضّة، وقماش الكتّان والمخرمات، لأزهار تتدلى من*** epergne ***(إناء مُزيَّن ومزخرَف) فضي طويل في المركز إلى باقة زهر صغيرة في كل موقع؛ فاكهة، وكعك على شكل أهرامات أو طبقات أو فقط أشياء لذيذة صلبة، مُثلَّجة ومُزيَّنة؛ وأنواع القستر، والفطائر، والهلام، والكريما، وحلوى شارلوت روس أو كعكة إسفنجية بصناعة بيتية مدهونة بمربى توت العليق تُحيط بشكل مون بلان حقيقي من الكريما المُنقَّطة بنجوم من ثمار الكرز الأحمر؛ وأبراج من النوغا أو الكرامل، والعصائر والكريما المُثلّجة تُقدَّم في سلال صغيرة مصنوعة من مربى قشور البرتقال وتعلوها أوراق الورد أو البنفسج المُسكّرة...***

وتشكيلة من أنواع النبيذ مُقدَّمة بأباريق من الزجاج المزخرف، وعلى كل منها نُقِشَ اسمه بأوراق عنب من فضّة تتدلّى من عنقه؛ وشمبانيا مُثلّجة يصبّها برشاقة نُدُل في كؤوسٍ مزخرفة بالذهب أو بوهيمية... وتُضيء المجموعة كلها شموع على ثريات من الكريستال، وعلى المائدة، على شمعدان من الفضة... بعد وجبة العشاء هناك المزيد من الرقص وعند الفجر عندما يحين وقت مغادرة الضيوف يقويهم تناول طبق من البامية الحارة، وكأس من القهوة السادة القوية وتبادل الذكريات الفاتنة في طريقهم الطويلة بالسيارات إلى منازلهم".

حسن، مسيو بيرساك أو بيرسات، كائناً ما كان اسمك، إنني أهنئك على حظك الحسن لأنكَ وُلِدتَ في ذلك العصر! آمل أنكَ تتفكَّر في تلك الذكريات الغنية والسارة في الباردو البعيد. وعندما يطلع النهار سوف أهبط إلى غرفة الاستقبال وأنظر من جديد إلى البالون المُعلَّق فوق البوابة. وإذا كنتُ في مزاجٍ حسن فسوف أتلفّت حولي بحثاً عن طفلة صغيرة قادرة على حمل ذلك البالون الجميل وسوف أُعيدها وأُلصقها من جديد على الصورة كما أعلم أنكَ تتمنى مني أنْ أفعل. فلترقد بسلام!

أعتقد أنه لا توجد في أميركا منطقة مثل الجنوب القديم لإجراء محادثة ممتعة. هنا الناس يحبون الكلام بدل الجدال والعراك. هنا أعتقد أنه توجد شخصيات شاذة، وغريبة الأطوار أكثر مما يوجد في أي جزء آخر من الولايات المتحدة. الجنوب يُنمي الشخصية، وليس العقلانية العقيمة. ويحدث مع بعض الأشخاص أنه بسبب إبعادهم عن العالم يُزهرون بطريقة إجبارية؛ يشعّون طاقة وقوة مغناطيسية، ويكون حديثهم متألقاً ومُثيراً. إنهم يعيشون حياة خاصة بهم غنية وهادئة، متناغمين مع

محيطهم ومتحررين من الطموحات والمنافسات الحقيرة التي يسعى إليها الإنسان في كل مكان. في المعتاد هم لا يستقرون من دون كفاح، ذلك أنَّ معظمهم يملكون مواهب وطاقات لا يتوقعها الغازي الفضوليّ. إنَّ الجنوبيّ الحقيقيّ، في رأيي، موهوب أكثر بالفطرة، أكثر بُعداً في نظره، وأكثر حيوية، وإبداعاً وأيضاً من دون شك أكثر امتلاءً بفورة الحياة من إنسان الشمال أو الغرب. وعندما يُقرر أنْ يستقيل من العالم فإنه لا يفعل ذلك بسبب انهزاميته بل لأنَّ حبّه للحياة، كما مع الفرنسيين والصينيين، يزرع فيه حكمةً تعبّر عن نفسها بنكران الذات. إنَّ أصعب تعديل يُمكن للمغترب أَنْ يُجريه، بعد أن يعود إلى بلده، هو على مجال المُحادثة. نحن لا نتحادث- نحن نتبادل الضرب بالحقائق والنظريات التي جمعناها من قراءاتنا السريعة للصحف، والمجلات، والملخصات. الحديث أمر شخصي وإذا أردنا أنْ تكون له أية قيمة فينبغي أنْ يكون خلاقاً. كان ينبغي أنْ آتي إلى الجنوب قبل أنْ أسمع مثل ذلك الحديث. كان يجب أنْ أقابل أناساً مجهولي الأسماء، أناساً يعيشون في بقاع يتعذّر بلوغها، قبل أنْ أستمتع بما أسميه محادثة حقيقية.

لن أنسى دهري أمسيةً بعينها، بعد أنْ غادر صديقنا راتنر، عندما رافقتُ ويكس هول إلى منزل صديق قديم له. كان الرجل قد تخلى عن منزله وبنى لنفسه كوخاً خشبياً صغيراً في مؤخر ما كان يُسمّى ذات يوم منزله. لم يكن المكان يحتوي غرضاً واحداً زائداً، بل كل شيء كان أنيقاً ومُرتّباً، وكأنما يسكنه بحّار. كانت حياة الرجل هي ثقافته. كان صياداً قرّر مؤقتاً أنْ يعمل في قيادة سيارة شاحنة. وكوّنتُ انطباعاً، بعد أنْ تفحّصته بهدوء، بأنه قد عرفَ حزناً عظيماً. كان شديد النضج، وشديد

الثقة بنفسه، ومتصالحاً بصورة جليّة مع قَدَره. كانت الكتب هي هوايته. كان يقرأ بوفرة، على هواه، ليس سعياً لتحسين معرفته أو لمجرد هدر الوقت. بل بالأحرى، كما فهمت من ملاحظاته، كانت طريقة بديلة عن الحلم، عن الخروج من العالم. وأذكر أنَّ الحديث نشأ من الكلام عن الأفاعي السامة في لويزيانا، تلك التي لها بؤبؤا عينيّ القطة. وانتقلنا من ذلك إلى نبات الساسافراس وعادات هنود التشوكتاو، ثم إلى أنواع البامبو المختلفة- الصالحة للأكل وغيرها- ومن ذلك إلى الطحلب الوردي المرجاني الذي يُقال إنه نادر الوجود والجمال، ولا ينمو إلا على أحد جانبيّ الشجرة، ودائماً على الجانب نفسه. ثم، سألته فجأةً، مُحوّلاً بسرعة مسار الحديث، ومتوقعاً أيضاً أنْ أتلقّى إجابة مُثيرة للاهتمام، إنْ كان قد قرأ أي شيء عن التيبت. قال، بعد أنْ سكت هنيهة ليتبادل مع صديقه ابتسامة تفاهم مشتركة، "تسأل إنْ كنتُ قد قرأتُ شيئاً عن التيبت؟ في الواقع، لقد قرأتُ كل ما وقَعَت عليه يدي مما كُتِبَ حول هذا الموضوع ". هنا وصلت حماسة ويكس هول ذروتها حتى إنه استأذنَ ليتبوّل. في الواقع جميعنا أخذتنا الحماسة وخرجنا إلى الفناء لنتبوّل.

دائماً يُذهلني، على الرغم من استعدادي لذلك، أنْ أجد أحداً مُهتماً بالتيبت. أستطيع أيضاً أنْ أقول إني لم أقابل أحداً مهتماً بعمق في عجائب وألغاز هذه الأرض التي لا يربطني بها رباط متين. يبدو أنَّ التيبت هي كلمة السر لمجتمع امتداده العالم ويجمع بين أعضائه على الأقلّ قاسم مشترك متين - إنهم يعلمون أنَّ في الحياة أكثر مما تختصره المعرفة التجريبية لكبار كهنة المنطق والعِلم. في جزيرة هيدرا في بحر إيجة أذكرُ أني مررتُ بتجربة مماثلة. والغريب، أيضاً، أنه عندما أُثير

هذا الموضوع - الأمر نفسه يحدث إذا ما صادفَ أنْ أتيتَ على ذِكر اسم رودولف شتاينر أو بلافاتسكي أو الكونت سان جرمان - يظهر على الفور شِقاق وفي الحال لا يبقى في المكان إلا أولئك المميّزون، حقاً، بشغفهم بالسريّ والغامض. وإذا ما انضمّ فجأةً شخص غريب إلى الاجتماع فغالباً سوف يجد اللغة المُستخدَمة مُبهمة تماماً. وقد حدث معي أكثر من مرة أنْ فهمني شخص يكاد لا يُحسن الإنكليزية ولم يفهمني أصدقائي الذين يُحسنوها. وقد عرفتُ رجلاً مثل بريفول، مؤلف كتاب "*يوروبا*"، صادف أنْ أثرتُ الموضوع في حضوره ذات أمسية، واستشاط غضبه لمجرد ذكر كلمة صوفيّة.

تركتنا المحادثة في مزاج منتشٍ. وفي طريق عودتنا إلى "الظلال" علّقَ ويكس هول قائلاً إنه لم يخطر في باله قط أنَّ صديقه فصيحٌ إلى هذه الدرجة. قال " لقد عاش وحده طويلاً، وأضحى صموتاً. وقد كان لزيارتك له تأثير خارق عليه". ابتسمت، عالماً بأنَّ لا صِلة لي بالأمر. بالنسبة إليّ، كانت التجربة هي ببساطة برهان آخر على حقيقة أنَّه يمكن إثارة اهتمام الناس دائماً إما بالكراهية أو بالضرب على وتر الإحساس بالغموض.

عندما هممتُ بالتوجه إلى غرفتي هتف ويكس هول لي من محترفه وهو الغرفة الوحيدة التي لم يكن قد أراني إياها. سألني "هل أنتَ مُتعب كثيراً؟ "، أجبت " كلا، ليس كثيراً ". تابع " أردتُ أنْ أُريك شيئاً. أعتقد أنه حان الوقت لأفعل"، وتقدّمني إلى داخل غرفة بدا أنها مختومة بإحكام، غرفة بلا نوافذ أو منافذ للتهوية من أي نوع، لا يُنيرها إلا ضوء اصطناعي. نقلَ حامل اللوحات إلى مركز الغرفة، وثبَّت قطعة

من قماش الكنفا الفارغة عليه، ومما بدا أنه مصباح سحري سلّطَ شعاعاً من الضوء عليها فظهرت على الجدران. وبالتلاعب بالحامل، وبتوسيع إطار رقعة الكنفا وتقليصه، أضحت الصورة الفوتوغرافية الملوّنة تتخذ تشكيلة مدهشة من الأشكال والألوان. وكأنها جلسة خاصة مع الدكتور كاليغاري نفسه. ويمكن لمشهد طبيعي عادي، أو لطبيعة صامتة غير مؤذية، إذا ما رضخت لذلك التلاعب النزويّ ، أنْ تعبِّر عن أشد الأشكال والأفكار تنوعاً، وتنافراً ولا تُصدَّق. أضحت الجدران صخباً من أشكال الألوان المتغيِّرة، نوعاً من العزف الملوَّن على الأرغن، يعمل على التوالي على تهدئة الأحاسيس وإثارتها.

قال " لماذا يلجأ أي إنسان إلى الرسم، إذا كان في استطاعته أنْ يصنع هذه المعجزات؟ لعلّ الرسم ليس الشيء الوحيد الذي ينبغي أنْ يكون في حياتي- لا أدري. لكنَّ هذه الأشياء تمنحني المتعة. أستطيع أنْ أنجز خلال خمس دقائق هنا ما يمكن أنْ يستغرق مني عشر سنوات لأنجزه في الرسم. في الواقع، لقد توقفت عن الرسم عمداً. ليس السبب هو هذه الذراع على الإطلاق - لقد كسرتها لاحقاً، لكي أتأكّد، في الواقع - تماماً كمْ أنَّ الناس يُصابون بالصمم أو بالعمى أو بالجنون عندما لا يعود في استطاعتهم التحمُّل. أنا لست رسّاماً رديئاً، صدّقني. ما يزال في استطاعتي أنْ أرسم بذراعي المعطوبة- إذا أردتُ ذلك حقاً. كان في وسعي أنْ أعرض لوحاتي، وربما أنْ أبيعها أيضاً، على فترات، للمتاحف ولأصحاب المجموعات الخاصة. ليس هذا بالأمر الصعب، إذا كنتَ تتحلى بقليل من الموهبة. في الواقع، إنه سهل جداً، وأيضاً عقيم جداً. إنَّ وجودَ اللوحات في قاعة العرض أشبه بوجود البضائع على نضد

الصفقة. واللوحات، إذا عُرِضَتْ، يجب أنْ تُعرَض كلٌ على حِدة، وفي الوقت المناسب، وفي ظل الظروف المناسبة. هذه الأيام لا مكان للوحات في المنزل - المنازل ليست أماكن مناسبة. لقد خطر لي ألا أرسم بعد ذلك عن اقتناع إلا إذا كان الرسم من أجل هدف ما، واللوحة التي على الحامل لا هدف لها إلا استجلاب حفنة من عبارات المديح المبتذلة. إنها كالطُعم الصناعي المُستعمل الإمساك بسمك الطربون. إنَّ لوحة الحامل بحد ذاتها لا شيء: إنها لا تُشبع المرء. إنها مجرد طُعم لاقتناص المديح... اسمع، أعتقد أني قلت شيئاً هاماً هنا - هلاّ تذكرتَ هذا؟ ".

تابع قائلاً: " طبعاً، إنَّ شخصاً مثل راتنر مختلف. إنه مُضطر إلى الرسم - لقد وُلِدَ ليرسم. ولكن مقابل واحد مثله هناك ألف ربما يعملون في النجارة أو في قيادة الشاحنات. والفرق، في اعتقادي، يقع بين الإبداع والتناسُل- فرق مدته تسعة أشهر. في حالة المُبدِع الأمر يعني العمل على امتداد الحياة - جهد لا يتوقف، ودراسة، وملاحظة - إنه ليس فقط إنجاز لوحة، أو حتى مئة لوحة، بل هو فهم العلاقة بين الرسم، أو يمكنني القول، بين الفنون كلها، والعيش؛ إنه أنْ تضع حياتك بأكملها في اللوحة، في كل لوحة تنفّذها. إنه أرقى أشكال التكريس، وصديقنا الحميم آبيه امتلكه. أنا لا أعلم إنْ كان سعيداً أم لا. لا أعتقد أنَّ السعادة تعني الكثير بالنسبة إلى الفنان كما بالنسبة إلى الأناس العاديين... "

أشعلَ سيجارة جديدة. وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً. أراد أنْ يقول شيئاً... أراد أنْ يقول أشياء كثيرة... بل ***كل شيء***، إذا تحلّيتُ بالصبر

ولم أهرب. وبدأ من جديد، متلعثماً، بطريقة خرقاء، متلمّساً طريقه كمَنْ يتحسَّس سبيله في ممر مُظلِم وملتوٍ.

" انظر إلى هذه الذراع!" ومدّها أمامي لأُدقق النظر فيها. " لقد أُعطِبَت. أُعطِبَت إلى الأبد. شيء فظيع. في لحظة تكون لديك ذراع، وفي اللحظة التالية تصبح كتلة بلا شكل. أعتقد أنَّ الحقيقة هي أنَّها لم تكن صالحة إلا كرافعة كباقي الأذرع. لعل هذه الذراع كانت بارعة أكثر مما ينبغي، ماهرة أكثر مما ينبغي؛ لقد جعلتني أرسم كما يوزع المقامر أوراق اللعب ويخلطها. لعلّ ذهني بارع أكثر مما ينبغي وهشٌّ أكثر مما ينبغي. ليس مُنضبطاً بالقدر الكافي. وأعلم أني لن أُحسّنه بهوسي بالبحث. هذه مجرد ذريعة لاستباق اليوم الذي سأبدأ فيه فعلاً الرسم. أنا أعلم هذا كله - ولكن ما العمل؟ ها أنا ذا أعيشُ وحدي في منزل كبير، في مكانٍ أغرق فيه. إنَّني لا أتحمل المنزل. أريد أنْ أعيش في غرفةٍ واحدة في مكانٍ ما، بعيداً عن هذه الهموم والمسؤوليات كلها التي يبدو أني أخذتها عن أجدادي. كيف سأقوم بها؟ إنّ إغلاق الباب على نفسي في هذه الغرفة ليس حلاً. وإنْ كنت لا أستطيع أنْ أرى الناس أو أسمعهم أنا أعلم أنهم موجودون هناك في الخارج يُثيرون الشغب لكي يدخلوا. وربما **يجب** أنْ أقابلهم، وأكلّمهم، وأصغي إليهم، وأقلقَ لقلقهم. ما أدراني؟ فقبل كل شيء ليسوا جميعاً حمقى. ربما لو كنتُ الرجل الذي أرغب في أنْ أكونه لما اضطررتُ إلى الخروج من هذا الباب - كان العالم سيأتي إليّ. ربما كنتُ سأرسم في أسوأ الظروف- ربما هناك في الحديقة مع كل المتفرجين المحتشدين حولي ويطرحون عليّ ألف سؤال تافه وسؤال. مَنْ يدري، إذا بدوتُ شديد الجديّة، إنْ كانوا سيدعونني وشأني،

ويتركوني بسلام، دون أنْ أقول لهم كلمة واحدة ؟ إنَّ الناس دائماً يُميِّزون القيمة بصورة ما. خُذ سويدنبرغ، مثلاً. لم يكن يُقفل بابه قط. كان الناس يأتون إليه وعندما يرونه يخرجون مبتعدين بهدوء، بوقار، غير راغبين في إزعاجه على الرغم من أنَّ بعضهم يكون قد قطع آلاف الأميال ليطلب منه العون والإرشاد ". وبيده السليمة أمسك بالذراع المهشَّمة وحدَّقَ إليها، وكأنها تخص شخصاً آخر. " هل يستطيع المرء أنْ يُغيِّر طبيعته الفطرية - هذا هو السؤال؟ حسن، قد ينتهي الأمر بهذه الذراع إلى أنْ تعمل عمل العصا بالنسبة إلى السائر على حبلٍ مشدود. إنها التوازُن - إذا لم نحملها داخلنا فيجب أنْ نجد واحدة في الخارج. أنا سعيد لأنكَ أتيت إلى هنا... لقد قدّمت إليّ معروفاً هائلاً. يا الله، عندما كنتُ أُصغي إلى كل ما قلت عن باريس أدركتُ كل ما فاتني خلال تلك السنين. لن تجد الكثير في نيو أورليانز، ما عدا الماضي. لدينا رسّام واحد - إنه الدكتور سوشون. أريدك أنْ تقابله... أعتقد أنَّ الوقت قد تأخّر كثيراً. وأنت تريد أنْ تأوي إلى السرير، أليس كذلك ؟ طبعاً، في وسعي أنْ أتكلَّم طوال الليل. أنا لا أحتاج إلى الكثير من النوم. وبما أنكم جميعاً تأتون إلى هنا لم أعد أستطيع أنْ أنام البتّة. لدي ألف سؤال أريد أنْ أسأله. أريد أنْ أُعوِّض عن الزمن الذي أضعته كله ".

أنا أيضاً واجهت صعوبة في النوم. بدا لي أنَّ من القسوة أنْ أترك رجلاً وحيداً هكذا في ذروة نشوته. كان راتنر قد أعدَّني لمواجهة حماسته العارمة وحيويته، ولكن ليس لنهمه الذي لا يشبع. لقد أثّر بي نهمه هذا بعمق. كان رجلاً لا يعرف حدوداً. كان يُعطي بتهوُّر وبوفرة كما يطلب. كان فناناً حتى أطراف أصابعه، ولا ريب في ذلك. ومشكلاته لم تكن

من النوع العادي. لقد كان متعمقاً أكثر مما ينبغي. والشهرة والنجاح لا يعنيان أي شيء بالنسبة إلى رجلٍ كهذا. لقد كان يبحث عن شيء يعصى على كل تعريف. وكان قد جمع تواً، في مجالات معيَّنة، معرفة جديرة بعالِم. وزيادة على ذلك، أدرك علاقة الأشياء كلها بعضها ببعضها الآخر. ومن الطبيعي أنه ما كان ليرضى بتنفيذ لوحات ممتازة، بل أراد أنْ يُثوِّر الأشياء؛ أراد أنْ يُعيد الرسم إلى حالته الأصلية- الرسم للرسم نفسه. وبمعنى ما قد يُقال عنه إنه قد أكملَ إنجاز عمله العظيم. لقد حوَّلَ المنزل والأرض المحيطة به، عبر شغفه بالإبداع، إلى إحدى أبرز القطع الفنية التي تستطيع أميركا أنْ تتفاخر بها؛ كان يعيش ويتنفَّس من خلال تحفته الفنية، دون أنْ يعلم، بلا حدود وبلا اكتفاء. وقد ألهمَ بحماسته وكرمه رسامين آخرين لتنفيذ أعمالهم - ويمكن القول، أنجبهم. ومع ذلك كان قلقاً، يتوق إلى التعبير عن نفسه بثقة وبصورة تامة. لقد أُعجبتُ به ورثيتُ حاله، معاً. شعرتُ بوجوده في أرجاء المنزل كله، يفيضُ فيه كدفقٍ سِحريّ قويّ. لقد ابتدع ذاك الذي بدوره سيُعيد خلقه. وذلك المُحتَرَف المختوم بإحكام - ما هو في الحقيقة إنْ لم يكن تعبيراً رمزياً عن ذاته الموصدة ؟ لم يتمكن المُحتَرَف من احتوائه، كما المنزل نفسه؛ لقد صار أضخم من المنزل، فاضَ فوق الحدود. كان سجيناً حكَمَ على نفسه بسُكنى هالةً من ابتكاره. وذات يوم سوف يستيقظ، ويتحرّر من الشراك والأوهام التي تكاثرت في أعقاب الخلق. ذات يوم سوف يتلفّت حوله ويُدرك أنه كان حراً؛ ثم سوف يتمكن من التقرير بسكينة وهدوء ما إذا كان سيمكث أم سيرحل. وتمنيت له أنْ يمكث، أنْ يُغلق

الدائرة، بوصفِه آخر حلقة في سلسلة أسلافه، وأنْ يوسِّع دائرة حياته ومحيطها، بإدراكه أهمية عمله، إلى أبعادٍ لا متناهية.

عندما استأذنت منه بالرحيل بعد ذلك بيوم أو يومين كان قد تكوّن لديَّ انطباع، من النظرة التي رماني بها، بأنه توصّل هو نفسه إلى هذه النتيجة. غادرتُ عارفاً أني سأجده حالما أحتاجه في أي مكان وأي زمان.

" لا حاجة إلى أنْ تتصل بي في منتصف الليل، يا ويكس. فما دمتَ متمركزاً، أنا إلى جانبك إلى الأبد. لا داعي لأنْ أقول وداعاً أو حظاً سعيداً! فقط ابقَ كما أنت. فلتحل عليك السكينة! ".

الدكتور سوشون: طبيبٌ جرّاح ورسّام

إحدى الأشياء التي تترك أثرها عليّ في أميركا، وأنا أتجول، هو أنَّ الرجال الواعدين، أصحاب الحِكمة المرحة، الذين يُلهمون الأمل في هذه الفترة الموحشة من تاريخنا، هم إما صِبية لا يتجاوزون مرحلة المراهقة أو صِبية في السبعين أو أكثر.

إنَّ مشهد العجائز في فرنسا، ولاسيما من الأصل الريفي، يُمْتِع النظر ويُلهِم. إنهم كالأشجار العظيمة التي تعجز أعتى العواصف عن انتزاعها؛ إنهم يشعّون سلاماً، وصفاءً وحِكمة. وفي أميركا مشهد العجائز في الأساس يُثير الرثاء، ولاسيما الناجحون منهم الذين طال أمد وجودهم عن الحدّ الطبيعي بوساطة التنفُّس الصناعي، إنْ صحّ التعبير. إنهم أمثلة حيّة فظيعة لفن التحنيط، جثث تسير على قدمين يتلاعب بهم روتين مرتزقة يتلقون مبالغ كبيرة ويُشوّهون سُمعة مهنتهم.

الاستثناءات للقاعدة- والفرق يكاد لا يُذكَر- هم الفنانون، وبالفنانين أعني الخلاقين، بغضّ النظر عن مجال عملهم. وغالبيتهم بدؤوا بالتطوُّر، بالكشف عن فرديتهم، بعد تجاوزهم سن الخامسة والأربعين، السن التي ثبَّتته معظم الشركات الصناعية في هذا البلد بوصفه الحدّ الأقصى. ويجب الاعتراف، بالمناسبة، بأنَّ العامل العادي الذي عمل منذ

عهد المراهقة كإنسانٍ آليّ يصبح مستعداً ليُغدو كماً مُهمَلاً عند تلك السن. وما يصح على الإنسان الآلي العادي يصحّ إلى حدٍ كبير على الإنسان الآلي الممتاز، أو ما يُسمّى قائد الصناعة. الفرق هو أنَّ ثروته تسمح له بتغذية اللهب الخافت، الضعيف، ودعمه. وفيما يخص الحيوية، فإننا بعد سن الخامسة والأربعين نصبح أمّة من المنبوذين.

ولكن هناك طبقة من الرجال المتينين، من الطراز القديم يبقون أفراداً أقوياء، يحتقرون صراحة التيار الشائع، ومخلصين بحماس لعملهم، يستحيل رشوتهم أو إغواؤهم، يعملون على مدى ساعات طوال، غالباً دون انتظار مكافأة أو شهرة، يدفعهم حافز عام - متعة أنْ يعملوا ما يسرّهم. وعند نقطة معينة على الطريق يتفرّق شملهم. الرجال الذين أتحدث عنهم يمكن تمييزهم بنظرة خاطفة: قسمات وجوههم تسجّل شيئاً أكثر حيوية، وفاعلية، من شهوة السلطة. إنهم لا يسعون إلى الهيمنة، بل إلى معرفة أنفسهم. يبدؤون العمل من مركزٍ ساكن، ثم يتطورون، وينمون، ويمنحون الغذاء فقط بمجرد كونهم ذاتهم.

هذا الموضوع، العلاقة بين الحِكمة والحيوية، يُثير اهتمامي، على عكس الرأي السائد، لم أكن مرة قادراً على اعتبار أميركا شابة وحيوية بل بالأحرى عجوزاً قبل الأوان، كثمرة تعفّنت قبل أنْ تنضج. والكلمة المفتاح للرذيلة الوطنية هي التبديد. والمُبذّرون ليسوا حكماء، ولا يستطيعون أنْ يبقوا شباناً وحيويين. ومن أجل نقل الطاقة إلى مستويات أرقى وأشد رهافة يجب أولاً المحافظة عليها. إنَّ المُبذِّر سرعان ما يخلو وفاضه، يصبح ضحية القِوى نفسها التي عبثَ بها بحمق وتهوُّر. حتى الآلات يجب معاملتها بمهارة لكي نحصل منها على النتائج القصوى.

إلا إذا، كما في حالة أميركا، أنتجناها بكميات تمكّننا من التخلص منها قبل أنْ تشيخ وتغدو عديمة الفائدة. ولكن عندما يتعلّق الأمر بالتخلُّص من البشر فالقصة تختلف. إذ لا يمكن التخلص من البشر كما نفعل مع الآلات. هناك صِلة غريبة بين الخصوبة وسقط المتاع. يبدو أنَّ الرغبة في التناسُل تموت عندما تثبت فترة الفائدة عند سن الخامسة والأربعين المُبكّرة.

قليلون هم من يتمكنون من الإفلات من العمل الروتيني. إنَّ الاكتفاء بالبقاء على قيد الحياة، على الرغم من الوضع القائم، لا يمنح تميُّزاً. فالحيوانات والحشرات تبقى على قيد الحياة عندما تتهدَّد الأنماط الأرقى بالفناء. وأنْ يعيش المرء خارج الحدود، ويعمل من أجل متعة العمل، ويتقدُم في السن بسلام مع احتفاظه بقدراته، وحماسته، واحترامه لنفسه، عليه أنْ يؤسس لقيم أخرى غير تلك التي يقرّها الرعاع. ويتطلّب الأمر فناناً لإحداث مثل هذه الصدع في الجدار. الفنان هو في المقام الأول ذاك الذي يثق بنفسه. إنه لا يستجيب للإثارة العادية: إنه ليس كادحاً ولا طفيلياً. إنه يعيش لكي يعبِّر عن نفسه وبفعله هذا يُغني العالم.

إنَّ الرجل الذي أفكر فيه في هذه اللحظة، الدكتور ماريون سوشون من نيو أورليانز، نموذجيٌ من النواحي كلها. إنه، في الواقع، حالة شاذة مُثيرة للفضول، وهذا يزيد من اهتمامي به. إنه رجل في السبعين الآن، جرّاح ناجح ومشهور، بدأ الرسم جدياً في سن الستين. لكنه لم يتخلّ بذلك عن ممارسة مهنته. وقبل خمسين عاماً، عندما بدأ دراسة الطب، مُقتفياً بذلك خُطى والده، وضعَ لنفسه نظام حِمية متقشفاً، تقيَّد به منذ ذلك الحين. ويجب أنْ أقول إنه نظام مكّنه من أداء عمل ثلاثة رجال أو

أربعة مع البقاء بكامل حيويته وتفاؤله. فمن عادته أنْ يستيقظ في الخامسة صباحاً، ليتناول إفطاراً خفيفاً ثم يتوجه إلى غرفة العمليات، ثم إلى مكتبه حيث يؤدي الواجبات الإدارية لموظف رسمي في شركة تأمين، ويجيب عن البريد، ويستقبل المرضى، ويقوم بزيارة المستشفيات وما إلى ذلك. ومع حلول موعد الغداء يكون قد أنجز عمل نهارٍ مرهِق. ومنذ عشر سنوات وحتى الآن وهو يعمل على أنْ يجد قليلاً من الوقت في كل يوم لكي يرسم، ويشاهد أعمال رسّامين آخرين، ويتحادث معهم، ويدرس صنعته كما قد يفعل شابٌ في العشرين باشرَ تواً مسيرته المهنية. إنه لا يُغادر مكتبه ويذهب إلى مُحترف- بل يرسم في مكتبه. ففي زاوية من غرفة صغيرة مُبطّنة بالكتب وبالتماثيل يقفُ شيء يُشبه آلة موسيقية مُغطّاة. وحالما يبقى وحده يتوجه إلى غرضه، يزيل الغطاء عنه، ويُباشر العمل؛ معدات رسمه كلها موجودة داخل صندوق الموسيقى الأسود ذي المظهر الغامض. وعندما يخذله الضوء يواصل العمل بالاستعانة بضوء اصطناعي. أحياناً تتوفر له ساعة يُمضيها هكذا، وأحياناً أربع ساعات أو خمس. ويستطيع أنْ ينتقل بلحظة من حامل اللوحات إلى إجراء عملية جراحية دقيقة. لا بأس بإنجاز هكذا، وبالنسبة إلى الفنان هو إجراء، على الأقلّ، غير تقليدي.

عندما سألته إنْ كان قد فكّرَ في جعل الرسم عمله الوحيد، ولاسيما أنه لم يبقَ له من حياته إلا سنوات قليلة، قال إنه رفض الفكرة "لأنه يجب أنْ يكون لدي عمل آخر لكي أُنوِّع في المتعة العظمى للعمل ولكي لا ينالني الضجر أبداً ". لاحقاً، بعد أنْ قمت بزيارته مرات عدّة، قمت بخطوة جريئة وأعدتُ صياغة السؤال. لم يبدُ لي ممكناً أنَّ رجلاً شغوفاً

بالرسم مثله، وزيادة على ذلك يُحاول بوضوح أنْ يحشد عمل عشرين عاماً في أربعة أعوام أو خمسة، لا يواجه مشكلة ما بسبب هذه الحياة الثنائية المُضاعَفة. ولو أنه كان رسّاماً رديئاً، أو جرّاحاً رديئاً، لو أنه كان متفوقاً في أحدهما وهاوياً في الأخرى، لما أزعجتُ نفسي بملاحقة الموضوع. لكنه معروف بأنه أحد أعظم الجرّاحين في عصره، أما عن رسمه فلا ريب على الإطلاق في أنه، ولاسيما في رأي فنانين محترمين آخرين، فنان جادّ تزداد أهمية أعماله يوماً بعد يوم، وتتحسّن بسرعة مُدهشة. وأخيراً اعترفَ لي بأنه بدأ يُدرك أنَّ "هذا الشيء المُسمّى رسماً يُثير الروح، ويحرف العقل، ويستنزف الوقت، ومُتطلباً إلى أقصى مدى حيث إنه يحتكر كيان المرء برمّته وأخيراً يتجاوز الاهتمامات الأخرى كلها". ثم أضاف متأمّلاً " نعم، يجب أنْ أعترف بأنه شوّشَ نظام حياتي، ودفعني من جديد إلى القيام برحلة جديدة ".

هذا ما أردتُ أنْ أسمع. ولو أنه لم يعترف بهذا لكوّنت عنه رأياً مختلفاً كلياً. أما بالنسبة إلى أسبابه لمواصلة حياته الأخرى، فإني أشعر بأنَّ لا شأن لي بهذا.

سألته: " لو أُتيحَ لكَ أنْ تعيش حياتك مرة أخرى من أوّلها، فهل ستكون مختلفة كليّاً عن تلك التي نعرف؟ أو بعبارة أخرى، هل كنتَ ستخصّص للفن المكانة الأولى بدلاً من الطب؟ ".

أجاب دون لحظة تردُّد: " كنتُ سأفعل بالضبط ما فعلت من جديد. لقد كانت الجراحة هي قَدَري. والدي كان جرّاحاً ذا شأن، وقدوة رائعة في مهنته. إنَّ الجراحة عِلم وفن معاً، ولهذا السبب هي تُشبع عندي، في الوقت الحالي، نهمي للفن ".

انتابني الفضول لأعرف إنّ كان هذا الانهماك بالرسم قد شحذَ اهتمامه بالجوانب الميتافيزيقية للحياة.

قال: " سوف أُجيبك بالطريقة التالية: بما أنَّ الحياة بجوانبها الإنسانية كلها كانت عمل حياتي، فإنَّ الرسم كان فقط تضخيماً لذلك المجال. وكائناً ما كان النجاح الذي حقّقت كطبيب فإني أعزوه إلى معرفتي للطبيعة الإنسانية. لقد تعاملتُ مع عقول الناس بقدر ما تعاملت مع أجسادهم. إنَّ الرسم، في الواقع، يُشبه كثيراً ممارسة الطب. وعلى الرغم من أنهما معاً يتعاملان مع الجسد، إلا أنَّ التأثير الأعظم والسطوة على المدى الطويل هي نفسيّة. إنَّ وصفاً بالكلمات بالنسبة إلى المريض يشبه تماماً اللون، والخط والشكل بالنسبة إلى الرسّام؛ ويكاد لا يُصدَّق المدى الذي يمكن لمجرد كلمة أو نقطة أو خط أنْ تشكّل حياة المرء أو تؤثّر فيها. أليس كذلك؟ ".

هناك اكتشافُ آخر قمت به في سياق نقاشنا أكّدَ حدسي، وهو أنه منذ طفولته كانت لديه رغبة في الرسم. وفي عشرينيات عمره كان يتسلّى برسم اللوحات المائية. وبعد مرور فترة قاربت الثلاثين عاماً اهتمَّ بنحت الأشكال بالصلصال والخشب. وثمة أمثلة من هذا التحول الأخير مُبعثرة في أرجاء غرفة مكتبه الصغيرة، وكلها أشكال تاريخية تولّه بها من خلال قراءاته الواسعة. كانت تجسيداً آخر للشغف والشمولية. واستعداداً لجولة كبرى في العالم بدأ يقرأ في التاريخ والسِيَر. ونظراً للظروف التي كانت خارج سيطرته أُجهِضَتْ الجولة. لكنَّ الكتب المرتّبة على طول الجدران والتي قرأها بحماسة واجتهاد كشفت عن ذلك الشغف المعتاد الذي ينكب به على كل شيء.

قلت في نفسي، لدى مغادرتي مكتبه في مساء ذلك اليوم، إنَّ أمثال هذا الرجل هم المدخل الأقرب في العالم المدني إلى الأساطير والقديسين. وهم كهؤلاء الأخيرين يمارسون التركيز، والتأمُّل والتكريس. إنهم ذوو عزم بلا أدنى شك في تفانيهم في أداء مهمتهم؛ وعملهم، الصافي والعنيد، هو تقدمة ورعة يُقدّمونها في كل يوم إلى الخالق. وهم لا يختلفون عن الشخصيات الدينية العظيمة إلا في المجال أو الوسط الذي يعملون فيه.

إنني أدين باللقاء الذي تمّ مع الدكتور سوشون إلى ويكس هول من نيو أيبيريا. لقد كان الراعي والبطل، وبطريقة المرشِد والناصح المرهفة، منذ بداية مسيرة الطبيب الفنية. وقد تم اللقاء بعد وصولي مع صديقي راتنر إلى نيو أورليانز بخمس عشرة دقيقة. كانت أمتعتنا موجودة في السيارة المتوقفة عند حافة الرصيف؛ ولم نكن قد بدأنا حتى البحث عن غرفة عندما سنحت لنا الفرصة. وصلنا إلى مكتبه في بناية ويتني في وقت متأخر من بعد الظهيرة. كان دون أدنى شك قد أنجز عملَ يومٍ حافل. وما كان المرء ليتوقع ذلك قط من الطريقة التي استقبلنا بها. لقد كان حضوره نفسه يشحن الجو بالكهرباء. ووضع نفسه تحت تصرّفنا، بذهنٍ وضمير صافيين لرجلٍ أدى واجباته كاملة، يقظاً ومنتبهاً لأقل رغباتنا.

الطريقة التي حيّا بها صديقي راتنر كانت بالنسبة إليّ حدثاً يبقى في البال، تقدمةً لعظمة روح الدكتور سوشون. هتف وهو يجرّ راتنر نحوه بعناق ودود، "إنني في انتظار لقائك منذ عشرين عاماً! لقد تابعت عملك منذ أنْ سمعت عنك أول مرة. إنني أحفظ لوحاتك عن ظهر قلب -

عشتُ معها طوال سنين. يا لك من رسّام! يا الله، لو كانت لدي موهبتك، وعيناك، لما تركتُ مكاناً في العالم لم أزره!". استمر على هذه الوتيرة، غامراً راتنر بالمديح، وكله متواضع وصادق بعمق. قال: " يجب أنْ تحكي لي كل شيء. لديّ مئات الأسئلة أطرحها عليك. كم ستمكث في نيو أورليانز؟ هلا نظرتَ إلى عملي؟ هلا أخبرتني برأيك إنْ كنتُ على الطريق الصحيح؟" وما إلى ذلك، في فورة حماس بعد أخرى، كصبي صغير في حضرة أستاذ عظيم ومُحب.

شعر راتنر بالارتباك والحرج، وهو الذي كان تجسيداً للتواضع ومتعوداً أكثر، في هذا البلد على الأقلّ، على سماع الحط من أعماله والسخرية منها. ولا أعتقد أنه كان قد تلقّى مثل ذلك المديح الصريح، والحار، وغير المحدود، ولاسيما من فنان زميل. ولم يُتبِع الدكتور سوشون، كما يحدث عادة مع الفنانين، كلمات الثناء المتوهجة بالتركيز على الأشياء التي لا يُحبّها في رسم راتنر. على العكس، لقد انتهز الفرصة للاستفادة قدر الإمكان من معرفةِ هذا الأخير الراسخة وخبرته الواسعة. لقد كان تجسيداً للمذلة والخنوع، وهذه، أكرر، علامة عظمة الروح الحقيقية. وعلى الرغم من افتخاره بعمله الخاص، إلا أنه لم تكن لديه أوهام عن قيمته. في الحقيقة، بالنظر إلى الثقة الجريئة التي يعالج بها كل مشكلة واجهها، دُهشت لأنه، بعرضه لوحاته، كان ينبغي أنْ يعرض خوفه وارتباكه كما فعل حقاً. ولكنْ في الفن كما في الطب، احتفظ بالقدرة على الحفاظ على انفتاح ذهنه. وذاته، التي لم تغب قط، أضحت ثانوية تماماً بالنسبة إلى المهمة التي يجب أنْ تقوم بها. إنه يتوجه مباشرة نحو هدفه، كالممسوس بفكرة واحدة يندفع على مزلجة

مُعجلة. إنه يتحقق من القوانين التي تحكم الأشياء. وهو أول مَنْ يعترف بحدوده. وعندما سألته أثناء هنيهة صمت مَنْ الذي يحوز أكبر قدر من إعجابه من بين الشخصيات التاريخية العظيمة في العالم، أجاب على الفور - "إنه موسى" لماذا ؟ " لأنَّ الوصايا العشر هي أساس القوانين التي تحكم العالم المتحضِّر، وأيضاً أساس الأديان كلها ".

في الجلسة الأولى لعلنا شاهدنا نماذج من اللوحات، كافية لتؤسس في ذهني حقيقة أنَّه يوجد هنا، بغض النظر عن راتنر وذلك الساحر العظيم جون مارين، أشدّ رسّامي أميركا مرحاً، وحيوية، وإثارة للاهتمام. والارتقاء من اللوحات المُبكّرة، التقليدية، المظلمة، المترددة، حدث بسرعة البرق. والذين يكونون قد شاهدوا لوحاته قبل بضع سنوات في صالة جوليان ليفي في نيويورك لا يمكنهم أنْ يفهموا الخطوات الواسعة التي أنجزها منذ ذلك الحين، ولاسيما في مجال اللون. ولو أنَّ الدكتور سوشون اكتفى ببقائه هاوياً، كما عرَّفه جورج بيدل خطأً في ذلك الوقت، لكان أدخل دائماً السرور والسِحر إلى قلوب هواة الفن الذين يترددون على المعارض الفنية. إنَّ الجنون العابر بالنسبة إلى البدائيين الأميركيين ما هو إلا انعكاس للموقف المتغطرس، الخالي من الهم، لأولئك الأميركيين الذين "يدخلون ليشاهدوا رسماً"، الذين يسعون إلى التأنُّق والتسلية لكنهم لا يُصدَمون أو ينزعجون من لوحة. إنَّ الدكتور سوشون ليس بدائياً ولم يكن كذلك مرة، إلا مثل أصحابنا " أساتذة الواقعية الرائجين " يُظهر صدقاً، وشغفاً، وجرأة، بالإضافة إلى النزاهة والبساطة، التي يبدو أنَّ غير المقبولين فقط قادرون على إظهارها. ويسري في أعمال الدكتور سوشون، كما في أعمالهم أيضاً، خطّان من

الفكاهة والخيال، مدعومَين بإهمال تامّ للنظريات السياسية وعلم الاجتماع. وهو، مثلهم أيضاً، يرسم إلى حدٍ بعيد من الذاكرة، من ثروةٍ من التجارب الخصبة، والرؤى، والأحلام التي إبّان إفشائها بعد سنين من حبسها في عليّة كيانه، تكتسب صِفات لا يملكها إلا النتاج الأصيل للمخيّلة. وإذا كان ينتسب إلى المذهب الغريزي فإنه حتماً ليس بربرياً أو غوريلا. وعندما يكون في أعلى حالاته طبيعيّة وانطلاقاً فهو في أسمى حالات الحساسية والعمق. وفي تلك اللوحات التي لا تحمل إلا أقلّ تأثير يقترب الدكتور سوشون أكثر من أي وقت من تراث الفن الأوروبي العظيم. وعلى الرغم من اعترافه بأنَّ سيزان يُعجبه أكثر من غيره من الرسامين المُحدثين، فإنَّ أعماله في رأيي المتواضع لا تحمل أي شَبَه مهما كان بروح تلك العبقرية الكئيبة الجامحة. أما الذين تركوا أثرهم الواضح عليه فهم أمثال فان غوخ، وتولوز لوتريك، وروو، وماتيس، وسورا، وغوغان، ويجب أنْ أُضيف، في مجال اللون، آبيه راتنر. ولو لم يولد كريبوليا[٤٦]، ولم يذهب إلى فرنسا، ولم يهتم بتاريخ العصور الأخرى، لكان الدكتور سوشون ما يزال شخصاً دمثاً، مثقفاً مفعماً بالحياة وحساساً حيال المؤثرات المُحضَّرة كلها لعصرنا. إنَّ حيويته وحماسته مرجعهما إلى فضوله غير المحدود. إنه يبقى فتياً، ونضراً، ومرحاً ولا مبالياً لأنه يهتم بالمستقبل، وليس بالماضي. ولأنه يُنجِز في كل يوم ما يُعلِن أنه سيُنجزه. إنه يُباشر في كل يوم من الصِفر. لذلك ليس شيئاً فريداً أنه لم يُقابل قط الفشل من أي نوع. حتى رسمه جذب اعترافاً فورياً، على الرغم من توفّر كل إمكانية لإثارة السخرية والامتعاض.

لن أنسى ما حييت إيماءة قام بها على مائدة العشاء ذات أمسية عندما فُتِحَ موضوع "النجاح" هذا. كان أحدهم قد حاول أنْ ينتزع منه

صيغة أوضح عن نجاحه الاستثنائي. وعلى سبيل الإجابة رفع يديه الاثنتين إلى شفتيه وقبّلهما بوقار وقال: "Je dois tout a celles-ci" (أنا أدين بكل شيء إلى هاتين). وعلى الرغم من أنَّ ذلك لم يكن جواباً حقاً إلا أنَّ الإيماءة كشفتْ عن المذلة وغياب الذات اللتين يتميَّز بهما الفنان الذي يعمل بيديه. وفي تلك اللحظة كان يُفكر في مهارته الرشيقة كجرّاح، التي اكتسبها عبر فترة تدرُّب طويلة وشاقة. ولكن تلك المقدرة على استخدام يديه وأصابعه بدقة خارقة كانت أيضاً مؤشراً على موقف عقلي أشد إثارة للاهتمام، أي، على إيمان راسخ تملّكه وهو شاب بأنه لكي يشق طريقه في العالم عليه أنْ يعتمد على قُدراته الخاصة، وباختصار، على قوة يديه ومهارتهما.

هناك حادثة أخرى لها صلة بذلك العشاء، التي سرّتني أيما سرور. فعندما جاء النادل حاملاً لوائح الطعام، التفت الدكتور سوشون نحونا وقال: " ضعا هذه الأشياء جانباً، من فضلكما- لا تنظرا إليها. فقط أخبراني ماذا تفضلان أنْ تأكلا؛ يمكنكما أنْ تحصلا على ما ترغبان". لا أتذكّر أحداً قال لي مثل هذا قبل ذلك. كان يتصف بهالة فخمة وحتى لو أني طلبت شيئاً بغيضاً أنا واثق من أنَّ مذاقه كان سيبدو لذيذاً بعد تلك النصيحة. وقرّرت في التو واللحظة أنه إذا ما جاء اليوم الذي أستطيع فيه أنْ أنسى ثمن الطعام فسوف أتساهل مع نفسي كما فعل هو معنا. ولطالما رغبت في أنْ أستقلَ سيارة أجرة وأقول للسائق: " فقط قُد السيارة بي قليلاً، لا أعرف بعد إلى أين أريد أنْ أذهب ". لابد أنَّ هذا يمنح المرء إحساساً جميلاً بالاسترخاء والثقة بالنفس.

طبعاً إنَّ شعب نيو أورليانز مضياف إلى أقصى مدى. والوجبات

التي تناولتها هناك في منازل خاصة تبقى في الذاكرة. إنها أشد مدن أميركا التي أعرف ملاءمةً لمزاج المرء ويُعزى ذلك إلى حدٍ بعيد، في اعتقادي، إلى أنه هنا على الأقلّ على هذه القارة الكئيبة تتلبّس المُتع الحسّية الأهمية التي تستحق. إنها المدينة الوحيدة في أميركا حيث يمكن للمرء، بعد تناول وجبة مُطوّلة مُرفقة بنبيذ جيد وحديث ممتع، أنْ يتمشّى بلا هُدى في الحي الفرنسي ويشعر بأنه كائن بشري مُتحضّر.

بعد تناول العشاء الذي أتحدث عنه تركنا الدكتور سوشون بين يديّ صديقه الحميم تشارلز غريشم الذي يُدير صالة عرض فنية صغيرة مُثيرة للاهتمام في شارع رويال. أثناء مرافقتنا في جولة في الحي تصرّف غريشم وكأنه يراه للمرة الأولى منذ سنين. وقد ذكّرني حبّه لذلك العالم المُصغّر للماضي بقوة بجولاتي بمواكبةِ مرشدٍ في شوارع باريس في الفترة التي سبقت ضجري من مثل تلك المغامرات. لقد بدا أنه يحفظ كل بوصة من الطريق غيباً، بطريقة لا يعرفها إلا شخص يجوب الشوارع ليلة بعد أُخرى وينفذ أعمق فأعمق في الطبقات السرّية للماضي. كنتُ أستوقفه هنيهة أو اثنتين لكي نعبر، ولأسمح له بإنهاء القصة التي يرويها، وفجأةً فقدتُ اهتمامي بما كان يقول بسبب الذكرى الحيوية لموقع يكاد يكون متطابقاً ذات أمسية عندما كنتُ أُرشدُ شخصاً أميركياً في قلب الحي اللاتيني. أقول أُرشده، لكنَّ الرجل في حقيقة الأمر هو الذي كان يرشدني. كانت تلك زيارته الأولى لباريس - ولم تكن لديه إلا تلك الأمسية ليقضيها في باريس. كانت أغرب جولة في المدينة قمت بها في حياتي. وكان الرجل قد أخبرني على مائدة العشاء أنه يؤلف مسرحية عن الثورة الفرنسية وأنه في سياق أبحاثه التي يجريها قام بدراسة

الخريطة بصورة شاملة حتى إنه اقتنعَ بأنَّ في استطاعته أنْ يقودني في الشوارع كأنه باريسي أصلي. في الحقيقة كان يعرف المدينة، كما تبين لي سريعاً، أفضل من الباريسي العادي. لكنَّ المدينة التي كان يتجول فيها كانت مدينة ميتة. بدا كأنه لا يُلاحظ باريس الفعلية، الحيّة، التي حيَّتْ عينيه عند كل منعطف. كانت ملاحظاته مصحوبة بتواريخ وشخصيات تنتمي إلى صفحات متهرِّئة من الكتب. ويجب أنْ أعترف بأنَّ باريس لم تبدُ لي خالية من الحياة ومملة كما بدت من خلال عينيّ ذلك المتعصِّب التاريخيّ. وعندما وصلنا إلى مؤخر كاتدرائية نوتردام، إلى بقعة تُخرِسُ في الليل عادة أشدّ الحمقى ثرثرة، وعندما أُصبتُ بالرعب لأنه لم يكف عن الهذر عن الدمى الميتة للثورة الفرنسية، أعلمته بأني أشعر بإرهاق شديد ولا أستطيع المتابعة أكثر من ذلك وافترقنا هناك بطريقة باردة وتنم عن لا مبالاة. قد يتمكن رجل من تأليف دراما تاريخية مُثيرة من دون حتى أنْ يقوم بزيارة الموقع الذي انتقاه مسرحاً للأحداث، لكنَّ الرجل الذي يبقى كتيماً أمام دراما الشارع الحي، الذي يمشي في الحاضر ولا يرى غير الماضي، جاذبيته بالنسبة إليّ لا تتجاوز جاذبية الدليل السياحي لمدينة فيينا لو أني كنتُ أعيشُ في سيراليون.

في الجلسة التالية في مكتب الدكتور سوشون زاد استحساني لأعماله. ومن جديد شاهدنا مجموعة من اللوحات الفنية، نُفِّذتْ على امتداد فترة تتراوح بين الخمس سنوات والست. وبدا أنَّ الحديث مع غريشم أنعشَ بصيرتي. فتلك التمشية في أرجاء الحي الفرنسي في الليلة السابقة أحيتْ صورة لويزيانا التي ما يزال رونقها يخمد. وأثناء وقوفي في متنزّه جاكسون، ذي البيئة الفريدة من نوعها في أميركا،

أدركتُ فجأةً السبب في أنْ المكان ينطوي على فتنة طاغية بالنسبة إليّ. ذلك الصف من الشُقق السكنية التي تحدّ المتنزّه - أريد أنْ أذكر أنها أول شقق سكنية في أميركا - ذكّرني بصورة غريبة بتلك الفنادق الصغيرة التي تكتنف البقعة التي هي أشدّ ما أحبّ في باريس - بلاس ديه فوسج. بجوار الأولى هناك السوق الفرنسية الشهيرة؛ وبجوار الأخرى هناك الباستيل. وكلاهما يتنفّس هواء الهدوء والعزلة، وكلاهما لا يبتعد أكثر من مرمى حجر من الحياة الصاخبة للعامة. لا شيء أكثر أرستقراطية من جو بلاس ديه فوسج، الواقع في قلب فوبورج سان أنطوان. ومتنزه جاكسون له النكهة نفسها. وكأنه لا ينتمي إلى أميركا.

الأمر نفسه مع لوحات الدكتور سوشون كما مع كامل جو لويزيانا - إنها أميركا وليست أميركا. والعديد من لوحاته كان يمكن أنْ تكون من أعمال فنان فرنسي مُعاصِر. ليس في الموضوع، بل في الإحساس والمدخل. هناك شيء حكيم ومرح فيها جميعاً، شيء يقترب أحياناً من روح الطبيعة العظيمة للرسامين الصينيين. شيء يُحيي في المرء فكرة "أننا نقترب من اليقظة عندما نحلم بأننا نحلم". ما أشد بُعد تخيلاته هذه عن الأنماط الشاحبة، العقيمة لغرانت وود أو الجهود النياندرتالية لتوماس بنتون! ما أشد ابتذال، وعقم، وزيف عالم الفن الأميركي! وفيما عدا البدائيين، ما عدا ذلك الساحر جون مارين الذي يُعتَبَر وجوده بيننا ظاهرة معجزة، ماذا يبقى من قيمة أو معنى يمكن إفرادهما بعيداً عن حثالة اللوحات التي تُصنَّع كما تُصنَّع الشموع ؟ أين الرؤيا، والفردية، والشجاعة والجرأة التي يُظهرها الأوروبيون " العقيمون " ؟ أين نسختنا من بيكاسو، أو فان غوخ، أو سيزان، أو ماتيس أو براك - أو حتى

البسيط، الصادق، أوتريللو؟ هل في استطاعتنا أنْ نُنجب مثيلاً لروا Rouault، أو بول كلي، ناهيك عن عمالقة الماضي أولئك من إيطاليا، وإسبانيا، وهولندا، وبلجيكا، وألمانيا، وفرنسا وما إلى ذلك ؟ على هذه الأسئلة دائماً يتلقّى المرء الإجابة نفسها - ***إننا ما نزال بلداً فتياً***! على مدى كم من القرون القادمة سنبقى نتكئ على هذا العكّاز؟ فكِّر فيما أنجز بوذا على مدى حياته. فكِّر فيما أنجزه العرب خلال بضعة عقود بعد ظهور محمد. فكِّر في الجمهرة المتلألئة من العباقرة الذين أنجبتهم اليونان على مدى قرن من الزمان. لم يحدث قط أنْ انتظرَتْ عبقريةُ شعبٍ إلى أنْ أضحت الحياة السياسية والاقتصادية في وضعٍ مثالي. إنَّ حالة الجماهير، في أية فترة ننتقيها، كانت دائماً تدعو إلى الرثاء. في الحقيقة، أعتقد أني لا أخطئ عندما أقول إنَّ أعظم فترات الفن تزامنت مع فترات من البؤس والألم العظيمَين من جهة العامة من الناس. ولو أنَّ ربع الشعب الأميركي يعيش اليوم على مستوى معيشةٍ أدنى بكثير من المعتاد، يبقى مع ذلك مئة مليون يستمتعون بوسائل راحة وميزات لم يعرفها الناس في أي فترة من الماضي. ما الذي يمنعهم من الكشف عن مواهبهم ؟ أم أنَّ مواهبنا تتجه نحو اتجاهات أخرى ؟ هل هدف الرجل الأميركي الأعظم هو أنْ يُصبح رجل أعمال ناجح ؟ أو مجرد "ناجح"، بغضّ النظر عن الصيغة أو الشكل، أو الهدف أو المغزى، الذي يتبدّى النجاح به بجلاء ووضوح ؟ ليس في ذهني أي شك حول أنَّ الفنّ لا يأتي إلا في آخر ترتيب الأشياء التي تشغلنا. والشاب الذي يُظهِر علامات تدلّ على أنه سيُصبح فناناً يُنظَر إليه على أنه غريب الأطوار، أو مجنون، أو مُعاق لا قيمة له. إنَّ عليه أنْ يتبع إلهامه ويدفع الثمن

جوعاً، ومذلّة وسُخرية. ولا يستطيع أنْ يكسب عيشه من مهنته إلا بإنتاج نوع من الفن يحتقره. فإذا كان رسّاماً فإنّ الطريقة الأفضل له للعيش هي أنْ يُنفّذ لوحات سخيفة لأناسٍ أشدّ سُخفاً، أو أنْ يبيع خدماته لملوك الدعاية التجارية الذين ساهموا، في رأيي، في تدمير الفن أكثر مما فعل أي عامل آخر أعرفه. خُذ مثلاً الجداريات التي تزيِّن جدران أبنيتنا العامة- إنَّ معظمها ينتمي إلى الفن التجاري. بعضها، من ناحية التقنية والتصوُّر، تنخفض إلى ما دون المستوى الجمالي للفنان المتأنِّق. كان الاهتمام مُنصبّاً على إرضاء الجمهور، الجمهور الذي فسد ذوقه بسبب صور ماكسفيلد باريش الحجرية الملوَّنة ومُلصقاته التي لا تحمل إلا فكرة واحدة، "أنها مفهومة".

لو أنَّ الدكتور سوشون أنتج لوحاته هذه وهو في سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين، لو أنه اعتمد على فنّه لكسْب لقمة العيش، لكان في الغالب مات جوعاً وتشرد بلا هُدى؛ لكان النقّاد ضحكوا من أعماله ونصحوه باللجوء إلى إحدى الأكاديميات ليتعلَّم الرسم؛ ولكان تجّار الفن طلبوا منه أنْ ينتظر عشر سنوات أخرى. إنَّ جزءاً من نجاحه يمكن أنْ يُعزى - ولا ريب في ذلك، أؤكد لك! -إلى حقيقة أنّه كان يمكن أنْ يُستغَلّ كظاهرة شاذة أو رائعة. هكذا يُعامَل البدائيون الأميركيون اليوم - كنوع من عرض المنوعات المسرحية نُفِّذَ رسماً من أجل الجماهير العريضة. ومع ذلك هناك لوحات نفّذها هؤلاء الشاذون والغيلان أنفسهم لم يتوصّل أي فنان أميركي بعد إلى مُجاراتها في الجودة، والتصوُّر والتنفيذ. والشيء نفسه ينطبق على أعمال المجانين في مصحاتنا النفسية: العديد من تلك اللوحات لا يمكن لأساتذتنا الأكاديميين أنْ يُجاروها.

في أحد سجوننا الفدرالية أشار القس الأيرلندي الذي كان يتجول معي في أرجاء الكنيسة إلى النوافذ ذات الزجاج الملوَّن التي نفّذها أحد المحكومين - وكأنها نكتة كبرى. وما أعجبه كان الرسوم المأخوذة من الكتاب المقدّس على صندوق السيجار التي نفّذها محكومون "يعرفون كيف يرسمون"، حسب تعبيره. وعندما قلت له بفظاظة إني لا أشاطره الرأي، عندما بدأتُ أتكلّم بوقار وحماس عن الجهود المتواضعة ولكن الصادقة للرجل الذي نفّذَ رسوم النوافذ، اعترفَ بأنه لا يعرف أي شيء عن الفن. كل ما فهمه هو أنَّ أحد الرجلين يُحسِن الرسم والآخر لا يعرف. سألته " هل هذا ما يجعل المرء فناناً، لمجرد معرفته كيف يرسم ذراعين وساقين، لمعرفته كيف يرسم وجهاً إنسانياً ويضع قبعة بشكل مناسب على الرأس - هل هذا هو؟". حكَّ رأسه في ارتباك. من الواضح أنَّ السؤال لم يخطر في باله قط. سألته " ما الذي يفعله ذلك الرجل الآن؟"، وقصدت بسؤالي ذاك الذي نفّذ رسم النوافذ. " ذاك ؟ أوه، إننا نعلّمه نسخ الصور من المجلات". " وهل يُحرز تقدُّماً؟"، قال القس " إنه لا يُبدي أي اهتمام به. لا يبدو أنه يأبه للتعلُّم ".

غبي! قلت في نفسي. حتى في السجن يُحاولون تدمير الفنان. إنَّ الشيء الوحيد في السجن كله الذي أثار اهتمامي كان تلك النوافذ ذات الزجاج الملوَّن. كانت المظهر الوحيد للروح الإنسانية المتحررة من القسوة، والجهل والانحراف. وقد أخذوا هذا الروح الحرة، هذا الرجل المُخلِص، المتواضع، الذي أحبَّ عمله، وكانوا يُحاولون أنْ يُحوّلوه إلى حمار مُثقف. التقدُّم والتنوير! إنهما يُحولان المجرم الطيب إلى فائز مُحتَمَل لجائزة غوغنهايمر! تفوووه!

قال الدكتور سوشون " أنا أكره أنْ أُفكِّر فيما سيمر به الفنان من دون موارد مادية! لا أعرف جحيماً أسوأ من هذا ". إنَّ نيو أورلينز، كأي مدينة أخرى في أميركا، ممتلئة بالفنانين الجياع وأنصاف الجياع. والحي الذي يشغلون يتعرَّض على الدوام للإزالة والهدم تحت حماية البنادق الضخمة لمُخرِّبي العالم الصناعي وبرابرته. إننا نشتكي من تخريب قبائل البرابرة، أعدائنا السابقين، الألمان، ومع ذلك يستمر التدمير بيننا، ذلك العمل الماكر، في الملجأ الهندسي الأخير لأميركا، البقعة الغنّاء الوحيدة في العالم التي خرّبناها بأيدينا. وإذا سرنا على أساس هذا المعدَّل، لن يبقَى هناك بعد مئة عام أخرى أو نحوها أي أثر أو دليل على وجود هذه القارة ذات الثقافة الوحيدة التي تمكّنا من إنتاجها - ثقافة العبيد الأغنياء في الجنوب. إنَّ نيو أورلينز تعبد الماضي، لكنها تراقب ببلادة برابرة المستقبل وهم يدفنون الماضي بسخرية وبلا رحمة. وعندما سيختفي الحي الفرنسي الجميل، عندما ستُدمَّر كل صِلة بالماضي، ستحل محله أبنية المكاتب النظيفة، والعقيمة، والصروح البشعة والأبنية العامة، وآبار البترول، والمداخن، والمطارات، والسجون، والمصحات العقلية، والمستشفيات الخيرية، وطوابير الخبز، والأكواخ الكئيبة للملونين، والسيارات القديمة البرّاقة، والقطارات الانسيابية، ومنتجات الأطعمة المُعلّبة، والصيدليات، وواجهات المحال المُضاءة بالنيون لكي تُلهِم الفنان بالرسم، أو، المُرجَّح، لإقناعه بالانتحار. قليل من الرجال سيتحلون بالشجاعة للانتظار إلى أنْ يبلغوا الستين قبل أنْ يحملوا ريشة رسم. وأقلّ منهم ستُتاح لهم الفرصة ليُصبحوا أطباء جرّاحين. وعندما يتحلى طبيب أسنان مشهور بالجرأة ليقول إنَّ الأسنان

بالنسبة إلى رجل عامل - أسنانه الأصلية - هي رفاهية اقتصادية، فإلامَ نحن مُقدِمون؟ قريباً سيقول الأطباء والجراحون: " لماذا نحاول أنْ نُحافظ على الحياة ما دام ليس هناك ما نعيش لأجله؟ ". قريباً، وبدافعٍ من العطف الإنساني المحض، سوف يجتمعون معاً لكي يُشكّلوا جمعية للقتل الرحيم ليتخلصوا من كل الذين لا يتلاءمون مع رعب الحياة الحديثة. وسوف تزودهم ساحة الحرب، بالإضافة إلى الساحة الصناعية، بكل ما يُريدون من مرضى. والفنان، كالهندي، قد يُوضَع تحت وصاية الحكومة؛ قد يُسمَح له بالتلهّي بلا هدف ببساطة لأنَّ قلبنا لا يُطاوعنا، كما في حالة الهندي، على قتله هكذا مباشرة. أو ربما بعد أنْ يؤدي "خدمة مفيدة" للمجتمع قد يُسمَح له بممارسة فنه. يبدو لي أننا مُقدِمون على مثل هذا المأزق. يبدو أنَّه ليست هناك أي جاذبية أو قيمة بالنسبة إلينا إلا في أعمال الموتى. إنَّ في وسع الأثرياء دائماً أنْ يستسلموا لغواية دعم متحف آخر؛ ويمكن الاعتماد دائماً على الأكاديميات لتزويدنا بكلاب حراسة وضِباع؛ ويمكن دائماً شراء النقّاد ليقتلوا كل ما هو نضر وحيوي؛ ويمكن دائماً حثّ المُربّين على تزويد الشبيبة بمعلومات خاطئة فيما يخص معنى الفن؛ ويمكن دائماً تحريض المخرّبين على تدمير كل ما هو قويّ ومُثير للقلق. لا يمكن للفقراء أنَّ يُفكِّروا إلا في الطعام وفي مشكلات الإيجار؛ ويستطيع الأغنياء أنْ يتسلّوا بجمع استثمارات آمنة تزوّدهم بغيلان يُتاجرون بعَرَق الفنانين ودمائهم؛ والطبقات الوسطى تفسح المجال للتثاؤب والانتقاد، وتزهو بمعرفة سطحية عن الفن وهي من فرط الخوف بحيث إنها لا تناصر الذين تخشاهم في قلبها، لعِلمها أنَّ العدوَّ الحقيقي ليس صاحب المكانة العليا، التي عليها أنْ تتملق، بل المتمرِّد

الذي يكشف بالكلمة أو بالرسم عفن الصَرح الذي هي مُضطرة، كطبقة متوسطة لا ظهر لها، أنْ تدعم. والفنانون الوحيدون في الوقت الحاضر الذين يُكافَؤون بسخاء على كدّهم هم الدجّالون؛ وهؤلاء لا يتضمَّنون فقط التشكيلة المستوردة بل أبناء البلد البارعين في إثارة سحابة من الغبار عندما تكون القضايا الحقيقية على المحكّ.

إنَّ مَنْ يرغب في رسمٍ ليس ما يرى بل ما يشعر لا مكان له بيننا. إنه ينتمي إلى السجن أو إلى المصحّة العقلية. اللهم إلا إذا استطاع، كما في حالة الدكتور سوشون، أنْ يُبرهن على سلامة عقله واستقامته بعد ثلاثين عاماً أو أربعين من خدمة الإنسانية بقيامه بدور طبيب جرّاح.

هذا هو حال الفن في أميركا هذه الأيام. فإلى متى سيدوم ؟ لعلّ الحرب بَرَكَة مُستترة. وربما، بعد أنْ نخوض في حمّام آخر من الدماء، سوف نولي انتباهنا الرجال الذين يسعون إلى تنظيم الحياة بأدوات أخرى غير الجشع، والمنافسة، والكراهية، والموت والدمار. وربما... **Qui vivra verra** (مَنْ يعِش يرَ) كما يقول المثل الفرنسي.

أركانساس والهرم الأكبر

أركانساس ولاية كبيرة. لابد أنها كذلك، وإلا لكان دو سوتو[٤٧]، الذي اكتشف كل ما يمكن اكتشافه في الغرب الجنوبي، مرَّ بها مرور الكرام، وتجاهلها. وقبل تسعين عاماً من رسو الرحّالة في بليموث يبدو أنَّ الإسبان، الذين كانوا أيضاً من البيض، عبروا هذه الأرض. وبعد وفاة دي سوتو مرَّ مئة عام قبل أنْ يطأ بيضٌ آخرون المنطقة التي لم تنضم إلى الاتّحاد كولاية إلا في عام ١٨٣٦. كان هناك نحو ٦٠٠٠٠ نسمة حينئذٍ في الولاية كلها. واليوم عدد سكانها يبلغ ٢٠٠٠٠٠٠. وأركانساس حاربت إلى جانب الاتحاد الفدرالي، وهذه نقطة إضافية تُحسَب لصالحها! في ليتل روك يمكن للمرء أنْ يرى أولد ستيت كابيتول، الذي بُنيَ في عام ١٨٣٦، وهو أحد أروع القطع الهندسية في أميركا. ولكي تُحيط بمحاسنها بشكل كامل عليك أنْ ترى الأعمال الفظيعة التي مورست في ديه موان. لقد فكّر ويل روجرز، تلك الشخصية الأميركية العظيمة الذي بدأ تمثاله الآن يُنافس تمثال مارك توين أو آبيه[٤٨] لينكولن، ملياً في ولاية أركانساس لكي ينتقي زوجة من البلدة التي تحمل اسمه. هناك الكثير من الحقائق والأرقام حول أركانساس تجعلها متميزة. وسوف أمرّ عليها كما يلي- إنَّ أكبر ثمار بطيخ أصفر في العالم، وبعضها يزن ١٩٠

رطلاً، تنمو في هوب؛ ومنجم الماس الوحيد في الولايات المتحدة يوجد بالقرب من مرفريسبورو في الزاوية الجنوبية الغربية من الولاية؛ وأكبر بستان خوخ في العالم (مساحته ١٧٠٠٠ أكر، ويحتوي مليون ونصف المليون شجرة) يوجد هنا أيضاً؛ ومقاطعة مسيسيبي هي المقاطعة الأغزر إنتاجاً للقطن في العالم؛ و ٩٩٪ من سكان هذه الولاية هم من أرومة الرواد الأميركيين الصافية، وغالبيتهم هاجروا من الجبال الأبالاشية؛ وفي أكبر كوخ مبني من جذوع الأشجار، أصبح الآن متحفاً، على مسافة ميلين إلى الجنوب من جبل غيلور، مارس ألبرت بايك التدريس ذات يوم. وأمرّ بسرعة على هذه المواد المُثيرة للاهتمام لكي أتوقّف مدة أطول عند رجلَين، توفيا الآن، لعل العديد من الأميركيين لم يسمعوا باسميهما قط: إنهما العميد ألبرت بايك، الذي كان ذات يوم القائد الملكي الأكبر للشعائر الماسونية الاسكتلندية المقبولة والقديمة في المنطقة القضائية الجنوبية، في الولايات المتحدة الأميركية، و "كوين" (وليم هوب) هارفي، باني الهرم الذي لم يُبنَ قط على جبل نيه، في أركانساس.

سمعت للمرة الأولى عن "كوين" هارفي في منزل القاضي ماكهنري في ليتل روك، واللقب المستعار "كوين" هارفي مُنِحَ له بسبب صِلته بوليم جننغز براين عندما كان هذا الأخير يُناصر "الفضي الحر". وكان هارفي حتماً أحد أولئك الرجال الغريبي الأطوار، المستقلين، ذوي الفِكر الحر المتحلّين بشجاعة معتقداتهم - نمطاً أصبح الآن ينقرض باطّراد في أميركا. ويبدو أنه جمع ثروة طائلة من بيع كتاب (كتاب صغير ذو غلاف خلفي أخضر اللون، مُصوَّر، يتألف من ٢٢٤ صفحة، سعره ٢٥ سنتاً) كان قد ألّفه ووضع له عنوان "***الكتاب***" (هكذا). والكتاب يُعالج

تأثير الربا "على نظام الحكومات منذ مولد هذه الحضارة وحتى الزمن الحاضر والتأثير المُدمِّر للنظام المالي القائم على الربا (الربا تُكتب دائماً بأحرف كبيرة!) في الولايات المتحدة، وفي العالم". في أوائل حقبة الثلاثينيات دعا هارفي إلى عقد اجتماع من أجل تنظيم حزب سياسي جديد، بعد أنْ فقد كل إيمان بالحزبَين السياسيين القديمَين. وفي نشرة بعنوان "نفير البوق"، بيعت مقابل ٢٥ سنتاً في العام، هناك مقال مُثير للاهتمام عن اللجنة القومية المرتجَلة التي ولدت ميتة، إذا لم أكن مُخطئاً. لقد رأى هارفي أنَّ البقعة التي انتُقيَتْ لعقد الاجتماع الوطني لحزبه الجديد يجب أنْ تكون في غرب نهر المسيسيبي. يبدو لي هذا ذا دلالة ويُشير إلى الصدع الموجود بين الشرق والغرب في هذه الولايات المتحدة. أما أوراق اعتماد نواب الاجتماع، كان لدى هارفي فكرة لامعة. شرح قائلاً في نشرة " نفير البوق ": " إنَّ طلب الانتساب إلى أية أخوية، أو منظمة، أو لأداء واجبات وفق قوانين الخدمة العامة يتطلّب التقدُّم لامتحان. ولن يكون هناك وقت لامتحان المتقدمين لدخول الاجتماع كنواب؛ ومع ذلك، من العمليّ استبدال موقع الامتحان بإقرار مُوقَّع يُبيِّن أنَّ المتقدِّم أَبلغَ وعلى عِلم بتلك الأشياء التي يُغطيها الامتحان الشخصي". إذن كان لدى هارفي الفكرة اللامعة القائلة إنَّ النواب المذكورين، في موقع الامتحان، عليهم أنْ يقرؤوا هذا الكتاب، "*الكتاب*"، لكي يتأهّلوا للانتخاب. وضّح قائلاً " إنه الكتاب الوحيد حسب عِلمنا الذي يحتوي هذه البيانات التاريخية (عن الربا ونهوض الحضارات وانهيارها)؛ فإذا قرأ المتقدِّم " *الكتاب*" فذلك برهانٌ مُقنِعٌ على أنه يمتلك معرفة تؤهّله في هذا المجال لدخول الاجتماع".

لا داعي إلى القول إنَّ الاجتماع كان فاشلاً. ولكنني لا أعتقد البتّة أنَّ "كويْن" هارفي كان فاشلاً على الرغم من أنَّ اسمه قد نُسيَ الآن والفكرة اللامعة عن الهرم اختنقت بين الصفحات البالية للكتيِّب ذي الـ٢٥ سنت المدعو "كتيِّب الهرم". ونتيجة لاجتماع طارئ في روجرز مع سيد لطيف من أركانساس، نجحتُ بعد بعض التقصّي أنْ أحصل على واحدة من النسخ الثلاث أو الأربع المتبقية من الوثيقة الخارقة. وسوف أخوض بحرية في نص هذا الكُتيِّب لأشرح مشروع هارفي الذي، يجب أنْ أُضيف، كان معروفاً جزئياً، على الرغم من أنَّ الهرم نفسه لم يُنشَأ قط.

قمت بزيارة موقع المشروع في وقتٍ مُبكّر من صباح يوم ربيعيّ منعش. الشعور الذي حملته معي كان فحواه أنَّ هارفي لم يكن بأي حال أحمق، أو مجنوناً، أو حالماً كَسِلاً. ومعه جاءتني الفكرة المُحزنة قليلاً التي تقول إنه ربما بعد مئة عام من الآن سوف تظهر الأهمية الحقيقية لهذا المشروع المُجهَض.

ماذا كان الهدف من إنشاء الهرم ؟ وأقتطف كلماته: " إنَّ الهدف من الهرم هو جذب انتباه سكان العالم إلى حقيقة أنَّ الحضارات نشأت وزالت مصحوبة بمعاناة خرساء لمئات الملايين من الناس، وأنَّ هذه السائدة الآن مُعرَّضة للخطر – على حافة الزوال. وإشارة الخطر التي يُذيعها الهرم للعالم، كما يؤمل، سوف تدفع الناس إلى التفكير وتُثير فيهم الوعي الإيثاري حول الخطوات الواجب اتّخاذها لإنقاذ وتحسين هذه الحضارة. فإذا لم يحدث هذا، وبسرعة، قبل أنْ تحل الفوضى الشاملة، فسوف يكتب الزمن، بلغة النسيان والهمجية غير المدوَّنة، نعياً على قبر هذه الحضارة.

ويُضيف: "عندما يكتمل بناء الهرم أنوي أنْ أنشئ محطة بثّ من أجل البقاء على اتّصال مع العالم، واضعاً نُصب عينيّ على الدوام فكرة استنهاض سكان العالم العمليين، المُفكّرين، من أجل صنع الحضارة المثالية".

كانت نيّة هارفي في الأصل أنْ يُموّل إنشاء الهرم بنفسه، ولكن بعد أنْ وضع مبلغ مئة مليون دولار في الاعتماد المالي أصبح في وضع مالي مُحرج وطلب مُساهمين متطوعين. فتلقّى مبالغ تتراوح بين دولار واحد وخمسين من أرجاء العالم كلها، وفي وقت صدور الكُتيِّب كان المبلغ قد أصبح مئة ألف دولار. وكان تقدير تكلفة الهرم عند اكتماله وختامه سيصل إلى ٧٥٠٠٠٠٠ دولار.

إنَّ الشيء الذي أثار اهتمام هارفي وحفّزه كان حقيقة أنّ، حسب تعبيره، " ليس هناك بلد آخر غير مُكتَشَف يمكن الفرار إليه! والآن أصبحت الحقيقة والزيف، والخير والشر، والله والشيطان وجهاً لوجه في العالم كله في صراع حتى الموت. إنها الأزمة نفسها التي حلّت بالحضارات الأخرى التي انهارت! لقد دمَّرتْ الأنانية الفردية التي تبلورتْ على هيئة قوانين الأمم الديموقراطيات والجمهوريات وهي أساس الممالك والدول الاستبدادية. إنَّ الأنانية المنفلتة هي نار مُهلِكة تأكل كالسرطان أعضاء الحكومات الحيوية، وتجلب معها الفساد، والأحقاد، والغرور، وسلالة ضعيفة، سيئة التغذية وقزمة. فكيف سنواجه هذه الأزمة؟ كيف سيواجه سكان العالم هذه الأزمة؟ ".

كان الهرم سيبلغ ١٣٠ قدماً علواً، ويقوم على قاعدة مساحتها ٤٠ قدماً. إلى الشمال كانت ستُترك ردهة أو مصطبة من الإسمنت قادرة

على استيعاب ألف شخص جالس. وعند قاعدته، في بركة من المياه الباردة والصافية، كانت جزيرة من الإسمنت مُجهّزة بأثاث من الإسمنت قد أُنشئت فعلاً. وقد كان من رأي خبير من شركة بورتلند للإسمنت أنَّ "الهرم قد يدوم مليون عام وأكثر- حتماً"، بعد تزويد سطحه بمادة عازلة مُضادة للمياه.

إنَّ جبل نيه، موقع المشروع، يقع على حافة وادٍ عند نهاية نتوء بارز. وعندما أدرك هارفي أنَّ نجود أوزارك قد انخفضتْ بمقدار يتراوح بين ١٤٠٠٠ إلى ١.٤٠٠ قدم بفعل عوامل التعرية، اتّخذ إجراء الحيطة واختار موقعه عند بروزٍ لا تتعدّى المسافة إلى قمة الجبل منه الـ ٢٤٠ قدماً. ويكتب قائلاً: " إذا زال الوادي، بسبب عوامل التعرية، وانخفضت الجبال المُحيطة به على المدى الطويل، فإنَّ الهرم، على علوّ ١٣٠ قدماً، سيكون مرئياً بارزاً فوق الأرض. من الناحية الجيولوجية، كان متيقناً من أنه لا خطر من حدوث هزة أرضية أو نشاط بركانيّ في تلك الجبال. إذن فالهرم آمن ويدوم إلى الأبد ".

في أعلى العمود وعلى أشد المعادن المعروفة متانة كانت ستوضع رقعة تحتوي الكلمات التالية:" عندما يُصبح من الممكن قراءة هذا، اهبط واعثر على سجل وسبب زوال حضارة سابقة ".

كانت ستوضع رُقعٌ أخرى على الجدار الخارجي للقبوين والغرفة، إلا أنَّ كلمة " اهبط " ستُستبدل بـ "ادخل". وفي الغرفة الكبيرة في أسفل العمود وفي القبوين كانت ستوضع نسختان من "كتابٍ يحكي عن نشأة هذه الحضارة وازدهارها، والأخطار التي تهدِّد بتدميرها، بالإضافة إلى مجموعة آراء حول سبب ما يتهدّدها من زوال وشيك. سوف يكون كتاباً

ذا غلاف من الجلد ويتألف ربما من ٣٠٠ صفحة أو أكثر مطبوع على ورق سوف يقرّه خبير أوراق في مدينة نيويورك، وكل صفحة من الكتاب كانت ستُكسى بورقة شفّافة تُصنع الآن لهذا الغرض، ومن خلالها يمكن للمرء أنْ يقرأ بسهولة، وهكذا يتم الحِفاظ على الحبر من أنْ يبهت لونه. وعندما سيكتمل إنشاء الهرم سوف يُعطى مهلة عام ليجفّ، وسيُقفل إلا المدخل المؤدي إلى الغرفة والقبوين. وفي غضون ذلك العام (هكذا) سيكون الكتاب قد تمّ تأليفه وطُبِعَ بمجلداته الثلاثة ويستعد لدخول ذلك المكان ".

ويُتابع الكُتيب فيشرح كيف ستوضع تلك الكتب في حاويات مُحكمة الإغلاق، وكيف ستُستخدَم عائدات بيع الكتاب من أجل تحسين الأرض المحيطة وللنهوض بتكاليف المُشرِف. وسوف يُغلَق على كتب أخرى داخل الهرم- كتب في الصناعة، والعلوم، والاختراعات، والمكتشفات، إلى آخره. والكتاب المقدس، أيضاً، وموسوعات وكتب في التاريخ. وأيضاً صور لأناسٍ وحيوانات من مراحل مختلفة من حضارتنا. وفي الغرفة الكبيرة كانت ستوضع "أغراضٌ صغيرة نستخدمها الآن في شؤون الحياة المنزلية والصناعية، بدءاً بحجم الإبرة والدبوس وحتى جهاز الفونوغراف".

لقد كان وضعُ كتابٍ تفسيريّ احتياطي باللغة الإنكليزية عملاً حكيماً وذكياً " سوف تقدِّم ترجمته عوناً، مهما كانت اللغة المحكية في زمن فتح الهرم ". وأحب بصورة خاصة المقطع التالي:

" لقد افترِضَ أنَّ حضارة ستنشأ من رماد هذه سوف تبرز ببطء، كما حصل مع هذه الحضارة، وستقوم تدريجياً باكتشافات بإلحاح من العقل

الإنساني، بما أنها لا تعرف شيئاً عما اكتشفناه أكثر مما نعرفه الآن، ولا عن مراحل تقدُّم حضارات ما قبل التاريخ، وستصل حتماً إلى العصر الذي اكتشفَ فيه الفولاذ والمتفجرات، قبل أنْ تقتحم الهرم. وهذا يفترض تحلِّيها بذكاء يجعلها تقدِّر قيمة ما تكتشفه داخل الهرم. وبما أنَّ الغرفة وكل من القبوين سوف تحتوي على معلومات عن وجود الحجرتين الأخريين، فإذا تم تدمير محتويات الغرفة الأولى بالمتفجرات فإنهم سيلجؤون إلى المزيد من الحرص في ولوج الغرفتين الأخريين.

إنَّ سجلات الحضارات القديمة التي اكتشفناها لا تُخبر عن حسنات وسيئات تلك الحضارات، وعن كفاح تلك الشعوب وعن سبب انهيارها. إنَّ الهرم الذي سيُقام هنا سوف يحتوي سجلات عن هذا كله. ولدى فتح الهرم وقراءة الوثائق الموجودة داخله، سوف يعلم بشرٌ ما بعد آلاف السنين بأمر سكك الحديد، والتلغراف، والمذياع، والفونوغراف، والهاتف، واللينوتايب[٤٩]، والآلات الطائرة وعن دورة الدم في الجسم البشري، وكل ما تحقق من مكتشفات خلال السنوات الأربعمئة الأخيرة. وعلى مدى السنوات الـ ٥٠٠٠ التي كانت خلالها هذه الحضارة تتلمس طريقها متقدمة لم يُكتَشَف أنَّ الأرض مستديرة إلا خلال السنوات الـ ٥٠٠ الأخيرة. والذين سيلجون الهرم سيرون الخريطة الكُروية للعالم.

لقد أنجزت هذه الحضارة مكتشفات رائعة في معرفة الكون وفي العلوم في مجال علم التشريح الإنساني والصناعة، ولكن مكتشفاتها قليلة نسبياً في مجال إدارة شؤون الدولة ولم تُجز أي شيء في دراسة الحضارة كعلم. فعلى أساس التفوُّق في هذه الأخيرة يقوم اكتمال الحضارة. لا شيء أقلّ من هذه البنية العقلية والروحية يُحيط بهذه المعرفة القدسية الشديدة الأهمية.

هذا هو الهدف من الهرم ولا أحد سيُدفَن فيه. لن يحتوي أي شيء ينم عن الذات أو الغرور ولن يظهر اسم أحد على الجزء الخارجي. الكتابة الوحيدة ستظهر على الرقع المعدنية.

مع ذلك كان هناك تنازُل ينطوي على مفارقة للغرور الإنساني رأى هارفي أنَّ من الحِكمة إعطاءَه، بعد أنْ أعاقه افتقاره إلى التمويل. ويأتي مباشرة بعد الكلام السابق: "سوف تُدوَّن أسماء **وعناوين** (هكذا) المساهمين كلهم في صندوق الهرم المالي على ورقة من النوع الفاخر توضع في حاوية من الزجاج مُفرّغة من الهواء على حامل في وسط غرفة كبيرة. وسوف تُذكر أسماؤهم أيضاً في الكتاب المذكور آنفاً الذي سيصل إلى الجمهور. هذه المساعدة سوف تلقى الاستحسان وسوف تُسرِّع من عملية الانتهاء من بناء الهرم وإغلاقه".

في الختام هناك تصريح من وضع أمين صندوق المصرف الوطني الأول، في روجرز، أركانساس:" نحن نؤمن من الناحية التاريخية وعِلم الآثار أنه إنجاز ينطوي على أهمية عالمية ونقدّم بكل سرور تعاوننا في إنشائه. إننا نعرف السيد هارفي شخصياً. إنه مودِع مُحترم في هذا المصرف وسيد ذو مكانة مرموقة لسمعته الحسنة وجدارته بالثقة "، إلى آخره، إلى آخره...

هذا التقرير القصير كان ينبغي أيضاً أنْ يُكتَب على الورق الفاخر، ويوضع تحت ناقوس زجاجي، مختوم ومدفون مع باقي الوثائق، كما يبدو لي. ويجد المرء نفسه مُكرهاً على التساؤل، باستخدام ذلك المفتاح المُعجز للُّغة الإنكليزية، ما إذا رجال الألفيات المستقبلية، بعد بلوغهم معرفة صناعة الفولاذ والمتفجرات، سيتمكنون أيضاً من التوصُّل إلى معنى

عبارة "سيد محترم". يمكنني أنْ أتخيّلهم يعتصرون أدمغتهم من أجل فهم هذا الحيوان المنقرض. أشعر بأني متأكد من أنه، مع كل الصور الفوتوغرافية وصور الرجال، والآلات، والأزياء، والحيوانات، والطيور، والمخترعات، وما إلى ذلك مما فكَّر في تركِ سجلٍ مؤثِّر له، لم يخطر في بال هارفي أنَّ لقب " جنتلمن" سيكون عبارة مُجرّدة تماماً من أي معنى بالنسبة إلى رجال المستقبل. وأشكّ تماماً في أنَّ الأناس الذين سيفتحون الهرم ذات يوم في المستقبل البعيد سيكون لديهم أدنى فكرة عن نمط الرجال الذي مثّله السيد هارفي. سيكون من المُثير للاهتمام إلى أقصى مدى، إذا تمكّنا من تنفيذه، أنْ نقرأ الأطروحة العلمية لعالِم يُحلل فيها محتويات مخزون حضارة يُفتَرَض أنها وُجِدَتْ قبل ٢٥٠,٠٠٠ عام مضى. ونحن الذين تبعنا لهو علمائنا المُثقفين في مجالات البحث كلها قد ينتابنا الشك حقاً في قراءة أناس المستقبل في تلك الحقبة الغامضة، غير مُحدَّدة المعالم، التي قد لا تأمل إلا شركة بورتلاند للإسمنت في أنْ تشهدها. شركة بورتلاند للإسمنت حقا! لقد أمضيت سنواتي الأولى بعد تركي المدرسة في جو شركة إسمنت خانق. وكل ما أتذكّر الآن من تلك الحياة هو رمز f.o.b (التسليم على ظهر السفينة). وهذا يعني أنه كان عليّ أنْ أنزل عن مكاني العالي حيث كنتُ أملأ أوراق استبيان وأهبط الدرج على عجل لكي أحصل على رسم الشحن إلى بنساكولا وناغازاكي، وسينغافورة أو أوسكالوسا. وخلال السنوات الثلاث التي عملتُ أثناءها في شركة الإسمنت لم أر كيس إسمنت واحد. رأيتُ صور المصانع على جدران مكتب نائب الرئيس في المناسبات النادرة التي اضطررتُ فيها وسُمِحَ لي خلالها بدخول ذلك الحرم. كنتُ أتساءل ممّ

يُصنع الإسمنت، واستناداً إلى الرسائل التي كنا نتلقاها من زبائن غاضبين، لم يكن إسمنت بورتلاند كله ذات جودة عالية. كان جلياً أنَّ بعضه لم يكن ليصمد في وجه مطر غزير. ومع ذلك، ما علينا. ما أودّ أنْ أقول، قبل أنْ أترك موضوع الهرم ما يلي- في رأيي المتواضع أنَّ أزواجاً شبان يوشكون على البدء بشهر العسل، بعد أنْ اجتازوا فحص فاسرمن[٥٠] المطلوب بشكل جيد، قد يُحسنون فعلاً بدل أنْ يشتروا بطاقات سفر إلى شلالات، الذهاب إلى جبل نيه. وإذا أمكن، يمكنهم أن يتزودوا مُسبقاً بنسخ من "***الكتاب***". وأثناء مكوثهم في مدينة روجرز، وهي مكان من المنطقي الإقامة فيه لدى زيارة جبل نيه، يجب أنْ ينزلوا في فندق هاريس- وهو أحد أفضل الفنادق وأشدها اعتدالاً في السعر في الولايات المتحدة كلها. وأوصي به من دون أي تحفُّظ.

بعد تعاملنا مع ألبرت بايك عرفنا أنه رجل لا يقلّ عنا اهتماماً بطموحات الإنسانية جمعاء وخيرها ولكن بمزاج ووجهة نظر مختلفتين. لم أكن قد سمعت ببايك إلى أنْ وصلت إلى مدينة كانساس حيث كنتُ أقوم بزيارة رسّام تعرّفت إليه في باريس. وكان صديقي، بالإضافة إلى أشياء أخرى، ماسونياً. كان يُحدثني عن الماسونية ومواضيع أخرى مُثيرة للاهتمام أثناء نزهاتنا في الأمسيات من كافيه دو دوم إلى شارع فروادفو المواجه لمقبرة مونبارناس، حيث كان يُقيم، وحيث أنزلني لفترة من الوقت عندما أصبحت بلا طعام أو مأوى. لقد كان شخصاً غريب الأطوار في تلك الأيام، في اعتقادي. والعديد من الأشياء التي تحدث عنها حينئذٍ لم أفهم منها أية كلمة. في الحقيقة، كنتُ أسخر منه بطريقة خبيثة من وراء ظهره، ندمتُ عليها لاحقاً وكنتُ أحاول، والحق يُقال، أنْ

أعـوّض عنهـا بقطع مسـافـة آلاف الأمـيـال لكي أُسلّم عليـه في مـدينة كانساس. وطبعاً لم أذكر كلمة واحدة عن تغيير رأيي فيه. تركتُ أفعالي تتكلم بالنيابة عني. والمكافأة التي تلقيتها بصورة غير متوقعة، لدى مغادرتي له، كانت إعارتي كتاباً كنتُ شديد الرغبة في قراءته ولم يخطر لي قط أنه سيُفارقه ولو للحظة، ولاسيما منذ أنْ علمتُ أنه طالما اعتبرني شخصاً غير مسؤول. وكان الكتاب، الذي عنوانه "طائر العنقاء"، يوصَف بأنه مراجعة مُصوَّرة للإيمان بالقوى الخفية والفلسفة، مؤلفه هو مانلي هول. إنه طبعة عام ١٩٣١-٣٢. على أية حال، قبل أنْ أصل ليتل روك بزمن طويل، حيث استقبلني بحفاوة وحُسن ضيافة ماسونيٌ أعلى آخر، كنت قد التهمتُ محتويات الكتاب. وكنتُ قد نسيتُ أيضاً، وأنا أنتقل بسرعة مقطوع الأنفاس خلال صفحات هذا الكتاب ذي الحجم غير الملائم - كان أقرب شبهاً بمظهره بأطلس منه بمناقشة عبادة القِوى الخفية - أنَّ وطن ألبرت بايك هو ليتل روك. ولم أكد أتمالك نفسي حتى وصلت إلى المحفل الماسوني وبعدها ببضع ساعات كنتُ أُصغي إلى حديث القاضي ماكاني عن الإنجازات الخارقة لهذا المواطن العالمي الشهير، ألبرت بايك. ومن حُسن الحظ، حقاً، أني لم أنتظر لأتعرَّف إلى الرجل من المرشد الذي واكبني في أرجاء المحفل. لقد كان عقل ذلك الشخص الحزين- والماسوني أيضاً، في اعتقادي، بطريقته المتواضعة- مزدحماً بسقط المتاع من الإحصاءات التي ربما أثارتْ اهتمام الأسقف الصيني الذي بدا أنه يشعر بفخرٍ متطرّف لأنه رافقه في أرجاء المبنى الكئيب، لكنه لم يترك لديّ إلا إحساساً بالبرودة وبالانقباض. ولاسيما اللوحة السويدية التي لأنها سويدية جعلتني أرى أنها أشهر من

باقي اللوحات التي زيَّنت الجدران. وعندما وصلنا إلى قاعة الاستماع أخذ ينتقل بصبر بين لوحة مفاتيح وأخرى في الكواليس، وهو يُجرّب الدرجات[٥١] كلها ومجموعة من الأضواء المستخدمة في المناسبات لتجعل المشهد الشنيع، المُبتذل، مُشابهاً للشِعر واللغز. كانت جولة كئيبة، قطعتها تماثيل جافة تمثّل عدداً من الأشخاص يمكن خدمتهم أحياناً في قاعة الطعام، وعدد الأيام والليالي المطلوبة للإعداد للقيام بتقدُّم من الدرجة الثالثة إلى الدرجة الثانية والثلاثين، ما إلى ذلك. وأشدّ ما أعجبني غرفة تغيير الملابس حيث تُخبّأ في خزائن مُرتَّبة بأناقة أشد التشكيلات إذهالاً من الأزياء، والأشد نُدرة بينها كانت ملابس "الرجل الفقير". والأكثر تألّقاً بينها لها سِمة آسيوية؛ شيء تيبيتي، لولا السِمة البارزة لقسم المطافئ المحلي. أعتقد أنه كانت هناك طقوس يورك الخاصة باليهود و"آخرين" (أي آخرين؟ أتساءل)، والطقوس الاسكتلندية التي دشّنها بايك. وعندما لمحت الأقنعة فُتِنت. ولكن عندما بدأتُ أستفسر عنها أدرك على الفور أني لست ماسونياً وأخفاها في الحال، وكأنه ارتكبَ عملاً طائشاً. كنتُ أتساءلُ بإبهام ما صِلة هذا الهراء كله، هذه الخزعبلات، بعبقرية ألبرت بايك. كان من العبث الجهر بالاستفهام لأنَّ من الجليّ أنَّ المرشِد كان يشعر بألفة تامة في هذا الجو من الشعائر البلهاء الصامتة بصورة سخيفة. كان ينتظر أنْ يُشير إلى "غرفة نادي المليونيرات"، وهي نكتة ألقاها عن غرفة لعبة البلياردو حيث يسعى الأعضاء المساكين إلى التسلية بضع ساعات لكسر الملل الذي لا ينتهي لأيامهم.

عندما رجعتُ إلى غرفتي في مساء ذلك اليوم أخذتُ أنقّبُ في كتاب مانلي هول وأُعيد قراءة مقالته الصافية، المُلهَمة، حول الماسونية

الأميركية العُظمى. وعندما فتحتُ الكتاب وقعت عيناي على الفور على الفقرة التالية:

"إنَّ ماسونيّة ألبرت بايك شيء شاسع وضخم إلى درجة أنَّ الذين لم ينشروا أجنحة إلهامهم ويحلّقوا عالياً في الفضاء العقلاني لم يُحيطوا بها. لقد كان ألبرت بايك ماسونياً حقيقياً؛ شعر بجلال وعمق عمله. وقد عرفَ النداء الباطني السامي الذي يُكرِّس كِبار البُناة أنفسهم له؛ واخترق حجاب المستقبل بعينيه الجديرتين بنبيٍّ وحلُمَ بأفلاطون وبيكون في عالمٍ تهيمن عليه الحِكمة وعودة العصر الذهبي ".

يُشدِّد هول على أنَّ ما حاول بايك أنْ يوضّحه للعالم هو أنَّ الماسونية ليست ديانة أخرى بل هي الدين نفسه. يقول هول " إنَّ الماسونية لا تنحاز إلى أية مؤسسة إيمانية بعينها تبدو ظاهرياً أنها موجودة بدرجة كبيرة لهدف دحض أية عبادة أخرى. فالماسونية تخدم وتغذّي دافع الإنسان الطبيعي لعبادة الله وإجلاله في الكون والخير في العالم. وهي لا تتعارض مع معتقد أي إنسان لأنها تعلو فوق المعتقدات كلها، وتدعو أعضاءها إلى نبذ التشاحن التافه حول صغائر الأمور، وإلى الاتّحاد في العبادة المنسجمة لخالق الكون. إنها تطلب من الناس الانتقال من النظرية إلى التطبيق، ومن التأمل العبثي إلى تطبيق تلك التعاليم الأخلاقية العظيمة والحقائق الأخلاقية التي يُصنع منها كمال الطبيعة الإنسانية ".

يُقال عن بايك إنه كان عملاقاً في الجسد، والعقل، والقلب والروح؛ واختبر مظاهر التشريف الأرضي كلها. وعلى امتداد السنوات الاثنين والثلاثين في منصبه كآمر أعلى ملكي، قامت بزيارته واستشارته شخصيات هامة من أنحاء العالم كله. يقول أحد مُعجبيه "مَنْ يدري،

فقد يكون هذا الألبرت بايك هو تجسيد لأفلاطون، يجوب شوارع قرننا التاسع عشر هذا؟ ". كان يُدعى ألبرتوس ماغنوس، هومر أميركا، البنّاء الأعظم، السيد الحقيقي للحُجُب، مهبط وحي الماسونية، وزرادشت آسيا الحديثة. كان فقيهاً في اليونانيّة واللاتينيّة علّمَ نفسه العديد من اللغات وعدداً هائلاً من اللهجات المحلية، من بينها السنسكريتية، والعبرية، والسامرية القديمة، والكلدانية، والفارسية، والهندية الأميركية. علّم نفسه السنسكريتية بعد أنْ تجاوز السبعين من العمر. يقول مانلي هول " إنّ مخطوطاته غير المطبوعة في مكتبة المجلس الأعلى تمثّل أهمّ مجموعة معروفة من أعمال البحث في رمزية الأخوية الماسونية ".

أودّ أنْ أقتطف كلمات بايك الشامخة، وهي أفضل وسيلة لتلخيص شخصيته ورؤاه. وهي مأخوذة من مقالة حول " الرمزية الماسونية ":

" إنّ الذين وضعوا درجاتها طبّقوا أشد الرموز قداسة ودلالة وإيغالاً من القِدَم، استُخدِمتْ قبل قرونٍ عديدة من بناء معبد الملك سليمان، لتعبِّر لأولئك الذين يفهمونها، بينما تُخفي عن المُدنّسين، عن أشدّ المبادئ إبهاماً وغموضاً فيما يخص الله، والكون والإنسان. والذين وضعوا الدرجات وتبنّوا تلك الرموز، استخدموها كتعبيرات عن المبدأ القدسي، والورع نفسه، وفسّروها بصورة مُخالفة تماماً عن تفسيرها في محافلنا الماسونية اليوم. لقد توصلت اليوم، على الأقلّ، إلى هذه القناعة بعد دراسة وتأمل صبورَين على مدى سنوات عديدة. ليس لديّ أي شك، وأنا مستعد لأعطي أسباباً لإيماني، في أنّ رموز الماسونية الأساسية، كل ما هو عتيق حقاً، تلتقي لتعلّم المبادئ الأساسية لفلسفة دينية عظيمة وواسعة الانتشار، وتعبّر بلغة مُبهمة عن أفكار عميقة معيّنة حول وجود

الخالق، ومظاهره وعمله، وتناغم الكون، والكلمة الخلاّقة والحكمة القدسية، ووحدة القُدسيّ والإنسانيّ، والروحيّ، والعقليّ والماديّ، في الإنسان والطبيعة، التي ظهرت من جديد في الأديان كلها، وشرحتها مدارس الفلسفة العظمى في العصور كلها. أعتقد أنَّ رموز الماسونية العتيقة تعلِّم الحقائق والمعتقدات الدينية العميقة التي هي في واقعها ماسونيّة فعلاً. أنا أبعد ما أكون عن أحد الذين يعتقدون أنها لا تُعلِّم أي مُعتقد أو مبدأ ديني، كما أعتقد بقوة أنها مُتضمِّنة الفلسفة الدينية التي تعلِّمها؛ وأنَّ الماسوني الحقيقي هو الذي يُفسِّر لنفسه وبشكل صحيح تلك الرموز ".

وكما يُشير مانلي هول،" إنَّ بايك في هذه الوثيقة يُكرّس نفسه بصورة حاسمة لمجاليّ الميتافيزيقيا وعبادة القوى الخفية الجوهريين: بمعنى، أنه تحت رموز الدين ومبادئه الخارجية يكمن الحل السرّي لأسرار الطبيعة الأم والغاية من الوجود الإنساني".

أثناء متابعتي القراءة وصلتُ أخيراً إلى الرسالة (وفيها الجواب عن استفساري غير المُعلَن في المحفل الماسوني) التي تركها بايك إلى الأخوة في الأخويّة الماسونية. إنها رسالة جديرة بأنْ تلقى هوى عند الفنانين، ولاسيما عند فنان الكلمة الذي هو أقرب، على الرغم من أنه نادراً ما يعي ذلك، إلى المُبتدئين منه إلى الممثلين المُختارين لله.

" إذن الأديان تتحلل وتغدو مجرد أشكال كليلة وغمغمة لكلمات لا معنى لها. وتبقى الرموز، كأصداف البحر التي تلفظها الأعماق، لا حِراك بها وميتة على الشواطئ الرملية للمحيط؛ والرموز بلا صوت وبلا حياة كالأصداف تماماً. فهل ينبغي أنْ يكون الحال دائماً هكذا في

الماسونية؟ أم ينبغي إنقاذ رموزها العتيقة، التي ورثتها عن الأديان البدائية والشعائر العريقة، من سِحر التأويلات التافهة والمبتذلة، وإعادتها إلى مقامها القديم الرفيع لكي تُصبح من جديد النبوءات المقدسة للحقيقة الفلسفية والدينية، وكشف الحِكمة المقدسة لأسلافنا العقلاء؛ وبهذا تجعل التفوُّق الهائل للماسونية حقَيقياً وواقعياً أكثر من الجمعيات الحديثة والسريعة الزوال كلها التي تقلّدها في أشكال رمزيّتها وخصائصها؟".

يكاد لا يُصدَّق أنَّه في مكان قصيّ كجبال أوزارك، في عصرٍ مُكرّسٍ للمادية المحض، يظهر شخص كألبرت بايك، علَّم نفسه بنفسه، وعصاميّ، وجمع في شخصيةٍ متألّقة، رائعة، واحدة، أبرز مزايا الشاعر، والمُشرِّع، والقائد العسكري، والعلاّمة، والحكيم، والورع، والمتقشِّف وكبير الماسونية الجليل. وإحدى صوره الفوتوغرافية يبدو أقرب شَبَهاً بويتمَنْ، تلك الشخصية الجليلة العظيمة الأخرى من القرن التاسع عشر. وفي كليهما هناك آثار من الحسيّة القوية. فيُقال إنَّ بايك كان شرهاً. "طوله ستة أقدام وبوصتين، ويتصف ببُنية هرقل وبجمال أبولو. ذو وجه ورأس ضخمَين جديرَين بأسد، ويُذكِّر في كل جزء من قسماته بحُلم نحّاتٍ بإله إغريقي". هذا ما كتب أحد مُعاصريه عنه. ووصفه آخر قائلاً "جبينه العريض الممتد، وسيماه الصافي، وهيكله القوي أثار في مخيلتي مخلوقاً من الزمن الغابر. ولباس الأميركي التقليدي لم يبدُ ملائماً لذلك الشخص المُبهِر. كان زي الإغريقي القديم أكثر ملاءمةً لذلك الوجه وتلك القامة- رداء كالذي ارتداه أفلاطون عندما حاضرَ في الفلسفة المقدسة أمام تلاميذه بين كروم الأكاديمية في أثينا، تحت أشعة شمس اليونان المتألّقة".

المذهل هو أنْ يبرز في منطقةٍ ينظر إليها باقي الأميركيين باحتقار (ظلماً، هذا صحيح) لأنه يسكنها أناسٌ بدائيون، متخلّفون، هذا الشخص الفخم حقاً الذي كان في استطاعته أنْ يُحاضر بحِكمة وجمال حول تعاليم فيثاغوروس، وأفلاطون، وهرمز تريسماجيستوس، وبركليس، وكونفوشيوس، وزرادشت، وإليفاس ليفي، ونيقولاس فلامل، وريموند لل ومَن شابههم.

الأمر الغريب هو أنَّه في وسطٍ يبدو مُناهضاً لدراسة الأمور المُبهمة والسعي وراءَها، يتمكن هذا الرجل، في كتاب " ***أخلاقيات وعقائد***"، من أنْ يُلخّص في فِقرة واحدة ما عجز علماء بارزون في أماكن أخرى من إنجازه في مجلدات ضخمة. ويكتب قائلاً: " إنَّ الإعجاب ليملأ المرء من اختراقه حَرَم القباله[٥٢]، ولدى رؤية معتقد شديد المنطق، والبساطة، وفي الوقت نفسه الكمال. والاتحاد الضروري للأفكار والإشارات، وتكريس الشخصيات البدائية لأعمق الوقائع؛ وثالوث الكلمات، والأحرف والأرقام؛ وفلسفة بسيطة كالأحرف الأبجدية، وعميقة ولا نهائية كالكلمة؛ ونظريات أشد كمالاً وتنويراً من نظريات فيثاغوروس؛ ولاهوت يُختَصَر بالعدّ على الأصابع؛ وأبديّة يمكن حملها في تجويف راحة يد طفل؛ وعشرة أصفار واثنا عشر حرفاً، ومثلث، ومربّع، ودائرة – هذه هي عناصر فلسفة القباله. هناك المبادئ الأولى للكلمة المكتوبة، وهي انعكاس لتلك الكلمة المنطوقة التي خلقَتْ العالم! ".

رسالة إلى لافاييتْ

أعتقد أني ما كنتُ لأستخدم سيارةً لولا ددْلي وفلو من كينوشا. ددلي هو أحد العباقرة الذين وعدتُ بالتحدث عنهم في أوائل هذا الكتاب. ددلي وليف، لأنه لولا ليف، كان يمكن لددلي أنْ يموت في الرحم وما كان يمكن لكتاب "*رسالة إلى لافاييت* " أنْ يُكتَب.

يقول ددلي إنه يبدأ كهدير آلة: "إنني أحلم بإمبراطورية" إلى آخره. ولكن بالنسبة إليّ هو يبدأ في عمق الجنوب، قُبيل وصول سالفادور دالي مع طاقم عيادة الدكتور كاليغاري[٥٢] الخاص به. كلا، إنه يبدأ حتى قبل ذلك بقليل - مع Generation " *جيل* "، وهو طفل وُلِدَ ميتاً وجلبَ معه صداقة عظيمة. وقد حدث الأمر كما يلي، على وجه التحديد... عند الرابعة صباحاً تلقّى صديق لي مكالمة هاتفية من كينوشا، أو لعلها كانت من ديه موان. فقد اتّصل شابٌ اسمه ددلي (لا تخطئ فتعتقد أنه جو ددلي، ضارب الطبل) وشاب آخر اسمه لافاييت ينغ، وكلاهما من نسب كريم، وفي صحة تامة، وعاليا الهمة قليلاً ومرتبكّان قليلاً، ليسألا إنْ كان هنري ميللر موجوداً في المدينة ويمكنهما مقابلته. وبعد ذلك بشهر تقريباً وصلا بسيارة فورد متهالكة ذات صندوق أسود صغير، وأسطوانات فونوغراف وضروريات أخرى. وباختصار أصبحنا أصدقاء

على الفور. كان معهما جنينهما، "***جينيريشن***". أعتقد أنَّ الوقت كان أواخر الشتاء، أو أوائل الربيع. وخلف جينيريشن كان كتاب لم يكن قد كُتِبَ حينئذٍ وسيُسمّى "***رسالة إلى لافاييت***"، ولافاييت لم يكن إلا الصغير ليف، ليف ينغ من ديه موان. وفي غضون أسابيع قليلة قُتِلَ ***جينيريشن***. لكنَّ كتاب "***رسالة إلى لافاييت***" نجا من المحنة. في الحقيقة، لقد بدأ ينبت كحشيشة الكبد. وبحلول الصيف وجدنا أنفسنا، أعني ددلي والصغيرة فلو، زوجته، وأنا، تحت سقف واحد في عزبة جنوبية شاسعة. كان ليف بعيداً، لكنه وعد بالعودة في أي يوم. وذات ليلة، عند الثالثة صباحاً، وصل زائر بصورة غير متوقَّعة فهربنا كلنا على عجل. هذه قصة أخرى، قد أضطر إلى كتابتها بعد الموت، إنْ صحّ التعبير، لأنها تتضمَّن تشهيراً وقذفاً.

لقاؤنا التالي تمّ في كينوشا، في منزل ددلي وفلو. كان ليف حينئذٍ في ديه موان، يمصُّ إصبع قدمه الكبير. وكم ابتهجتُ لأنَّ ددلي باشر في كتابة "***رسالة إلى لافاييت***". كان يكتبه بعقب قلم رصاص بخربشةٍ دقيقة في دفتر كبير. لم يعُد حلماً بل واقعاً عنيداً وضخماً. وكنتُ قد شاهدتُ آلة التجديف[٥٤] في الطابق العلوي في العليّة حيث نُثرت محتويات الصندوق الأسود الغامض في المكان. قال ددلي " لدي وسيلة نقل أخرى - سيارة مُهملة انتُشِلَتْ من مقبرة للسيارات: إنها ***إمبراطوريتي***. أقفُ بلا حِراك وأذهبُ إلى كل مكان. إنها بلا دواليب، ولا مُحرِّك، ولا أضواء، لا قوة احتكاك. أجوب الغابات، والأنهار، والمستنقعات، والصحارى - بحثاً عن شعب المايا. إننا نحاول أنْ نعثر على آبائنا، واسمنا، وعنواننا ".

عندما سمعتُ هذه الجملة الأخيرة قفزت. علمت على الفور أنه عثر على مفتاح اللغز. وقبل بضعة أشهر كان مُشوّشاً، مُرتبكاً، يُكافح كي يتخلّص من صورة عازف البيانو، تلك الصورة التي تملّكته، وأضحت مسّاً وهوساً كان يصفها في مئات لوحات الرسم وتحدّثَ عنها بطريقة رائعة حتى إني أصبحت أنا نفسي مهووساً بعازف البيانو.

قال ددلي، في معرض كلامه عن الكتاب الذي باشر أخيراً في كتابته. " إنه أشبه بمرض فخم. أريد أنْ أُغطي حياتي كلها والأدب أيضاً. يبدأ الكتاب بكابوس، بإفراغٍ، ***بإهدارٍ تام للصور***".

هنا من جديد فقرة أسرتني. تخيَّل شاباً في كينوشا، لم يكتب في حياته سطراً واحداً، يُعلن أنه يفتتح كلامه بـ "إهدار تام للصور"!

كما قلت، كان ليف ما يزال موجوداً في ديه موان، جالساً في المرحاض الذي حوّله إلى ورشة عمل. ليف كاتب متمكّن، ذو أسلوب متمرِّس. يكتب قائلاً " سيعمّه الحزن، أنا أستقيل. أتخلى عن منصبي. أعتزل " أو " أنا مؤمن- ***بالموت***". الكلمات منثورة في الصفحات كأوراق خضراء تتقاذفها عاصفة. هناك دائماً ريح خضراء، وأغصان خضراء، وحفيف الربيع، وقرع الطبول، وتلكَ آلة الجمع، وشخير المعتوه. يكتب قائلاً: "كل شيء مذكور"، ثم يُتابع فيتكلّم عن ستافروجين[55] أو ساد أو فيّون أو رامبو، أو رجال القش الصغار تحت الثلج الذين لمحهم أثناء اجتيازه الجحيم مع دانتي وفرجيل. يقول ليف: " ما هي الرسالة؟ إنها بضع مئات من الكلمات، ماعون من الورق، برميل من لحم الخنزير، قيء هنا، وهناك أو في أي مكان عام. لستُ في حاجة إليك. أنا متنازل. أنا مستقيل "، إلى آخره. إنه أشبه برجل يُضرمُ ناراً تحتك. ليس

لديه ما يفعل غير أنْ يعيش حياة دوق فخمة في دار للمجانين تقع في مدينة تسكنها الأشباح، ينغمسُ في كل نزوة وشهوة تخطر في باله ويُدركُ أثناء ذلك سلوك الشخصيات التي يكنّ لها الإعجاب في الكتب التي يلتهمها كدودة شريطية. وخلال فترة وجيزة سوف يحزم ليف أمتعته ويذهب إلى المكسيك، وهناك يؤلّف كتاباً عن نورمَنْ دوغلاس[٥٦] أو هنري ميللر، لا يطبع منه إلا نسختين، واحدة لتابعه وواحدة لأسرته - فقط ليبرهن على أنه ليس معدوم القيمة.

يبدأ الكتاب "عزيزي لافاييت" - في المُحترَف في صباح اليوم التالي. ***أي مُحترَف***؟ لا تسألني! فلو طريحة الفراش بسبب الحمّى. أصبحت تتنبّأ بأمور. إنها تنعدم في الاتّجاهات كلها. هناك مقاطع من مناجاة النفس بأسلوب فخم. يقول ددلي " أنا أبدأ هنا، عند أدنى نقطة من حياتي. أعمل قياماً وقعوداً - مزيجاً من الألحان. نعم، جلسة جاز حميمة لا تنتهي. سوف أبقى أنتظره إلى الأبد. ولن ينتهي. إنه كتاب الحياة يستمر إلى الأبد؛ ***عملية متواصلة***، هذا ما هو عليه " (يمكنك أنْ تتخيَّل كم سيكون هذا مُثيراً بالنسبة إلى المستمعين إلى برنامج "معلومات من فضلك! ").

خلف كل شيء يجلس عازف البيانو الذي قابله في حانة رديئة في شيكاغو ذات أمسية. شاهدتُ اللوحات التي رسمها له وأسرتني. إنه يصنع منحوتات له على الصابون أيضاً- دائماً " المنعزل المنفرد". وينحت له بدلات صغيرة ليرتديها، وكرسياً صغيراً، ومرحاضاً صغيراً، وفراشاً صغيراً- كلها من أجل الرجل الصغير، من أجل ذاته. لقد أصبح عازف البيانو بالنسبة إلى ددلي رمزَ آخر فنان في العالم. يقول: " لقد اختنقَ

في الرحم. إنه مُخدَّر، يُنوِّم ومُنوَّم، وممسوس. ***وهو أيضاً التطوّر كله***". (كلمة "أيضاً" دلالة أخرى على الخصوصية المفرطة) إنه يتابع تصعيد الذات المنعزلة، الإنسان المنسيّ الذي نصفه قرد، ونصفه زنجي، عازف البيانو يعزف في الرحم تحت المياه وسط ما تبقّى من حطام دولاب التطور. أحياناً هو هيكل عظمي- أو فقط أرستقراطي مُزوّد بضوء مُشعّ. أحياناً هو كتلة من الأعصاب. أو من جديد هو الله، إله عالم ددلي المفاهيمي. وفي النهاية، حين لا يبقى إلا الرمال والرياح الخضراء تهب على كل شيء، يُصبحُ إخطبوطاً يُداعب صَدَفة لؤلؤة. إنَّ الشيء العظيم، حسب تعبير ددلي، هو أنه يجعل الحلم عملية مستمرة. وبوصفه الفنان الأخير يُصبح الحلم المُدرَك... وكما قد يقول ليف- " يا إلهي، وجدتها! ". في هذه الأثناء، بينما يتكشّف الشكل، ويذوب المُبهَم ويغدو نبوءة، بينما تُهدَر الصور، يبدو أنَّ أحدهم ينام في الطابق العلِوي، ينام نوماً عميقاً كذلك الشكل المتخشّب في الجزء الأمامي من لوحة مارك شاغال الشهيرة. رجل، أو ربما امرأة، في الطريق إلى فيرونا، يُمضي الليل في بلدة غاري بعيداً عن الطريق العامة حاملاً شطيرة في جيبه ويوجّه مُسدساً إلى فمه. الرجل يكتب رسالة إلى شخص قد لا يراه بعد ذلك، رجل بلا عنوان، رجلٌ لا يمكن لوالده أنْ يعود إلى الحياة بمنفاس[57] على الرغم من استدعاء المطافئ. رجلٌ، باختصار وإيجاز، خرجَ تواً من مثوى المجانين. لذلك، من الضروري تعريف، وإعادة تعريف كل شيء: الحياة، الفن، العلاقات الإنسانية، عادات الطيور والكلاب، وأنواع وأجناس الحياة النباتية، الحيوانات المائية، وحركات المد والجزر البحرية، وتيارات المحيط، وبروز الأرض، وتدفُّق النيازك، وما إلى ذلك.

حتى المشهد العام يأتي ليأخذ نصيبه، وأعشاب المستنقع وغاز المناجم والصدأ والتراب. ويُكرّر: " أنا لستُ كاتباً. أنا فقط أتكلّم. أنا روح ضائعة. أنا أتواصل مع الرجل الوحيد الذي أعرف. أنا أتكلّم بلا هدف". ويتأرجح الكلام جيئة وذهاباً، من المحترَف حيث تُلقي كاساندرا[٥٨] نبوءاتها، إلى الحفرة في الغابة التي حفرها لكي يموت فيها بعد أنْ يسرق كتب المكتبة العامة في تشيكاموغا كلها. هناك البدلة التي صنعها الخيّاط، أيضاً، وهي مادة ذات عواقب نادرة لا يمكن التنبّؤ بها: فترة دانييل بوون[٥٩] حين كان على كل شيء أنْ يكون فريداً من نوعه وهادفاً. هناك لوحات تتعلّق بالحلاقة تُثير الحنين على المرج عندما تجتهد فلو الصغيرة في القصّ وشمشون مُجرَّد من خصلات شعره. وتعيد الكرّة مرات عدة، في مماطلة متواصلة، مُضعِفة، تصل إلى الجلد تحت شجرة جمّيز.

هناك فِقرات تبرز بوضوح، كزجاج ملوَّن، عندما تستعد نيلي، مثلاً، نيلي من أركيدلفيا، للعب البريدج مع أرامل ثريات من مدينة معيّنة. أو عندما يمر فيلق من الجيش الأميركي في استعراض من أمام أحد المصارف ويتقابل ليف وددلي حقاً للمرة الأولى. أو عندما يصل ليف إلى كينوشا على متن قطار سريع مرتدياً بدلة زرقاء من قماش متين، ومنتعلاً حذاءً عالي الرقبة، ويضع نظارات ذات إطار من العظم، وله شعر طويل ولحية مُدببة. وعندما يضرب بعصا المشي على الأرض ويتجوّل وهو يُحدّق بإمعان. ***ما رأيك في ذلك*** ؟ (أي شيء). ويقول ليف: " هذا عظيم. عظمة ***مُبهمة***!"، أو في مناسبة أخرى، يجلب لورنس فيل حمامة تنزف من المستقيم ويأخذها ليف، وهو يفيض بالعطف،

وينظر إليها بوقار، ثم بطريقته المُبهمة يقول، وهو يلوي عنق الحمامة، الكلمة المُبهمة: إنها ***البواسير***! إنَّ كتاب "***رسالة إلى لافاييت***"، كما أراه، سيكون الفيضان والسفينة معاً. الأحوال الجوية مناسِبة. على أحدهم أنْ يشدّ المفتاح الذي سيفتح محابس الفيضان السماوية. أعتقد أنَّ ددلي هو الرجل المطلوب. وإذا لم يكن هو، فعبقريّ آخر سيحل محله. إنَّ شبّان أميركا يزدادون يأساً؛ إنهم يعلمون أنه لم يعُد لديهم أي أمل. والسبب ليس ببساطة أنَّ الحرب تدنو أكثر كل يوم، بل لأنَّه بحربٍ أو من دون حرب لابد للأمور أنْ تنتهي نهاية عنيفة.

إنَّ رجلاً وُلدَ في كينوشا، أو وايت ووتر، أو بلو إرث أو توسكالوسا، مُخوَّل لحمل مزايا رجل وُلدَ في موسكو، أو باريس، أو فيينا أو بودابست. لكنَّ الرجل الأميركي الأبيض (لا أتحدث هنا عن الهندي، والزنجي، والمكسيكي) ليس لديه أدنى بارقة أمل. فإذا كان يتمتع بأية موهبة فمُقدَّرٌ لها أنْ تُسحق بطريقةٍ أو بأخرى. إنَّ الأسلوب الأميركي هو إغواء الرجل بالرِشوة وتحويله إلى عاهر. أو تجاهله، وتجويعه حتى يرضخ ويصبح كديشاً[٦٠]. ليس المحيطات ما يقفُ حائلاً بيننا وبين العالم - بل الأسلوب الأميركي في النظر إلى الأشياء. لا شيء يُثمرُ هنا غير المشاريع النفعيّة. يمكنكَ أنْ تقطع آلاف الأميال وأنت تجهلُ جهلاً تاماً وجود عالم الفن. وسوف تعلم كل شيء عن البيرة، والحليب المُكثَّف، والبضائع المصنوعة من المطّاط، والأطعمة المُعلَّبة، والفراش المنفوخ، إلى آخره، لكنكَ لن ترى أبداً أو تسمع أي شيء عن التحف الفنية. بالنسبة إليّ من المُعجِز أنَّ شباب أميركا لم يسمع مرة ببيكاسو، وسيلين، وجيونو وما شابه من أسماء. لقد اضطر إلى القتِال

كالشيطان ليشاهد أعمالهم، وكيف يستطيع، عندما يقف وجهاً لوجه أمام أعمال الأساتذة الأوروبيين، أنْ يعرف أو يفهم من أنتجها؟ ما صِلة هذا به؟ إذا كان مخلوقاً حساساً، فحالما يتواصل مع الأعمال الناضجة للأوروبيين، سيكون قد أضحى شبه مجنون. إنَّ معظم مَنْ قابلتُ من الموهوبين الشباب في هذا البلد أعطوني انطباعاً بأنهم معتوهون قليلاً. ولِمَ لا يكونون كذلك؟ إنهم يعيشون وسط غيلان روحية، يعيشون وسط أناسٍ مهووسين بالطعام والشراب، وسط تجّار النجاح، ومُبتكري الأدوات، ومهووسي الدعاية. يا إلهي، لو كنتُ شاباً اليوم، لو أني واجهتُ عالماً كالعالم الذي صنعنا، لفجّرت رأسي. أو ربما كنتُ مشيت، كما فعل سقراط، إلى ساحة المدينة وجهرت بكل ما في قلبي. ما كنتُ حتماً فكّرتُ في كتابة كتاب أو في رسم لوحة أو في تأليف مقطوعة موسيقية. لِمَنْ؟ مَنْ غير حفنة من ذوي الأرواح اليائسة يمكن أنْ يُميِّز عملاً فنياً ؟ ماذا تفعل إذا كانت حياتك مُكرَّسة للجمال ؟ هل ترغب في مواجهة إمكانية قضاء باقي حياتك في مستشفى للمجانين؟

اتّجِه غرباً، أيها الشاب! هكذا كانوا يقولون. اليوم يجب أنْ نقول: أطلق النار على نفسك، أيها الشاب، ليس أمامك أي أمل! أنا أعرف أشخاصاً تحمّلوا الوضع حتى النهاية ووصلوا إلى القمة- أعني هوليوود- وكأنك تعني قمة خيمة السيرك. وفي يوم قريب كنتُ ذاهباً إلى أحدهم، الذي عندما شعر بالجوع قتل عجلاً في الحقل بمطرقة وجرّه إلى منزله ليأكله سراً. كنتُ سائراً على طول شاطئ سانتا مونيكا وهو يحكي لي القصة. كنا قد تجاوزنا قصر نجمة سينما سابقة زوّدت وِجار كلبها بأرضيةٍ من خشب الباركيه لكي لا تتسخ مخالب كلبها البكيني

بالطين أو تُصاب بالحكّة. وعلى الطرف المقابل من الطريق كان منزل أرملة ثرية أضحت من فرط البدانة بحيث لم يعُد في استطاعتها أنْ ترتقي الدرَج وتهبطه، لذلك ركّبتْ مصعداً لكي تستقله في تنقّلها من السرير والطاولة وإليهما. في تلك الأثناء كان كاتب شاب آخر يُبلغني برسالة كيف أسند إليه ناشره وظيفة مُستخدَم في المنزل، وكيف كان يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم يطبع على الآلة الكاتبة، وينظم الحسابات، ويُرسل الطرود بالبريد، وينقل الرماد، ويقود السيارة، إلى آخره، إلى آخره. وناشره، الثريّ مثل كروسوس[٦١]، كان يحتفي بالكاتب الشاب بوصفه عبقرياً. ويقول إنَّ من المفيد للشاب أنْ يقوم بأعمال لوجه الله.

إنَّ ما أحبّ في ددلي وفي بعض الآخرين هو أنّ لديهم من المعرفة ما يمنعهم من القيام بأي عمل شريف. إنهم يُفضّلون الاستعطاء والاقتراض والسرقة. تكفي ست سنوات من العمل المُستعبِد حتى يتعلّموا الدرس. كان في استطاعة ددلي أنْ يصبح مديراً فنياً لو أراد. وكان في استطاعة ليف أنْ يُصبح رئيس شركة تأمين لو اختار ذلك. لكنهما اختارا ألا يكونا كذلك. شعارهما، اغرقْ أو اسبح. إنهما ينظران إلى آبائهما وأجدادهما، فيجدان أنهم كانوا جميعاً لامعين في عالم الهراء الأميركي. أما هما فيُفضّلان أنْ تُسربلهما القذارة، إذا كان لابد من ذلك! أنا أحيّيهما. إنهما يعرفان ماذا يُريدان.

" عزيزي لافاييت: أنا جالس هنا مع جثّة شبابي... " لم أعد أتذكّر كيف يبدأ، ولكن هذه بداية جيدة. ابدأ بسماد طبيعي، بالصندوق الأسود الصغير المملوء ببقايا الماضي. ابدأ في الأرض البور التي تقع مباشرة

خارج بلدة غاري. ابدأ برائحة المواد الكيميائية الكريهة، بآمال مُحبَطة، بوعود عفنة. ابدأ بآبار نفط تنبع من البحر. ابدأ بصكوك الحرية[٦٢] والموت للفيليبينيين. ابدأ في أي مكان من صحراء اليأس الأسود، والغمّ، والضجر. شغِّل المُحرِّك. ضع عازف البيانو على مقعد البيانو وأعطه سيجارة. أعِدْ ال ٥٨٩٤٦ مُعاقاً وقتيلاً في هذا العام إلى رصيف الإسفلت واستَلم مبلغ التأمين. اتّصل بويسترن يونيون وغنّ سنة حلوة يا جميل. اشترِ ست سيارات باكارد وسيارة ستودبيكر قديمة. نظِّف شمع الاشتعال عندك. اتصل برقم ٩٦٧٥ واستمع إلى بينغ كروسبي أو إلى دوروثي لامور. بيِّض قبعتك القش واكوِ بنطلونك الأبيض. إذا كنتَ لا تأكل إلا الطعام الحلال[٦٣] احرص على أنْ تحصل على خدمة الجنازة الخاصة باليهود - إنها لا تكلِّف أكثر مما تكلّف أية خدمة أخرى. احرص على شراء علكة، سوف تُعطِّر أنفاسك. افعل أي شيء، كُنْ أي شيء، قُلْ أي شيء يخطر في بالك، لأنَّ كل شيء جنوني ولا أحد سيلاحظ الفرق. هناك الآن ٩٫٥٦٧ مجلة على المنصب في طول البلاد وعرضها. صوت واحد آخر، وإنْ كان كالصرير وهستيرياً، لن يُلاحَظ. الكتب الرائجة ما تزال رائجة. عيد الميلاد سيأتي قبل أوانه هذا العام بسبب الحرب. في العام المقبل ستحصل على ساق من البلاتين، إلا إذا صادرت الحكومة مخزون البلاتين من أجل صناعة أجنحة الطائرات. غنّ أغنيتك وارقص رقصتك - فالوقت قصير. سوف نصل إلى القمة في عام ١٩٤٣ أو قبله، إذا سمح لنا "الشيوعيون القذرون" بذلك. اشترِ حُزماً للبريطانيين، سوف يُساعد هذا في إبقاء هندوسي آخر على قيد الحياة. عندما تتدرب على الطعن بالحربة تذكّر دائماً أنْ تُسدِّد على الأجزاء

الضعيفة، وليس على العِظام أو الغضاريف. وإذا كنتَ قاذفَ انقضاض تيقّن من أنْ المظلّة على ما يُرام. وإذا شعرتَ بالضجر، اذهب إلى سينما الحي وشاهد قصف تشنغكْينغ - إنه جميل جداً على الرغم من الضجيج والدخان. طبعاً، أنت تريد أنْ تتيقّن من أنكَ أسقطتَ قنابلك على الأناس الصحيحين، على اليابانيين وليس على الصينيين، على الهَنْ وليس على البريطانيين، إلى آخره. عندما يصرخ الناي من فرط الألم والرعب سُدّ أذنيك: إنه فقط العدو يصرخ، تذكّر هذا. هذا العام سيكون عاماً جيداً لرجال الأعمال في أميركا. فكرة مريحة. سوف تزداد الغارات حتى نقطة الانفجار. سوف تصدر ٣٤٩ رواية مكتوبة جديدة و٦٠٠٨ لوحات جديدة، وستحقّق كلها نجاحاً فاحشاً، وكل واحدة أفضل من سابقتها. وسوف تُفتتَح أيضاً بضع مصحات عقلية على امتداد العام. لذا امتطِ آلة التجذيف، يا ددلي، وجذف بجنون. هذا عام استثنائي من النواحي كلها.

آخر رسالة تلقّيتها من ددلي كانت عن رحلة على متن الدراجة كان ينوي أنْ يقوم بها، لأنَّ كتاب " ***رسالة إلى لافاييت*** " كان يدفعه نحو الجنون. كانت فلو الصغيرة ستبقى وتفتح جناحاً مُخصصاً للعُصابيين. ولولا ددلي لما كنتُ اشتريتُ سيارة، هذا ما باشرت كلامي به. ومن كثرة ما رحت أتجول جيئة وذهاباً من مكانٍ إلى آخر تعلّقتُ بسيارة ددلي الفورد طراز عام ١٩٢٦. ولاسيما بعد رحلة تحطيم الرقم القياسي من أجل مقابلة العظيم سالفادور دالي ومتعلقاته، التي جلبناها كلها إلى المنزل سليمة ما عدا قفص العصفور والمحبرة الموسيقية. وفي الليالي التي لم نكن نفعل أي شيء خلالها غير التمشّي حتى آخر الطريق والعودة حكيت كل شيء لددلي. أعني عن الكون وكيف تتعشّق المُسننات. لقد

أدركتُ أنَّ ددلي كان فناناً حتى أطراف أصابعه. أدركتُ هذا أكثر عندما قارنته بالعظيم سالفادور دالي. كان دالي دائم العمل. وعندما ينتهي من العمل يُصبح لا شيء، ولا حتى خرقة تجفيف الأطباق التي يمكن عصر نقطة ماء منها. بدا ددلي عاجزاً عن العمل- **حينئذٍ**. كان يحبل بفكرة. وعندما يتكلّم يتفصّد عرَقاً. بعض الناس كانوا يعتقدون أنه مجرد عُصابيّ. ودالي لم يلاحظ وجوده. دالي لا يُلاحظ أي شيء. لا فرق بالنسبة إليه، كما قال، أين هو؛ في استطاعته أنْ يعمل أيضاً في القطب الشمالي. ددلي كان شديد التأثُّر. كل شيء يملؤه بالدهشة والفضول. أحياناً، لكي يمنع الركود من التسلل أعمق مما ينبغي، كنا نذهب إلى مطعم فريدريكسبرغ ونأكل وجبة إيطالية. ولا يحدث أي شيء. كنا فقط نأكل ونتحدث. تحدثنا في كل شيء. وشعرنا بالزهو. لم نحل أية مشكلة. وعند ظهيرة اليوم التالي تكون الحرارة قد بلغت ٣٩ درجة في الظل، كالمعتاد. كنا نضطر إلى الجلوس بملابسنا الداخلية ونشرب الكوكاكولا بينما دالي يعمل. كنا نتفرّج على المرج، على اليعاسيب، على الأشجار الضخمة، على الزنوج وهم يعملون، على الذباب وهو يطنّ. كان كونت بيسي[٦٤] بصحبتنا على مائدة الإفطار، والغداء، والعشاء. مع حلول الغروب كنا قد نتناول الجن الفوّار أو الويسكي والصودا. والمزيد من الحديث. والمزيد من المشروب والكسل. الكون من جديد. فككناه كساعة سويسرية. وكان دالي حينئذٍ قد غطّى على الأقلّ مساحة ثلاث بوصات مربّعة من الكنفا. بدا كأنه مُلتصق بكرسيه. وعندما انضمّ إلينا على المائدة رأى أنَّ من واجبه أنْ يُرفّه عنا. وجد ددلي صعوبة في الضحك على سلوك دالي الغريب. لم يرغب في

أنْ يكون مجنوناً بتلك الطريقة. كنا قد أمضينا وقتاً أفضل في كوخ شب وفي زيارته هو وصوفي، زوجته. كانت الأسرة تضم ثمانية أطفال أو تسعة وكانوا دائماً جياعاً وعطشى. أحياناً كنا نُحضر جهاز الفونوغراف ويبدأ الأولاد بالغناء والرقص. لم تكن هناك لوحات تنم عن جنون الاضطهاد، بل فقط شب وأسرته. بعد المغادرة يبدأ ددلي بالكلام بسرعة فائقة. ففي حوزته دائماً " مجموعة كاملة من الصور المهدورة " " يُزخرف بها كلامه. كان يجعلنا نسكر بالإصغاء إليه. وعندما يُصيبنا الملل يهبط إلى الطابق السفلي إلى القبو، حيث أنشأ لنفسه مُحترَفاً، ويقوم برسم عازف البيانو من جديد بستين وضعية مختلفة. كان أشبه بعامل منجم يهبط إلى بطن الأرض. كان ينقّبُ عن الذهب. وبين حينٍ وآخر يقع على قطعة وربما يُخفيها في الحذاء الكبير الذي صنعه لكي يدوم عشر سنوات أخرى. كان يحفظ كل ما له قيمة في جيوب معطفه. وعندما لا يكون لديه ما يفعل، عندما يمل تبديد الوقت، كان يبري أقلامه الرصاص، التي يحتفظ بتشكيلة مذهلة منها. أحياناً كان يذهب إلى السيارة ويرفع غطاء المُحرك، فقط ليرى إنْ كانت الأجزاء الحيوية كلها ما تزال سليمة. وأحياناً كان يخرج مع معول ورفش ويُرمم الطريق قليلاً. لابد أنَّ دالي ظنَّ أنه مجنون. لكنه لم يكن مجنوناً. كان مملوءاً بالأفكار. وإذا أُصبنا بضجرٍ حقيقي نجلس متقابلَين ونأخذ بتقليد ليف وهو يلج بلدة صغيرة ويسأل عن طابع بريد. كان ددلي يعرف تفاصيل نفسية ليف الدقيقة كلها. بل كان في استطاعته أنْ يختزل طوله بنحو ست بوصات أو سبع ويمثّل شخص ليف وهو يسأل عن جدول مواعيد حديث، ونظيف. أو إذا أصبح ذلك مملاً جداً كان في وسعه أنْ يُخرِجَ أسنانه الخلفية ويُصدِر

ضجيجاً يُشبه الصوت الذي يُصدره دالي وهو يمضغ البطاطا المحروقة بالإسبانية. أو يمكنه أن يتمدّد على طوله على المرج ويُغطي نفسه بالأوراق الخضراء كما فعل عندما انتحر ذات مرة في سينت بيترسبرغ، فلوريدا. كان في استطاعته أنْ يفعل أي شيء إلا الطيران - ليس بسبب افتقاره إلى الجناحين بل لأنه لم يرغب في الطيران. أراد أنْ يحفر الأرض، أعمق فأعمق. أراد أنْ يُصبح خلداً ويلد مغنيزيوم أو كلور الجير ذات يوم. وطوال الوقت، كان، طبعاً، يفتش عن والده، الذي كان ذات يوم نجماً في لعبة كرة القدم. وهكذا، شيئاً فشيئاً، جاء وقت تدوين هذا كله وهكذا بدأ بجملة - "عزيزي لافاييت...". أعلم أنها ستكون أفضل رسالة كتبه رجل لآخر، حتى أفضل من رسالة نيجنسكي[٦٥] إلى دياغليف[٦٦]. وكما يقول، سوف تستمر إلى الأبد، لأنَّ رسالةً كهذه لا يكتبها المرء في غضون أسبوع، أو شهر أو سنة، إنها لا تنتهي، مؤلمة ألماً لا ينتهي، ومُثقِّفة ثقافة لا تنتهي. قد لا يمتد العمر بلافاييت ليقرأ السطر الأخير. لا أحد سيفعل. سوف يستمر الكتاب بكتابة نفسه بمسدس أوتوماتيكي. سوف يقتل كل ما تقع عليه عيناه. سوف ينظِّف هذه الأماكن المسكونة بالأشباح بحيث يحصل الذين سيأتون لاحقاً على مدى حر، عَلَف حر، لعب حر، فانتيزيا حرة. سوف تتخلَّص مرة واحدة ووحيدة من شركة القتل، والموت والمصيبة. سوف يُحرر العبيد. حظاً سعيداً لك، يا ددلي، ولك أيضاً، يا ليف الصغير! دعونا جميعاً نجلس الآن ونكتب رسالة أخرى إلى لافاييت. آمين!

مع إدغار فاريز[٦٧] في صحراء غوبي

العالم يستيقظ. الإنسانية تتابع مسيرتها. لا شيء قادر على إيقافها. إنسانية واعية، غير قابلة للاستغلال ولا تُثير الرثاء. تسير! تتقدّم! إنها تسير! ملايين الأقدام تسير بلا توقّف، تطأ الأرض، تضربها، بخُطى واسعة. يتغيّر الإيقاع. سريع، بطيء، متقطّع، بخطى تجر نفسها، تطأ، تضرب، خطى واسعة. إلى الأمام. تصاعدُ الإيقاع الأخير يُعطي الانطباع بأنّ التقدُّم الواثق، بلا رحمة، لن يتوقّف أبداً... ينطلق في الفضاء... أصوات في السماء، كأنها سِحر، وأيدٍ خفيّة تدير مفاتيح أجهزة المذياع الرائعة ويُغلقها، تملأ الفراغات، تتقاطع، تتراكب، تتداخل، تتجزّأ، تتدافع، يصدّ بعضها بعضاً، تتصادم، تتضارب. عبارات، شِعارات، ألفاظ، أغان، تصريحات: الصين، روسيا، إسبانيا، الدول الفاشستية والديموقراطيات المُضادة، كلها تكسر القشور الشالّة....

أي نوع من التصريحات هذا ؟ أهو صادر عن فوضويّ يُصبح مسعوراً ؟ أم عن أحد سكان جزيرة ساندويتش تواّق إلى خوض الحرب؟

كلا، يا صديقي، هذه كلمات إدغار فاريز، المؤلف الموسيقي. إنه يشرح موضوع مؤلّفه التالي. ولديه المزيد يقوله عن هذا...

" ما ينبغي تجنّبه: نبرات الدعاية السياسية، بالإضافة إلى أية معالجة صحفية للأحداث الجارية والمعتقدات. أريد الأثر الملحمي لعصرنا، مُجرَّداً من الأسلوبيّة والعنجهية. أقترح استخدام تعبيرات متفرقة هنا وهناك من الثورات الأميركية، والفرنسية، والروسية، والصينية، والإسبانية والألمانية: شُهُب، وأيضاً كلمات يتكرّر ظهورها كضربات مطرقة قوية. أريد نبرة مبتهجة، بل تنبُّؤية - على الرغم من طابع الكتابة الترتيلي، إلا أنها يجب أنْ تكون عارية، ومُجرّدة استعداداً للعمل. بالإضافة إلى عبارات من الأدب الشعبي - من أجل خاصيتها الإنسانية، الواقعية. أريد أنْ أستقطب كل ما هو إنسانيّ، من الأشد بدائيّة إلى الأبعد إيغالاً في العلوم".

إنني أتنبّأ بردّات الفعل التي سيُحدثها الكلام السابق. سيقولون "إنه مجنون"، أو " مَنْ هذا - أهو معتوه؟ - " مَنْ إدغار فاريز هذا بحق الجحيم؟ ".

اليوم أصبح ملايين الأميركيين الجهلة قادرين على أنْ يكرّروا بطلاقة أسماء أشخاص مثل بيكاسو، وسترافنسكي، وجويس، وفرويد، وآينشتاين، وبلافاتسكي، ودالي، وأوسبنسكي، وكريشنامورتي، ونيجينسكي، وبلينهايم، ومانرهايم، وميسرشميدت، إلى آخره. والجميع يعرفون مَنْ هي شيرلي تمبل[٦٨]، طبعا. بل إنَّ الكثيرين على علم باسم ريمو. راماكريشنا - لعل من بين مئة ألف شخص لن ترى شخصاً واحداً سمع باسمه، وليس من المتوقع أنْ يسمعوا به طوال حياتهم - إلا إذا تصادفَ أنْ أصبح هذا الكتاب من الكتب الرائجة، وأنا أشكّ في ذلك.

إلامَ أهدف؟ إلى هذا فقط - إلى أنَّ هناك شيئاً من الجنون في أفضل العوالم الديموقراطية هذا في الأسلوب الذي تنتشر به المعلومات الحيوية. إنَّ رجلاً مثل أندريه بروتون، أبو السُريالية، يتجول في شوارع حي مانهاتن وهو مجهول تماماً ولا يتعرَّف عليه أحد. لقد أصبح ملايين من الأميركيين يعرفون الآن كلمة سُريالية، والفضل في ذلك إلى حادثة بونْويت تلر[٦٩]. وإذا تصادفَ أنْ سألتَ أحدهم عَرَضاً عن السُريالية، ستجد أنها أضحت مرادفاً لاسم سالفادور دالي. هذا هو العصر الذهبي للمعلومات. فإذا أردتَ أنْ تعرف شيئاً عن الموتى فاستمع إلى برنامج " دعوة إلى التعلُّم". وإذا أردتَ أنْ تحصل على معلومات خاطئة عن أحداث العالم اشترِ صحيفة - أو استمع إلى الرئيس روزفلت في إحدى تلك المناسبات وهو يُلقي واحدة من خُطبه النارية الصغيرة. فإذا لم تتمكن من استيعابها على الفور، هذه الوفرة من المعلومات والمعلومات الخاطئة، فاشترِ واحدة من النشرات الموجزة - الجميع يفعلون هذا.

من أجل الحصول على معلومات حقيقية عن إدغار فاريز، وبأسلوب غنائي، أُعيدك إلى مقالة بول روزنفيلد في العدد الأخير من "مرتان في العام"، وهو مقتطفات تُصدرها مرتين في العام دوروثي نورمن في ٥٠٩ جادة ماديسون، في نيويورك. هناك ستجد ألفريد شتيغليتز يحرس الحصن. بالمناسبة، إنه"موقع أميركي"، ولا داعي للفزع.

لقد كتبَ روزنفيلد بإسهاب مستفيض وبتفهُّم عن موسيقى فاريز بحيث إنَّ كل ما يمكن أنْ أقول سيبدو حتماً من قبيل الحشو. وما يُثير اهتمامي في فاريز هو أنه يبدو عاجزاً عن العثور على مَنْ يسمعه. إنه في الموقف نفسه الذي يمكن لجون مارين أنْ يكون فيه اليوم، بعد مرور

خمسين عاماً من العمل، لولا ولاء وتفاني صديقه العظيم ألفريد شتيغليتز. والوضع في حالة فاريز أكثر إبهاماً لأنَّ موسيقاه حتماً هي موسيقى المستقبل. والمستقبل بدأ تواً، ما دام فاريز نفسه موجودا هنا وجعل موسيقاه غير معروفة إلا للقِلّة. لا ريب في أنها ليست موسيقى من النوع الذي يجد هوى فورياً عند الرعاع.

إنَّ بعض الرجال، وفاريز واحد منهم، يُشبهون الديناميت. وأعتقد أنَّ هذا وحده كاف لتفسير سبب التعامُل معهم بحذر وحياء. وحتى الآن لم نمارس الرقابة على الموسيقى، على الرغم من أني أتذكّر أنَّ هنيكر[٧٠] كتبَ في مكانٍ ما أنَّ من المدهش أننا لم نمارس الرقابة على تحف فنية معيَّنة. أما عن فاريز، أعتقدَ بأمانة أنه إذا مُنِحَ مجالاً فلن يتعرّض فقط للمراقبة بل سيُرجَم. لماذا؟ لسبب بسيط جداً وهو أنَّ موسيقاه ***مختلفة***. من الناحية الجمالية لعلنا الشعب الأكثر مُحافظة في العالم. علينا أنْ نُصاب بالدوار قبل أنْ نتحرّر. حينئذٍ سوف يكسر كل منا رأس الآخر بمرح ودون نيل عقاب. لقد تثقّفنا إلى درجة رفيعة- أو راكدة- بحيث أصبحنا عاجزين عن الاستمتاع بأي شيء جديد، بأي شيء مختلف، إلا بعد أنْ يُشرَح لنا فحواه. إننا لا نثق بحواسنا الخمس؛ إننا نتّكل على نُقادّنا ومُعلّمينا، وكلهم فاشلون في عالم الإبداع.

باختصار، إنها أعمى يقود أعمى. هذه هي الطريقة الديموقراطية. وهكذا يُجهَض المستقبل، الوشيك دائماً، ويُحبَط، يُرمى عند المُنعَطَف، يُخنَق، يُشوَّه، وأحياناً يُعدَم، خالقاً وهماً مألوفاً بعالمٍ آينشتاينيّ لا هو بسمكة ولا بطائر، عالماً ذا انعطافات لا تنتهي تؤدي إلى القبر أو إلى مأوى العجزة أو إلى المصحة العقلية أو إلى معسكر للاعتقال أو إلى

التضاعيف الدافئة، الواقية، للحزب الجمهوري-الديموقراطي. وهكذا يظهر المجانين الذين يُحاولون استعادة القانون والنظام بالفأس. وعندما تضيع حياة ملايين من الناس، عندما نصل إليهم أخيراً ونقضي عليهم بالفأس، نتنفس بارتياح أكبر في صوامعنا المُبطّنة. في ظل مثل هذه الظروف من المنعش، أؤكد لك، أنْ تُصغي إلى موسيقى موتسارت فينومَكَ مُنوِّم مغناطيسي عظيم اسمه توسكانيني[71] . فإذا كنتَ ثرياً وتستطيع أنْ تُنفق عشرة أو خمسة وعشرين أو خمسين دولاراً في اليوم لاستئجار شخصٍ صبور لكي يُصغي إلى مشكلاتك يمكن أنْ تتكيَّف من جديد مع نظام الأشياء الجنوني وتوفّر على نفسك ذلّ أنْ تُصبح علمانياً مسيحياً. يمكنك أنْ تُشذِّب أنانيتك أو تزيلها، كما تشاء، كما يُزال الثؤلول أو الورم الملتهب. عندئذٍ يمكنك أنْ تستمتع بموسيقى موتسارت حتى أكثر من ذي قبل- بالإضافة إلى تغريد تتراتزيني[72] أو تهويد بنغ كروسبي. الموسيقى مُخدِّر جميل، إذا لم تتعامل معها بجدّية مُفرطة.

إنَّ العالم يستيقظ!

يكفي أنْ تُردِّد هذا بينك وبين نفسك مرات عدّة في اليوم حتى تُصبح فوضوياً. كيف توقظ العالم - إذا كنتَ موسيقياً؟ بسوناتا على فتّاحات عُلب صدئة؟ هل فكَّرتَ مرة في هذا؟ أم أنكَ تفضِّل أنْ تبقى نائماً؟

إنسانية واعية!

هل حاولتَ مرة أنْ تتخيَّل معنى هذا؟ صدقاً. هل توقفتَ دقيقة واحدة في حياتك لكي تفكِّر ماذا يعني للإنسانية أنْ تُصبح واعية وعياً تاماً. ***ألاّ تكون قابلة للاستغلال أو لإثارة الرثاء*** ؟ لا شيء قادر على إعاقة تقدُّم إنسانية واعية. ولا شيء سيقدر.

كيف تصبح واعياً ؟ لعلمك، الأمر غاية في الخطورة. هذا لا يعني بالضرورة أنكَ ستحصل على سيارتين وستمتلك منزلاً خاصاً بك مُزوّداً بجهاز أرغن أنبوبي. بل يعني أنكَ ستعاني أكثر- هذا أول ما عليك أنْ تدرك. لكنكَ لن تموت، لن تصبح لا مبالياً، ولن تكون معدوم الحساسية، ولن يُصيبك الخوف والفزع، ولن تكون عصبياً، ولن ترمي بيضاً فاسداً لأنك لا تفهم. سوف ترغب في فهم كل شيء، حتى الأشياء البغيضة. سوف ترغب في قبول المزيد فالمزيد - حتى ما يبدو عدائياً، وشريراً، ومُهدِّداً. نعم، سوف تُصبح أقرب شبهاً بالله أكثر فأكثر. لن تُضطر إلى الردّ على إعلانٍ ظهر في الصحيفة لكي تعرف كيف تَتكلّم مع الله. سوف يكون الله معك دائماً. وإذا كنتُ أعرفُ عمّا أتكلّم، سوف تُصغي أكثر وتتكلّم أقلّ.

الوصول هو رحيل

إنَّ مدة مكوثك في صُحبة السيد جوردان تعتمد عليك أنت. بعض الأشخاص يرتقون بسرعة؛ وآخرون يتقدّمون بخُطى الحلزون. وكما يقول فاريز " ليس هناك إلا الرحيل ". هذا هو قانون الكون. فإذا لم تُكيِّف إيقاعكَ مع إيقاع الكون تنتكس، تنكفئ، تُصبح نباتاً، خلية أميبية أو شيطاناً مُجسّداً.

لا أحد يطلب منك أنْ ترمي بموتسارت من النافذة. احتفظ به. راعِه. واحتفظ بموسى أيضاً، وببوذا وبيلاو تسه وبالمسيح. احتفظ بهم في قلبك. ولكنْ افسح مجالاً للآخرين، للقادمين، الذين منذ الآن يخدشون زجاج النوافذ.

لا شيء أكثر موتاً من الوضع الراهن، سواء سُمّيَ ديموقراطية، أم فاشيّة، أم شيوعية، أم بوذيّة، أم عدميّة. وإذا حلمتَ بالمستقبل، اعلَمْ

أنه سيتحقق ذات يوم. الأحلام حقيقية. الأحلام هي جوهر الواقع. والواقع لا تحميه أو تدافع عنه القوانين، والبيانات، والمراسم الإمبراطورية، والمدافع والأساطيل الحربية. الواقع هو ذاك الذي ينبت طوال الوقت من الموت والتحلُّل. لا يمكنك أنْ تفعل أي شيءٍ له؛ لا تستطيع أنْ تُضيف إليه أو تطرح منه، تستطيع فقط أنْ تزداد وعياً أكثر فأكثر. وأولئك الواعون جزئياً هم المُبدعون؛ والواعون بصورة كاملة هم الآلهة وهم يتنقّلون بيننا صامتين ومجهولين. إنَّ وظيفة الفنان، الذي هو نوع واحد من المُبدعين، هي أنْ يوقظنا. الفنانون يُثيرون مُخيلتنا. (يقول فاريز "المُخيلة هي الكلمة الأخيرة"). إنهم يفتحون أمامنا أجزاء من الواقع، يفتحون الأبواب التي في المُعتاد نُبقيها موصدة. إنهم يُزعجوننا، بعضهم أكثر من آخرين. بعضهم، كفاريز، يُذكّرني بأولئك الروس المُدرّبين على الاندفاع وحدهم ومجابهة الدبابات الغازية. إنهم يبدون ضعفاء جداً وعاجزين، ولكن عندما يُصيبون الهدف يُسببون دماراً لا يُقدَّر. ولدينا سبب وجيه للخوف منهم، أعني أولئك النائمين منا. إنهم يجلبون النور الذي يقتل وفي الوقت نفسه يُضيء. هناك أشخاصٌ متوحدون لا يتسلّحون إلا بالأفكار، وأحياناً بفكرة واحدة فقط، ينسفون عصوراً زمنية كاملة تُكفّننا كالمومياءات. وبعضهم يتحلون بما يكفي من القوة بحيث يُحيون الموتى. وبعضهم يتسللون إلينا في غفلتنا ويرموننا بسِحرٍ يستغرقُ منا قروناً لإزالته. وبعضهم يُنزِلون علينا لعنة، بسبب حماقتنا وكسلنا، ثم يبدو كأنَّ الله نفسه عاجز عن رفعها.

إنّ الإيمان يقف خلف كل إبداع، ويدعمه كالقوس. الحماس لا شيء: إنه يأتي ويذهب. ولكن إذا آمن المرء، فإنَّ المعجزات تظهر. ولا دخل

للإيمان بالأرباح؛ وإذا كان لابد أنْ تكون له صِلة بأي شيء، فبالأنبياء. إنَّ الذين يعرفون ويؤمنون يمكنهم أنْ يتنبَّؤوا بالمستقبل. إنهم لا يريدون أنْ يُرجئوا عمل أي شيء- بل يريدون أنْ ***يساندونا***. يُريدون أنْ يدعموا أحلامنا بقوة. إنَّ العالم لا يستمر في دورانه لأنه عرض مدفوع الثمن. (الله لا ينال قرشاً واحداً من الصفقة). العالم يستمر في دورانه بسبب بضعة رجال في كل جيل يؤمنون به الإيمان كله، ويقبلونه دون نقاش؛ ويوقّعون عليه بحياتهم. وفي صراعهم من أجل جعل أنفسهم مفهومين يُبدعون موسيقى؛ يجمعون عناصر الحياة المتضاربة وينسجون منها منظومة من التناغُم والمغزى. ولولا ذلك الصراع الدائم من جانب القِلّة المُبدعة من أجل توسيع الإحساس بالواقع في الإنسان لمات العالم بالمعنى الحرفي للكلمة. ليس المُشرّعون والعسكريون هم الذين يُبقوننا أحياء، هذا جليّ. نحن نبقى أحياء بسبب المؤمنين، ذوي الرؤى. إنهم كالجراثيم الحيّة في حالة صيرورة لا تنتهي. أفسحوا مكاناً، إذن، لواهبي الحياة!

يقول أحد المعاصرين[٧٣] "إنَّ العصر الثوري الذي نعيش فيه لا يمثّل فقط المرحلة الانتقالية بين دورتين حضاريتين صغيرتين، أو ما يُسمّى عصريّ برج الحوت وبرج الدلو. إنه يُمثّل بدايةً أعظم بكثير، فتْحَ بوابات ستكون عتبةَ عصرٍ قد يمتد عبر مئات الآلاف من الأعوام؛ وربما فترات أطول...".

في معرض كلامه عن " المساحة الموسيقية " قال المؤلف نفسه ما يلي:

" لقد أولت الموسيقى الكلاسيكية الغربية انتباهها كله حرفياً لإطار الموسيقى، أو ما يُسمّى بالشكل الموسيقي. لقد نسيَتْ أنْ تدرس قوانين

الطاقة الصوتية، أنْ تجعل الموسيقى حدسيّة في صِلتها بالهوية الصوتية الفعلية، وبالطاقة التي هي الحياة. وهكذا ارتقت في الغالب بأُطُر مجرّدة رائعة لا وجود للرسم فيها. لذلك غالباً ما يقول الموسيقيون الشرقيون إنَّ موسيقانا هي موسيقى الحُفَر. ونغماتنا هي حواف من الفواصل، ومن اللُج الخاوي. والألحان تقفز من حافة إلى أخرى. لا تطير ولا تنزلق. وتكاد لا تلامس الأرض الحيّة. إنها موسيقى مومياءات، حيوانات محفوظة ومُحنَّطة تبدو ربما حيّة بقدر كافٍ، لكنها ميتة ولا حِراك بها. ***إنَّ المساحة الداخلية خالية***. كيانات النغم ميتة، لأنها خالية من طاقة الصوت، من الدم الصوتي. إنها مجرد عِظام وجلد. نحن نُسميها أنغاماً "نقيّة". إنها من فرط النقاء بحيث إنها لا تأتي بأية حركةٍ تؤذي!- إنَّ المثل الأعلى الديني الحق للإنسانية: هم مُغنو كنيسة سيستين، إنهم رجال بلا طاقة خلاّقة. هذا هو رمز الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية، الموسيقى النقيّة...

ولكن الآن مع وجود ما يُسمّى بحسّ الـ atonalism[٧٤]، مع وعيٍ مطّرد بأنَّ، كما قال فاريز: " على الموسيقى أنْ ***تهدُر***": وإنَّها لا شيء إذا لم تكن تجربة نغمية حقيقية لكائن بشري ما - نحنُ مُقدِمون ببطء وتردُّد، على الرغم من الحركة الأوروبية الرجعيّة المُسمّاة بالكلاسيكية الجديدة، على حسٍّ جديد بالموسيقى قائم على أساس الإحساس بامتلاء النغمة، على الإحساس بما يُسميه الروس "Pansonority" وما كنا قد سمّيناه قبل بضع سنوات بـ Tonepleromas، حاول حداثيٌّ آخر، اسمه هنري كويل، أنْ يُقدّمه بوساطة ما سمّاه "مجموعات نغمية ".

إنَّ كامل التشديد، في هذه المقالة عن المساحة الموسيقية، يقع على

النغمة. " إنَّ كل نغمة مسموعة فعلاً هي كيانٌ معقّد يتألّف من عناصر متنوعة مُرتَّبة بطُرُق مختلفة، تقدّم علاقة نموذجية معيَّنة إحداها مع الأخرى. بعبارة أخرى، كل نغمة هي جُزَيْءٌ من الموسيقى، وبهذا يمكن فصلُها إلى مركبات من النوى والإلكترونات الصوتية، التي قد يتّضح أنها ليست أكثر من أمواج من طاقة صوتية ممتدة تشعّ في أرجاء الكون، كالأشعة الكونية المُكتَشَفة حديثاً ويُسميها الدكتور ميليكان بصورة مُثيرة للاهتمام بـ" ***صراخ مولد*** العناصر البسيطة: الهليوم، والأكسجين، والسيليكون، والحديد...".

ولكن هل هي موسيقى ؟ هذا هو السؤال الحتمي الذي يبرز كلما أتيتَ على ذِكر اسم فاريز. إنَّ فاريز نفسه يتملَّص من السؤال هكذا - وأقتطف من مقالة حديثة له عنوانها " الصوت المُنظَّم لفيلم صوتي":

" بما أنه يبدو أنَّ تعبير "موسيقى" يتقلّص بالتدريج ليعني أقلَّ مما ينبغي أنْ يعني، أُفضّل أنْ أستخدم تعبير "الصوت المُنظَّم" وأتجنّب السؤال الرتيب: " ولكن هل هي موسيقى؟ ". يُستحسَن تناول عبارة "صوت مُنظَّم" في الوجه الثنائي للموسيقى بوصفها فناً وعِلماً، بعد الاكتشافات المَخبرية الأخيرة كلها التي تسمح لنا بأنْ نأمل في التحرُّر غير المشروط للموسيقى، بالإضافة إلى تغطية موسيقاي الخاصة، بلا جِدال، التي هي في طور الإنجاز ومتطلباتها ".

ولكن هل هي موسيقى ؟ قُل عنها ما تشاء، فالناس يكادون يُصابون بالجنون لأنهم عاجزون عن تسميتها وتصنيفها. هناك دائماً الخوف، دائما الرعب، في مواجهة الجديد. ألا نسمع الصرخة نفسها فيما يتعلق بالفنون الأخرى ؟ ولكن هل "هو" ***أدب*** ؟ ولكن هل هي ***نحت*** ؟

ولكن هل هو **رسم** ؟ من الواضح أنها كذلك وليست كذلك. إنها حتماً ليست سِباكة، ولا هندسة سكك الحديد، ولا لعبة الهوكي، ولا لعبة الأقراص والكأس[٧٥]. إذا صنّفتَ الأشياء كلها وبيّنت أي عمل فني جديد أو شكل فني جديد ليس كذلك فسوف تقترب في آخر المطاف كثيراً من شيء هو إما موسيقى، أو رسم، أو نحت أو أدب، حسب الحالة. وعندما أصدر القاضي ووزلي قراره الشهير حول كتاب جويس " ***يوليسيس*** " فإنه أثار ضجة كبرى. ولكننا نميل إلى أنْ ننسى أنَّ العجوز الجليل الغريب الأطوار في معرض دفاعه عن الكتاب شدَّد على حقيقة أنَّ قلّة قليلة فقط من الناس أُعجِبت به، وأنه في الإجمال كان كتاباً صعب الفهم، وأنَّ الأذى الذي يمكن للفِقرات البذيئة أنْ تُسبّبه قد يكون مُقتصراً على عددٍ لا وزن له من مواطنينا الصالحين. إنَّ هذه طريقة حذِرة، رعديدة بإزالة الحواجز عندما يواجَه بعمل ينطوي على موهبة مُثيرة للجدل- يجب أنْ أقول إنها ليست مُثقّفة كثيراً. وبدل أنْ نسأل - " كم من الأذى سيُحدِث العمل المطروح ؟ " لماذا لا نسأل - " كم من الخير سيُحدث ؟ كم من الفرح ؟ " فالمُحرّمات، على الرغم من عدم الاعتراف بها، فعّالة. ***ما الذي يخشاه الناس*** ؟ ما يجهلون. والإنسان المتحضِّر لا يختلف بأدنى قدر عن الهمجي في هذا المجال. الجديد دائماً يحمل في طياته حساً بالانتهاك، بالتدنيس. إنَّ الميِّت مُقدَّس؛ والجديد، أي، ***المختلف***، شرير، خطِر، أو مُخرِّب.

أنا أتذكر بقوة المرة الأولى التي سمعت فيها موسيقى فاريز - من آلة تشغيل الأسطوانات الرائعة. وذُهلت. وكأني تلقّيتُ ضربة قاضية. وعندما استعدتُ وعيي استمعتُ إليها من جديد. هذه المرة ميَّزتُ

الانفعالات العاطفية التي انتابتني في اللحظة الأولى ولكني، بسبب جدتها، بسبب السلسلة المستمرة، المتواصلة من الأشياء الجديدة، لم أتمكن من التعرُّف إليها. كانت انفعالاتي العاطفية قد تراكمت إلى ذروةٍ جاء تأثيرها أشبه بلكمة يُسددها المرء إلى فكّه. ولاحقاً، أثناء حديثي مع فاريز حول عمله الجديد، وسألني إنْ كنتُ أمانع في المساهمة ببعض العبارات للجوقة- قال فاريز "عبارت سحرية" - استعدتُ كل ما كنتُ قد سمعت بقوة وأهمية مُضاعفتين. قال فاريز " أريد شيئاً من الإحساس بصحراء غوبي[٧٦] ".

صحراء غوبي! بدأ الدوار يلفّ رأسي. ما كان يمكن له أنْ يستخدم صورة أدقّ من هذه ليصِفَ بها التأثير الهائل الذي تُحدِثه موسيقى الصوت المُنظَّم الخاصة به في ذهني. والغريب في موسيقى فاريز هو أنه بعد الإصغاء إليها يرين عليكَ الصمت. إنها ليست رائعة، كما يتخيَّل الناس، بل تبعثُ على الرهبة. إنها مُحطِّمة، نعم، إذا أصررتَ على أنَّ عمل الموسيقى هو أنْ تُهدِّئ الأعصاب لا أكثر. وهي متنافرة النغمات، نعم، إذا اعتقدتَ أنَّ النغم هو كل شيء. وهي تُثير الأعصاب، نعم، إذا كنتَ لا تحتمل فكرة ألا تُحل مشكلة تنافُر الأصوات بصورة نهائية. ولكن ماذا كانت نتيجة التجنّب المستمر لتلك العناصر المزعجة، وربما البغيضة؟ هل تعكس موسيقانا السلام، والتناغم، والإلهام؟ ماذا لدينا من أنواع الموسيقى الجديدة نتباهى به غير البوغي–ووغي؟ ماذا يمنحنا قادة فرقنا الموسيقية عاماً بعد عام؟ مجرد جُثث ٍجديدة. فعلى وقع تلك السوناتات، والتوكاتات، والسيمفونيات والأوبرات المُحنَّطة بصورة جميلة يرقص العامة ويقفزون. وليلاً ونهاراً تُغرقنا أجهزة المذياع بلا

انقطاع في قذارة من أشدّ الأغاني عاطفيّة وإثارة للاشمئزاز. ومن الكنائس ينبعث اللحن الجنائزي الكئيب للمسيح الميت، موسيقى لم تعُد مقدّسة أكثر من ثمرة لفت عفنة.

إنَّ فاريز يريد أنْ يُحدث اضطراباً كونياً حقيقياً. ولو كان في استطاعته أنْ يتحكّم في أمواج الأثير ويزيل كل شيء عن الخريطة بدورة واحدة من قرص الهاتف أعتقد أنه كان سيموت من فرط النشوة. وعندما يتكلّم عن عمله الجديد وعمّا يحاول أنْ يُنجز، عندما يأتي على ذِكر الأرض وسُكّانها الكسالى والمُخدَّرين، يمكنكَ أنْ تراه يُحاول أنْ يقبض عليها من ذيلها ويُلوِّح بها فوق رأسه. إنه يريد أنْ يجعلها تدور كقمة جبل. يريد أنْ يُسرِّع وتيرة القتل، والفساد، والخِداع، وينتهي منها مرةً وإلى الأبد. وكأنه يسأل، أأنتم صُمٌّ وبُكمٌ وعُمي؟ طبعاً هناك موسيقى اليوم - ولكنها خالية من الرنين. طبعاً هناك مجزرة تحدث- لكنها بلا أي تأثير. طبعاً عناوين الصحف الرئيسة ممتلئة بالمآسي - ولكن أين الدموع ؟ هل هو عالمٌ من البضائع المطاطية ضُرِبت بمطرقة مطاطية؟ هل هي لعبة كروكي أم غسول عين كونيّ ؟ ***إنَّ الموت هو شيء وكون المرء ميتاً شيء آخر.***

إذا كنا عاجزين عن سماع الناس يصرخون من الألم فكيف نستطيع أنْ نسمع أيّ شيء ؟ إنني في كل يوم أمرّ بمؤسسة تسمّى سونوتون تقع في الجادة الخامسة، حيثُ يُدعى الناس إلى هناك لكي تُفحص قدرتهم على السمع. لقد أصبح لدينا أخيراً وعي بالأذن. وهذا لا يعني أنْ سمعنا قد تحسَّن - بل يعني ببساطة أنَّ بنداً آخر أُضيفَ إلى اللائحة الطويلة من الأشياء التي تُقلِقنا. على أي حال، نحن نعلم الآن أنَّ ملايين

الأميركيين صُمّ أو في طريقهم إلى الصمم. واستمرارنا في الوجود، ونحن إحصائياً مُعاقون، ومُسمَّمون، ومُشوَّهون، ليس أقلّ من أمر مُعجز. الآن نحن نصبح صُماً. وقريباً سوف نُصبح خُرساً.

عندما تبدأ القنابل بالسقوط من السماء حتى الأجراس الصينية الطنانة التي يحتفظ بها فاريز لن يكون لها أي تأثير على الجمهور. صحيح تبقى هناك الأداة الكهربائية - التي تستطيع أنْ تخرِّب تلك الآلات إلى درجة شيطانية. ولكن حتى حينئذٍ سيُضطر المرء إلى أنْ يفعل شيئاً ليُنافس ضجيج قاذفة الانقضاض. ومَنْ شاهد وسمع الفيلم الوثائقي المُسمّى "كوكان" سوف يتذكّر حتماً حتى آخر حياته زئير تلك الطائرات اليابانية وهي تحتشد فوق تشنغكينغ. وهدير اللهب التالي، الذي أيضاً لا يُنسى. ثم الصمت - صمت لا يشبه أي شيء عرفناه من قبل. مدينة مذهولة ومقهورة. أي صمت مُعذِّب تُشيع! تخيَّل كيف سيكون الحال، إذا ما لاقت نيويورك، أو سان فرانسيسكو، أو لوس أنجليس أو إحدى مدننا الأخرى المصير نفسه! لن يكون موسيقى في آذاننا، هذا مؤكَّد. بل سيكون ***طنيناً***. حتى الصمت سوف يمتلئ بالطنين. سوف يكون أشبه بموسيقى حجرة داخلية تملأ فضاء أرواحنا المعدومة الإحساس.

غداً قد ينتحل كل ما قبلنا بداهةً وجهاً جديداً. قد تشبه نيويورك حينئذٍ البتراء، المدينة العربية الملعونة. وسوف تتحول حقول الذرة إلى صحراء. وقد يُضطر سكّان مدننا الكبرى إلى اللجوء إلى الغابات والتفتيش عن طعام وهم يزحفون على أربع، كالحيوانات. ليس هذا مستحيلاً. بل إنه أمر مُحتمل جداً. لا يوجد على هذا الكوكب أي جزء

مُحصّن عندما ستتمكن منا روح الدمار. قد ينهار الجهاز العضوي الهائل المُسمّى مجتمع إلى جزيئات وذرات؛ قد لا يبقى هناك أي أثر لأي شكل اجتماعي يمكن أنْ يُقال عنه مجموعة. ما نسميه "مجتمع" قد يُصبح كتلة متفككة ومتنافرة لا تناغم فيها. هذا أيضاً ممكن الحدوث.

إننا لا نعرف إلا أجزاء صغيرة من تاريخ الإنسان على هذه الأرض. إنه سجل طويل، ممل، مؤلم لتغيُّرات كارثية تتضمن أحياناً اختفاء قارات بأكملها. ونحن نحكي القصة وكأنَّ الإنسان ضحية بريئة، مُشارك عاجز في الثورات الضالة، التي لا يمكن التكهُّن بها، للطبيعة. لعله كان هكذا في الماضي. لكنه لم يعُد كذلك. وما يحدث لهذه الأرض اليوم هو من فعل الإنسان. لقد بيَّنَ الإنسان أنه سيد كل شيء- ما عدا فِطرته. وإذا كان بالأمس طفل الطبيعة، فإنه اليوم مخلوق مسؤول. لقد وصل إلى نقطة الوعي التي لا تسمح له أنْ يكذب على نفسه بعد ذلك. لقد أصبح التدمير الآن عملية مُبيَّتة، إراديّة وذاتية. نحن موجودون عند نقطة مفصلية: إما أنْ نتقدَّم أو نرتد. إننا ما نزال نتمتع بالقدرة على الاختيار. وغداً قد لا نتمكن من ذلك: لأننا نرفض أن نقوم بالاختيار الذي انتقيناه مع إحساس بالذنب، نحن جميعاً، الذين يصنعون الحرب والذين لا يصنعونها. نحن جميعاً ممتلئون بجرائم القتل. إننا نمقت أحدنا الآخر. ونكره ما نبدو عليه عندما ينظرُ كلٌ منا في عينيّ الآخر.

ما هي الكلمة السحرية التي تصف هذه اللحظة؟ مَاذا أمنح فاريز مقابل صحراء سُلّمه الموسيقي الطنّان ذاك ؟ سلاماً ؟ شجاعةً ؟ صبراً ؟ إيماناً ؟ أخشى أنه لم تعُد أيٌ من هذه الكلمات تفيد. لقد استهلكناها من فرط نطقها بلا معنى. ما نفع الكلمات إذا كانت الروح التي تنطوي عليها غائبة ؟

إنَّ كلماتنا كلها ماتت. السحر مات. الله مات. والموتى يتراكمون من حولنا. وقريباً سوف يخنقون الأنهار، ويملؤون البحار، وتفيض بهم الوديان والسهول. ربما في الصحراء فقط سيتمكّن الإنسان من التنفّس من دون أنْ يختنق بعفن الموت. يا فاريز، لقد وضعتني في ورطة. إنَّ كل ما في استطاعتي أنْ أفعل هو أنْ أُضيف حاشية إلى عملك الجديد. وها هي...

" دع الجوقة تمثّل الناجين. دع صحراء غوبي تصبح ملاذاً. وعلى حواف الصحراء فلتتراكم الجماجم على هيئة متراس هائل. السكون يرين على العالم. حتى إنَّ لا أحد يجرؤ على التنفُّس. ولا على الإصغاء. الجميع ساكنون. ثمة هدوء شامل. وحده القلب يخفق. يخفق في صمت أسمى. دع رجلاً ينهض ويبدو كأنه سيفتح فمه. دعه يفشل في إخراج أي صوت. دع رجلاً آخر ينهض ودعه يفشل أيضاً. ثم يهبط فحلٌ من السماء. ويقفز في المكان في صمت مُطبِق. ويحرِّك ذيله.

يُصبح الصمت أعمق. يكاد الصمتَ لا يُحتَمَل.

يبرز درويش ويبدأ بالدوران حول نفسه كالذروة. وتصبح السماء بيضاء اللون. ويزداد الهواء برودة. وفجأة يومض حدّ سكين ويلمعُ ضوء في السماء. يقترب نجم أزرق أكثر فأكثر - نجم ضوءه مُبهِر، يعمي الأبصار.

ثم تنهض امرأة وتزعق. ثم أخرى فأخرى. يمتلئ الهواء بزعيق ثاقب. وفجأةً يسقط طائرٌ ضخم من السماء. إنه ميت. لا أحد يُحرك ساكناً ليقترب منه.

يُسمَعُ أزيز واهن لزيز الحصاد. ثم تغريد قُبّرة، يتبعها تغريد الطائر المُحاكي. يضحك أحدهم - ضحكاً مجنوناً يُحطم القلب. تجهش امرأة بالبكاء. وتبدأ أخرى بالنواح.

يهتف صوت رجل بصوت عالٍ: لقد ضعنا!

ويهتف صوت امرأة: لقد خلصنا!

هتاف متقطِّع: ضعنا! خلصنا! ضعنا! خلصنا!

صمت

يضجُّ رنين مدوٍ، مُهيمناً على كل شيء.

يستمر، ويستمر ويستمر.

ثم يسود صمتٌ مُحطِّم. عندما يُصبح لا يُطاق تُسمع أنغام ناي - ناي لراعٍ غير مرئيّ. الموسيقى، الشاردة، رتيبة، متكررة- تكاد تكون مجنونة- تتواصل وتتواصل وتتواصل. وتهبط ريح.

حالما يسكت صوت الناي يتعالى نفير هائل لجوقة من الآلات النحاسية.

يظهر الساحر

يرفع يديه نحو السماء ويبدأ بالقول بصوت متوازن، لا هو عالٍ ولا منخفض أو زاعق: صوتٌ يستحوذ، ويُهدِّئ القلب. وهذا ما يقول:

" كفاكم إيماناً! كفاكم أملاً! كفاكم صلاةً! افتحوا عيونكم واسعاً. قِفوا منتصبي القامة. اطرحوا عنكم المخاوف كلها. ثمة عالم جديد يوشك أنْ يولَد. إنه لكم. منذ هذه اللحظة سيتغيّر كل شيء. ما هو السحر؟ إنه معرفة أنكم أحرار. أنتم أحرار! غنّوا! ارقصوا! طيروا! لقد بدأَتْ الحياة تواً ".

غونغ!

يتبع ذلك تعتيمٌ كامل.

لدى مغادرتنا قاعة الاستماع ينقضّ على آذاننا ضجيج الشارع المألوف. إنه ليس ضجيج وقع أقدام حافية على السُلّم الذهبي؛ إنه حتى ليس جلجلة السلاسل الذهبية التي أمالت التسلسل الهرمي للإنسان. إنه موت الجَلجلة. إنها جلجلة الموت. والذين رفضوا أنْ يتقدّموا ويُحدّدوا مطالبهم التي تنتظرهم يسلّمون الروح. هذه الجلجلة في الحنجرة، هذه الخرخرة، هذه الغرغرة التي تُثير القشعريرة الجديرة بشخص غريق هي موسيقى الغرفة الخاصة بالمهزومين.

إننا الآن نُصغي إلى الجزء الختامي من المقطوعة. إنها مصنوعة من النفاية ومن العلب الفارغة. وتخترقها ثقوب طلقات الرصاص التي تُعطي وهم البهجة. أهي موسيقى؟ نعم، تشبه مارشاً جنائزياً غريب الأطوار وينطوي على مفارقة تاريخية. عنوانها: "**Mort a Credit**" (الموت بالدَين).

أمشي خلال الأرض البور التي إلى يميني، يتصادف أنْ تكون صحراء غوبي، وبينما أفكر في آخر مليون أو مليونيّ شخص مذبوحين تحت أشعة قمرٍ بارد أقول لفاريز: "***الآن انفخ في نفيرك!***"

أي هدير يَصدُر في عالم يتمدَّد بارداً وميتاً! أهو موسيقى؟ لا أعلم. ولست في حاجة إلى أنْ أعلم. وآخر غرض سُرِقَ تواً. كل شيء هادئ على طول الجبهات الغربية، والشرقية، والجنوبية والشمالية. لقد وصلنا أخيراً إلى صحراء غوبي. لم نترك وراءنا غير الجوقة. وعناصر: الهليوم، والأكسجين، والنيتروجين، والكبريت، إلى آخره. الزمن يجري سريعاً. والمسافة تنطوي. ما تبقّى من الإنسان هو ***الإنسان*** الصِرف. وبينما القديم يتلاشى تُسمَع محطة إذاعة WNJZ في أوكلاند وهي تبث أغنية "إنه طريق طويل، طويل إلى تيبراري!". يعطس فاريز. يقول "**Allez-oop!**" (إلى الأمام!)، وننطلق...

حُلمي ببلدة موبايل

في ليلة قريبة، بما أنه لم يكن معي نقود لأشتري طعاماً آكله، قرّرت أنْ أذهب إلى المكتبة العامة وأبحث عن فصلٍ في كتاب شهير كنتُ قد وعدتُ صديقاً لي في واشنطن بأنْ أقرأه. عنوان الكتاب "***رحلات ماركو بولو***". كان الفصل مُكرّساً لوصف مدينة كين-ساي أو هانغ-تشو. الرجل الذي طلب مني أنْ أقرأ عن هذه المدينة الرائعة كان علاّمة: كان قد قرأ آلاف الكتب ولعله سيقرأ آلافاً أخرى قبل أنْ يموت. وقد قال لي ذات يوم على مائدة الغداء: " هنري، لقد اكتشفتُ تواً المدينة التي أودّ أنْ أعيشَ فيها. إنها هانغ-تشو من القرن الثالث عشر". دار هذا الحديث قبل نحو عام. وكنتُ قد نسيتُ أمره إلى أنْ كانت تلك الليلة التي شعرتُ فيها بالجوع. فبدل أنْ أتغذّى جسدياً قرّرتُ أنْ أُقيمَ وليمة روحية.

يجب أنْ أعترفَ بأني أُصِبتُ بالخيبة من ماركو بولو. لقد أضجرني. أذكرُ أني حاولتُ أنْ أقرأه قبل نحو ثلاثين عاماً وتوصلت إلى النتيجة نفسها. لكنَّ ما أثار اهتمامي هذه المرة كان المقدمة التي وضعها جون ميسفيلد للكتاب. يقول ميسفيلد " كان وسط آسيا، الزاخر بما هو رائع ومذهل، ويضجُّ بالأمم والملوك، أشبه بحلم في رؤوس الرجال ". لقد أعدتُ قراءة هذه الجملة مرات عديدة. إنها تُثيرني. كنتُ أودُّ لو أني أنا

مَنْ كتبها. لقد أثار ميسفيلد في ذهني ببضع ضربات من قلمه صورة فشل ماركو بولو نفسه، الذي شاهد روعة الشرق ورونقه، في رسمها- *بالنسبة إليّ*.

أودّ أنْ أقتطف بضعة أسطر أخرى من هذه المقدمة الرائعة لميسفيلد. إنَّ لها صِلة وثيقة بالرحلة التي قمت بها في أرجاء الولايات المتحدة - وبحلمي بموبايل.

" إنه لعمل رومانسي أنْ تتجول بين أشخاصٍ غرباء وتأكل من خبزهم بجوار نار مخيمات تقع في النصف الآخر من العالم. ثمة رومانسية تغلّفُ هذا العمل، على الرغم من أنَّ هذه الرومانسية غالى في تقديرها أولئك الذين ولَّدتْ حياة الرحيل فيهم مذاقاً زائفاً للإثارة. لقد تجول ماركو بولو بين أناس غرباء؛ ولكن من المُتاح لأي شخص (مع شيء من الشجاعة والقدرة على التحرُّك) أنْ يفعل الشيء نفسه. إنَّ التجوال بحد ذاته مجرد شكل من أشكال الانغماس في اللذات. فإذا لم يُضِف شيئاً إلى مخزون المعرفة الإنسانية، أو لم يُتِح للآخرين الحيازة الخيالية لجزءٍ من العالم، فإنه مجرد عادة خبيثة. إنَّ اكتساب المعرفة، وجمع الوقائع، عمل نبيل فقط عند أولئك الذين لديهم سر تحويل ذلك الطمي إلى ذهب أبدي عُلوي... وحده الرحالة الرائع الذي يرى عجيبة، وفقط خمسة رحالة في تاريخ العالم شاهدوا العجائب. أما الآخرون فقد شاهدوا طيوراً وحيوانات، وأنهاراً ونفايات، والأرض ثم الغِنى (المحلّي). الرحالة الخمسة هم هيرودوتوس، غاسبر، ملكيور، بالتازار[٧٧] وماركو بولو نفسه. إنَّ أعجوبة ماركو بولو هي- أنه ابتكر آسيا للذهنية الأوروبية... ".

عندما غادر ماركو بولو ميناء البندقية مع عمه كان في السابعة عشرة. وبعد ذلك بسبعة عشر عاماً عاد إلى البندقية وعليه أسمال. وبعد ذلك مباشرة تقريباً تطوّعَ في الحرب ضد جنوا، وأُسر، وخلال فترة سجنه ألّفَ الكتاب الذي سيُخلّد رحلته. أمر غريب، أَليس كذلك ؟ تخيَّل حالة عقله، وهو سجين في زنزانة، بعد أنْ عاش حلماً من عظمة وروعة. أخذت الجملة يتردد صداها كاللازمة "***عندما ذهب ماركو بولو إلى الشرق... كحلمٍ في رؤوس الرجال***". فكَّر في بالبوا[٧٨]، في كولومبوس، وفي أميريغو فيسبوسيوس[٧٩]! إنهم رجالٌ حلموا ثم أدركوا أحلامهم. رجال مملوءُون بالأعاجيب، بالاشتياق، وبالنشوة. يبحرون مباشرة نحو المجهول، ويعثرون عليه، يُدركونه، ثم يعودون إلى مستشفى المجانين. أو يموتون إثر إصابتهم بالحمّى وسط سراب. كورتيث، بونس دو ليون، ده سوتو! رجال مجانين. حالمون. متعصّبون. يبحثون عن الرائع. يبحثون عن المعجزة. يقتلون، يغتصبون، ينهبون. نبع الشباب. الذهب. الآلهة. إمبراطوريات. عظمة وروعة، نعم - ولكن أيضاً الحمّى، والجوع، والعطش، والسِهام المسمومة، والسراب، والموت. يبذرون الحقد والخوف. ينشرون مخاوف الإنسان الأبيض وخرافاته، وجشعه، وحسده، وخبثه، وقلقه.

عندما أبحر الإسبان غرباً... ولكن هذه قصة أخرى.

هجمة الذهب. الفرار الجماعي. خنازير الجرجسيين[٨٠]. تتمّة أحدثها خلفاؤهم، الأميركيون. وزالت العظمة والروعة. أصبح الآن يعمّها ضجيج المُحركات وصفّارات المصانع. لم تعد هناك عجائب، وانتهى البحث. وأُعيدَ الذهب إلى الأرض، عميقاً حيث لا يمكن لأي قنبلة أنْ تصل. لدينا

تقريباً كل ما هو موجود، وهو يتعفّن هناك، ولا أحد يستفيد منه، وأقلّ المستفيدين هم الذين يدّخرونه ويحرسونه بحياتهم.

" ***عندما ذهب ماركو بولو إلى الشرق...*** " يكفي أنْ ترتّل هذه العبارة حتى ينفتح أمامك ثراء الأرض. وتغرق المُخيّلة قبل أنْ تنتهي الجملة . آسيا. فقط آسيا، ويرتعش العقل. مَنْ يستطيع أنْ يرسم صورة آسيا بكل تفاصيلها؟ لقد أعطانا ماركو بولو آلافَ التفاصيل، لكنها أشبه بقطرة ماء في دلو. ومهما أنجز الإنسان منذ ذلك الحين، ومهما صنع من معجزات، فإنَّ كلمة آسيا تغمر ذاكرته بعظمة وروعة لا مثيل لهما. الأنبياء، الفقهاء، الحكماء، المتصوفون، الحالمون، المجانين، المتعصبون، الطغاة، الأباطرة، الغزاة، وكلهم أعظم مما شهدت أوروبا، جاؤوا من آسيا. الأديان، الفلسفات، المعابد، القصور، الأسوار، القلاع، اللوحات المرسومة، المنسوجات المُطرّزة، الجواهر، العقاقير، المشروبات، البخور، الملابس، المواد الغذائية، فن الطبخ، المعادن، المخترعات العظيمة، اللغات العظيمة، الكتب العظيمة، نظريات نشأة الكون العظيمة، كلها جاءت من آسيا. حتى النجوم جاءت من آسيا. كانت هناك آلهة وأنصاف آلهة- آلاف وآلاف منها. ورجال-آلهة. تجسُّد آلهة. أسلاف. لقد كانت آسيا مُلهَمة. وما زالت آسيا مُلهَمة. فإذا كانت آسيا في القرن الثالث عشر أشبه بحلم في عقول الرجال فهي اليوم هكذا وأكثر. آسيا أرض لا تنضب. هناك منغوليا، هناك التيبت، هناك الصين، هناك الهند. إنَّ تصوُّرَنا لتلك الأماكن، والشعوب التي تسكنها، والحِكمة التي يملكون، والروح التي تتغلغل فيهم، وكفاحهم، وأهدافهم، وإنجازهم يكاد يكون صِفراً. لقد ضاع مغامرونا ومكتشفونا هناك،

وفقهاؤنا هناك، ومبشرونا والمتحمسون والمتعصبون اختُزلوا ولم تعُد لهم أية أهمية، ومستعمرونا تعفّنوا هناك، وآلاتنا بدتْ ضعيفة هناك ولا أهمية لها، وجيوشنا ابتُلعَتْ هناك. إنَّ آسيا الشاسعة، المتعددة الأشكال، المتعددة اللغات، التي تغلي بالطاقة الجامحة، تارة راكدة، وطوراً متوثبة، ودائماً مُهدِّدة، دائماً غامضة، تُقزِّم العالم. إننا أشبه بعناكب تحاول أنْ تتعامل مع أشجار أرز عملاقة. إننا ننسج شباكنا، لكنَّ أقلّ اهتزاز من العملاق النائم الذي هو آسيا كفيل بتدمير عمل قرون. إننا نرهق أنفسنا، نستنزفها، لكنَّ الآسيويين يسبحون على صدر المحيط الهائل، ولا يتعبون، لا ينتهون، لا ينطفئون. إنهم يتحركون مع تيارات الأرض العظمى؛ ونحن نصارع عبثاً ضد المدّ. نحن نضحّي بكل شيء من أجل الدمار؛ وهم يُضحون بكل شيء من أجل الحياة.

حسن، *موبايل*... لنفرض الآن أنكَ في مكاني، أنكَ تعيشُ في باريس وراضٍ بالبقاء هناك حتى آخر حياتك. لنفرض أنكَ، لدى عودتكَ إلى غرفتك الصغيرة، وقفتَ بضع دقائق وما تزال تعتمر قبعتك وترتدي معطفك، وفي يدك قلم رصاص كبير وثخين، ودوَّنتَ في الدفتر الكبير أي شيء يخطر في بالك. طبعاً، إذا آويتَ إلى السرير وأسماء المدن يتردَّد صدى رنينها في رأسك، فسوف تراودك أحلام غريبة. قد يتراءى لك أحياناً أنكَ تحلم وعيناك مفتوحتان، ولستَ واثقاً إنْ كنتَ في السرير أو واقفاً عند الطاولة الكبيرة. وأحياناً، عندما تأمل في أنْ تُغمض عينيك وتستسلم لألذّ الأحلام الحسّية، تجد نفسك تصارع كابوساً. إليك المثال التقليدي التالي...

ثمة شخص تعتقد أنه أنتَ ينظر في المرآة. إنه يرى وجهاً لا يُميِّزه. إنه وجه شخص أبله. ويُصيبه الرعب وسرعان ما يجد نفسه في معسكر

اعتقال ويتلقّى الرفس كأنه كرة قدم. لقد نسي مَنْ يكون، ونسي اسمه، وعنوانه، وحتى شكله. إنه يعلم أنه مجنون. وبعد مرور سنين من أبشع أنواع العذاب يجد نفسه فجأةً عند المخرج، وبدل أنْ يُعاد إلى السجن تحت تهديد حربة، يُدفَع نحو الخارج إلى العالم. نعم، لقد تحرّر من جديد بفعل معجزة. إنَّ مشاعره لا توصَف. ولكن، بينما هو يتلفّت حوله، يُدركُ أنه ليست لديه أدنى فكرة عن المكان الذي هو فيه. قد تكون كوينزلاند، أو باتاغونيا، أو الصومال، أو روديسيا[٨١]، أو سيبيريا، أو ستاتن أيلند، أو موزمبيق - أو زاوية على كوكب مجهول. إنه تائه، أكثر مما كان في أي وقت من حياته. ويقترب منه رجل ويبدأ بشرح الورطة التي هو فيها، ولكن قبل أنْ يتمكّن من صياغة عبارة واحدة يجد أنه أضاعَ لغته أيضاً. ولحسن الحظ في تلك اللحظة يستيقظ...

إذا لم تكن قد مررت بمثل هذا النوع من الكوابيس جرّبه في وقت من الأوقات: سوف يجعل شعرك ينتصب، على الأقلّ.

لكنّ الحلم بموبايل أمر آخر، ولا أعلم لماذا أقرن بين الحلمين، ولكن لسببٍ غامض ما يقترن الاثنان فعلاً في ذهني. لعل لدى الفرويديين المتعالمين الجواب الشافي. يمكنهم أنْ يحلوا لغز أي شيء ما عدا مآزقهم الخاصة.

أعتقد أنَّ ما استفزني حقاً للحلم بموبايل وبأماكن أخرى في أميركا لم أكن قد زرتها كان الفضول الاستثنائي الذي أظهره صديقي ألفريد برليس[٨٢] عندما ورد ذكر اسم أميركا. كان يُمسكني من كُمّ قميصي أحياناً ويتوسل إليّ والدموع في عينيه كي أعِده بجدّية بأنْ أصطحبه معي إذا حدث وعدتُ إلى الوطن. وكانت ولاية أريزونا بالذات هي

المكان المولع به. ويمكنك أنْ تتحدث طوال الليل عن أعماق الجنوب أو البحيرات العُظمى أو حوض المسيسيبي وسوف يجلس جاحظ العينين، وفاغر الفم، والعرق يقطر من جبينه، ويبدو عليه الاستغراق التام، والانجراف التام. ولكن عندما تنتهي يقول بنضارة كزهرة الربيع: " ***والآن احكِ لي عن أريزونا!*** ". أحياناً، بعد أنْ أكون قد قضيتُ نصف الليل في الحديث، وأرهقتُ نفسي، وشربت ما يكفي لملء صهريج، يقول: "اذهب إلى السرير. تستطيع أنْ تتحدث في السرير. لن أعود إلى المنزل إلا بعد أنْ تحدثني عن أريزونا "، فأعترض قائلاً: " لكني أخبرتك بكل ما أعرف "، فيُجيب: " لا يهم، جوي، أريد أنْ أسمعه مرة أخرى "، وكأننا ثنائي مأخوذ من كتاب شتاينبك يدور بين ليني والرجل الآخر. كان نهماً إلى أريزونا. والآن هو " في مكان ما من سكوتلند "، مع رابطة الرواد، لكني أُقسم بالمسيح إنه إذا ما صادف أميركياً في ذلك المكان المهجور فإنّ أول ما سيقول هو " أخبرني عن أريزونا! ".

من الطبيعي أنه عندما تتمتَّع بمثل تلك الحماسة غير المحدودة لمكان تعرفه، مكان تعتقد أنك تعرفه، تبدأ بالتساؤل إنْ كنتَ تعرفه حقاً. إنَّ أميركا بلد شاسع المساحة، وأشكّ في أنَّ هناك مَنْ يعرفه كله. ومن الممكن أيضاً أنْ تعيش في مكان ولا تعرف عنه أي شيء، لأنكَ لا تريد أنْ تعرف. وأذكرُ صديقاً لي أتى إلى باريس لقضاء شهر العسل، فلم يُعجبه البتّة، وأخيراً جاءني ذات يوم ليطلب مني أنْ أُعطيه بعض أعمال الطباعة على الآلة الكاتبة ليقوم بها - لأنه لا يعلم كيف يُمضي وقته.

كانت هناك أماكن معيَّنة، مثل موبايل مرة أخرى، لم آتِ على ذِكرها في حضور برلس. موبايل التي أعرفها كانت برمّتها من بنات

أفكاري وأردتُ أنْ أستمتع بها وحدي. ويجب أنْ أؤكد أنني استمتعت أيما استمتاع بصدّ فضوله المُمعن. كان الأمر أشبه بزوجة تتأخّر في إبلاغ زوجها أنها أصبحتْ أماً. لقد أبقيتُ موبايل في الرحم، وأوصدتُ عليها بالقفل والمفتاح، فأخذت تنمو مع مرور الأيام، وأضحى لها ذراعان وساقان، ونما لها شَعر، وأسنان، وأظفار، ورموش عيون، كأي جنين حقيقي. ولو أني كنتُ أهلاً للوضع، لكانت ولادة رائعة. تخيَّل مدينة برمّتها تولد من حوض رجل! طبعاً الولادة لم تتم. فقد بدأتْ تموت وهي في الرحم، أعتقد أنه من قلّة الغذاء، أو لأني وقعت في حب مدن أخرى - دوم، سارلات، روكامادور، جينوا، وسواها.

كيف تخيّلتُ موبايل ؟ الحق أقول، أصبحت الصورة ضبابية كثيراً الآن. ضبابية، ومشوّشة، ولا شكل لها، ومتهالكة. ولكي أستعيد شعوري بها عليّ أنْ أذكر اسم ***الأميرال فاراغوت. الأميرال فاراغوت ينفث بخاره في مرفأ موبايل***. لابد أني قرأتُ هذا في مكان ما وأنا طفل. لقد علقَ في ذهني. وحتى يومنا هذا لا أعلم إنْ كان حقيقة أم لا - أي إنْ كان الأميرال فاراغوت نفث بخاره في مرفأ موبايل. حينئذٍ تقبّلت الأمر بداهةً، ولعلي بذلك أحسنتُ عملاً. لم يكن للأميرال فاراغوت صِلة بالصورة بأكثر من ذلك. ثم يتلاشى ***على الفور***. ما تبقّى من الصورة هي كلمة موبايل. موبايل كلمة مُخادعة. تبدو سريعة ومع ذلك توحي بالسكون - ***بالكمود***. إنها مرآة سائلة تعكسُ برقاً صفيحياً[٨٣] وأيضاً كأشجار مُنوّمة وأفاعٍ مُخدَّرة. إنها اسم يوحي بالماء، وبالموسيقى، والضوء والسُبات. وتبدو أيضاً نائية، منزوية بأمان، غريبة قليلاً، وإذا كان لها لون، فلونها حتماً أبيض. ومن الناحية الموسيقية

أقول إنها تُذكّر بالغيتار. ربما ليست حتى رنّانة إلى هذا الحدّ - لعلها تشبه الماندولين. على أية حال، هي موسيقى تؤدّى بالنقر على أوتار- تصطحبها فاكهة تتفجّر بالنضج وأعمدة رفيعة من الضوء أو الدخان. لا رقص، اللهم إلا رقص أشعة من ذرات الغبار، والوقع السريع الزوال لصعود المسيح والتبخُّر. البشرة دائماً جافة، على الرغم من الرطوبة المفرطة. صوت وقع الخفّ على السجادة، وسقوط المنظر الجانبي لأشخاص على ستائر نصف مُسدَلة. مناظر جانبية مموَّجة.

لم أفكر مرة في عمل يرتبط بكلمة موبايل. لا ***أحد فيها يعمل***. إنها مدينة مُحاطة بأصداف، أصداف فارغة متخلّفة عن ولائم سابقة. ثمة رايات في كل مكان وبقايا هشّة من مخلفات احتفال الأمس. هناك دائماً غياب للمرح، إنه دائماً يتلاشى، كسُحُبٍ تمسح مرآة. في وسط هذا الانزلاق تقع موبايل نفسها، شديدة التزمُّت، والتميُّز، جنوبية وليست جنوبية، كسول لكنها منتصبة القامة، قذرة ومع ذلك محترمة، برّاقة لكنها ليست شريرة. إنها موتسارت يعزف على الماندولين. وليست سيغوفيا[٨٤] يعزف لحناً لباخ. ليست حسناء ومرهفة بل مصابة بفقر دم. إنها حمى باردة. مسك. رمادٌ عطر.

في الحلم لم أتخيّل نفسي أَلِجُ موبايل راكباً سيارة. كالأميرال فاراغوت. رأيتني أنفثُ بخاراً في مرفأ موبايل، أولِّدُ طاقتي الخاصة. لم أفكر قط في أني سأمرّ بأماكن مثل مدينة باناما، وأبالاكيكولا، وميناء سينت جو، أو في أني سأقف على مسافة قريبة مذهلة من فالباريسو وبغداد، أو في أني باجتيازي ميللرز فيري سأكون في طريقي إلى ينابيع بونس دو ليون. لقد سبقني الإسبان بحلمهم بالذهب. فلابد أنهم تحركوا

كالبق وهم يخوضون مستنقعات فلوريدا. وعندما وصلوا بون سيكورس لابد أنهم كانوا قد أصبحوا مجانين تماماً- أعني، بإعطائهم لها اسماً فرنسياً. إنَّ الإبحار على طول الخليج شيء آسر؛ فكل الممرات المائية متقشّرة، إذا جاز لي أنْ أصفها هكذا. إنَّ الخليج هو دراما عظيمة من الضوء والبخار. السحب حُبلى ودائماً مزدهرة، كثمار قرنبيط في الحلم؛ أحياناً تنفجر كمثانات في السماء، تنثر رذاذاً من كروم الزئبق؛ وأحياناً تقطع الأفق مسرعة بسيقانٍ هشّة ونحيلة من الدخان. وفي بنساكولا شغلتُ غرفة مجنونة في فندق مجنون. حسبتُ أني عدتُ إلى بربينيان من جديد. مع حلول الغروب أطللتُ من النافذة فرأيتُ السُحب تتعارك؛ كانت تتصادم معاً كمناطيد مُعطّلة، مُخلّفةً ذيولاً طويلة من الحُطام المتشابك يتدلّى في السماء. بدا كأني على الحدود، وأنَّ عالمَين مختلفَين كل الاختلاف يتقاتلان للسيطرة. كان في الغرفة مُلصَق ضخم يعود تاريخه إلى أيام آلة الخياطة. تمدّدتُ على السرير وقبل أنْ أُغمض عينيّ استعرضتُ كل فظاعات فن المُلصقات المتلئة بالصراخ والصخب التي أغارتْ على رؤاي البريئة وأنا طفل. وفجأةً تذكّرت دولي فاردن - الله وحده يعلم لماذا! - وعندئذٍ انهال عليّ سيل كامل من الأسماء، وكلها من عالم المسرح، وكلها تُثير العواطف: إلسي فرغسون، فرانسيس ستار، إيفي شانون، جوليا ساندرسن، سيريل مود، جوليان إلتينغ، ميري كاهيل، روز كوغلان، كريستال هرن، ميني مادن فيسك، أرنولد دالي، ليسلي كارتر، آنا هلد، بلانش بيتس، إلسي جانين، والتن لاكاي، كيرل بيلو، وليم كوليير، روز ستال، فريتز شيف، مارغريت أنغلن، فرجينيا هارند، هنري ميللر، ووكر وايتسايد، جولي أوب، أيدا ريهان، سيسيليا

لوفتوس، أيرين فرانكلين، بن عامي، برثا كاليتش، لولو غلاسر، أولغا نذرسول، جون درو، ديفيد وارفيلد، جيمس ك. هاكيت، وليم فيفرشام، جو جاكسون، ويبر وفيلدز، فاليسكا سورات، سنافي سائق سيارة الأجرة، ريتشارد كارل، مونتغاومري و ستون، إيفا تانغواي، لافلاييت العظيم، ماكسين إليوت، ديفيد بيلاسكو، فيستا فيكتوريا، فيستا تيللي، روي بارنز، تشيك سيلز، نظيموفا، ماجسكا، ذا ديوس، إيدا روبنشتاين، لونور ألريك، ريتشارد بينيت وزوجته فائقة الجمال والعذوبة التي نسيت اسمها، والممثلة الوحيدة التي كتبتُ لها رسالة حب.

أكان فندق تالافاكس؟ لم أعد أتذكّر. على أية حال، كانت بنساكولا - ولكن من جديد لم تكن بنساكولا. كانت منطقة حدودية وكانت هناك دراما خيالية تجري أغرقت الأرض لاحقاً بأنواع العنف كلها. كانت نجمات المسرح يتسكعن جيئة وذهاباً على جفنيّ المُغمضَين، بعضهن بأثواب طويلة، وبعضهن يرتدين الديكولتيه (أثواب بأكتاف عارية)، بعضهن يضعنَ شعراً مستعاراً بلون أحمر كاللهب، وبعضهنّ يرتدين مشدّات مُخرّمة، بعضهن يرتدين البنطلونات، وبعضهن فاتنات، ولكنهن جميعاً يتخذن وضعياتٍ، ويومئن، ويتكلّمن بنبرة خطابية، وكلهن يتزاحمن على خشبة المسرح.

لم أتوقَّع قط وليمة تُثير الشهيّة كتلك وأنا أحلم بالإبحار في مرفأ موبايل. وكأني في عالم النسيان، وكأني أسبح على عتبة الحلم. وكنا قبل ذلك بيوم أو يومَين قد اجتزنا نهر سواني. وفي باريس حلمتُ بأني ركبتُ قارباً وأبحرتُ داخل مستنقع أوكيفينوكي، فقط لأستكشف النهر حتى منبعه. كانت خطة وهمية. ولو كان لا يزال أمامي مئة عام أخرى

أعيشها، بدل خمسين، فما أزال أريد أنْ أحققه، لكنَّ الوقت يضيق. ثمة أماكن أخرى يجب زيارتها- كجزيرة إيستر، وأرض بابوان العجائبية، وياب، وجوهور، وجزر كارولاين، وبورنيو، وباتاغونيا - التبت، والصين، والهند، وبلاد فارس، والجزيرة العربية- ومنغوليا. إنَّ أرواح الأجداد تُناديني؛ لا أستطيع أنْ أتغاضى عنهم أكثر من هذا. " ***عندما غادر هنري ميللر إلى التبت***..." أكاد أرى كاتب سيرتي في المستقبل يكتب هذا بعد مئة عام من الآن. ماذا حدث لهنري ميللر ؟ لقد اختفى. لقد قال إنه ذاهب إلى التبت. فهل وصل إلى هناك ؟ لا أحد يعلم... هكذا سيكون الأمر. اختفى في ظروفٍ غامضة. خرج مع حقيبتيّ أمتعة وملءِ صندوقٍ كبير من الأفكار. لكني سأعود ذات يوم، بثوبٍ آخر من اللحم. قد أفعل ذلك فجأةً، أيضاً، وأُدهِش الجميع. إنَّ المرء يبتعد فترة كافية ليتعلَّم الدرس. وبعضهم يتعلَّم أسرع من آخرين. أنا أتعلَّم بسرعة كبيرة. لقد انتهيت من أداء عملي في وطني كله. أنا أعلم أنَّ الأرض كروية، لكني أعلم أيضاً أنَّ هذه هي الحقيقة الأقلّ شأناً التي يمكن ذكرها عنها. أعلمُ أنَّ هناك خرائط للأرض تبيِّنُ بلداً اسمه أميركا. هذه أيضاً حقيقة غير هامة نسبياً. هل تحلم ؟ هل تترك locus perdidibus (مكانك البائس) الصغير وتنخرط مع سكان الأرض الآخرين ؟ هل تزور كواكب الأرض الأخرى، أو كائناً ما كان اسمها ؟ هل لديك الحافز النجمي ؟ هل تجد الطائرة شديدة البطء، شديدة الازدحام ؟ هل أنت مغنٍ جوّال يعزف على أوتار خرساء ؟ أم أنكَ ثمرة جوز هند تسقط إلى الأرض مع صوت مكتوم ؟ أودّ أنْ أتناول قائمة بمتعلقات الإنسان وأقارنها مع إنجازاته. أودّ أنْ أكون سيد السموات لمدة يوم واحد فقط وأُسقِطُ الأحلام كلها،

والرغبات، والأغراض العزيزة على الإنسان، مطراً. أودّ أنْ أراها تمدّ جذورها، ليس ببطء في مسار العصور التاريخية اللامتناهية، بل في الحال. فليحمِ الله أميركا! هذا ما أقول أيضاً، إذ مَنْ غيري قادر على فعل ذلك؟ والآن قبل أنْ أنطلق من موبايل عبر باسكاغولا أُقدم تحياتي إلى " فندق درجة ممتازة"، اللافاييت، في نيو أرورلينز:

" إليك يا مَنْ تلج هذه الغرفة كضيف، نحن الذين
ندير هذا الفندق نُحييك من قلوبنا.
قد لا نتوصل إلى معرفتك، ولكن مع ذلك نريد
منكَ أنْ تشعر أنَّ هذا " منزلٌ إنسانيٌّ "، وليس
مؤسسة بلا روح.
" هذا بيتك، سواء أكان فقط ليوم أم لليلة.
البشر يمتلكون بيوتاً.
البشر هنا يهتمون بك، يرتّبون السرير
وينظّفون الغرفة، ويردّون على الهاتف، ويؤدون
المهام نيابة عنك. ونعيِّن كائناً بشرياً في الاستقبال وكائناً
آخر ليحمل حقائبك. كلهم مخلوقون من لحم ودم، مثلك؛ لديهم اهتمامات،
أشياء يحبونها وأخرى يكرهونها، وطموحات، وأحلام وخيبات، مثلك.
سوف نوليك اهتمامنا. والقوانين السائدة هنا وُضِعَتْ من أجل حمايتك
وتأمين راحتك، وليس لإزعاجك. إنَّ القانون الجيد لفندق، كما لأي شيء

آخر، هو قانون ذهبي- افعل كما ترغب أنْ يحدث لك.

سوف نحاول أنْ نضع أنفسنا مكانك. ونتساءل " كيف أريد أنْ أعامَل

إذا نزلتُ في فندق؟ ".

ونحن نطلب منكَ أنْ تضع نفسك في مكاننا. قبل

أنْ تديننا، اسأل نفسك، " ماذا يمكن أنْ أفعل إذا أدرتُ فندقاً ؟ "

إذا فشلنا في أنْ نكون على مستوى ذلك المعيار، أخبرنا.

إننا نفترض أنَّ كل ضيف ينزل هنا هو سيد محترم، وكل امرأة سيدة محترمة. نحن نعتقد أنَّ الأميركي العادي إنسان دمث، هادئ، يرضخ للقانون، حريص على تجنب المشكلات، يُراعي الآخرين، ويرغب في تسديد ما عليه عندما يرحل.

نتمنى أنْ تكون في صحة تامة وأنت تحت سقفنا، ولا ينالك شر.

نتمنى أنْ تجد هنا راحتك، وجواً مرحاً، وأنْ تكون أيامك مملوءة بالنجاح،

بحيث يبقى مكوثك في هذا الفندق ذكرى سعيدة.

فليحفظك الله، أثناء فترة مكوثك الوجيزة معنا - ونتمنى أنْ نبثّك هذه الأفكار الطيبة- أيها الغريب، ونوفّر لك كل ما يرغب قلبك. وعندما ترحل، اترك لهذا الفندق شيئاً من الشعور بالامتنان "

(أي صديق لنا في يسوع! أمسحُ الدموع اللؤلؤية عن عينيّ، وأبصقُ كتلة كبيرة صحيّة، وأزيلُ بهدوء الصراصير التي خلّفتها في المبصقة في غرفة رقم ٢١٣. وأضع ملاحظة في ذهني لكي أُعيد قراءة كتاب أوسبنسكي[٨٥] "Tertium Organum"(العضو الثالث). هكذا فجأة!)

عدتُ إلى الدائرة الرابعة عشرة والسرير النقّال الذي أستلقي عليه ينفثُ بخاراً إلى خليج موبايل. والأنبوب المُستنزف مفتوح، والحارث يمسك بمحراثه. تحتي قشريات عصر الزنك والقصدير، وشقائق النعمان مُلتهمة القارت، وجلاميد الثلج الذائبة، وأسرّة الأصداف، وزهر الخطمي وقطع ضخمة من عرقوب الخنزير. شركة لوفتهانزا تعدّ رحلة حج إلى هاتسبرغ. الأميرال فاراغوت ميت منذ قرن. غالباً في ديفاشان. كل شيء مألوف، آلات المندولين بأنغامها المرتدّة، عطر الرماد، الصور الجانبية المموّجة، تحديق المرفأ الكامد. لا كدّ ولا دوار، لا غليان ولا إزعاج. المدافع تنظر نحو الأسفل إلى الخندق والخندق لا يتكلّم. البلدة بيضاء كالقبر. بالأمس كان عيد كل القديسين والأرصفة كلها مفروشة بنثار الورق الملوّن. الذين استيقظوا وخرجوا يرتدون ملابس بيضاء. أمواج الحر تصعد بزاوية مائلة، وأمواج الصوت تنتقل بارتجاف. لا قرع طبول، لا راتاتا، بل سلاب-سلاب، سلاب-سلاب. البط يطير فوق المرفأ، بمناقيره وذهبه وألوانه القزحيّة. قُدِّم مشروب الأفسنتين على الشرفة مع كعك مُسطّح وتفتُّح أزهار الببو. الغراب، الغُداف، والصافر اجتمعوا حول الفُتات. وكما كان في زمن شاؤول، وكما كانت الأيام لأهالي كولوسي والليالي للمصريين، كذلك الأمر اليوم. في الجنوب رأس هورن، وفي الشرق البوسفور. الشرق، الغرب، ساعة حائط، عكس عقارب الساعة، موبايل تدور كأسطرلاب خدِر. رجال يعرفون ظل شجر الباوباب يتأرجحون بتكاسُل على الأراجيح الشبكية. النسوة البرونزيات في المناطق الاستوائية المجردات من العِظام يحدودبن ويستقمن وهنّ يتهادين مارات. ثمة شيء يُذكّر بموتسارت، وبسيغوفيا، يسري في الجو.

ولاية مين تسهم بعذريتها، والجزيرة العربية تسهم بتوابلها. إنها دوامة خيل لا تُبدي حِراكاً، الأسود أنيسة، طيور الفلامنغو مستعدة للطيران. خُذ عصير الألوة، وامزج كبش القرنفل مع نبيذ البراندي، فتحصل على إكسير موبايل الروحي. لا وزن للوقت عندما تكون الأشياء مختلفة، والأيام كلها متشابهة. إنه يكمن في جيب، ومُشبَّع بالضوء، ويرتعش كأوتار منقورة. إنه متحرّك، سائل، ثابت، لكنه ليس مُثبّتاً بالصمغ. إنه لا يعطي أي جواب، ولا يطرح أي سؤال. إنه مُحيِّر بصورة معتدلة، ممتعة، كالدرس الأول باللغة الصينية أو الجولة الأولى مع منوِّم مغناطيسي. الأحداث تقع في تصريف الأسماء كلها معاً؛ ولا تُصرَّف أبداً. وما ليس غوغ هو ما غوغ - وعند الساعة التاسعة ***PUNKT*** (بالضبط) غابرييل دائماً ينفخ في بوقه. ***ولكن هل هذه موسيقى*** ؟ ومَنْ يهتم ؟ فالبط منزوع الريش، والهواء رطب، والمد ممتد والعنزة مقيَّدة بأمان. الريح قادمة من جهة الخليج، والأصداف من الروث. لا شيء مُفرط الإثارة بحيث يُغطي على نقر أوتار آلات المندولين. الحلزون ينتقل من شريحة خشبية إلى أخرى: قلوبه الصغيرة تنبض بسرعة، وأدمغته ممتلئة بالقمامة. بحلول المساء يغمر ضوء القمر الخليج كله. الأسود ما تزال مرتبكة بصورة أنيسة وكل ما يشخر، ويبصق، ويُدخّن ويهسّ مشكوم كما ينبغي. **C'est la mort du carrousel, la mort douce des choux-bruxelles.**

(إنه موت دوامة الخيل، الموت الرقيق لبراعم بروكسل)

يوم في المتنزّه

إنَّ هوليوود تُذكّرني بقوة بباريس بسبب خلوّ شوارعها من الأطفال. وفي الحقيقة، بما أني أتذكّر الآن، لا أتذكَّر أني شاهدتُ أطفالاً في أي مكان ما عدا في أحياء الزنوج في مدن معيَّنة في الجنوب. ولاسيما تشارلستن وريتشموند. أتذكّر صبياً في تشارلستن، ملوّناً في نحو الثامنة من العمر، لفتَ انتباهي بمشيته المختالة الوقحة. كان قزماً ضئيلاً، قصيراً، يرتدي بنطلوناً طويلاً وسيجارة غير مشتعلة تتدلى من زاوية فمه. تهادى إلى داخل مخزن العقاقير حيث كنتُ أتناول مشروباً، يبدو أمام العالم كله كأنه نسخة مُصغَّرة من سام لانغفورد[٨٦]. في أول الأمر حسبتُ أنه أحد قوم الليليبوت[٨٧]، ولكن كلا، كان مجرد صبي صغير، لا يتعدى من العمر السنوات السبع أو الثماني. لم يصل رأسه إلى أعلى البار، على الرغم من قبعة الرجال التي كان يعتمرها. وعلى الرغم من أنه كان يرفع نظره إلينا جميعاً، أعطى الانطباع بأنه ينظر نحو الأسفل، يستعرضنا وكأننا خضروات طازجة أو ما شابه. دار حول البار إلى حيث يقفُ الرجل مازج الماء مع الصودا وطلب منه بهدوء عود ثقاب. تظاهر الرجل بالغضب وحاول أنْ يُبعِده، وكأنه ذبابة خيل كبيرة. لكنَّ الصبي وقف ورفع بصره إليه مع تعبير تحدٍ فكه. كان يضع يداً في جيبه

وبيده الأخرى كان يُدير بحركة لا مبالية مجموعة من المفاتيح مُثبَّتة بخيط من القنّب. وعندما بدأ الرجل الواقف خلف البار يتخذ موقفاً أكثر تهديداً، أدار الصبي ظهره بهدوء له ومشى حتى منصب المجلات. كانت هناك سلسلة كبيرة من المجلات تسمّى "الهزليات" على الرف السفلي فوق رأسه مباشرة. مرّ على طول المجموعة، وهو يقرأ العناوين ببطء - كوكب، بطولي، إثارة، سبيد، سماش، غابة، مُثيرة، قتال، أجنحة، مذهل، حقيقي، ساحر، رائع، إلى آخره، إلى آخره - بدا أنها تشكيلة لا تنضب من الموضوع نفسه. وأخيراً انتقى واحدة وأخذ يتصفّحها بلا استعجال. وعندما وجد أنها ما يريد، تأبطها تحت ذراعه ثم، وهو يتقدّم عائداً ببطء إلى البار، انحنى لكي يلتقط عود ثقاب عثر عليه على أرض الحانة. عندما وصل إلى البار نقر قطعة نقدية عالياً في الهواء؛ قفزت على النضد ثم سقطت خلف البار. فعلها كأنه يقدّم عرضاً، بتبجُّح دقيق، مما أثار حنق الموظف إلى أقصى حد. في تلك الأثناء استعرضنا جميعاً من جديد بتلك الطريقة الوقحة، ثم قدح عود ثقاب الحانة على لوح رخام البار، وأشعل سيجارته. مدّ يده في انتظار تلقّي باقي النقود دون أنْ ينظر إلى الموظف، كرجل أعمال شارد إلى درجة أنه لا يعي وجود شيء تافه كباقي النقود. وعندما شعر بالبنسات على راحة يده أدار رأسه قليلاً وبصقَ على الأرض. وطبعاً بهذا حاول الموظف أنْ يُسدد ضربة إليه لكنه أخطأ، فقد قام الفتى بحركة هروب منزلقة باتجاه الباب. وهناك توقف هنيهة، وكشّر بوقاحة في وجوه الجميع وفجأةً وضع إبهامه على أنفه ساخراً منا. ثم أخذ ذيله بين أسنانه وانطلق كأرنبٍ مذعور.

لاحقـاً، أثناء تجوالي في أرجاء حي الزنوج مع راتنر، قـابلتـه من جديد، وهذه المرة كان يتكئ على عمود نور يقرأ مجلة "الهزليات" التي كان قد اشتراها. بدا مُستغرقاً تماماً، منفصلاً عن العالم. كانت قبعته مائلة إلى مؤخر رأسه ويضع عود خِلال في فمه. بدا أشبه بسمسار أنهى تواً يوماً مرهقاً في موقع سوق البورصة. وشعرت برغبة في أنْ أحضر له كأساً من الويسكي والصودا وأضعه في متناول يده من دون أنْ أزعجه. وتساءلت ما الذي يقرأ حتى يجعله مفتوناً هكذا. كان قد انتقى عدداً عنوانه " البرية " ذا غلاف شنيع يُصور فتاة شبه عارية بين أحضان حيوان غوريلا مهووس جنسياً. توقفنا على بُعد بضع أقدام لكي نراقبه. ولم يرفع بصره مرة واحدة؛ كان مُغلقاً تماماً في وجه العالم.

ما أشد تناقضه مع بروس وجاكلين، اللذين قابلتهما في ألبوكركي! كان بروس في السادسة وجاكلين يمكن القول إنها في نحو الرابعة. كانا طفليّ لويل ولونا سبرينغر اللذين كنت أقمت في فناء سيارتهما بضعة أيام. كان لويل يعمل في ستاندرد ستيشن في الطرف الغربي من البلدة؛ وزوجته، لونا، تدير سبيلاً للشرب عند مدخل الفناء. أناس بسطاء، طبيعيون، بدوا أنهم سعداء لمجرد أنهم أحياء. كان الحديث معهما متعة. كانا ذكيين وحسّاسين، وكريمين كأي إنسان عادي في العالم. فُتنت بهما ولاسيما الزوج الشاب لويل. فقد بدا لي أنه أطيب إنسان قابلته في حياتي. فلم يهتم إنْ كان يتصف بأية مزايا أخرى - طيبة قلبه كانت أشبه كالشراب المُنشِّط. صبره الاستثنائي ورقّته في التعامل مع الطفلين فازا بإعجابي. ومهما كان منشغلاً، وقد بدا أنه يعمل ساعات النهار والليل كلها، كان دائماً لديه وقت لكي يُجيب على أسئلتهما التي لا تُحصى أو لكي يُصلح دُماهما أو ليُحضرّ لهما مشروباً عندما يصخبان للحصول عليه.

كـان الطفـلان يلعبـان طوال النهـار في الفنا ء. وبعـد بعض الوقت، عندمـا وجـدا أني تركتُ بابي مـفـتوحـاً، أصـبحـا ودودَين وبدأا يـقـومـان بزيارتي. وسـرعـان مـا أخبـراني بأنَّ هناك مـتنزّهاً قـريبـاً يـحتـوي أسـوداً ونموراً وأراجيح وأكـواماً من الرمـال. كانا فائقيّ التـهذيب بحيث لم يطلبا مني صـراحة أنْ أرافـقـهـمـا إلى هناك، لكنهـمـا ألقـيـا إشـارات واضـحـة بطريقـتـهـمـا الصـبيـانيـة. سـألا: "هل أنت مـضـطر إلى العـمل طوال اليـوم وكل يوم ؟ "، قلت: " كـلا، ذات يوم سـآخـذ يوم إجـازة وأذهب لأشـاهد الأسـود والنمـور، أتوافـقـان؟ ". وفـرحـا فـرحـاً عظيـمـاً. وبعـد ذلك بـعـشـر دقـائق أطلّت جاكلين برأسـها من البـاب لكي تسـأل إنْ كنتُ سأعـمل أكثر من ذلك اليوم. قالت: " دعنا نركب سيارتك. إنها سيارة جميلة ".

كنتُ أخشى أنْ آخذهمـا بالسـيـارة لذا سـألتُ ليـونا إنْ كـانت تسـمح بأخـذهمـا سـيـراً على الأقـدام إلى المتنزّه – هل يسـتطيـعـان السـيـر تلك المسافة ؟ قالت: " أوه، يا إلهي، نعم، إنهما يسبقانني في السير".

عدتُ وأخبرت الصـغيـرَين أنْ يسـتعـدا. قال بروس " نحن مسـتعـدان. نحن فـي انتـظارك ". وبـهـذا أمـسـك الاثنان بـيـديّ وأخـذا يقـودانـني إلى خارج الفنا ء.

كان المتنزّه على بُعد نحو ميل، وقد مرحنا كثيراً ونحن نتظاهر بأننا أضعنا الطريق ثم اهتدينا إليه من جديد. كـانا يركـضـان ويـسـبـقـاني في معظم الوقت، ويسلكان دروباً مُختَصَرة خلال العشب النامي. ويهـتـفـان: "عجِّل! عجِّل! سوف يحين الوقت قريباً لإطعام الأسود ".

كـانت هناك أيـكة رائعـة الجـمـال من الأشـجـار نامـيـة في بقـعـة من الضـوء الذهبي، مـوقع لم أتوقع قط أنْ أعـثـر عليـه في ألبـوكركي. لقد

ذكّرني بمشهد في ديرين، ذهبيّ وأسطوريّ. ارتميتُ على العشب وراح الطفلان يقفزان في المكان كبهلوانين في سيرك. وعلى البُعد تناهى إليّ زئير الأسود. كانت جاكلين عطشى وراحت تلحّ عليّ لأقودها إلى النافورة. وأراد بروس أنْ يُساعد في إطعام الأسود. أما أنا فأردت ببساطة أنْ أبقى مستلقياً إلى الأبد وسط البحيرة الذهبية وأراقب المساحة الخضراء الجديدة تتحرك كالزئبق خلال أوراق الأشجار الشفافة. كان الطفلان يعملان على إقناعي كقزمين خرافيين يجتهدان لإيقاظي من نشوتي؛ كانا يُدغدغان طبلتيّ أُذنيّ بورقتيّ عشب ويُقحمانهما ويُخرجانهما وكأني فرس بحر بدين. رفعتهما فوقي وبدأتُ أقذفهما كجروَين صغيرَين.

توسلت إليّ جاكلين " أريد أنْ أشرب ماء، هنري"

قال بروس " إنه ليس هنري، إنه السيد ميللر"

قلت " ناديني هنري. هذا هو اسمي "

قال بروس " هل تعرف ما هو اسمي ؟ إنه بروس مايكل سبرينغر "

قالت جاكلين " وما اسمك أنت ؟ "

" اسمي هنري فالانتاين ميللر "

قال بروس " فالانتاين! هذا اسمٌ جميل. إنَّ اسم والدي هو لويل - واسم أمي لونا. كنا نعيش في أوكلاهوما. كان ذلك قبل عامَين. ثم انتقلنا إلى أركانساس".

قالت الصغيرة جاكلين، وهي تشد كُمّي لتجعلني أنهض على قدميّ، " ثم إلى ألبوكركي ".

سألتُ " هل يوجد هنا جِمال وفيلة ؟ "

قال بروس " فيلة ؟ ما هي الفيلة ؟ "

قالت جاكلين " أريد أنْ أشاهد النمور "

قال بروس " نعم، دعنا نشاهد الفيلة. أهي مروَّضة ؟ "

انتقلنا نحو باحة اللعب، والطفلان يتقدماني راكضَين ويصفقان بأيديهما مرحاً. وأرادت جاكلين أنْ توضَع على الأراجيح. وكذلك الأمر بروس. أجلستهما وبدأتُ أأرجحهما برفق. صاحت جاكلين " أعلى! أعلى! أعلى! ". رحت أهرع منتقلاً من أحدهما إلى الآخر وأدفعهما بأقصى ما في وسعي. خشيت أنْ تفقد جاكلين ثباتها. وصرخت " ادفع أكثر! "، وقال بروس " ادفعني *أنا* ! "

حسبتُ أني لن أتمكن من إنزالهما عن الأراجيح. قال بروس " كدتُ ألامس السماء، أليس كذلك ؟ أراهن على أنَّ والدي لا يستطيع أنْ يلامس السماء. كان أبي يجلبنا إلى هنا كل يوم. والدي.... " وراح يتكلّم عن والده. والدي هذا، ووالدي ذاك ".

قلت " وماذا عن لونا ؟ ماذا عن لونا ؟ "

قال بروس " إنها أمي "

قالت جاكلين " وهي أمي *أنا*، أيضاً "

قال بروس " نعم، هي أيضاً تأتي أحياناً. لكنها ليست قوية كوالدي "

قالت جاكلين " إنها تتعب "

كنا نقترب من الطيور والحيوانات. قالت جاكلين" أريد بعض الفول السوداني. أرجوك اشترِ لي بعض الفول السوداني، هنري ". قالت هذا بنبرة مُغرية.

سألتُ " هل معكما نقود ؟ "

قالت " كلا، أنت معك نقود، أليس كذلك ؟ "

قال بروس " والدي لديه الكثير من النقود. بالأمس أعطاني بنسَين"

سألتُ " وأين هما ؟ "

" أنفقتهما. إنه يُعطيني نقوداً كل يوم - كل ما أريد. إنَّ والدي يكسب الكثير من النقود. أكثر من لونا "

قالت جاكلين، وهي تضرب قدمها على الأرض، " أريد فولاً سودانياً! "

حصلنا على بعض الفول السوداني وبعض كيزان المثلجات والحبوب الهلامية وبعض العلكة. أكلا كل شيء فوراً وكأنهما يُعانيان الجوع.

كنا واقفين أمام الجمال العربية، فاقترحتُ على جاكلين، " أعطها بعضاً من مثلجاتك "، لكنها رفضَتْ. قالت إنها ستمرض. ولاحظتُ أنَّ بروس كان يُعجِّل في التهام نصيبه من المثلجات.

قلت " قد نعطها بعض البيرة "

قال بروس بلهفة " نعم، نعم، هيا نُعطها بعض البيرة "، وكأنَّ هذا هو التصرُّف المعتاد. ثم سكت ليفكِّر. سأل " ألا تثمل؟ "

قلت " طبعاً، إنها تثمل جداً "

سأل بابتهاج " إذاً ماذا ستفعل ؟ "

" ربما ستقف على أيديها أو... "

قال " وأين هي أيديها ؟ أهذه هي أيديها ؟ "، وأشار إلى قوائمها الأمامية.

قلت " إنها تضع أيديها في جيوبها الآن، وتعدّ نقودها "

ولمعت فكرة في رأس جاكلين. سألت " وأين جيوبها ؟ ". سأل بروس " وما حاجتها إلى النقود ؟ "

سألتُ " وما حاجتكَ أنتَ إلى النقود ؟ "

" لكي أشتري حلوى "

" حسن، ألا تعتقد أنها **هي** تحب أنْ تشتري حلوى، أيضاً، مرةً كلّ حين ؟ "

قالت جاكلين " وهي تستطيع أنْ تتكلّم أيضاً! "

التفتُّ إلى بروس " أتسمع! وتستطيع أنْ تُصفّرٍ "

قالت جاكلين " نعم، تستطيع أنْ تصفّر. أنا سمعتها مرة "

قال بروس " اجعلها تصفّر الآن "

قلت " إنها مُتعبة الآن "

قالت جاكلين " نعم، إنها مُتعبة جداً الآن "

قال بروس " إنها لا تُحسِن الصفير "

قالت جاكلين " بل تستطيع أنْ تصفّر "

قال بروس " لا تستطيع! "

قالت جاكلين " بل تستطيع! ألا تستطيع، يا هنري ؟ "

تابعنا الطريق إلى حيث الدببة والثعالب وحيوانات البوما واللاما.

كان لابد لي أنْ أتوقف لأقرأ ما كُتِبَ عنها لأجل بروس.

سأل، بعد أنْ قرأتُ له عن النمر البنغالي، " أين تقع الهند ؟ "

أجبتُ " الهند تقع في آسيا "

" وأين تقع آسيا ؟ "

" آسيا هي في الطرف المقابل من المحيط "

" أهي بعيدة كثيراً ؟ "

" نعم، بعيدة جداً "

" كم من الوقت يستغرق الوصول إليها ؟ "

قلت " أوه، نحو ثلاثة أشهر "

سألَ " بالسفينة أم بالطائرة ؟ "

قلت " اسمع، بروس، كم من الوقت في اعتقادك يستغرق الوصول إلى القمر؟"

قال " لا أعلم. ربما أسبوعين. لماذا، هل يذهب الناس إلى القمر أحياناً؟ "

قلت " ليس كثيراً "

" وهل يعودون ؟ "

" ليس دائماً "

" كيف هي الحياة على القمر؟ هل سبقَ لك أنْ ذهبتَ إلى هناك ؟ هل الجو بارد ؟ هل لديهم حيوانات هناك كما هنا - وعشب وأشجار ؟ "

" إنَّ لديهم كل شيء، يا بروس، تماماً كما هنا. وفول سوداني، أيضاً "

قال " ومثلجات ؟ "

" نعم، لكنّ مذاقها مختلف"

" وكيف هو مذاقها؟ "

" مُذاقها يُشبه مذاق العلكة "

" تعني أنها لا تذوب ؟ "

قلت " كلا، إنها لا تذوب أبداً "

قال " هذا غريب. ولماذا لا تذوب؟ "

" لأن قوامها مطاطيّ"

قال " أنَا أُفضّل هذه المثلجات. أحبها أنْ تذوب "

انتقلنا إلى حيث تُحجَز الطيور. شعرتُ بالأسى على النسور والكوندور وهي قابعة في أقفاص صغيرة. كانت تجلس كئيبة في مجاثمها وكأنها تعلم أنَّ أجنحتها تضمر. لقد كانت طيوراً ذات ريش رائع تقفز في المكان كالسناجب؛ جُلِبَتْ من بقاع نائية من العالم وبدتْ غريبة كالأماكن التي جاءت منها. وكانت هناك طواويس أيضاً، تتسم بالغرور الفظيع لنساء المجتمع، اللائي لا فائدة تُرجى منهن للمجتمع غير أنْ يستعرضن سوقيَّتهن. طيور النعام كانت أكثر إثارة للاهتمام- يمكن القول إنها خشنة - تتصف بشخصية قوية وبالكثير من الخبث. ومجرّد النظر إلى أعناقها الطويلة، القوية، جعلني أفكّر في الأنابيب المعدنية، وبالزجاج المكسور وأشياء أخرى لا تصلح للأكل. افتقدتُ حيوان الكنغر والزرافة، تلك المخلوقات البائسة، والمرتبطة بقوة بحياتنا الشديدة التعلُق بالرحم. وكانت هناك ثعالب أيضاً، وهي مخلوقات لم أرَ يوماً أنها تتسم بالخبث الشديد، ربما لأني لم أشاهدها إلا في معارض تماثيل الحيوانات. وأخيراً وصلنا إلى ملوك الغاب وهي تخطو بقلق جيئة وذهاباً كالمهووسين الأحاديين. كانت مشاهدة أسد ونمر محبوسين في قفص بالنسبة إليّ من أشد مشاهد العالم قسوة. فالأسد يبدو حزيناً حزناً يفوق الوصف، يبدو محتاراً أكثر منه حانقاً. ويرغب المرء بقوة بفتح باب القفص وتركه ينطلق بسرعة مسعورة. إنَّ مشهد أسد في قفص يجعل الجنس البشري يبدو دائماً بصورة ما خسيساً ووضيعاً. وكلما رأيتُ أسوداً ونموراً في حديقة

الحيوان أشعر بأنَّ علينا أنْ نصنع أقفاصاً للبشر أيضاً، واحداً من كل نوع وكل في محيطه المناسب: الكاهن مع مذبحه، والمحامي مع كتب القانون الضخمة والسخيفة، والطبيب مع أدوات التعذيب الخاصة به، والسياسي مع حقيبة نقوده ووعوده الصارخة، والمعلّم مع قلنسوته البلهاء، والشرطي مع هراوته ومسدسه الطويل، والقاضي مع أروابه النسائية ومطرقته، إلى آخره. ويجب أنْ يكون هناك قفص منفصل للأزواج، لكي يتمكنوا من دراسة نعيمهم الزوجي بتجرُّد وحيادية. كم سنبدو مُثيرين للسخرية إذا وُضِعنا في معرض! الطاووس الإنساني! بلا مروحة مُرصّعة يُخفي بها شكله الجبان! سوف نشكّل حفنة من المخلوقات الضاحكة.

حان وقت العودة إلى المنزل. اضطررتُ إلى انتزاع الطفلَين برفق من المكان. ومن جديد مشينا تحت أوراق الشجر الخضراء النضرة ووقفنا في الضوء الذهبي. وفي القرب جرى نهر ريو غرانده، بحوضه المنثور بكتل الصخر اللامعة. وكانت تحيط بسهل ألبوكركي العريض دائرة عظيمة من التلال التي تتلبّس مع حلول الغروب تشكيلة من الألوان المتدرّجة المذهلة. نعم، إنها أرض ساحرة، ليس بسبب ما هو مرئيّ بل ما هو خفيّ في السهوب الجرداء. وأثناء سيري مع الطفلين في ذلك المدى الشاسع فكرّت فجأةً في ذلك الكاتب الجنوبي، الشاعر الذي كتب عن اختطاف الأطفال، والرحلة الرائعة، الغريبة فوق السهول المعشوشبة تحت ضوء القمر الساحر. وتساءلت كيف ستكون الرحلة إذا قطعت ما تبقى منها مع بروس وجاكلين الآن. كم ستكون تجربتي مختلفة! وكم ستكون الأحاديث ممتعة! وكلما أمعنت التفكير فيها، زادت رغبتي في استعارتهما من أبويهما.

في الحال، لاحظتُ أنَّ التعب قد بدأ ينال من جاكلين. فجلست على صخرة وراحت تنظر حولها بحزن. وكان بروس يتقدمنا راكضاً ويقوم ببعض الاستكشافات. سألتُ جاكلين " أتريدين أنْ أحملك؟ "، قالت "نعم، هنري، احملني من فضلك، أنا مُتعبة جداً "، وهي تمد ذراعيها نحوي. رفعتها ووضعتُ ذراعيها الصغيرين حول عنقي. وفي اللحظة التالية ترقرقت الدموع في عينيّ. كنتُ سعيداً وحزيناً في وقت واحد. وفوق كل شيء شعرتُ برغبة في التضحية بنفسي. إنَّ عيش المرء حياته من دون أطفال يعني أنْ يحرم نفسه من عالم الانفعالات العظيم. وذات يوم حملتُ طفلتي هكذا. وكلويل سبرينغر حقّقتُ لها رغباتها كلها. كيف يمكن للمرء أنْ يرفض أمراً لطفلة ؟ كيف يمكن له أنْ يكون إلا عبداً لتلبية أوامر لحمه ودمه ؟

كان مشوار العودة إلى المنزل طويلاً. اضطررتُ أنْ أنزلها بين حين وآخر لكي ألتقط أنفاسي. كانت حينئذٍ قد أضحت شديدة الحياء، إلى درجة الغنج. كانت تعلم أنها جعلتني تحت رحمتها.

سألتُ، أختبرها، " هل تستطيعين السير باقي الطريق، يا جاكلين؟"

" كلا، هنري، أنا متعبة جداً "، ومدت ذراعيها من جديد نحوي تناشدني.

يا لذراعيها الصغيرين! إنَّ ملمسهما على عنقي ذوّبني تماماً. طبعاً هي لم تكن مُتعبة كما ادّعت. كانت تمارس سحرها الأنثوي عليّ، هذا كل ما في الأمر. وعندما وصلنا المنزل وأنزلتها، بدأتْ تثب بنشاط في المكان كمهر. وعثرنا على دمية منبوذة في خلفية المنزل. لقد أحياها كما السِحر اكتشافُ شيء غير متوقَّع كانت قد نسيت أمره تماماً. ودمية

قديمة أفضل بكثير من واحدة جديدة. حتى بالنسبة إليّ أنا الذي لم ألعب بها قط كان لها سِحرٌ سريّ. بدا كأنَّ ذكريات ساعات سعيدة كامنة فيها. وحقيقة أنها متهرئة وخربة أثارت شعوراً بالدفء والرقّة. نعم، أصبحت جاكلين حينئذٍ سعيدة جداً. لقد نسيتْني كلياً. لقد عثرت على حبٍ قديم.

راقبتها بافتتان. بدا أنَّ من الصدق والعدل أنْ تنتقل هكذا من شيء إلى آخر من دون تفكير أو اعتبار. إنها هِبة يشترك بها الأطفال عموماً مع الحكماء. إنها هِبة النسيان. هِبة التجرُّد. عدتُ إلى الكوخ وجلستُ هناك أحلم على امتداد ساعة كاملة. وفي الحال وصل ساعي بريد فتى حاملاً إليّ نقوداً. أعادني هذا إلى الحياة، إلى عالم القيم الإنسانية الهزلي. المال! الكلمة بحد ذاتها تبدو لي مجنونة. لقد بدت لي الدمية المكسورة وسط ركام القمامة أثمن بما لا يُقاس وأكثر غِنى بالمغزى. وفجأةً أدركتُ أنَّ ألبوكركي هي بلدة المخازن التجارية والمصارف وعروض الصور المتحركة. بلدة كأي بلدة أخرى. تلاشى عنها السِحر. وبدأتْ الجبال تتخذ مظهراً سياحياً. وبدأتْ تُمطِر. لم تُمطِر قط في مثل ذلك الوقت من العام في ألبوكركي. لكنها أمطرتْ مع ذلك. سيولاً. وتحولت الفسحة الصغيرة حيث كان الطفلان يلعبان إلى بركة ماء ضخمة. وتغيَّر كل شيء. وبدأتُ أفكر في المصحات وفي الرئات الضامرة، وفي الكؤوس الصغيرة التي تضعها شركات الطيران بشكلٍ مناسب بجوار مقعدك. وبين الأكواخ هطلت ستائر متواصلة من المطر بشكلٍ منحرف. ران الصمت على الطفلين وغابا عن الأنظار. وأُلغي المشوار. لم يبق هناك فرح ولا حزن- فقط إحساس بالفراغ.

لحن باساكاغليا عن سيارة

أشعر برغبة في تأليف لحن باساكاغليا قصير الآن عن أشياء تتعلّق بالسيارة. فمنذ أنْ قرّرت أنْ أبيع السيارة وهي تسير كأحسن ما يكون. تلك الملعونة تتصرّف كامرأةٍ مغناج.

في ألبوكركي، حيث قابلت خبير السيارات ذاك، هيو دتر، كان كل شيء فيها متعطّل. أحياناً أعتقد أنَّ العطل كله سببه الريح الخلفية التي جرفتني خلال أوكلاهوما كلها ولسان تكساس. هل سبق أنْ ذكرت حادثة السكران الذي حاول أنْ يوقعني في خندق؟ لقد كاد يُقنعني بأني أضعت المولّد. وطبعاً خجلت من سؤال الناس إنْ كان مولّدي مفقود، كما قال، ولكن كلما أُتيحَت لي الفرصة لأفتح موضوعاً مع عامل المرأب إذا بي أتحول إلى موضوع المولّد، آملاً أولاً وقبل أي شيء في أنْ يُريني أين كان ذلك الشيء اللعين مختفياً، وثانياً في أنْ يُخبرني ما إذا كان في وسع السيارة أنْ تعمل من دونه. لم تكن لديّ إلا فكرة مُبهمة عن أنَّ للمولّد صِلة بالبطارية. لعلّ لا صِلة هناك، ولكني ما أزال أعتقد ذلك.

إنَّ ما أجده ممتعاً في زيارة عمال المرأب هو أنَّ كلاً منهم يُناقض الآخر. تماماً كما في مجال الأدوية، أو مجال النقد الأدبي. ففي الوقت الذي تعتقد أنَّ لديك الجواب تجد أنكَ مخطئ. يقوم رجل ضئيل بالعبث

بالآلة مدة ساعة ويطلب منك بحياء قطعة نقد، وسواء أقام بالعمل الصحيح أم لا فإن السيارة تمشي، في حين أنَّ محطات الخدمة تضعها في موقع التصليح بضعة أيام، ويفككونها إلى أجزاء وذرات، ثم فجأةً إذا بها تعمل بضعة أميال وبعد ذلك تنهار.

هناك شيء أريد أنْ أنصح به كل مَنْ يُفكّر في القيام برحلة عبر القارة: احرِص على أنْ يكون معك "عفريت" سيارة، ومفتاحاً إنكليزياً وعتلة. سوف تجد ربما أنَّ المفتاح الإنكليزي لا يتناسب مع العزقات ولكن لا يهم؛ فبينما تتظاهر بأنكَ تعمل بها يتوقف أحدهم ويُقدم لك يد المساعدة. وقد اضطررتُ إلى أنْ أعلق وسط مستنقع في لويزيانا قبل أنْ أدرك أنه ليس في حوزتي أدوات. واستغرق مني نصف ساعة لأدرك أنه إنْ كان هناك أي شيءٍ منها فإنها مخفيّة تحت المقعد الأمامي. وإذا وعدك شخص بأنه سيتوقف في البلدة التالية ويُرسل أحدهم ليسحبك فلا تصدّقه. واسأل الرجل التالي فالتالي فالتالي. واظب على الاستمرار وإلا ستبقى جالساً على حافة الطريق حتى يوم الدين. ولا تقُل أبداً أن ليست لديك أدوات - فذلك يُثير الشبهات، وكأنك سارق للسيارة. قُلْ إنك أضعتها، أو إنها سُرِقَتْ منك في شيكاغو. وشيء آخر - إذا كنتَ ثبّتَّ الدولابين الأماميين تواً لا تعتبر بداهة أنهما متينان. توقف في المحطة التالية واطلبْ شدَّ العُرى، وبعدئذٍ سوف تتأكّد من أنَّ دولابك الأمامي لن ينحلّ عن مكانه في منتصف الليل. ضعْ في حسبانك أن لا أحد، ولا حتى عبقري، يمكنه أن يضمنَ لك أن سيارتك لن تتفكّك بعد خمس دقائق من فحصه لها. إنَّ السيارة هي أرقّ من ساعة سويسرية. وأكثر شيطانيّة بكثير، إذا فهمت قصدي.

إذا لم تكن تعرف الكثير عن السيارات فمن الطبيعي أن ترغب في أخذها إلى محطة خدمات كبيرة عندما يقعُ خطأ. وهذا طبعاً خطأ فادح، ولكن من الأفضل أن تتعلَّم من التجربة فضلاً عن الإشاعة. إذ ما أدراك أن الرجل القميء الذي يبدو وكأنه يتلهَّى بالعمل إنما هو ساحر؟

على أية حال، اذهبْ إلى محطة الخدمة. وسترتطم على الفور برجلٍ يرتدي سمَّق جزّار، رجل يمسكُ بيده إضمامةَ ورق ويضعُ قلم رصاص خلف أذنه، ويبدو على قدرٍ عالٍ من الحِرَفيّة والنشاط، رجلٌ لا يُطمئنك بشكلٍ كامل على أنَّ السيارة سوف تكونُ على أحسن ما يرام بعد تمام العمل لكنّه يُعلنُ أنَّ الخدمةَ لا تشوبها شائبة، ومن أحسن عيار، وما شابه ذلك. إنهم جميعاً يتَّسمون بسِمة الجرّاحين، مقاولو صناعة السيارات أولئك. كأنَّ لسان حالهم هو، إنك في الواقع قد جئتَ إلينا على آخر رمق، وليسَ في مقدورنا أن نُحقِّقَ المعجزات، ولكن لدينا خبرة عشرين أو ثلاثين عاماً وفي وسعنا أن نزوِّدكَ بأفضل المراجع. وكما يحدث مع الجرَّاح، ينتابكَ شعورٌ، حين تعهد بالسيارة إلى يديه الشديدتيّ النظافة، بأنه سوف يتّصل بك هاتفياً في منتصف الليل، بعد أن يكونَ المحرِّك قد تفكَّك والمحاملَ تناثرت في كل مكان، ويقولُ لك إنَّ في السيارة عطلاً أشدّ فداحةً مما كان قد توقَّع في البداية. شيء خطير، ماذا! يبدأ الأمرُ بحالةِ رئتين مريضتين وينتهي باستئصال الزائدة الدودية، والمرارة، والكبد والخصيتين. والفاتورة دائماً صحيحة بلا أي جِدال وتحملُ رقماً لا أقلّ من مُرعب. كل شيء مجدول، ما عدا نوعية ذكاء كبير العمال. وتقومُ غريزياً بوضع السيارة جانباً بأمان لتقدِّمها إلى المستشفى التالي عندما تتعطَّل من جديد؛ وترغبُ في أن تكونَ قادراً على أن تُثبت أنك كنتَ تعرفُ طوال الوقت خطب السيارة.

بعد أن تمرَّ ببضع تجارب من هذا النوع تصبح حذِراً، أي إذا كنتَ بطيء الفهم مثلي. وبعد أن تمكثَ في البلدة فترةً من الوقت وتصبحَ معروفاً، وتشعرُ أنك بين أصدقاء، وتستطلع، تعلم أن بالقرب من محطة خدمة كبيرة هناك شخصٌ (مكانه دائماً يقعُ في خلفيّة مكانٍ آخر ولذلك من الصعب العثور عليه) لوذعيّ في إصلاح الأشياء ويطلب مبلغاً ضئيلاً لا يكادُ يُذكرُ مقابل خدماته. وسيقولون لك إنه يعاملُ " **الجميع** " هكذا، حتى أولئك الذين يحملون لوحات إجازة عليها كلمة "**أجنبي**".

حسنٌ، هذا ما حدثَ لي بالضبط في ألبوكركي، والفضل في ذلك إلى الصداقةَ التي عقدتُها مع الدكتور بيترز الجرّاح العظيم وال **bon vivant** (المُحب لأطايب الحياة) أيضاً. فذات يوم، حين لم يكن لدي ما هو أفضَل لأقومَ به- أحد تلك الأيام التي تعملُ خلالها على تذكُّر أرقام الهواتف أو تذهبُ لتنظّف أسنانك - ذات يوم، كما قلت، والدنيا تمطِر سيولاً قرَّرتُ أنْ أستشيرَ صاحب العقل الجبار، باركر عالَم السيارات الذي لا يكلُّ: هيو دتر. العطلُ ليس خطيراً جداً - مجرد حرارة عالية مستمرة. العاملون في محطة الخدمة لم يُعلّقوا كبير أهمية على ذلك - وعزوه إلى المنطقة المرتفعة، وإلى عمر السيارة وما إلى ذلك. وأعتقدُ أنه لم يكن هناك ما يفوقُ قدرتهم على الإصلاح والتبديل. ولكن عندما تُصابُ سيارةٌ في يومٍ باردٍ وممطرٍ بحمّى تتراوح بين ١٧٠ إلى ١٨٠ فلابد من أن يكونَ هناك عطلٌ ما، في تقديري. فإذا كانت تلك حرارتها على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم فكم ستكونُ حرارتها على ارتفاع ٧٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ قدم؟

وقفتُ في ممر باب ورشة إصلاح مدةً تقاربُ الساعة في انتظار عودة دتر. فقد كان قد ذهب ليأكل لقمة مع بعض الأصدقاء، ولم يحلم بأن

يكونَ في انتظاره أي زبون وسط تلك السيول المنهمرة. وقد أمتعني مُساعده، الذي كان من كنساس، بسرد حكايات عن خوضِه في مياه الفيوض في كنساس. كان يتكلّم وكأنَّ ليس لدى الناس ما يفعلونه عندما تُمطر أفضل من ممارسة تلك المناورات الخطرة بسياراتهم العتيقة. وقال إنَّ حافلةً عَلِقَتْ في مياه نبع نهر وانقلبتْ، وجَرَفَتْها مياه السيل ولم يتم العثور عليها قط. لقد كان يحب المطر - يجعله يشعر بالحنين إلى الوطن.

سرعان ما وصلَ دتر. وكان عليَّ أن أنتظر ريثما يتوجَّه إلى أحد الرفوف ويُرتِّب من شأنِ بعض القطع الثانوية. وبعد أن شرحتُ له بارتباك متاعبي حكَّ رأسه على مهل وبدون حتى أن ينظرَ باتجاه المحرِّك قال: " في الحقيقة، قد تكون هناك أسبابٌ كثيرةٌ لسخونتها معك بهذا الشكل. هل غلي المشعاع؟ "

قلت له نعم - في مدينة جونسن، ولاية تنيسي.

قال " منذ متى ؟ "

" قبل بضعة أشهر؟ "

" فهمت. حسبتُكَ ستقول قبل بضع سنين "

كانت السيارة ما تزالُ واقفةً في الخارج تحت المطر. قلتُ، مخافةَ أن يفقدَ اهتمامه بالقضية، " ألا تريد أن تتفحَّصها ؟ "

قال " يمكنك أن تدخلها. لا ضيرَ في إلقاء نظرة. تسعة إلى عشرة هو المشعاع. ربما لم يقدِّموا لك عملاً جيداً هناك في كليفلند"

صحَّحتُ له " مدينة جونسن! "

أمَرَ مساعده كي يدخلها "حسنٌ، مهما كان اسمها"

أدركت أنه لم يكن مُتحمِّساً كثيراً للعملية: لم يبدُ أنها تعاني ما يشبه انفجار المرارة أو تضخُّم في الساقين. وقلتُ في نفسي - الأفضل أن تدعه وشأنه بعض الوقت؛ ربما عندما يبدأ بالعبث يتولَّد لديه شيءُ من الاهتمام. لذا استأذنتُ منه وانطلقتُ لأتناولَ لُقمة.

قلت " سأعودُ حالاً "

أجاب " لا عليك، لا داعي للعجلة؛ قد يستغرقُ اكتشاف العطل ساعات طويلة"

تناولتُ وجبةً صينيّة وفي طريق عودتي تلكأت قليلاً لأفسح له المجال كي يتوصل إلى التشخيص الصحيح. ولكي أقتل بعض الوقت توقفت عند "غرفة التجارة " وسألتُ عن حالة الطرق الموصلة إلى ميسا فيرده وعلمتُ أنه في نيو مكسيكو لا يمكنك أن تعرف حالة الطرق بالاطّلاع على الخريطة، وذلك لسببٍ وحيد هو أنَّ خريطة الطرق لا تقول كم عليك أن تدفع إذا علِقتَ في طمي عميق وتوجَّبَ جرُّكَ مسافة خمسين أو خمسة وسبعين ميلاً. وهناك بونٌ شاسع ما بين الطرق المُحصَّاة والطرق المهَّدة. وأذكر في نادي السيارات في نيويورك ذلك الرجل الذي تناولَ قلماً أحمرَ مُزيِّتاً وعلَّمَ به لي طريقَ عودتي وهو يردُ على الهاتف ويصرف شيكاً.

قال الرجل: " ميسا فيرده لن تفتح رسمياً إلا قرابة منتصف شهر أيار. لن أغامر بعد. إذا هطلَ علينا مطر دافئ لا أحد يعلم ماذا سيحدث".

قررتُ أن أذهب إلى أريزونا، إلا إذا أصبتُ بتقرُّح مفاجئ في اليدين والقدمين. وإن كنت قد أصبت بشيء من الخيبة لأني لن أشاهد شيبروك والأزتك.

حين عدتُ إلى المرأب وجدت وتر منحنياً فوق المُحرِّك؛ وكان يضعُ أذنه على المحرِّك، مثل طبيبٍ يتفحَّصُ رئة ضعيفة. ومن الأجزاء الحيوية تدلّى مصباح كهربائي موصول بسلكٍ طويل. إنَّ مرأى المصباح الكهربائي دائماً يبثُّ بي الطمأنينة. إنه يعني العمل. مهما يكن، كان غائصاً في أحشاء ذلك الشيء وقد توصَّلَ إلى نتيجةٍ ما - كما بدا.

غامرتُ بطرح سؤال خائف " ألمْ تكتشف العطل بعد؟ "

قال " كلا " وهو يدفن رسغه داخل كتلةٍ مُشوشة من الأشياء الغريبة الهادرة المُعقَّدة تشبه جزءاً حقيقياً من السيارة. وكانت تلك المرة الأولى التي أشاهد فيها ذلك الذي يجعلُ السيارة تعمل. وكان ذلك شيئاً جميلاً، من الناحية التقنيّة. وقد ذكَّرني بآلة كاليوب بخارية تعزفُ لحناً لشوبان داخل حوضٍ من الشحم.

قال دتر " لم يكن توقيتها صحيحاً "، وهو يلوي رقبته لينظر إليّ، لكنه ظلَّ، وكجرَّاحٍ ماهر، يعملُ بيده اليمنى الرشيقة، " لقد عرفتُ ذلك حتى قبل أن أنظر إليها بوقتٍ طويل. إنَّ هذا يرفعُ حرارة السيارة بشكلٍ أسرع مما يفعله أي شيء آخر ". وبدأ يشرحُ لي من عمق أعماق أحشاء السيارة كيف يعملُ التوقيت. وحسبما أذكر الآن فإنَّ سيارة بثماني أسطوانات تشعل ٢، ٣، ٥، ٧ بإحدى الكامات و ٣، ٤، ٦، ٨ بالأخرى. قد أكونُ مخطئاً من ناحية الأرقام لكنَّ كلمةَ كامة هي التي أثارت اهتمامي. إنها كلمة جميلةٌ وعندما حاولَ أن يلفت انتباهي إليها أحببتُها أكثر - الكلمة. ثمة سمةٌ واقعيّةٌ فيها، مثل المكبس والدولاب المُسنَّن. وحتى جهولٌ مثلي يعرفُ أنَّ المكبسَ، من جَرْسْ الكلمة، يعني شيئاً له علاقة بقوة الدفع، وأنه مُتَّصِل بقوة بحركة السيارة. ما زال عليَّ

أن أشاهدَ مكبساً بذاته، لكني أؤمنُ بالمكابس وإنْ لم تُتَح الفرصة لي لأرى أحدها بارداً ومنعزلاً.

شَغَلَه التوقيتُ لوقتٍ طويل. وسرحَ مقدار الفرق الذي يُشكِّله ربع درجة. كان يعملُ على الكاربوريتر. إذا لم أكن مخطئاً. وقبلتُ هذا التفسير، كما قبلتُ غيره، بدون جدال. وفي تلك الأثناء كنتُ أتعرَّفُ إلى دولاب الموازنة وغيره من الأعضاء الأساسية بشكلٍ أو بآخر للآليّة الغامضة. ويجب أن أذكُر على عجل أنَّ أغلب ما يتعلَّقُ بالسيارة هو بشكلٍ أو بآخر أساسيٌّ. كل شيء ما عدا العَزَقات موجود تحت الهيكل المعدني؛ ويمكنُ أن تحلَّ وتسقطَ، كأسنانٍ نخِرة، بدون حدوث ضررٍ جسيم. وأنا لا أتحدَّثُ الآن عن الوصلة الجامعة - تلك مسألةٌ أخرى. وإنما عن كل تلك العزقات الصدِئة التي تُرى وهي تسقط حين تُرفَع السيارة على الرافعة - وفي الحقيقة هي تكاد لا تعني أي شيء. وفي أسوأ الأحوال قد تقعُ دوّاسةُ الباب، ولكن ما أن تعلم أنَّ دوّاسةَ بابك قد وقعتْ لا يعودُ هناك كبيرُ ضرر.

فجأةً سألني عن درجة حرارة الترموستات فيما يتعلّق بشيءٍ ما، فلم أعرف الإجابة. وكنتُ قد سمعتُ الكثير عن الترموستات؛ كنتُ أعرفُ أنَّ هناك واحداً في مكانٍ ما من السيارة، أما أين، أما كيف يكون شكله، فالله أعلم. وتملَّصتُ من كل إشارة إلى الموضوع بأشدّ ما أمكنني من مهارة. ومرة أخرى خجلتُ من نفسي لجهلي مكان تموضُع هذه القطعة وطبيعتها. وبعد أن تلقَّيتُ توضيحاً موجزاً عن عمل ولا عمل الترموستات، انطلقتُ مُغادراً نيويورك، وتوقَّعتُ أن ينفتح مصراعا الغطاء فجأةً تلقائياً عندما يُشيرُ مقياس الحرارة إلى ١٨٠ أو ١٩٠.

كان الترموستات بالنسبة إليّ يعني شيئاً أشبه بعصفور الكوكو في ساعة الكوكو. ثبّتُ نظري بدون انقطاع على المقياس، في انتظار أن يصلَ إلى ١٨٠. وتوتَّرَتْ أعصاب راتنر، الذي كان حينئذٍ صديقي الحميم، وهو يراقبني أرمقُ المقياس. وانعطفنا مراتٍ عدَّة عن الطريق بسبب هَوَسي هذا. لكنني كنتُ دائماً أتوقَّعُ أن يعمدَ رجلٌ خفيٌّ في وقتٍ من الأوقات إلى إفلات طائر الكوكو من فخِّه ليطيرَ ثم بانغو! ينفتحُ المصراعان، ويُدوِّمُ الهواء بين السيقان، ويبدأ المُحرِّك يموءُ مثل قطة موسيقية. وطبعاً المصراعان الملعونان لم ينفتحا بقوة قط. وحين وصلَ المقياس أخيراً إلى الرقم ١٩٠ فإنَّ الشيء التالي الذي عرفتُه هو أنَّ المشعاع كان يغلي ويفورُ وكانت أقرب بلدة إليّ تقعُ على بُعد أربعين ميلاً.

بعد تصحيح وضع التوقيت، وتعديل العقربان، وتقويم الكاربوراتير، وإنعاش المسرع، وإعادة كل العزقات، والمسامير المُلولبة والبراغي بعناية إلى أماكنها الصحيحة، دعاني دتر إلى مُرافقتِهِ في ركوبٍ اختباريّ. وقرَّرَ أن يقودها خلال تيجراس كانيون حيث يوجدُ منحدرٌ كبير. وانطلقَ بسرعةِ خمسين ميلاً في الساعة، مما أقلقني قليلاً لأنَّ الميكانيكي في محطة الخدمة الكبيرة كان قد قال لي أنْ أقودها ببطءٍ خلال مسافة الألف ميل الأولى وإلى أن ترتخي قليلاً. وارتفع مؤشّر المقياس ببطءٍ إلى ١٨٠، وما أن أخذنا نسيرُ بشكلٍ سلس حتى قفزَ العدّادُ إلى ١٩٠ وظلَّ يرتفعُ.

قال، وهو يُشعلُ سيجارةً بعود ثقاب فخم " لا أظنها ستغلي. إنَّ المبدأ هنا هو لا تقلقَ أبداً إلى أن تغلي وتفور. السيارات تتصرَّفُ بمزاجيةٍ هنا، مثل البشر. وقد يكونُ الطقسُ هو السبب، وقد يكونُ العدّادُ في

صندوق المحرِّك ... قد يكونُ أشياء كثيرة. وقد لا يكونُ أكثر من ارتفاع المنطقة. إنَّ مصانع بويك لا تضعُ أبداً مشعاعات كبيرة بشكلٍ يتناسبُ مع حجم السيارة ". وجدتُ هذا النوع من الكلام مبهماً. كان أشبه بطبيبٍ فرنسي جيد. إنَّ الطبيبَ الأميركيّ دائماً يقولُ وعلى الفور - "**يجب أخذ صورةٍ بالأشعة السينية؛ يجب قلعُ كل أسنانك الخلفيّة؛ يجب أن تُركّبَ ساقاً صناعيّة** ". إنه يُقطّعكَ إرباً ويسفحُ دمكَ حتى قبل أن يُلقي نظرةً على حنجرتك. وإذا كانت حالتُكَ بسيطةً مثل إصابتك بديدان البطن يرى أنك تعاني من انقباضٍ وراثيّ في التميمة القَرَنيّة منذ الطفولة. وتذهبُ لتسكر وتُقرِّرُ لأن تحتفظَ بديدانك أو مهما كان مرضك.

واصلَ دتر كلامه بتلك الطريقة الهادئة، الطبيعيّة عن سيارات البويك الجديدة والقديمة، وعن الانضغاط الزائد والصِغر المفرط للحيِّز، وعن شراء أجزاء كاملة بدل جزءٍ من جزء، كما في حالة سيارة الشيفروليه أو الدودج. وهذا لا يعني أنَّ البويك ليست سيارة جيدة - أوه، كلا، إنها سيارةٌ جيدةٌ جداً، غير أنَّ لها أيضاً، وكأي سيارة أخرى، نقاطَ ضعفها. وتحدَّثَ مراتٍ عدَّة عن الغليان والفوران على الطريق من اسبانولا إلى سانته فه. وقد غليتُ بدوري وفرتُ وأنا هناك، ورحتُ أنصتُ بتعاطُف، وأذكرُ كيف وصلنا إلى قمة تلٍ ثم انعطفنا لنهبطَ ونبدأ من جديد. وفجأةً إذا بالظلام يسودُ ولا يُرى أي نبعٍ صافٍ رقراقٍ في الأفق. ثم بدأتْ السحالي تتهامسُ فيما بينها، وباتَ في الإمكان سماعها تتهامسُ على امتداد أميال كثيرة حولنا، وكان السكون شاملاً والإقفار تاماً.

في طريق العودة تحدَّثَ دتر عن الأجزاء وأجزاء الأجزاء، ووجدته مُعقَّداً أيّما تعقيد، ولاسيما حين أخذ يُقارنُ ما بين أجزاء بونتياك مع

أجزاءٍ وأجزاءٍ تخصُّ سيارة البليموث أو الدودج. إنَّ الدودج سيارةٌ رائعة، في اعتقاده، أما هو فيفضِّلُ الستيودبيكر القديمة. فسألته " لِمَ لا تَقتني سيارة ستيودبيكر قديمة جميلة؟"، فرماني بنظرةٍ غريبة. فهمتُ أنَّ سيارة ستيودبيكر قد سُحِبَتْ بدون أدنى شك من الأسواق منذ سنين طويلة. ثم، بعد ذلك مباشرةً رحتُ أتحدَّثُ عن سيارات اللانسيا والبيرس آرو. ولم أكن متأكداً مما إذا كانت بدورها لم تعُد تُنتَج، لكني كنتُ أعرفُ أنها طالما تمتَّعَتْ بسمعةٍ طيِّبة. وأردتُ أن أُريه أني راغبٌ في أن أتحدَّثَ عن السيارات، إنْ كانت تلك هي اللعبة. وفسَّرَ ملاحظاتي تفسيراً خاطئاً لكي يخوض في الشرح التقني لكيفيّةِ صبِّ الأجزاء المركزية وتشكيلها، وكيف تختبر بمعول الثلج لمعرفةِ إنْ كانت سميكة أو رقيقة أكثر مما ينبغي. وبعد الانتهاء من هذا ينطلقُ في مزيدٍ من الشرح لجهاز نقل الحركة والترس التفاضلي، وهو موضوعٌ من شدّةِ الإبهام بحيث إني لم أفهم كلمة واحدة مما حاولَ أن يقوله. وقد لاحظتُ أنَّ المقياس كان يصعدُ باتجاه الرقم ١٧٠. وقلتُ في نفسي ما أسعدني لو أستأجرُ رجلاً مثل دتر ليصحبني إلى نهاية الطريق. فحتى لو تعطَّلَتْ السيارة تماماً فسوف أتثقَّف وأتسلّى من خلال سماعه يتكلَّم عن الأجزاء. وفهمتُ كيف يتعلَّقُ الناسُ بسياراتهم، بعد أن يتعرَّفوا على أجزائها معرفةً دقيقة. عندما عُدنا إلى المختبر ولجَ إلى الداخل ليُحضِرَ ميزان الحرارة. ثم رفعَ غطاء المشعاع وأقحمَ ميزان الحرارة في المشعاع الذي يغلي. وكان يقرؤه على فترات - قراءات مقارِنة كما يفعلُ اللاهوتيّ بالكتاب المقدَّس. هناك فرقٌ مقداره سبع عشرة درجة، وقد تطوَّرَ، بين ما يُشيرُ إليه المقياس وما يشيرُ إليه ميزان الحرارة. لقد كان الفرقُ لصالحي، كما قال. ولم أفهم بدقَّةٍ ما

عناه بتلك الإشارة، لكني جعلتُ منها ملاحظة عقلية. واتّسمتْ السيارة وميزان الحرارة يبرزُ من حنجرتها بسمةٍ إنسانيّةٍ مُثيرةٍ للشفقة؛ بدتْ وكأنها مُصابةٌ بالتهابِ اللوزتين التقيُّحي أو بأبي كعب.

سمعتُه يغمغمُ لنفسه حول الميزان وعن مدى دقَّة العمليّة. وبرزت في ذهني عبارةُ حمض الهيدروكلوري. وقال برصانة " لا تفعل ذلك إلا في آخر الأمر".

سألته " أفعلُ ماذا ؟ "، ولكن أعتقدُ أنه لم يسمعني.

غمغمَ من بين أسنانه " لا أدري ماذا سيحدثُ لها عندما سيضربها الحمضُ".

ثم تابعَ، بعد أن اقتنعَ بأنَّ لا شيءَ خطيرٌ بها " الآن سأقولُ لك سوف أسدُّ تلك الفتحة الترموستاتيّة أكثر قليلاً بقطعةٍ من الخشب - وسأضعُ سير مروحة جديد. وسوف ندفعها بقوةٍ ثماني باوندات في أول الأمر، وبعد أن تسيرَ مسافةً تُقاربُ الأربعمئة ميل تستطيعُ أن تختبرها بنفسك وترى إنْ كانت تنزلق "، ثم هرشَ رأسه وتفكَّرَ قليلاً، ثم أردفَ قائلاً " لو كنتُ مكانك لعدتُ إلى محطة الخدمة تلك وأجبرتهم على حلِّ أصابع الغماز قليلاً. مكتوبٌ الألف ١٠٠٠ على المحرِّك، ولكن هنا يمكنك أن تقودها على الألف الـ ٨٠٠٠ - إلى أنْ تسمع ذلك الصوت الواهي الغريب، ذلك الكليكيتي -كليك-كليك، كما تعلم - كرنين أساور. لقد حاولتُ أن ألتقطَ ذلك الصوت من قبل حين كانت باردة لكني لم أتمكَّن من الحصول عليه. أنا دائماً أحبُّ أن أنصت إلى ذلك الصوت الواهن - فحينئذٍ أعلم أنها ليست مشدودة كثيراً. في الواقع، إنَّ لديكَ هناك لهباً أزرق ملتهباً، وحين تشدّ صماماتك أكثر مما ينبغي

يحرقها ذلك اللهب على الفور. وهذا يمكن أيضاً أن يُسخِّنُ السيارة! فقط تذكَّر - *أصابع الغماز*! ".

تبادلنا حديثاً وديّاً حول المذبحة الدائرة في أوروبا، من باب إنهاء الصفقة، وبعد ذلك تصافحنا. قال: " لا أظنُّ أنك ستواجه أية متاعب، ولكن فقط من قبيل التأكُّد من السبب عُدْ إلى هنا بعد أن يحلُّوا أصابع الغماز وسوف نرى كيف تعمل. إنَّ لديك هنا سيارة صغيرة جميلة، ويجب أن تخدمك - على الأقلّ - عشرين ألف ميلٍ أخرى ".

عدتُ إلى محطة الخدمة الكبرى وتمَّ الاعتناء بأصابع الغماز. ويجب أن أعترفَ بأنهم كانوا في منتهى الكَرَم في هذا الخصوص. وهذه المرة لم يتقاضوا أي شيءٍ مقابل خدماتهم. وقد وجدتُ ذلك غريباً. وبينما أنا خارج أنبأني الناظر ذو سمَّق الجزار بدماثةٍ شيطانيّةٍ أنه، بغضّ النظر عمَّا يمكنُ أن يكونَ أي إنسان قد قاله لي، فإنَّ الصوتَ الواهن الجميل الذي أفتِّشُ عنه لا علاقةَ له بأي حالٍ بشدّ أو حلّ الصمامات. إنَّ سبب ذلك يعودُ إلى أمرٍ آخر. قال " إننا لا نؤمن بحلِّها كثيراً، ولكن هذا ما أردتَ أنت، وقد فعلنا نزولاً عند رغبتك".

لم يكن في وسعي أن أناقضه، مع افتقاري إلى معرفة هيو دتر لتدعمني في نقاشي، لذا قررتُ أن أطلب غسل السيارة وتشحيمها لأكتشف بشكلٍ غير مباشرٍ ماذا كان يقصد بحقّ الشيطان.

حين عدتُ لأستعيدَ السيارة تقدَّمَ مني المدير وأبلغني بأدب أنَّ ثمة شيئاً آخر على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية عليّ أن أفعله قبل أن أغادر. قلت "وما هو؟ "

" شحِّمْ القابض"

سألتُ كم سيستغرقُ ذلك. قال إنه عملُ نصفِ ساعة- وبدون أي دولار زيادة.

قلتُ " لا بأس. شحِّمْ القابض. شحِّمْ كل ما تقعُ يداك عليه ". قمتُ بجولةٍ مدة نصف ساعة في الجوار، وتوقَّفتُ في إحدى الحانات، وحين عدت أبلغني الفتى أنَّ القابضَ لا يحتاجُ إلى تشحيم.

قلت " ما معنى هذا بحقّ الجحيم ؟ لِمَ قال لي إذن إنَّ عليّ أن أشحِّمه؟ "

قال الفتى وهو يرسمُ ابتسامةً عريضةً " إنه يقولُ هذا للجميع "

بينما كنتُ أرجعُ بالسيارة إلى الخلف سألني بمكرٍ إنْ كانت تُسبِّبُ لي الحنق.

قلت " قليلاً "

قال " حسنٌ، لا توليها أي انتباه. فقط انتظر حتى تغلي. إنها سيارةٌ تنطلقُ بسلاسةٍ رائعة، هذه البويك. إنها أجمل سيارة صغيرة مُحبَّبة رأيتها في حياتي. زرنا مرةً أخرى في وقتٍ ما ".

حسنٌ، انتهينا. وإذا كنتَ قد خدمتَ مرةً في سلاح مدفعيَّة الشاطئ ستعرفُ ماذا يعني اتِّخاذُ زاوية السمت. أولاً تتَّخذ مساراً في علم المثلثات الأعلى، بما فيه من حساب التفاضُل وكل اللوغاريتمات. وحين تضعُ الطَلَقة في البندقيّة تأكّد من أنك أخرجتَ كل أصابعك قبل أن تُغلق البندقية. الأمر نفسه مع السيارة. باختصار، هي أشبه بحصان. ما يثير حرارته هو الهياج والإزعاج. أطعمه كما يجب، اسقه جيداً. داعبه طوال ما هو مرهَق وسوف يتفانى في حبك. والسيارة اختُرِعَتْ لكي نتعلَّم الصبرَ والرقَّة في تعاملنا أحدنا مع الآخر. لا يهمّ الأجزاء، ولا حتى

أجزاء الأجزاء، ولا طرازها أو سنة إنتاجها، ما دُمْتَ تُحسنُ معاملتها. إنَّ ما تريده السيارة هو الاستجابة لها. وترسٌ تفاضليّ محلولٌ قد يسبِّبُ أو لا يُسبِّبُ الاحتكاك ولا توجد سيارةٌ واحدة، ولا حتى الرولز رويس، تسير بدون وَصلة جامعة، ولكن حين يكونُ كل شيء متوازناً فلا الضغط ولا فقدان الضغط في ماسورة العادم يهمّ - بل أسلوبك في معاملتها، والكلمة الطيبة التي تقولها بين حين وآخر، وروح الاحتمال والغفران. وعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك هو المبدأ الأساسي في هندسية السيارات. لقد فهمَ هنري فورد هذه الأمور بادئ ذي بدء. ولهذا كنتَ تراه يدفعُ أجوراً خياليّة. كان يعايرُ الموارد الماليّة لكي يُحقّقَ معدَّلات مرتفعة جداً. وثمة أمرٌ واحد يجب تذكُّره عند قيادة أي وسيلة نقل وهو ما يلي: حين تبدأ السيارة بالتصرُّف وكأنها مُصابةٌ بدوار العميان فقد حان الوقتُ لكي تخرج وتطلق على رأسها رصاصة الرحمة. إننا نحن الأميركيين دائماً رفقاء بالحيوانات ومخلوقات الأرض الأخرى. إنه في دمنا. كُنْ رفيقاً بسيارتك البويك أو الستيودبيكر. لقد منحنا الربُ هذه النعَم لكي نُساهم في إثراء مُصَنِّعي السيارات. ولم يُرِد لنا أن نفقدَ أعصابنا بسهولة. فإذا كان هذا واضحاً في استطاعتنا أن نتوجه إلى شركة غالوب ونُقايضها ببغلٍ مُصابٍ بورمٍ عُرقوبيّ ...

جرذ الصحراء

حالما جلس شبَّهته بجرذ صحراء. كان شديد الهدوء، متواضعاً، متحفّظاً، ذا عينين دامعتين زرقاوين وشفتين شاحبتين. كان بياض عينيه تتخلله خيوط من الدم. وعيناه هما اللتان أعطتاني انطباعاً بأنه كان يعيش في الشمس المُبهِرة. ولكن عندما سألته، بعد هنيهة أو اثنتين، عن عينيه أجاب، أمام دهشتي، بأنَّ وضعهما مردّه إلى هجوم الحصبة. قال إنه كاد يفقد بصره، ثم خطر له أنْ يُجرّب أكل الزبد، الكثير من الزبد، ربع رطل دفعة واحدة. ومنذ ذلك الوقت تحسّن وضع عينيه. كان من رأيه أنَّ الشحم الطبيعي الذي يُزوّد به الزبد فيه الشفاء.

بدأ الحديث طلياً يسيراً ودام ساعات عدّة. وفوجئت النادل برؤيتي أتحدث معه برصانة. وأبدتْ شيئاً من التردُّد في جعله يجلس على مائدتي - لأنَّ ملابسه كانت رثّة وبدا أنه يمكن أنْ يكون قذراً. كان مُعظم زوّار برايت إينجل لودج يرتدون آخر الموضات الراقية غير الرسمية، والرجال منهم أكثر من النساء. بعضهم كان يرتدي ملابس الغرب الأميركي عندما يصلون إلى غراند كانيون ويجلسون إلى المائدة معتمرين قبعات السومبريرو العريضة وينتعلون أحذية عالية العنق ويرتدون قمصاناً تشبه رقعة الداما. والنساء يبدو عليهن الجنون بارتدائهن

البنطلونات، ولاسيما البدينات اللواتي يضعن في أصابعهن خواتم الأحجار الكريمة وأقدامهن منتفخة بالمسامير وتورم أصابع الأقدام الملتهبة.

يجب أنْ أستهل هذا كله بالإشارة إلى أنَّ إدارة مثوى برايت إينجل لودج بدت مندهشة لمكوثي طويلاً، فمن عادة غالبية الضيوف أنْ يمكثوا يوماً أو يومين، والعديد منهم لا يمكثون حتى تلك المدة، وبعضهم لنصف ساعة فقط، وهي كافية للنظر في الحفرة الكبيرة والقول إنهم سبق أنْ رأوها. وقد مكثت نحوَ عشرة أيام. وفي اليوم التاسع فتحتُ حديثاً مع المُنقِّب من بارستو. ومنذ أنْ غادرتُ ألبوكركي لم أكن قد تحدثتُ مع أحد، اللهم إلا لأطلب الوقود والماء. كان شيئاً رائعاً أنْ ألزمَ الصمت مدة طويلة. وأثناء هيامي على وجهي حول حافة وادي كانيون سمعت مقاطع من أغرب حديث، أذهلني لأنه بعيد الصلة عن طبيعة المكان. فمثلاً، أثناء مروري من خلف فتاة صغيرة خاليةَ من المزايا كانت تتبادل الغزل مع هندي أحمر قصير وبدين سمعت منهن ما يلي:

هي: " في الجيش لن تتمكن من..."

هو: " لكني لن ألتحق بالجيش! "

هي: " أوه، هذا صحيح، سوف تلتحق بالبحرية "، ثم أضافت بسعادة: " هل تحب المياه... والزوارق... وما شابه؟ "، وكأنها أرادت أنْ تقول " لأنكَ إنْ كنت تحبها، فإنَّ الأميرالات والعمداء سوف يُزودونك بكل المياه التي ترغب... مياه مالحة جداً مع أمواج وكل شيء. انتظر حتى ترى محيطنا - إنه مياه حقيقية، في كل قطرة منه. وطبعاً هناك الكثير من المدافع لإطلاق النار منها... أنت تفهم، على الطائرات وما

إلى ذلك. سيكون أمراً مُثيراً، سوف ترى. فثمة حرب تنشب بين حينٍ وآخر فقط من أجل إبقاء أبنائنا في حالة الاستعداد. سوف تحبها! "

في أمسية أخرى، في طريق عودتي إلى المثوى من يافاباي بوينت، علّقت عانس عجوز تحمل طبق مثلجات بيدها لمرافقها، وهو بروفسور يبدو رثّاً، وهي تلعق الملعقة: " لا غرابة في هذا، أليس كذلك؟ ". كانت الساعة نحو السابعة مساءً وكانت تُشير إلى الوادي بملعقتها التي تقطر. من الواضح أنَّ غروب الشمس لم يرقَ إلى مستوى تطلعاتها. لم يكن ذهبياً نارياً كعجّة تقطر من السماء. كلا، بل كان غروباً هادئاً، متحفظاً، لا يُظهرُ إلا حافةً رفيعة من النار عبر الطرف النائي من الوادي. ولكن لو أنها نظرتْ إلى الأرض تحت قدميها فربما كانت لاحظت أنها مُضرّجة بلون أرجواني جميل ووردي عتيق؛ ولو أنها رفعت بصرها إلى الحافة القصوى من الصخرة التي تدعم الطبقة الرقيقة من التربة التي تشكّل النجد للاحظت أنه مُلوّن بلمسة نادرة من السواد، بمسحة شاعرية من السواد لا يمكن مُقارنتها إلا بنهر أو بالجذع الرطب لشجرة سنديان حيّة أو بتلك الطريق العامة المثالية التي تمتد من جاكسونفيل إلى بنساكولا تحت سماءٍ تعجّ بسحب مهيبة.

الملاحظة الأفضل، أؤكد لك، كانت تلك التي سمعتها في آخر أمسية أمضيتها هناك. كانت هناك فتاة شابة مع ثلاثة من شبان العصابات، قالت فجأةً، بصوت بدا أنه يعبُر إلى الطرف المقابل من الوادي، " هل قرأتم الخبر الرئيس هذه الليلة؟ " كانت تُشير إلى جريمة سان برناردينو حيث شوهد شخص أحدب بصورة مُبهمة. قالت " أمر غريب، فحالما غادرت المنزل ظهرتْ صديقاتي فجأةً. أتذكرون فيوليت ؟

أحضرتها إلى المنزل مرة "، وتابعتْ بصوت عال، واضح، وكأنها تتكلّم في بوق، عن فيوليت، وريموند وجس، كما أعتقد. كانت ترى أنَّ كل شيء مُضحك، حتى المدة التي أمضاها أحد أصدقائها في سجن سان كوينتن. ظلت تردّد " لابد أنه كان مجنوناً! ". لاحظت التعبير على وجه سيدة مجتمع ترتدي بنطلوناً طويلاً جالسة في مكان قريب، صُعقَتْ حتى الموت من الملاحظات العابرة والمرحة للفتاة الشابة. بدا أنها تسأل نفسها "من أين تأتي هذه المخلوقات الفظيعة؟ حقاً، يجب فعل شيء بهذا الشأن. يجب أنْ أتحدث مع المدير". كان من الممكن سماع الغليان والأزيز الذي يجري داخلها، كأنها آلة مختنقة تلهث في الصحراء بدرجة حرارة ٦٠ مئوية.

ثم كان هناك ابن صاحب محل بيع تحف الذي فاجأني في وقت مبكّر من صباح أحد الأيام، وظنّ أني وصلتُ تواً، وأصرَّ على إظهار الأشياء أكبر من حجمها. " ذلك القميص هناك، على العمود - إنه ظاهرة مُثيرة للاهتمام ". لم أفهم ما المُثير فيه. أما بالنسبة إليه فكل شيء كان ظاهرة ومثيراً للاهتمام، بما في ذلك الفندق الواقع على الطرف المقابل من الوادي - لأنَّ في الإمكان رؤيته بوضوح من خلال المُكبِّر. سألَ، عندما هممتُ بالابتعاد عنه، " هل شاهدتَ اللوحة الكبيرة لوادي كانيون في دكان أبي ؟ إنه قطعة استثنائية ". أخبرته بفظاظة بأنَّ لا نيّة لديّ في مشاهدتها، مع احترامي كله لوالده وللمحل الذي يديره. بدا عليه الحزن، والتأذّي، والذهول المفرط لأني لم أهتم بمشاهدة إحدى أعظم نسخ الطبيعة الأم رسمتها يد إنسان. قال " عندما يُصبح لديك أكثر قليلاً من الإحساس فربما لن تبدو لك رائعة جداً. بماذا أُدين لك مقابل النظر من خلال المنظار المُكبِّر؟ ".

بوغت. راح يُكرر " تُدين لي ؟ أنت لا تدين لي بأي شيء. يسعدنا أنْ نكون في خدمتك. إذا احتجت إلى بعض الأفلام فقط تعال إلى محل والدي. لدينا مجموعة كاملة... ".

قلت وقد باشرت بالسير، " أنا لا أستعمل آلة تصوير أبداً "

" ماذا! لا تستعمل آلة تصوير أبداً ؟ أنا لم أسمع... "

" كلا، ولا أشتري أبداً بطاقات بريدية أو شراشف أو حجراً نيزكياً. لقد جئتُ إلى هنا لكي أشاهد الكانيون، هذا كل شيء. أسعدتَ صباحاً وأدعو الله أنْ تزدهر في النعيم والجحيم ". بهذا أدرتُ له ظهري وتابعتُ رحلتي المتعة.

كنتُ أستشيط غضباً لفكرة أنَّ فتى صغيراً ليس لديه ما يفعل أفضل من أنْ يُحاول أنْ يكمن للسياح ليتصيدهم لصالح والده في مثل تلك الساعة من الصباح. يتظاهر بأنه يُثبّت المُكبِّر، ويُلمّعه، وما إلى ذلك، ثم يعمل على إنجاز ذلك الهراء عن "رجل يُقلِّد عمل الله اليدوي" - على قطعة من الكنفا، ولا أقلّ، عندما يتمثَّل الله بذاته أمام عينيه بكل جلاله، كاشفاً عن عظمته من دون عون الإنسان أو تدخّله. كل ذلك لكي يبيعك مستحاثة أو عقداً من الخرز أو فيلماً مُصورًاً. لقد ذكَّرني بالأسواق في اللور. إنَّ كوني أيلند، على الرغم من شناعتها، أكثر صِدقاً. لا أحد يهذي حول الملح في المحيط. فالمرء يذهب إلى هناك لكي يتصبب عرقاً ويحترق ويتعرَّض للاحتيال الصادق على أيدي أشد المحتالين خِبرة في العالم.

حسن، فلنعد إلى شيء نظيف. كان هناك جرذ الصحراء العجوز يبتسم لي ويتحدث عن لعنة السيارة. اعترفَ بأنها قامت بعمل جيد

واحد، وهو كسرُ تعصُّب الناس. ولكن من ناحية أخرى جعلت الناس بلا جذور. أصبح كل شيء سهلاً أكثر مما ينبغي - لم يعُد أحد يريد أنْ يحارب ويكافح. أصبح الرجال رخوين. لم يعُد يُرضيهم أي شيء. إنهم يبحثون عن الإثارة طوال الوقت. ما لم يتوصل إلى فهمه هو- كيف يمكن أنْ يكونوا رخوين وجبناء ومع ذلك لا يخشون الموت. وما داموا يحصلون على الإثارة، لا يهمهم ماذا يحدث. لقد غادرت تواً مجموعة من النساء قبل قليل. إحداهن تسببّت في كسر رقبتها. لقد وصلت إلى المنعطف بأسرع مما ينبغي. تحدثَ عن الأمر بهدوء ويُسر، وكأنه مجرد حادث عابر. لقد شاهد الكثير من السيارات تنقلب في الصحراء، وهي تندفع بسرعة مئة ومئة وعشرة أميال في الساعة. قال: "يبدو أنهم لا يستطيعون أنْ يُسرعوا بالقدر الكافي. لا أحد يسير بسرعة خمسة وأربعين ميلاً في الساعة، وهي حدود السرعة القصوى في كاليفورنيا. لا أعلم لماذا يسنون قوانين للناس لكي يخرقونها؛ يبدو لي هذا عملاً أحمق. إذا كانوا يريدون من الناس أنْ يقودوا بحرص فلماذا يصنعون محركات تعمل بسرعة خمسة وسبعين ومئةٍ وثمانين ميلاً في الساعة ؟ هذا ليس منطقياً، أليس كذلك ؟ ".

واصلَ الكلام عن فضيلة العيش وحيداً في الصحراء، والعيش مع النجوم والصخور، والتأمّل في الأرض، والإصغاء إلى صوت المرء الخاص، والتساؤل حول الخليقة وما إلى ذلك. " إنَّ الإنسان يفكِّر كثيراً عندما ينفرد بنفسه طوال الوقت. وأنا لم أكن يوماً قارئاً جيداً للكتب. كل ما أعرف هو ما تعلّمته بنفسي- من التجربة، من استخدام عينيّ وأذنيّ ".

أردتُ أنْ أعرف، بحمق، أين في اعتقاده بدأتْ الصحراء.

قال " في الحقيقة، حسب علمي، كل شيء صحراء، هذا البلد كله. هناك دائماً بعض النباتات- ليس فقط رمال، كما تعلم. لقد طغى عليها وهناك تربة إذا استطعت أنْ ترويها بالماء وتغذّيها. والناس يُصابون بالذعر عندما يصلون إلى الصحراء. يعتقدون أنهم سيموتون عطشاً أو من التجمُّد حتى الموت ليلاً. طبعاً يحدث مثل هذا أحياناً، ولكن في الغالب من فرط القلق. ولو أنك تهدأ ولا تقلق فلن ينالك أذى. إنَّ غالبية الناس يموتون فقط من الخوف. يمكن للإنسان أنْ يبقى بلا ماء مدة يوم أو يومين- لن يموت جراء ذلك- إذا لم ينتبهْ القلق. في الحقيقة أنا لا أرغب في العيش في أي مكان آخر. لن أعود إلى إيوا حتى لو دفعت لي مالاً ".

أردتُ معلومات عن الأراضي القاحلة، إنْ كان من المُتعذّر تماماً استصلاحها. قلت، لدى وصولي إلى "الصحراء المرسومة"، لقد تأثّرت، لأنَّ الأرض تبدو وكأنها قد انقرضت تواً. أليست كذلك - ألا يمكن فعل شيء لهذه المناطق؟

ليس الكثير، في اعتقاده. قد تبقى هكذا ملايين الأعوام. كانت هناك مواد كيميائية في الأرض، حالة قلويّة، جعلت من المستحيل نمو أي شيء في مثل تلك الأماكن. وأضاف "ولكن سأخبرك شيئاً، أعتقد أنَّ الميل يسير في الاتجاه المعاكس".

سألتُ " ماذا تعني؟ "

" أعني أنَّ الأرض تعود إلى الحياة بإيقاع أسرع من موتها. قد تستغرق ملاحظة التغيير ملايين الأعوام، لكنه مستمر بانتظام. هناك

شيء في الجو يُغذّي الأرض. انظر إلى شعاع شمس...أنت تعرف كيف ترى الأشياء تطفو في الهواء. ثمة شيء دائماً يقطر عائداً إلى الأرض... ذرات صغيرة تغذّي التربة. والآن الصحراء المرسومة... لقد جبت الجزء الأكبر منها. ليس هناك ما يؤذيك. طبعاً لم تُكتَشَف كلها بعد. حتى الهنود لا يعرفونها كلها ". وواصل الكلام عن ألوان الصحراء، وكيف تشكّلت مع برودة الأرض؛ تكلّم عن أشكال الحياة ما قبل التاريخ المدسوسة في الصخور، وعن نجد في مكان ما وسط الصحراء اكتشفه طيّار وكان مملوءاً بخيولٍ صغيرة. " يقول بعضهم إنها الخيول الصغيرة التي جلبها الإسبان قبل سنين، لكنّ نظريتي تقول إنّ هناك نقصاً في المياه أو في النبات يُعيق نموها ". وتكلم عن الخيول بمخيّلة حيوية حتى إني بدأتُ أرى بعين عقلي الحيوان الأصلي ما قبل التاريخ، اليوهيبوس، أو كائناً ما كان اسمه، الذي طالما تصوّرته كحيوانٍ برّي يجري بحرية في فيافي تارتاري. كان يقول " ليس هذا أمراً غريباً جداً. خذ عندك إفريقيا، لديهم هناك أقزام وفيلة وما شابه ". لماذا فيلة؟ تساءلت. لعله كان يقصد شيئاً آخر. أعلم أنه يعرف شكل الفيل، لأنه خلال فترة وجيزة تكلّم عن العِظام والهياكل العظمية لحيوانات ضخمة كانت تجوب البلد ذات يوم- جِمال، وفيلة، وديناصورات، ونمور بأنياب قاطعة، إلى آخره، كلها اكتُشِفَتْ في الصحراء وفي أماكن أخرى. وتكلّم عن اللحم الطازج الذي وُجِدَ على جسم حيوانات المستودون[^] في سيبيريا، وألاسكا وكندا؛ وعن الأرض التي تنتقل إلى عوالم فلكية جديدة وغريبة وتتقلّب حول محورها؛ وعن التغيُّرات المناخية الكبرى، المفاجئة، والكارثيّة، التي تدفن عصوراً كاملة وهي حيّة، مُشكّلة

صحاري من البحور الاستوائية وترفع جبالاً حيث كان بحر، وما إلى ذلك. كان حديثه طلياً، متريّثاً، وكأنه شاهد كل شيء بنفسه من مكانٍ عالٍ في جسدٍ حي يتجاوز الزمن.

تابعَ: " الأمر نفسه يحدث مع الإنسان. أعتقد أنه عندما نقترب كثيراً من السر فإنَّ للطبيعة الأم أسلوباً في التخلُّص منا. طبعاً، نحن نزداد ذكاءً كل يوم، لكننا لا نبلغ عمق الأشياء أبداً، ولن نفعل أبداً. إنَّ الله لم يقصد أنْ يكون الأمر هكذا. إننا نظن أننا نعرف الكثير، لكنَّ تفكيرنا جامد. وقارئو الكتب ليسوا أكثر ذكاءً من غيرهم. إنهم فقط تعلّموا كيف يقرؤون الأشياء بطريقة معيَّنة. ضعهم في وضع جديد وسوف يغرقون حتى رؤوسهم. إنهم ليسوا مرنين. إنهم لا يحسنون التفكير إلا بالطريقة التي تعلّموا. وفي اعتقادي، هذا ليس ذكاء ".

وواصل الكلام عن مجموعة من العلماء قابلهم ذات يوم قِبالة جزيرة كاتالينا. كانوا خبراء، كما قال، في موضوع هضاب المدافن الهندية. كانوا قد قدموا إلى هذه البقعة، حيث كان يجمع بعض المحار، لكي يتفحّصوا ركاماً ضخماً من الهياكل العظمية عُثِرَ عليها على حافة الشاطئ. كانت نظريتهم تقول إنه في وقتٍ ما من الماضي السحيق أكل هنود المنطقة المجاورة عدداً هائلاً من الأصداف البحرية، وتسمّموا وماتوا بأعداد كبيرة، وتكوّمت جثثهم وتبعثرت على هيئة ركام ضخم.

قال لأحد البروفسورات، بعد أنْ أصغى إلى هرائهم قدر استطاعته، " لديّ رأي مختلف حول هذا! "

نظروا إليه ولسان حالهم- " ومَنْ طلب رأيك؟ ماذا يمكن أنْ تعرف عن الموضوع ؟ "

وأخيراً سأله أحد البروفسورات عن رأيه.

قال " لن أخبركم الآن؛ أريد أنْ أرى أولاً علام ستعثرون وحدكم؟"

طبعاً أثار هذا غضبهم. وبعد بعض الوقت بدأ يُمطرهم بالأسئلة- أسئلة سُقراطيّة، أثارت حفيظتهم أكثر. أراد أنْ يعرف، بما أنهم يدرسون المقابر الهندية طوال حياتهم، هل سبق لهم أنْ شاهدوا هياكل عظمية مكوَّمة هكذا. وسأل " هل شاهدتهم أي صَدَفة بحرية في المكان؟ "، كلا، لم يروا صَدَفة واحدة، حيّة أو ميتة. قال " ولا أنا. لا توجد صَدَفة واحدة هنا ".

في اليوم التالي لفتَ انتباههم إلى السخام. قال لأحد البروفسورات " إنَّ هذا السخام يتطلَّب شيّ عددٍ كبير من الأصداف، أليس كذلك؟ ". وأراد أنْ يُعلمني أنَّ هناك فرقاً شاسعاً بين رماد الخشب والرماد البركانيّ. قال: " الخشب يُخلِّف سخاماً لزجاً؛ مهما كان قديماً يبقى السخامُ لزجاً. وهذا السخام الذي دُفِنَت فيه الهياكل العظمية هو بركانيّ". وتقول نظريته إنَّه كان قد حدث انفجار بركانيّ، وإنَّ الهنود حاولوا أن يهربوا إلى البحر، فانقضَّ عليهم وابل من النار.

طبعاً سخر العلماء من نظريته. قال " لم أجادلهم. لم أرغب في إثارة جنونهم من جديد. أنا فقط كوّنت رأيي وبحتُ لهم بفكرتي. وبعد ذلك بيوم أو يومين جاؤوا إليّ ووافقوا على أنَّ نظريتي قائمة على أساس صلب. وقالوا إنهم سوف ينظرون فيها ".

وتابع الكلام عن الهنود. لقد عاشَ معهم ويعرف شيئاً عن أساليبهم. ويدا أنه يضمر احتراماً عميقاً لهم.

أردتُ منه أنْ يُخبرني عن قبائل النفايوس الهندية التي سمعتُ عنها الكثير منذ أنْ وصلت إلى الغرب. هل صحيح أنهم يزدادون عدداً

بوتيرة استثنائية؟ وقد نُقِلَ عن مسؤولين في السلطة قولهم حول هذا الموضوع إنه في غضون مئة عام، إذا لم يظهر أي شيء مشؤوم ليوقف التطور، فإنّ عدد النافايوس سيُعادل عددنا الآن. وسادت إشاعة مفادها أنهم يُطبقون نظام تعدُّد الزوجات، وكل رجل منهم يُسمح له بثلاث زوجات. وعلى أية حال، زيادة أعدادهم تُعتَبَر ظاهرة. وكنتُ آمل في أنْ يُخبرني أنّ الهنود سيزدادون قوة من جديد.

وعلى سبيل الإجابة قال إنّ هناك أساطير تنبّأت بسقوط الرجل الأبيض إبّان وقوع كارثة عُظمى- كحريق، أو مجاعة، أو فيضان، أو ما شابه.

قلت " ولماذا ليس ببساطة بسبب الطمع والجهل؟ "

قال " نعم، إنّ الهنود يؤمنون بأنه عندما يحين الوقت لن يبقى إلا الأقوياء والثابتون. إنهم لم يقبلوا قط أسلوبنا في الحياة، ولا ينظرون إلينا كمتفوقين عليهم بأي شكل. إنهم يتحمّلوننا، هذا كل ما في الأمر. ومهما حصّلوا من ثقافة يعودون دائماً إلى القبيلة. أعتقد أنهم فقط ينتظرون فناءنا".

أسعدني سماع هذا. قلت لنفسي، سيكون شيئاً رائعاً إذا تمكنوا ذات يوم من النهوض وهم أقوياء بأعدادهم وجرفونا إلى البحر، واستعادوا الأرض التي سرقناها منهم، ودمّروا مُدننا، أو استخدموها كساحات لإقامة الاحتفالات. وفي أمسية قريبة، بينما كنتُ أقوم بنزهتي المعتادة على طول حافة الكانيون، أيقظت مجلة هزلية (كانت مجلة "الأمير الشجاع") مرميّة على حافة الهاوية أفكاري الفضولية. أي شيء آخر يمكن أنْ يكون أشد عُقماً، وجدباً وتفاهة من مشهدٍ مترامي الأطراف

وغـامض كـوادي غـراند كـانيـون إلا مـجلة يـوم الأحد الـهـزليـة؟ ها هي، رماها بلا اكـتـراث قـارئ لا مبالٍ، وأقلّ نـسـمـة هـواء مـسـتـعـدة أنْ ترفـعـهـا وتطيح بـهـا إلى الفنـاء. وخلف المجلة ذات الألوان المبـهـرجـة كـانـت تكمن القصة الكاملة، التي يتطلّب إنجازها طاقات عدد لا يُحصى من الرجال، ومنابع الطبيعة المتنوعة، والرغبات الضعيفة لأطفال متخَمين بالطعام، لذروة حـضـارتنا الـغـربيـة. وبين المجلة الـهـزليـة، وبـارجة حـربيـة، ومُـولِّد، ومحطة بث إذاعي من الصعب عليّ أنْ أجد أيّ فرق مـهمّ. فكلها سواء، كلها تجسيد لطاقة قلقة، مسعورة، للزوال السريع، للموت والانحلال. تسـاءلتُ، وأنا أنظر عـمـيـقـاً في الكـانيـون إلى مـدرجـات المسـارح، والمدرجات الرومـانية، والمعابد التي قدّتها الطبيعة الأم على امتداد فـتـرة لا يمكن قـيـاسـهـا من الزمن من أنـواع مـخـتلفـة من الـصـخـور، لماذا من المستحيل حقاً أنْ يكون هذا الخلق الشاسع من صُنع الإنسان؟ لماذا كانت الأعـمـال الفنيـة الـعـظيـمـة كلهـا في أمـيـركـا من صُنع الـطبـيـعـة ؟ هناك ناطحـات الـسـحـاب، طبـعـاً، والسـدود والجـسـور والطرقـات الدوليـة الإسـمـنـتـيـة. كلها نفعيّة. لا شيء في أمـيركا كلهـا يُقارَن بكاتدرائيـات أوروبا، ومعـابد آسيـا ومصـر - إنهـا صروح باقـيـة أُبدِعَتْ بالإيمان والحب والشـغف. لا يوجد نشـوة، ولا اتّقاد، ولا حـمـاسـة- إلا لزيادة الأعـمـال التجارية، ولتسهيل النقل، وتوسيع مجال الاستغلال المُجرَّد من الرحمة. ***والنتيجة***؟ شعب يتحلل بسرعة، ثُلثه تقريباً جُعِلَ فقيراً، والأشخاص الأشدّ ذكـاءً وغنى يُمارسون الانتـحـار العـرقي، والمُضطهَدون يزدادون عنفاً، وإجراماً في تفكيرهم، وانحـلالاً وانحطاطاً في المجـالات كلهـا. وثمـة حفنة من السـيـاسـيين المتـهـورين، الطمـوحين، يحاولون أنْ يُقنعوا

العامة بأنَّ هذا هو الملجأ الأخير للحضارة، وليحفظ الله العلامة التجارية!

ألمحَ صديقي القادم من الصحراء مرات عِدّة إلى "السرّ العظيم". وتذكّرت مقولة غوته العظيمة: "*السرّ المكشوف*"! العلماء لا يقرؤون هذا. إنهم لم يصلوا إلى أية نتيجة في محاولاتهم لحل اللغز. واكتفوا بدفعه بعيداً، جعلوه يبدو أكثر إبهاماً. إنَّ أُناسَ المستقبل سوف ينظرون إلى بقايا هذا العصر كما ننظر نحن الآن إلى نِتاج العصور الحجرية. نحن ديناصورات فكرية"؛ نمشي بخُطى ثقيلة، وعقول متبلّدة، ومُخيلة ناضبة وسط معجزات لا نتأثّر بها. إبداعاتنا ومكتشفاتنا كلها تؤدي إلى العدم.

في هذه الأثناء يعيش الهندي تماماً كما كان يعيش دائماً، غير مُقتنِع بأنَّ لدينا أسلوبَ حياة أفضل نقدّمه إليه. إنه ينتظر بحِكمة اكتمال عمل الانتحار الذاتي. وعندما نصبح رخوين ومنحلّين بصورة تامة، عندما ننهار من الداخل ونتقوّض، سوف يسيطر على هذه الأرض التي كافحنا بيأس لكي نجعلها يباباً. سوف يرحل عن الأراضي البور التي حوّلناها إلى مناطق مُقفلة ومنبوذة ويُطالب بالغابات والجداول التي كانت ذات يوم ملكه. وبعد رحيلنا سوف يرين عليها السكون من جديد: لا مزيد من المصانع والمعامل الشنيعة، ولا الأفران العالية، ولا المداخن. سوف يُعود للناس استبصارهم وتخاطرهم. إنَّ أدواتنا ليست إلا عكازات أصابتنا بالشلل. إننا لم نزدد إنسانيةً، عبر مكتشفاتنا وإبداعاتنا، بل ازددنا لا إنسانيّة. ولهذا يجب أنْ نفنى، أنْ يحل محلنا بشرٌ " أدنى " عاملناهم كالمنبوذين. إنهم على الأقلّ لم يفقدوا تواصلهم مع الأرض.

إنهم متجذرون وسوف يعودون إلى الحياة حالما يُزال عفن المدنية. قد يكون صحيحاً أنَّ هذه هي بوتقة صهر العالم. لكنَّ الانصهار لم يبدأ بعد. ولن تؤدي بوتقة الصهر الهدف منها إلا عندما يتّحد الإنسان الأحمر والأسود، والأسمر والأصفر مع شعوب الأرض البيضاء في مساواة كاملة، وبحبٍ واحترام تامين متبادلين. بعد ذلك سوف نرى على هذه القارة - بعد آلاف الأعوام من الآن - إرهاصات نظام حياة جديدة. ولكن أولاً يجب إذلال الأميركيّ الأبيض وإيقاع الهزيمة به؛ وعليه أنْ يتّضع ويبكي طالباً الرحمة؛ وعليه أنْ يعترف بآثامه وإهماله؛ وعليه أنْ يتضرَع ويُصلي لكي يُسمح له بالانتساب إلى الأخوية الجديدة والأعظم للإنسانية التي كان هو نفسه عاجزاً عن إيجادها.

كنا نتحدث عن الحرب. قال صديقي " لن يكون أمراً مُحزناً جداً إذا قام الشعب الذي أراد الحرب بالقتال، أما الأمر المُرعِب فهو دفع الشعب الذي لا يحمل أية كراهية، البريء، إلى القيام بالمذبحة. إنّ الحروب لا تُحقق أي شيء. واثنان على خطأ لا يقومان بأي شيء صائب. لنفرض أني هزمتك وقيّدتك - فبماذا ستفكّر ؟ سوف تنتظر فرصتك للنيل مني عندما تتمكن، أليس كذلك ؟ لا يمكنكَ أنْ تحافظ على السلام بتقييد الناس. يجب أنْ تعطي الناس ما يريدون - بل أكثر مما يُريدون. يجب أنْ تكون كريماً وسمحاً. الحرب يمكن إيقافها غداً إذا أردنا ذلك حقاً.

" ولكن أخشى أننا سوف ننضم إلى الحرب[٨٩] في غضون أقلّ من ثلاثين يوماً. ويبدو أنَّ روزفلت يريد أنْ يُقحمنا فيها. سوف يُصبح الدكتاتور التالي. أتذكَرُ عندما قال إنه سيكون آخر رئيس للولايات المتحدة ؟ كيف اكتسب الدكتاتوريون قوتهم ؟ أولاً تغلّبوا على القوى

العاملة المُنظَّمة، ألم يفعلوا ؟ حسن، يبدو أنَّ روزفلت سوف يفعل الشيء نفسه، أليس كذلك ؟ طبعاً، أنا لا أعتقد أنه سيُكمل مدّة رئاسته. وإذا اغتيل - وهذا أمرٌ وارد - سيصبح ليندبرغ[٩٠] رئيسنا التالي. إنَّ شعب أميركا لا يريد أنْ يذهب إلى الحرب. إنه يريد السلام. وعندما يُحاول رئيس الولايات المتحدة أنْ يجعل ليندبرغ يبدو خائناً فإنه يُحرِّض الشعب على الثورة. إننا معشر الشعب هنا لا نريد أية مشكلة مع البلدان الأخرى. نريد فقط أنْ نهتم بشؤوننا ونسير في دربنا المتواضع. نحن خائفون من أنْ يغزو هتلر هذا البلد. أما عن غزونا نحن لأوروبا - كيف سنفعل ذلك ؟ إنَّ هتلر هو سيد أوروبا وعلينا أنْ ننتظر حتى ينهار، هذا هو رأيي. أعطِ رجلاً قطعة حبل كافية وسيشنق نفسه، هذا ما أقوله دائماً. هناك طريقة واحدة فقط لإيقاف الحرب وهي أنْ نفعل كما يفعل هتلر - أنْ نبتلع الدول الصغيرة كلها، ونجرّدها من جيوشها، وننظِّم العالم. في وسعنا أنْ نفعل هذا! ***إذا أردنا ألا نكون أنانيين***. ولكن سوف نُضطر إلى أنْ نوفّر المساواة لكل إنسان. لم نتمكن من فعل ذلك كغزاة، كما يُحاول هتلر أنْ يفعل. لن ينفع هذا الحل. سوف نُضطر إلى أنْ نضع العالم كله في حسابنا ونسهر على أنْ يحظى كل رجل، وامرأة وطفل على معاملة عادلة. سوف يكون علينا أنْ نقدم شيئاً ***إيجابياً*** للعالم - ألا نكتفي بالدفاع عن أنفسنا، كما تفعل إنكلترا، ونتظاهر بأننا ندافع عن الحضارة. وإذا صممنا حقاً على فعل شيء من أجل العالم، ***بلا أنانية***، أعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ ننجح. ولكن لا أعتقد أننا سنفعل. ليس لدينا القادة القادرون على إلهام الناس على بذل ذلك الجهد. نحن

نسعى إلى إنقاذ صفقات العمل الكبرى، والتجارة العالمية، وما شابه من أشياء. وما ينبغي أنْ نفعل هو أنْ نقتل هتلرياتنا وموسولينياتنا أولاً. يجب أنْ ننظّف منزلنا أولاً قبل أنْ نباشر بإنقاذ العالم. بعد ذلك ربما يُصدّقنا شعب العالم ".

اعتذَرَ لأنه أطال في الكلام. قال إنه لم يتلقَّ يوماً أي تعليم ولذلك لا يستطيع أنْ يُعبِّر عن نفسه بشكلٍ حسن. إلى جانب أنه تخلّى عن عادة التحدُّث مع الناس، وأصبح ينفرد بنفسه أكثر. ولا يدري لماذا أطال في الكلام. على أية حال، شعر بأنَّ أفكاره على صواب، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، طيبة أم شريرة. كان يُؤمن بما يفكِّر.

قال: " المخ هو كل شيء. إذا أبقيتَ مخّك سليماً فسوف يعتني جسمك بنفسه. والسن يُقدَّر بمستوى التفكير. وأنا الآن أشعر بأني شاب، بل أصغر سناً مما كنت قبل عشرين عاماً. أنا لا أقلق بشأن الأشياء. فالذين يعيشون أطول هم الذين يعيشون حياة أكثر بساطة. المال لا يُنقذك. المال يدفعك إلى القلق والغضب. الانفراد بالنفس والصمت شيئان جيدان. وتقليب الأفكار. أنا أؤمن بالنجوم، في الحقيقة. أراقبها طوال الوقت. ولا أُطيل التفكير في أي شيء واحد. أحاول ألا أكون متزمتاً. كلنا سنموت ذات يوم، فلماذا نصعِّب الأمور على أنفسنا؟ إذا كان في وسعك أنْ ترضى بالقليل فسوف تنال السعادة. الشيء الأساسي هو أنْ تتمكن من العيش مع نفسك، أنْ تحب نفسك بقدرٍ كافٍ بحيث تحب أنْ تنفرد بها- ألاّ تحتاج إلى المُحيطين بك طوال الوقت. هذا رأيي، على أي حال. ولهذا تراني أعيش في الصحراء. لعلّ معرفتي ليست عميقة، ولكن ما أعرفه تعلّمته بنفسي ".

نهضنا لنرحل. قال " اسمي أولسن. أسعدني لقاؤك. إذا وصلتَ إلى بارستو عرِّج عليّ - أحبّ أنْ أتحدث معك من جديد. سوف أُريك سمكة من ما قبل التاريخ حصلت عليها في صخرة - وبعض الإسفنج والسرخس عمره مليونيّ عام ".

من غراند كانيون إلى بربانك

غادرت غراند كانيون عند الساعة التاسعة صباحاً من يومٍ دافئ، وأنا أصبو إلى الانحدار الشديد الهادئ والجميل من السُحب إلى مستوى البحر. والآن، عندما أستعيد تلك الذكرى، أواجه صعوبة في تذكُّر ما إذا كانت بارستو تقع قبل نيدلز أم بعدها. أتذكّر بغموض أني وصلتُ إلى كينغمان مع الغروب. تلك الضجة المُهدِّئة، التي كأنما صادرة عن أصفاد صغيرة تمر من خلال آلة عصر، وهو أفضل ما أحب في المُحرِّك، كانت قد تحوّلتْ إلى قرقعة مُخيفة، وكأنَّ تعشيق التروس، والنهاية القصوى، والترس التفاضلي، والكربوريتر، والثرموستات والعزقات كلها، والمسامير الملولبة وحاملات الكريات سوف تنهار في أية لحظة. كنتُ أتقدَّم ببطء، وأتوقف بعد كل عشرين أو ثلاثين ميلاً لأدع السيارة تبرد ولأضيف ماءً جديداً. كان الجميع يتجاوزوني، الشاحنات الثقيلة، والسيارات المتهالكة، والدراجات النارية، ودراجات القدم، وعربات تجرها ثيران، والسائرون على الأقدام، والجرذان، والسحالي وحتى السلاحف والحلزونات. ولدى مغادرتي كينغمان رأيت أمامي مساحة جميلة من الصحراء. زدت السرعة، وصممت على بلوغ نيدلز على الأقل قبل موعد النوم. وعندما وصلت إلى سفح جبل، بالقرب من أوتمن، بدأ

المشعاع يغلي ويفور. شربت علبة أخرى من الكولا - وكانت رقم خمس عشرة أو عشرين في ذلك اليوم - وجلستُ على عتبة باب السيارة في انتظار أنْ يبرد المحرّك من جديد. كان هناك وهج هائل يمتد على طول وادي كانيون. وكان هناك رجل سكران يتسكّع حول محطة الوقود. وكان يشعر برغبة في التحدث. قال إنها البقعة الأسوأ على الطريق العامة رقم ٦٦. إنها لا تتعدّى ١٢ ميلاً طولاً، لكنها خطرة جداً. لم يكن ما يُقلقني إنْ كانت الطريق خطرة أم لا ولكن ما إذا كان الماء سيغلي قبل أنْ أتمكّن من الوصول إلى أعلى الدرب. حاولتُ أنْ أعرف إنْ كانت الطريق إلى أعلى طويلة أم قصيرة وشديدة الانحدار. كان يُكرر "ليس هناك أي جزء فيها لا تنهار فيه صعوداً بسرعة كبيرة". لم يعن هذا الكلام أي شيء بالنسبة إليّ إذا كانت السيارات الأخرى تنهار صعوداً فإني سأنهار أولاً. قال " طبعاً الهبوط لا يقل سوءاً. المسافة إلى أعلى لا تزيد على أربعة أميال إلى القمة. فإذا استطعتَ أنْ تجتازها ستسلم". هو لم يقُل " ***عندما*** " تجتازها، كما يُقال عادة. لم تُعجبني هذه الـ " إذا ". سألت " ماذا تعني، أهي شديدة الانحدار؟ " كلا، ليست شديدة الانحدار- بل متعرجة، هذا كل شيء. يبدو أنَّ الناس يُصابون بالذعر عندما يجدون أنفسهم معلّقين فوق حافة الجُرف. هكذا تقع التصادمات. راقبتُ الشمس وهي تسرع في المغيب. وتساءلت إذا كان المصباح الوحيد السليم سوف يصمد. تحسّست غطاء المُحرِّك لأرى مدى برودته. كان ما يزال حاراً كالفرن. حسن، هناك ثمانية أميال من الهبوط، كما تخيلت. إذا تمكنتُ من بلوغ القمة فقد أتمكن من الهبوط - هذا سيُبرّده.

شغَلتُها. كانت تُصدِر ضجيجاً فظيعاً، ضجيجاً إنسانياً، وكأنَّ عملاقاً جريحاً يصرخ من شدة الألم. الدلالات كلها كانت تشير إلى وجوب السير ببطء. بدل ذلك أسرعت أكثر. كنتُ أنطلق بالسرعة القصوى وصممت على الاستمرار بسرعة حتى أبلغ القمة. ولحسن الحظ لم أتجاوز إلا سيارتين. ومن زاوية عيني كنتُ أحاول أنْ أنظر إلى المشهد في الأسفل. كان كل شيء غير واضح - لم أر إلا امتداداً لا ينتهي من الأرض المرتفعة يسبح في نار سائلة. وعندما وصلت إلى القمة كان المقياس يُشير إلى ١٩٥ درجة. كان معي وعاء يتسع لغالونين من الماء ولا خوف من أنْ أنقطع. قلت لنفسي " ها نحن بدأنا نهبط. سوف تبرد في الحال ". أعتقد أنَّ أوتمن هي التي شاهدتها في أسفل الطريق. كان يمكن أنْ تكون نهاية العالم. كان مكاناً رهيباً ولم أفهم السبب الذي يدفع أي إنسان إلى العيش هناك، ولكن لم يكن لدي وقت لأقلب التفكير في الأمر مطولاً على الرغم من أني كنتُ أخفض نفسي ببطء وحذر. بدا لي أنْ أسنان العجلة تنزلق. كانت تسير بالسرعة الأولى لكنها كانت تندفع بسرعة فائقة. حاولتُ أنْ أضغط على المكابح عند المنعطفات الحادة وفي المنحدرات الحادة للبلدة. لم تنفع كل الطرق في كبحها كما ينبغي. الشيء الوحيد الذي عمل بنجاح كان البوق. في المعتاد يكون صوته ضعيفاً أما الآن إذا به فجأةً يُصبح قوياً وحيوياً. أضأت المصباح الوحيد الضعيف وأصدرت صوتاً كصياح الإوز. كانت الدنيا ظلاماً. وكنتُ أهبط منحدراً طويلاً ورقيقاً منعني مع ذلك من السير بأسرع من ٣٠ ميل في الساعة. حسبتُ أني أطير- عندما نظرت إلى جانب الطريق - لكنَّ الوهم في الواقع كان شعوري بأني تحت المياه، بأني أقود نوعاً غريباً من

الغواصات المكشوفة. وعلى الرغم من السقوط كان الجو دافئاً، دفء مسائي ممتع يغزو المسامّ ويُسبب الاسترخاء. وبدأتُ أشعر بالمرح. كانت تلك المرة الثالثة أو الرابعة التي أقود فيها سيارة وحدي ليلاً، لأنَّ بصري كان ضعيفاً والقيادة ليلاً فنٌ كنتُ قد نسيت أنْ أتدرّب عليه وأنا أتلقّى الدروس في نيويورك. بدا أنَّ الناس يتجنبوني لسبب غامض. وأحياناً يُخفّفون السرعة حتى درجة الوقوف لكي يفسحوا لي المجال لأعبر. وكنت قد نسيت أمر ذات ليلة. كان القمر ساطعاً وبدا لي أنه كان برّاقاً إلى درجة يمكن معها القيادة من دون اللجوء إلى الأضواء. ولم يكن في وسعي رؤية أمامي أبعد من بضع ياردات، ولكن كانت تلك هي مقدرتي على الرؤية، لذا بدا أنَّ كل شيء طبيعي تماماً.

بدا الاقتراب من الوصول إلى نيدلز فجأةً أشبه بالوصول إلى دفيئة. فالجو كان عطِراً بقوة وأصبحَ أشدّ دفئاً. وحالما اقتربتُ مما بدا أنه مُجمَّع للمياه، بحيرة ربما، اندفع رجل بزيٍّ رسمي إلى منتصف الطريق وأمرني بالتوقف عند الرصيف. قال بهدوء "توقف". وشعرت بدوار شديد إلى درجة أني لم ألاحظ أنَّ السيارة كانت لا تزال تسير. قال، بلهجة حازمة أكثر "اضغط على المكابح". كان يمثل مكتب تفتيش كاليفورنيا. قلت، وأنا مسرور من نفسي " إذن فأنا في كاليفورنيا؟ "، قال على سبيل الجواب " من أين أتيت؟ ". للوهلة الأولى لم أتمكن من التفكير. من أين أنا قادم ؟ من أين ؟ ولكي أكسب بعض الوقت سألته ماذا يعني. سألت " تسأل من أين أنا قادم ***هذا اليوم*** - أم ماذا ؟ ". إنه يعني هذا الصباح، هذا واضح، من نبرة الاشمئزاز التي شدَّد بها على ما قال. فجأة تذكّرت - من غراند كانيون الذي غادرته في صباح ذلك اليوم. يا الله،

كم كنت سعيداً لأني تذكّرت. فهؤلاء الأشخاص يمكن أنْ يكونوا شكّاكين لدرجة فظيعة عندما تخونك ذاكرتك هنيهة. سأل " هل تسافر وحدك؟ ". وجّه مصباحه نحو الداخل الفارغ للسيارة ثم انتقل إلى السؤال الثاني. "هل أنت مواطن أميركي؟". بدا هذا السؤال سخيفاً جداً - بعد كل ما مررتُ به منذ الصباح. كدتُ أضحك في وجهه، بصورة هستيرية. قلت بهدوء " نعم، أنا مواطن أميركي"، وأنا راضٍ عن نفسي، وفي منتهى السعادة لأني لم أكن مُضطراً إلى تقديم بطاقة هويتي أو أي دليل أحمق آخر على وضعي. "مولود في نيويورك؟"، أجبتُ " نعم، مولود في نيويورك "، " في مدينة نيويورك ؟ "، " نعم، يا سيدي، في مدينة نيويورك ". ثم بدا لي أنه سأل عن الحشرات، وأوراق الملفوف، ووحيد القرن، والعشب العفن والفورمالدهايد، وأجبت عليها كلها بشكلٍ غريزي بكلا يا سيدي، كلا يا سيدي، كلا يا سيدي! كان درساً صغيراً في الأصول لكننا كنا في كاليفورنيا وثمة بحيرة كبيرة أو ما شابه على جانب الطريق وسجلّ العدّاد يقترب من ٢٠٠ من جديد.

قال " أتعلم أنَّ أضواءك مُطفأة ؟ "

أجبت بصوت ملائكي، وأنا أوقف المُحرّك وأترجّل لكي ألقي نظرة عليها، " لا يمكن ".

قال " إلى أين ذاهب الآن ؟ "

" إلى نيدلز. أهي بعيدة جداً من هنا ؟ "

قال " بضعة أميال فقط "

" عظيم. إذن سأنطلق. أنا ممتن لك كثيراً "

ركبتُ وانطلقتُ مع ضجيج وقرقعة هائلَين. بعد بضعة ياردات

توقفتُ من جديد. مال رجل يحمل مصباحاً، ثمل قليلاً، يترنّح ويتمايل، من جانب السيارة، ثم أمسكني من ذراعي، وسألني عن الطريق إلى الجهة الفلانية، وكانت بلدة لم أسمع باسمها مرة في حياتي.

قلت، دون أنْ أتوقف لحظة واحدة للتفكير، " إلى اليسار"

قال، ورأسه يترنّح فوق المقود بطريقة مرنة مُذهلة، " أأنت متأكّد من هذا ؟ "

قلت، وأنا أشغّل السيارة، " كل التأكُّد "

قال " لا أريد أنْ أعود إلى كينغمن"

قلت، وأنا أضغط على دواسّة الانطلاق وأُعرِّض رأسه للقطع، "كلا، لن تفتقدها. خذ المنعطف الأول إلى اليسار - وامش مسافة قصيرة على الطريق "

تركته واقفاً في وسط الطريق يغمغم لنفسه. وكل ما تمنيت هو ألا يُحاول أنْ يتبعني مع مرحه الثمل ويدفعني إلى السقوط في الخندق، كما فعل شخص قابلته في تكساس ذات يوم، بالقرب من فيغا، أصرَّ على أنَّ هناك عطلاً ما - لقد توقف المولِّد، كما قال - وحاولَ أنْ يُرافقني إلى البلدة التالية لكنه بفعله ذلك كاد يُدمّرني. فما أراد فعلاً هو أنْ يشرب الخمر. أمرٌ غريب أنْ يستوقفك سكّير ظمآن في وسط الطريق ليلاً! وهذا، طبعاً، أفضل من أنْ تستوقفك امرأة حبلى مع خمسة أطفال، كما حدث لأحد أصدقائي.

في بلدة نيدلز آويت إلى الفراش فور انتهائي من تناول وجبة العشاء، مُخططاً للاستيقاظ عند الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي. ولكن في الساعة الثالثة والنصف سمعت الديوك تصيح وشعرت

بانتعاش تام فأخذتُ دشاً وقرّرت أنْ أنطلقَ مع انبلاج الفجر. تناولت طعام الإفطار، وتزودت بالوقود، وكنت على الطريق عند الساعة الرابعة والنصف. كان الجو يميل إلى البرودة في مثل تلك الساعة - كانت الحرارة نحو ٢٣ درجة أو ٢٧ درجة. أشار المقياس إلى نحو ١٧٠. وقدَّرتُ أنني قبل أنْ يبدأ الحر الحقيقي يجب أنْ أصل إلى بارستو - فلنقُل بحلول الساعة التاسعة صباحاً حتماً. وبين حين وآخر كان يبدو كأنَّ طائراً مجنوناً يطير مخترقاً السيارة، مُصدِراً سقسقة غريبة ظللتُ أسمعها منذ أنْ غادرت جبال أوزارك. كان نوعاً من الموسيقى تُصدرها الأشرعة الرباعية الأضلاع عندما تكون مشدودة أو رخوة أكثر مما يجب. ولم أتيقَّن قط ما إذا كان الصوت صدر عن السيارة أم عن الطيور، وأحياناً كنت أتساءل إنْ كان هناك طائر محبوس في خلفية السيارة وربما يحتضر من العطش أو الإحساس بالكآبة.

بينما كنتُ أغادر البلدة مرّت سيارة من نيويورك بجانبي وأبطأتْ وهتفت امرأة في نشوة - "مرحبا، نيويورك!". كانت إحدى أولاء المذعورات اللواتي يُصبنَ بنوبة هستيريا دون سابق إنذار. كنّ يسرن على هواهن، بسرعة نحو خمسة وأربعين ميلاً في الساعة، وفكّرت في أنْ أسير خلفهن. بقيتُ معهن على مدى ما يُقارب الثلاثة أميال ثم وجدت المقياس يصعد إلى ١٩٠. خفّفت السرعة إلى مستوى السير على القدمين وبدأتُ أجري بعض الحسابات الذهنية. في ألبوكركي، عندما قمت بزيارة مُصلح السيارات البارع، هيو دتر، تعلّمتُ أنَّ هناك فرقاً بين قراءة المقياس وقراءة ميزان الحرارة. الفرق هو خمس عشرة درجة، يُفترَض أنها لصالحي، على الرغم من أنَّ ذلك يحدث عملياً. لقد فعل هيو ديتر

كل ما في وسعه للتغلُّب على مشكلة ارتفاع الحرارة- ما عدا مشكلة غليان المشعاع. لكنَّ ذلك كان خطئي أنا. قلت له إنَّ ذلك حدث قبل نحو أربعة آلاف ميل. وعندما وصلت مدينة جوزيف، في أريزونا، قابلت تاجراً هندياً عجوزاً، وأدركتُ أنه ليس أمامي إلا أنَّ أُنظِّفها من جديد. كان اسمه بوشمان، وكان لطيفاً معي ورافقني حتى وينسلو لكي يضعني بين أيدٍ أمينة. وهناك قابلت صهره، وهو بارع آخر في مجال السيارات، وانتظرت أربع ساعات أو نحوها حتى يغلي المشعاع، ومُدِّد الزمن، ثم غيَّرَ حزام المروحة، ودغدغَ الرؤوس، وحلّ الصمامات، وعايَرَ الكربوريتر، وما إلى ذلك. وذلك كله مقابل مبلغ متواضع هو أربع دولارات. بعد تلك العملية، كان شيئاً رائعاً أنْ أركب إلى فلاغْستاف تحت شمس بعد الظهيرة والعدّاد يُسجل ١٣٠! كدتُ لا أصدّق عينيّ. طبعاً، بعد حوالي الساعة، أثناء سيري على منحدر طويل في طريقي إلى كاميرون، في الوقت الذي بدأ فيه الجو يغدو بارداً، بدأ ذلك الشيء اللعين يغلي. ولكن حالما خرجت من الغابة وانتقلت الى المناطق الخالية من البشر حيث الجبال بلون النبيذ، والتربة بلون أخضر البازلا، والهضاب المستوية وردية، وزرقاء، وسوداء وبيضاء، أصبح كل شيء جميلاً. وعلى مدى نحو أربعين ميلاً لا أتذكّر أنني مررتُ بمخلوق بشري واحد. ولكن هذا يمكن طبعاً أنْ يحدث تقريباً في أي مكان يقع إلى الغرب من المدن الكبرى. ولكن هنا الوضع مُرعب. مرّت بي ثلاث سيارات ثم سادت فترة من الصمت والفراغ، من انحسارٍ مستمر، مشؤوم، لأي أثر للحياة الإنسانية، أو النباتية والخضراء، أو لحياة النور. فجأةً، ومن دون مقدمات، كما بدا، خبَّ ثلاثة من راكبي الخيل إلى منتصف الطريق

وعلى مسافة خمسين ياردة أمامي. لقد تجسّدوا، حرفياً. للوهلة الأولى فكّرت في أنَّ ذلك عملية قطع طريق. ولكن كلا، قفزوا لحظة أو اثنتين في وسط الطريق، ثم لوحوا بأيديهم مُحيين، وحثّوا خيولهم على التقدُّم إلى خلاء الغروب السحري، واختفوا في المدى في غضون ثوان. والمُذهل بالنسبة إليّ كان أنه بدا أنَّ لديهم حسّاً خاصاً بالاتّجاه؛ انطلقوا يخبّون وكأنهم متوجهون إلى مكان معيَّن في حين أنَّ من الواضح أنَّ لا مكان يتجهون إليه. وعندما وصلت كاميرون كدتُ أتجاوزها. ولحسن الحظ كانت هناك محطة وقود، وبضعة أكواخ، وفندق وبعض أكواخ الهنود الطينية على جانب الطريق. سألت، معتقداً أنها مختفية خلف الجانب الآخر من الجسر، " أين تقع كاميرون؟"، قال الرجل العامل في محطة الوقود " أنت فيها ". فُتِنتُ بغرابة الديكور إلى درجة أني قبل أنْ أحجز غرفة تمشيت حتى نهر ليتل كولورادو وملأت عينيّ من منظر الكانيون هناك. ولم أعلم حتى صباح اليوم التالي أني كنتُ أُقيم بجوار "الصحراء المرسومة" التي كنتُ قد غادرتها في صباح اليوم السابق. وكنتُ أحسب أني وصلت إلى آخر العالم، إلى نقطة مُخبّأة من العالم حيث تختفي الأنهار والحِمم الحارة تدفع بالغرانيت عالياً داخل العروق ذات اللون الوردي، كبواسير جيوديسيّة.

حسن، على أية حال، فلنعُد إلى موضوعنا. أين كنت؟ بصورة ما، منذ أنْ وصلت توكومكاري انتابني ارتباك كامل. كان قد كُتِبَ على رقع الرخصة في نيومكسيكو: "أرض السحر". وهذا صحيح، وحقّ الله! وهناك مستطيل يُعانق أجزاءً من أربع ولايات- يوتاه، كولورادو، نيومكسيكو وأريزونا - وهو ليس إلا سِحراً، وشعوذة، وخِداعاً،

ومجموعة أوهام. لعلّ سحر القارة الأميركية يكمن في هذه المنطقة البريّة، والوعرة وغير المُكتَشَفة جزئياً. إنها أرض الهنود بامتياز. كل شيء ناعس، وتحت أرضي وسماوي علوي. هنا أُصيبت الطبيعة الأم بالخرف والذهول. والإنسان فيها ليس أكثر من ظاهرة فجائية، ثؤلول أو بثرة. الإنسان غير مرغوب فيه هنا. الناس الحُمر، نعم، لكنهم أُبعِدوا كثيراً عما نعتقد أنه إنسان إلى درجة أنهم يبدون كأنهم نوع آخر. في الصخور مدفونة رموزهم وحليّهم وحروفهم المُبهمة. ناهيك عن آثار حوافر الديناصورات ووحوش ما قبل الطوفان الثقيلة الحركة. وعندما تصل إلى غراند كانيون يبدو وكأنَّ الطبيعة تخرّ وتبتهل. والمسافة بين إحدى ضفّتيّ الكانيون والضفة الأخرى تتراوح بين العشرة والثمانية عشر ميلاً، ولكن عبورها سيراً على الأقدام أو على ظهور الخيل يستغرق يومين. ويستغرق عبور البريد من ضفة إلى أخرى أربعة أيام، وهي رحلة خيالية تجتاز فيها رسائلك أربع ولايات. والحيوانات والطيور نادراً ما تعبر الهوة. الأشجار والحياة النباتية تختلف من نجد إلى آخر. وأثناء الانتقال من الذروة إلى الوادي تمر حرفياً بتغيّرات الطقس المعروفة على هذا الكوكب كلها، ما عدا أجواء القطبين الشمالي والجنوبي المتدنية. ويقول العلماء أنه بين تشكلَين من الصخور هناك فترة ٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ عام. من الجنون، الجنون المُطبق، وفي الوقت نفسه من الفخامة، والسموّ، والوهم، أنه عندما تصل إليه للمرة الأولى تنهار وتبكي من فرط الفرح. *أنا* فعلت هذا، على الأقلّ. وعلى مدى أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أتوق بألم لأرى هذه الهوة الهائلة من الأرض. وكفيستوس، وميسينا، وإبيدوروس، هي واحدة من البقاع القليلة على هذه الأرض التي ليست

فقط ترقى إلى مستوى التوقعات كلها بل وتسمو عليها. وكان صديقي بوشمن، الذي عمل دليلاً هنا عدداً من السنين، قد قصَّ عليّ بعض الحكايات الرائعة عن غراند كانيون. وأستطيع أنْ أصدق أي شيء يُحكى عنه، سواء أكانت تتعلّق بالعصور والتشكيلات الجيولوجية، أو فلتات الطبيعة في الحياة الحيوانية أو النباتية، أو الأساطير الهندية. وإذا أخبرني أحدهم أنَّ الذُرى والهِضاب والمدرّجات التي تُسمّى بشكل مناسب وعلى التوالي ببرج ست، وهرم خوفو، ومعبد شيفا، ومعبد أوزوريس، ومعبد إيزيس، إلى آخره، هي من إبداع لاجئين مصريين، أو هندوس، أو فرس، أو كلدانيين، أو بابليين، أو أثيوبيين، أو صينيين أو تبتيين، فسوف أوليه أُذناً صاغية. إنَّ غراند كانيون هو لغز ومهما تعلّمنا لن نتعرّف على الحقيقة المُطلقة حوله...

كما قلت، كنتُ ألج الصحراء التي تمتد بين نيدلز وبارستو. كانت الساعة السادسة في برودة صباح الصحراء وأنا جالس على عتبة باب السيارة في انتظار المحرّك ليبرد. كان ذلك الأمر يتكرّر بفواصل منتظمة، كل عشرين إلى ثلاثين ميلاً، كما ذكرتُ من قبل. وبعد أنْ قطعت نحو خمسين ميلاً أصبحت السيارة تُبطئ، ووجدتُ أنه إيقاع عادي، وليس في مقدوري أنْ أفعل ما من شأنه أنْ يجعلها تغيِّر سرعتها. لقد حُكِمَ عليّ بالزحف بسرعة عشرين إلى خمسة وعشرين ميلاً في الساعة. وعندما وصلتُ إلى مكانٍ أعتقد أنه كان يُدعى أمبوي، تبادلتُ حديثاً هادئاً، مواسياً، مع جرذ صحراء عجوز كان تجسيداً للسكينة، والصفاء، والمحبة. قال " لا تغضب، ستصل في الوقت المناسب. إذا لم يكن اليوم فلِمَ لا يكون غداً؟ لا فرق". وكان أحدهم قد

سرق آلة بيع الفول السوداني الشقّية خلال الليل ولم ينزعج البتّة. أرجع الأمر إلى الطبيعة الإنسانية. قال " بعض الناس يجعلونك تشعر كأنك ملك، وبعضهم الآخر كأنك أدنى من دودة. إننا نتعلّم الكثير عن الطبيعة الإنسانية أثناء مراقبتنا عبور السيارات". وكان قد حذّرني من أني سأصل إلى مسافة أربعين ميلاً سوف تبدو كأنها أطول أربعين ميلاً قطعتها. قال " لقد مررت بهذا مئات المرات، وفي كل مرة تبدو الأميال وكأنها تمتد وتمتد وتمتد".

وحقّ الله كان على حق! لقد حدث ذلك معي حالما غادرته. لم أكن قد قطعت أكثر من نحو خمسة أميال عندما توقفت على جانب الطريق وبدأتُ أتلو صلواتي. لجأت إلى سقيفة ذات سقف من القصدير ورحتُ أعبثُ بإبهاميّ بصبر. على الجدار كان هناك ما يشبه الكتابة المُبهمة هي اسم للآلة- الأجزاء التي تعطّلت وجعلت منها ركاماً. كانت هناك أشياء كثيرة، وِفقاً لتلك الرموز، يمكن أنْ تُسبب الحمّى والزحار حتى إني تساءلت كيف يمكن لأي شخص أنْ يضع إصبعه على المشكلة من دون أنْ يحصل أولاً على شهادة من مدرسة هنري فورد للشيطنة الميكانيكية. وزيادة على ذلك، لقد بدا لي أنّ الأجزاء الرقيقة، المزعجة المُشار إليها كلها عولجَتْ، في حالة سيارتي ***الكارابانك***[٩١]. بدا لي أنَّ العمر وحده يستطيع أنْ يُفسّر أشياء كثيرة. لم تعد أعضائي الحيوية تعمل بشكل جيد، وأنا لست بالضبط موديلاً قديماً، كما يقولون.

حسن إذن، خطوة بخطوة. رحت أردد لنفسي "لا تغضب!". كانت الموديلات الجديدة تعبر بسرعة من أمامي بسرعات تتراوح بين خمسة وسبعين وثمانين ميلاً في الساعة. مُكيّفة الهواء، في مُعظمها. بالنسبة

إليها عبور الصحراء ليس بالأمر الجلل - إنها مسألة ساعتين من الزمن- والمذياع يبثّ لهم أغاني بينغ كروسبي أو كونت بيسي.

مررتُ ببلدة لدْلو مقلوباً. كان الذهبُ منثوراً في كل مكان على شكل كتل كبيرة برّاقة؛ وثمة بحيرة من الحليب المُكثّف تجمَّد أثناء الليل؛ وهناك نخيل اليوكا، فإذا لم يكن اليوكا فالتمر وإذا لم يكن تمراً فجوز الهند- وأزهار الدفلى وسمك الفرخ المُخطط البحري من مستنقعات إفرغليد. كان الحر يتصاعد مائلاً، وزهرة سلّم يعقوب تُرى من خلال مرآة مموَّجة؛ والشمس أضحتْ عجّة دموية تُقلى حتى الهشاشة؛ وزيز الحصاد يصرّ وذلك الطائر الغامض في خلفيّة السيارة وجد له سبيلاً بصورة ما إلى تحت قدميّ بين القابض والمكبح. كل شيء كان بطيئاً، بما فيه جهاز بيانو مُصغَّر وصفير البخار الذي اشتبك مع الكونيّ أثناء مرور المياه الجوفية في الليلة السابقة. كان تنافراً هائلاً من الحرارة والغموض، والمحرك يغلي في الزيت كآلة عتيقة، وأُطُر الدواليب تتمدَّد كشراغف ميتة، والبندق يتساقط كأسنان عجوز. الأميال العشر الأولى بدت كأنها مئة، والأميال العشر الثانية كأنها ألف، وباقي الطريق لا يمكن حسابه بالمقاييس الإنسانية.

وصلتُ إلى بارستو عند حوالي الواحدة بعد الظهر، بعد اجتياز امتحان آخر على أيدي مراقبي النبات، والقمل، والخضار في داغت أو ما شابه من أماكن آثمة. لم أكن قد تناولت الطعام منذ الرابعة صباحاً ومع ذلك لم تكن لدي أية شهية. طلبتُ قطعة لحم، وازدردتها حتى آخرها، وغصت في الشاي المُثلّج. وأثناء جلوسي هناك أمعنُ في الدرس وأسجل شهادتي باللغات كلها لمحتُ امرأتين عرفتُ أنهما من ضيوف

مثوى برايت إينجل لودج. كانتا قد غادرتا غراند كانيون في الصباح ولعلهما ستتناولان العشاء في كالغاري أو أوتاوا. شعرتُ كأني حلزون يعاني فرط الحرارة. وتبخّرت مقلاة مخي. وطبعاً لم أفكّر في أولسن. كنتُ أعصر ذهني مُحاولاً أنْ أتذكّر إنْ كنتُ قد انطلقتُ من فلاغستاف، أم نيدلز أم وينسلو. وفجأةً تذكّرتُ نزهة قمتُ بها في ذلك اليوم- أم هل كانت قبل ثلاثة أيام؟ - إلى متيور كريتر. وأين تقع متيور كريتر بحق الشيطان؟ شعرتُ كأني أهلوس. كان النادل يضع الثلج في الكأس. في تلك الأثناء كان صاحب المطعم قد تناول مسدس ماء وأخذ يقتل الذباب على باب الستارة في الخارج. كان عيد الأم. وهذا بيَّن لي أنه يوم أحد. وكنت آمل أنْ أجلس بهدوء في ظل بارستو وأنتظر غروب الشمس. ولكن لا يمكن الجلوس على مدى ساعات في مطعم إلا بغرض تناول الطعام والشراب. وتوترت أعصابي. قرّرت أنْ أتوجه إلى مكتب الهاتف وأُرسِل بطاقة تهنئة بعيد الأم جاهزة الصنع من بارستو. كان الجو في الخارج شديد الحرارة؛ والشارع أشبه بثمرة موز مقلية ويتصاعد منها اللهب بفعل الرَمْ وسائل الكريوسوت[٩٢]. كانت المنازل تذوب، وترتخي على رُكبها، مُهددة بأنْ تصبح غراء أو غلوكوزاً. وحدها محطات الوقود بدت قادرة على الصمود. بدت هادئة، فعّالة، وجذّابة؛ كانت معصومة من الخطأ وتفيض بالمُحاكاة الساخرة. لم تكن لها أية صِلة بالحياة الإنسانية، ولا تنطوي على أي أسى.

كان مكتب الهاتف داخل محطة سكة الحديد. جلستُ على مقعد في الظل، بعد إرسال برقيتي، وعدتُ بذاكرتي إلى عام ١٩١٣، إلى الشهر نفسه وربما اليوم نفسه، عندما شاهدت بارستو للمرة الأولى من

خلال نافذة إحدى مراكب السكة الحديد. كان جسم القطار الرئيس ما يزال متوقفاً في المحطة، كما كان قبل ثمانية وعشرين عاماً مضت. لم يتغيّر شيء ما عدا أني جررتُ جسمي في منتصف الطريق حول العالم وعدتُ من جديد في الوقت المُحدَّد. وأشد ما أتذكّر وضوحاً، ويا للغرابة، كان رائحة ومشهد ثمار البرتقال تتدلى من الأشجار. ولاسيما الرائحة. وكأني أقترب من امرأة للمرة الأولى- امرأة لم أجرؤ يوماً على الأمل بمقابلتها. وأتذكّر أشياء أخرى أيضاً، لها صلة أقوى بالليمون أكثر من البرتقال. العمل الذي توليته بالقرب من تشولا فيستا، وحرق الأعشاب تحت الشمس المتلظية. المُلصَق على الجدار في سان دييغو الذي يُعلن عن سلسلة قادمة من المحاضرات ستُلقيها إيما غولدمن - شيء غيَّرَ مسار حياتي كله. البحث عن عمل في مزرعة مواشي بالقرب من سان بيدرو، مُعتقداً أني سأصبح راعي بقر لأنني مللت قراءة الكتب. الليالي التي أمضيتها واقفاً في رواق المبنى البسيط أنظر باتجاه بوينت لوما، أتساءل إنْ كنتُ قد فهمتُ ما جاء في ذلك الكتاب الغريب الذي وجدته في المكتبة في بروكلن- "*البوذية السرّية*". وعودتي إليه في باريس بعد ذلك بنحو عشرين عاماً وولهي به. كلا، لا شيء طرأ عليه تغيُّر متطرّف. حدثت توكيدات، تعزيزات، ولكن ليس إحباطاً. في سن الثامنة عشرة كنت فيلسوفاً أكثر مما يمكن أنْ أكون. كنتُ فوضوياً في القلب، وغير موالٍ في الروح، وأعمل لحساب نفسي وقاطع طريق. لدي صداقات قوية، وضغائن قوية، وأمقت كل ما هو فاتر أو وسطيّ. حسن، لم أكن أحب كاليفورنيا حينئذٍ وراودني حدس مُسبق بأني لن أحبها الآن. ثمة شوق واحد تلاشى- وهو الرغبة في مشاهدة المحيط الهادئ. إنَّ المحيط

الهادئ يجعلني لا مبالياً. على أي حال، هذا الجانب منه، الذي يغسل شاطئ كاليفورنيا. البندقية، وريدوندو، ولونغ بيتش - لم أزرها بعد، على الرغم من أنه لا يفصلني عنها أكثر من مسير بضع دقائق، بما أني في هذه اللحظة الزمنية بالضبط من الزيغ موجود في مدينة هوليوود المصنوعة من السيلويد.

حسن، كانت السيارة قد بردت لذا تناولت بعض الطعام. وكان في الواقع قد انتابني شيء من الحزن. ثم هيا إلى سان برناردينو!

على مدى عشرين ميلاً بعد بارستو يسير المرء على لوح صد أمواج وسط كثبان رملية تذكّر ببرغن بيتش أو مانارسي. وبعد قليل تلاحظ وجود مزارع وأشجار، أشجار خضراء ضخمة تتهادى في وجه النسيم. وفجأةً عاد العالم إنسانياً من جديد - بسبب الأشجار. ببطء، بالتدريج، تبدأ بالارتقاء. وترتقي معك الأشجار والمزارع والمنازل. وبعد كل ألف ميل هناك شارة تدل على مقدار الارتفاع. ويُصبح المشهد العام متعلقاً بدرجة الحرارة. وتكتنفك سلاسل مُسننة، شاهقة، من الجبال تتلاشى حتى درجة الغياب وسط أمواج حرّ بعد الظهيرة الراقصة. بل إنَّ بعضها تلاشى تماماً فعلاً، مُخلّفاً وراءه فقط الثلوج الوردية تخفقُ في السماء - كقرن من المثلجات من دون قرن. وأخرى تترك فقط واجهة مكشوفة من الكرتون - لتدل على وجودها الفعلي.

على مسافة نحو ميل في الفضاء انقضَّ علينا الله وتوابعه من الفلك المُجنَّح وأعماله كلها. فجأةً تتقارب سلاسل الجبال كلها- كأحد أعمال الدعاية الجسور. ثم كان انفجار من الخُضرة، أشد ما يمكن تصوّره من أنواع الخُضرة نضارة وجموحاً، كأنما لتبرهن دون أدنى ظل من الشك

على أنَّ كاليفورنيا هي بحق الجنّة التي تفخر بكونها كذلك. وبدا كل شيء ما عدا المحيط محشوراً داخل ذلك السيرك العلِوي ذي مساحة الميل بسرعة ستين ميلاً في الساعة. لم أكن أنا مَنْ شعر بالإثارة - بل الرجل داخلي الذي يحاول أنْ يأسر من جديد الإثارة المُتخيَّلة للروّاد الذين مروا من هذا الطريق سيراً على الأقدام وعلى ظهور الخيل. لا يمكن للمرء وهو جالس في السيارة، مُحاصَر بسرب من مهووسي بعد ظهيرة يوم أحد، أنْ يعرف الانفعال الذي يولّده مثل ذلك المشهد في صدر الإنسان. أريد أنْ أعود من ذلك الدرب - درب كاجون- سيراً على قدميّ، حاملاً قبعتي بيدي احتراماً ومُحيّياً الخالق. أودّ أنْ يكون الطقس شتاءً مع غطاء خفيف من الثلوج يكسو الأرض وتحتي مركبة جليد كالتي استخدمها جان كوكتو[٩٣] عندما كان صبياً صغيراً. أودّ أنْ أنساب إلى داخل سان برناردينو وأغطس في الماء. وإذا كان هناك برتقال ينضج فقد يتلطّف الله ويضع بعضاً منها في متناولي حتى أتمكن من قطفها بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة وأُعطيها للفقراء. طبعاً البرتقال موجود في ريفرسايد، ولكن بوجود مركبة جليد وغطاء رقيق من الثلج ماذا يهم بعض التشوُّش الجغرافي!

إنَّ الأمر المهم الواجب تذكّره هو أنَّ كاليفورنيا تبدأ في كاجون باس على مسافة ميل في الهواء. وأي شيء سابق لهذا مجرد مقدمة واستهلال. بارستو موجودة في نيفادا ولادلو مجرد وهم وسراب. أما نيدلز، فهي في قاع المحيط في زمن آخر، ربما في العصر الجيولوجي الثلثي[٩٤] أو بالدهر الوسيط.

عندما وصلتُ إلى بربانك كان الظلام قد هبط وامتلأ بالطائرات الجنينية. كان سرب من التلاميذ الميكانيكيين جالسين على حافة الطريق

الرئيس يأكلون شطائر جافة ويشربون وراءها كوكا كولا. حاولت أنْ أستحضر شعوراً بالتكريس في ذِكرى لوثر بربانك لكنَّ حركة المرور كانت مزدحمة جداً وليس هناك مكان لركن السيارة. لم أرَ أية صِلة بين لوثر والبلدة التي تُسمّى باسمه. أو لعلهم سمّوها على اسم بربانك آخر، ملك مياه الصودا أو الفُشار أو الصمامات المُصفّحة. توقفت عند إحدى الصيدليات وأخذت محلول سيلتزر- لعلاج "الصداع البسيط". وبدأتْ أشعر بكاليفورنيا الحقيقية. أردتُ أنْ أتقيّأ. لكنَّ التقيُّؤ علناً يحتاج إلى تصريح رسمي. لذلك قدتُ السيارة إلى أحد الفنادق وحجزتُ غرفة جميلة مزودة بجهاز راديو بدا أشبه بمستودع للغسيل القذر. كان بنغ كرسبي يغني غناءه العاطفي- الأغنية القديمة نفسها التي كنت قد سمعتها في تشاتانوغا، وفي حانة بوزويل، وفي تشيكاموغا وأماكن أخرى. طلبتُ سماع أغنية لكوني بوزويل[٩٥] ولكن لا أحد كان يحتفظ بأغانيها في تلك اللحظة. خلعتُ جوربي وعلّقته حول مفتاح المذياع وخنقته. كانت الساعة الثامنة وكنتُ قد استيقظت في الفجر قبل نحو خمسة أيام، كما بدا. كان المكان خالياً من الخنافس أو بق السرير- فقط الهدير الثابت لحركة المرور على الشريط الإسمنتي. وطبعاً بنغ كروسبي في المدى على أمواج الأثير الخفيّة الذي يمتلكه متجر بيع سلع بخمسة سنتات أو عشرة.

أمسية في هوليوود

أمسيتي الأولى في هوليوود. من النموذجي أنْ أقول إنني رأيت أنَّ هذا كان مُقدّراً لي. ولكن وجدتُ نفسي بالمُصادفة المحض أتوجه إلى منزل رجل مليونير بسيارة باكارد سوداء أنيقة. كنتُ قد تلقّيتُ دعوة على العشاء من شخص غريب تماماً. بل إنني لم أكن أعرف اسم المُضيف. وما أزال لا أعرفه الآن.

أول ما فاجأني، بعد تقديمي إلى الموجودين جميعاً، هو أني كنتُ في حضرة أناس أثرياء، ضجرين حتى الموت، وجميعهم، بِمَنْ فيهم الذين تعدوا الثمانين من العمر، سكارى. وبدا أنَّ المضيف والمضيفة يستمتعان بالقيام بدور النُدُل. كان من الصعب متابعة الحديث لأنَّ الجميع كانوا يتكلمون بأسلوب المقاصد المتعارضة. الأمر المهم كان أنْ أُقحِم نفسي في الحديث قبل الجلوس إلى الطاولة. وأحد العجائز غريبي الأطوار الذي نجا مؤخراً من حادث سيارة مروِّع كان يتناول مشروبه المُسكِر الخامس - كان فخوراً بالحقيقة الواقعة، فخوراً بقدرته على تجرّعه دفعة واحدة كشاب على الرغم من أنه كان ما يزال مُعاقاً جزئياً. والجميع وجدوا فيه أعجوبة.

لم تكن هناك أية امرأة جذابة، ما عدا تلك التي جلبتني إلى المكان. وبدا الرجال أشبه برجال الأعمال، ما عدا واحداً أو اثنين بدوا

كـمُفـسـدي إضـرابات عـجـائز. ويجب أنْ أذكـر زوجـاً شـاباً جـداً، في ثلاثينيات عمرهما. الزوج مغامر عنيف نموذجي، أحد لاعبي كرة القدم السابقين الذي يأتون من أجل الدعاية أو التأمين أو سوق البورصة، أو صاحب مهنة أميركية نموذجية لا تغامر فيها بتلويث يديك. كان خريج إحدى الجامعات الشرقية ويتمتع بذكاء قرد متطور.

هذا كان الجو العام. وبعد أنْ سكر الجميع تماماً أُعلِنَ أنَّ العشاء بات جاهزاً. جلسنا على مائدة طويلة، مزيّنةٍ بأناقة، وبجانب كل طبق هناك ثلاثة أكواب أو أربعة. الثلج كان وافراً، طبعاً. بدأ تقديم الطعام، وثمة عددٌ غفير من الخدم يطنّون حولك كذباب الخيل. كان هناك فيض من كل شيء؛ كان جديراً برجل فقير أنْ يفوز بمقدار كافٍ من المُقبِّلات وحدها. وأثناء تناولهم الطعام، أصبحوا منطقيين أكثر في الكلام، وبعضهم أصبحوا أكثر ميلاً إلى الجدل. وكان أحد السفّاحين العجائز الذين يرتدون البدلة الرسمية وكان ذا بشرة تشبه سرطان البحر المغلي يتهجّم بقسوة على مُحرّضي العمال. كان في كلامه نبرة دينية، مما أذهلني، لكنه كان أقرب إلى كلام توركويمادا[٩٦] منه إلى كلام المسيح. كان اسم الرئيس روزفلت دائماً يُسبب له نوبة السكتة. روزفلت، وبريدج، وستالين، وهتلر - كانوا جميعاً في المرتبة نفسها بالنسبة إليه. بمعنى، كانوا بغيضين. كانت لديه شهية خارقة عملت، كما بدا، على تنشيط غدة الكظر عنده. وفي الوقت الذي وصل إلى طبق اللحم كان يقول إنَّ الشنق كثير على بعض الناس. في تلك الأثناء، كانت المضيفة، الجالسة إلى جواره، منخرطة في واحدة من تلك الأحاديث البهيجة غير المهمة مع شخص يجلس قِبالتها. لقد تركت بعض الكلاب الألمانية الصغيرة

والجميلة في بياريتز، أم هل كانت سيراليون، وإذا صدّقناها، كانت شديدة القلق عليها. قالت، في أوقات كتلك ينسى الناس الحيوانات. يمكن للناس أنْ يكونوا قُساة، ولاسيما في زمن الحرب. في الواقع، في بكين هرب الخدم وتركوها مع أربعين صندوق من الأمتعة - كان شيئاً فظيعاً. من المريح أنْ تعود إلى كاليفورنيا. إنها أرض الله، كما سمّتها. وأبدت أملها في ألا تمتد نار الحرب إلى أميركا. يا إلهي، أين سيذهب المرء حينئذٍ؟ لا يمكن الشعور بالأمان في أي مكان، إلا في الصحراء ربما.

كان لاعب كرة القدم السابق يتحدث مع أحدهم في الطرف القصيّ من المائدة بصوتٍ عالٍ. وتصادفَ أنْ كانت امرأة إنكليزية وكان يهينها صراحة ومباشرة لأنها تُثير التعاطُف مع الإنكليز في هذا البلد. صرخ بأعلى صوته " لماذا لا تعودين إلى إنكلترا؟ ماذا تفعلين هنا؟ أنتِ تشكّلين تهديداً. نحن لا نُقاتل لكي نُحافظ على تماسك الإمبراطورية البريطانية. أنت تشكلين تهديداً. يجب طردكِ من البلد ".

كانت المرأة تحاول أنْ تقول إنها ليست إنكليزية بل كندية، لكنها لم تتمكن من رفع صوتها فوق الضجيج السائد. والرجل الثمانونيّ، الذي كان حينئذٍ يتذوق عيّنة من الشمبانيا، كان يتحدث عن حادث السيارة. ولا أحد كان يوليه انتباه. كانت حوادث السيارات تقع بكثرة - كل شخص على المائدة تعرّض لحادث سيارة في وقت من الأوقات. والمرء لا يهتم بمثل هذه الأشياء إلا إذا كان ضعيف العقل.

كانت المُضيفة تصفّق بيديها بطريقة هستيرية - أرادت أنْ تُخبرنا قصة صغيرة عن تجربة مرت بها ذات يوم في إفريقية، في إحدى رحلات الصيد.

صرخ لاعب كرة القدم " أوه، كفى! أريد أنْ أعرف لماذا بلدنا العظيم هذا، في أشد اللحظات حسماً... "

صرخت المُضيفة " اسكتْ! أنت سكران "

قال بصوته الهادر " لا فرق. أريد أنْ أعرف إن كنا أميركيين مئة بالمئة - وإذا لم نكن كذلك فلمَاذا. إنني أشك في أنَّ بيننا خونة "، ولأني لم أكن طرفاً في أي حديث ألقى عليّ نظرة ثابتة، نظرة سكرى القصد منها أنْ أجهر برأيي. وكل ما استطعت القيام به هو الابتسام. يبدو أنَّ هذا أثار غضبه. راحت عيناه تحومان حول المائدة بتحدٍ وأخيراً، عندما شعر أنه وجد خصماً جديراً بطبعه، استقرّتا على الرجل العجوز، مُفسد الإضرابات الذي لوّحته شمس فلوريدا. وكان هذا الأخير في تلك اللحظة يتحدث بهدوء مع شخص إلى جواره عن صديقه الصدوق، الكاردينال فلان الفلاني. وسمعته يقول، لطالما كان، أي الكاردينال، صديقاً صدوقاً للفقراء. إنه رجل مجتهد وفائق الرقّة، لكنه لا يتحمَّل سماع أي هراء من مُهيّجي العمال القذرين الذين يسعون إلى إشعال ثورة، وإثارة الحقد الطبقي، والتبشير بالفوضى. وكلما تكلَّم أكثر عن نيافته المقدّسة، أي الكاردينال، ظهر المزيد من الزَبَد من فمه. لكنَّ غضبه لم يؤثّر بأي قدر على شهيته. كان آكلاً للحم، مدمناً على الخمر، كثير الشكوى، مُحباً للخصام وسامّاً كأفعى. ويكاد المرء يرى المُرّة تسري في عروقه المتصلّبة. إنه رجل أنفقَ ملايين الدولارات من المال العام لمساعدة الفقراء، حسب تعبيره. والقصد من ذلك منع الفقراء من تنظيم أنفسهم والكفاح من أجل نيل حقوقهم. ولو لم يكن يلبس كأنه صاحب مصرف لبدا أشبه بمساعد بنّاء. وعندما استشاط غضبه ليس

فقط احمرّ وجهه بل أخذ جسمه كله يرتعش كشجرة جوافة. وأصبح منتشياً بحقده إلى درجة أنه في النهاية تجاوز الحدود وبدأ يتّهم الرئيس روزفلت بأنه مُخادع وخائن، وبأشياء أخرى. احتجّ أحد الضيوف، وكان امرأة. فنهضَ لاعب الكرة واقفاً على قدميه، وقال إنه لا يسمح لأحد بأنْ يُهين رئيس الولايات المتحدة في حضوره. وسرعان ما هاج المجتمعون حول المائدة. كان الخادم الواقف بجواري قد ملأ تواً كأس المشروب الكبير بنوعٍ فاخر من الكونياك. تناولت رشفة واسترخيتُ مع تكشير، متسائلاً كيف سينتهي الأمر كله. وكلما علت نبرة المشادّة ازددتُ هدوءاً. لقد سمعت الرئيس ماكنلي يقول لسكرتيره " ***ما رأيك في مثواك الجديد، يا سيد سميث ؟*** "، وكان السيد سميث، سكرتير الرئيس ماكنلي الخاص، يقوم في كل ليلة بزيارة السيد ماكنلي في منزله ويقرأ له بصوتٍ عالٍ الرسائل المُسلية التي انتقاها من المراسلات اليومية. وكان الرئيس، المُثقل بشؤون الدولة، يُصغي بصمت من مكان جلوسه على الأريكة الكبيرة بجوار موقد النار: كانت تلك تسليته الوحيدة. وفي الختام كان دائماً يسأل: "***ما رأيك في مثواك الجديد، يا سيد سميث؟***". ثم صدر البيان الشهير وقام تشولغوتس[٩٧]، الذي لم تكن لديه أية فكرة عن مدى سذاجة الرئيس، باغتياله. كان في عملية اغتيال رجل مثل ماكنلي شيء بائس ومتنافر. وأنا أتذكّر الحادثة فقط لأنه في ذلك اليوم نفسه أُصيب الحصان الذي كان يجر عربة ركوب عمتي بدوار واصطدم بعمود نور، وفي طريق ذهابي إلى المستشفى لزيارة عمتي كان الممثلون الثانويون قد خرجوا تواً ولما كنتُ ما أزال صغيراً جداً فهمتُ أنْ مأساةً عُظمى حلّتْ بالأمة. وفي الوقت نفسه شعرت بالرثاء على تشولغوتس- هذا هو

الغريب في الحادثة. ولا أعلم لماذا شعرت بالأسف لأجله، اللهم إلا لأني أدركتُ بصورة غامضة أنَّ العقاب الذي أُنزِلَ به سيكون أكبر مما تستحق الجريمة. حتى وأنا في تلك السن الصغيرة شعرت بأنَّ العقاب كان إجرامياً. لم أستطع أنْ أفهم لماذا يجب معاقبة الناس - وما أزال. بل لم أتمكن حتى من فهم لماذا يحق لله أنْ يُعاقبنا على آثامنا. وطبعاً، كما أدركتُ لاحقاً، الله لا يُعاقبنا - نحن الذين نُعاقب أنفسنا.

كانت مثل هذه الأفكار تحوم في رأسي عندما أدركتُ فجأةً أنَّ الناس يُغادرون المائدة. لم يكن تناول الوجبة قد انتهى بعد، لكنَّ الضيوف بدؤوا يُغادرون. لقد حدث أمر أثناء استرجاع ذكرياتي. قلت في نفسي، إنها الأيام السابقة للحرب الأهلية. هياج صبيانيّ من جديد. وإذا اغتيلَ روزفلت سيجعلون منه لينكولن آخر. فقط في هذه المرة سيبقى العبيد عبيداً. في تلك الأثناء سمعتُ أحدهم يقول كم سيكون ملفين دوغلاس[٩٨] رئيساً رائعاً. أرهفتُ سمعي. وتساءلتُ هل يقصدون ملفين دوغلاس، النجم السينمائي؟ نعم، هو مَنْ يقصدون. كان صاحب عقل راجح، تقول المرأة؛ وشخصية؛ وصاحب savoir faire (اللباقة اجتماعية). وأقول لنفسي "هل لي أنْ أسأل، مَنْ سيكون نائب الرئيس؟ طبعاً ولا أعتقد أنكَ تفكّر في جيمي كاغني[٩٩]؟ ". لكنَّ المرأة غير قلقة حول نيابة الرئاسة. كانت قد لجأتْ إلى قارئة كف مؤخراً وعلمتْ بعض الأشياء المُثيرة للاهتمام عن نفسها. لقد انقطع خط حياتها. قالت: "تصوَّر، طوال تلك السنين كلها وأنا أجهل أنه مقطوع. ماذا سيحدث في اعتقادك؟ هل يعني الحرب؟ أم تعتقد أنه يعني وقوع حادث؟ ".

كانت المُضيفة تتراكض في المكان كدجاجة مُبللة؛ تحاول أنْ تجمع ما يكفي من اللاعبين للاشتراك في لعبة بريدج. إنها روح يائسة، تحيط بها

غنائم ألف معركة حربية. قالت، في محاولة لنقلي من ركن الغرفة إلى البار، "علمتُ أنك كاتب. ألا تشرب شيئاً- هايبول أو ما شابه؟ يا إلهي، لا أدري ما الذي ألمَّ بالجميع في هذه الأمسية. إنني أكره سماع تلك النقاشات السياسية. إنَّ ذلك الشاب فظ تماماً. طبعاً أنا لا أوافق على إهانة رئيس الولايات المتحدة علناً ولكن مع ذلك كان يمكن أنْ يلجأ إلى بعض اللباقة. قبل كل شيء السيد فلان الفلاني رجل عجوز. وهو يستحق بعض الاحترام، ألا تعتقد؟ أوه، ها هو فلان الفلاني! " واندفعت بسرعة لتحيي نجماً سينمائياً كان قد دخل تواً.

العجوز الغريب الأطوار الذي كان ما يزال يترنّح ناولني مشرباً. حاولتُ أنْ أُخبره أني لا أريد شيئاً لكنه أصرّ مع ذلك على أنْ آخذه. قال إنه يُريد أنْ يتبادل معي كلمة، وغمزني كأنَّ لديه شيئاً غاية في السرية يُريد أنْ يُفضي به إليّ.

قال "اسمي هاريسون. هـ.ا.ر.ي.س.و.ن " نطقه على طريقة مورس وكأنّه اسم يصعُب تذكّره.

" هل لي أنْ أسألك عن اسمك؟ "

أجبت، وأنا أنطقه على طريقة مورس " اسمي ميللر – م.ي.ل.ل.ر"

" ميللر! إنه اسم من السهل تذكّره. لدينا صيدلانيٍ في بنايتنا يحمل هذا الاسم. طبعاً. ميللر. نعم، إنه اسم واسع الانتشار "

قلت " هو كذلك "

"وماذا تفعل هنا، يا سيد ميللر ؟ أنت شخص غريب، أليس كذلك؟"

قلت " نعم، أنا فقط أقوم بزيارة "

" هل أنت في رحلة عمل ؟ "

" كلا، أبداً. أنا فقط أقوم بزيارة لكاليفورنيا "

" فهمت. حسن، ومن أين أتيت - من الغرب الأوسط ؟ "

" كلا، من نيويورك "

" من مدينة نيويورك ؟ أم من داخل الولاية ؟ "

" بل من المدينة "

" وهل أنت هنا منذ وقت طويل؟ "

" كلا، فقط منذ بضع ساعات "

" بضع ساعات ؟ يا سلام، يا سلام... حسن، هذا مُثير للاهتمام. مُثير جداً للاهتمام. وهل سيطول مقامك، يا سيد ميللر؟ "

" لا أعلم. حسب الظروف "

" فهمت. الأمر يعتمد على مدى إعجابك بالمكان، أليس كذلك ؟ "

" نعم، بالضبط "

" حسن، إنه جزء عظيم من العالم، أؤكد لك. إنني دائما أقول، لا يوجد هناك أي مكان يشبه كاليفورنيا. طبعاً أنا لستُ من هنا. لكني أعيش هنا منذ ثلاثين عاماً. مناخ رائع. وشعب رائع، أيضاً "

قلت، من باب مجاراته " أعتقد ذلك ". أحببتُ أنْ أعرف إلى متى سيستمر ذلك المغفل في هرائه الجحيمي.

" قلتَ إنكَ لستَ في مجال الأعمال ؟ "

" كلا، لست كذلك "

" تقضي فترة عطلة، صحيح ؟ "

" كلا، ليس بالضبط. أنا عالِم طيور، في الواقع "

" أنت ماذا ؟ حسن، هذا مُثير للاهتمام "

قلت، بجدّية صارمة، " ***جداً*** "

" إذن قد تمكث بيننا فترة طويلة، صح ؟ "

" من الصعب قول هذا. قد أمكث أسبوعاً وقد أمكث عاماً. حسب الظروف. حسب النماذج التي أقابل "

" فهمت. عمل مُثير للاهتمام، دون أدنى شك "

" جداً! "

" هل سبقَ لك أنْ قمت بزيارة كاليفورنيا، يا سيد ميللر؟ "

" نعم، قبل خمسة وعشرين عاماً "

" يا سلام، يا سلام، أحقاً ؟ ***قبل خمسة وعشرين عاماً***! وها أنتَ عدتَ من جديد "

" نعم، عدتُ من جديد "

" هل كنتَ تقوم بالعمل نفسه عندما أتيت من قبل ؟ "

" تعني الاهتمام بالطيور؟ "

" نعم، بالضبط "

" كلا، كنتُ أحفر خنادق حينئذٍ "

" تحفر خنادق ؟ تعني أنكَ كنتَ - ***تحفر خنادق*** ؟ "

" نعم، بالضبط، يا سيد هاريسون. كان أمامي إما أنْ أحفر خنادق أو أموت جوعاً "

" حسن، أنا سعيد لأنكَ لم تعُد مضطراً إلى حفر الخنادق. إنه ليس عملاً ممتعاً - أعني ***حفر الخنادق***، أليس كذلك ؟ "

" كلا، ولاسيما إذا كانت الأرض صلبة. أو إذا كان ظهرك ضعيفاً.

أو العكس. أو فلنقُل إنَّ أمك وُضِعَتْ في مستشفى المجانين وانطلقَ صفير الإنذار قبل الأوان"

"عفواً! *ماذا قلت* ؟ "

"قلت، إذا لم تسر الأمور على ما يُرام. أنت تفهم ما أعني – أورام ملتهبة، القُطان، سل الغدد اللمفاوية. الوضع اختلف الآن، طبعاً. لديّ طيوري وحيوانات أليفة أخرى. في فترات الصباح كنتُ أراقب بزوغ الشمس. ثم كنتُ أسرج الحمير – كان عندي اثنان وشخص آخر عنده ثلاثة.."

" كان ذلك في كاليفورنيا، يا سيد ميللر؟ "

" نعم، قبل خمسة وعشرين عاماً. وقد أنهيتُ قضاء حكماً بالسجن في سان كوينتن... "

" *في سان كوينتن ؟* "

" نعم، لمحاولتي الانتحار. لقد كنتُ مجنوناً حقاً لكنَّ ذلك لم يشفع لي عندهم. في الواقع، عندما أضرم والدي النار في المنزل رفسني أحد الخيول في صدغي. وكنتُ أُصاب بنوبات إغماء ثم بعد فترة من الزمن بتُّ أميل إلى القتل وأخيراً أصبح لدي نزوع إلى الانتحار. طبعاً لم أكن أعلم أنَّ المسدس مشحون. سدّدته عن قُرب إلى أختي، على سبيل التسلية، ولحسن الحظ أخطأتها. حاولتُ أنْ أشرح الأمر للقاضي لكنه رفض أنْ يُصغي إليّ. وبعد ذلك لم أحمل مسدساً قط. وإذا اضطررتُ إلى الدفاع عن نفسي أستعمل مطواة. وطبعاً أفضل شيء هو أنْ تستخدم رُكبتيك... "

" عن إذنك، سيد ميللر، يجب أنْ أتحدث مع السيدة فلان الفلاني لحظة. إنَّ ما تقول ممتع جداً. *ممتع جداً حقاً*. يجب أنْ نتبادل المزيد من الحديث. عن إذنك لحظة واحدة... "

تسلّلت من المنزل دون أنْ يلاحظني أحد وباشرت بالسير باتجاه سفح التل. كان مشروب الهايبول، والنبيذ الأحمر والأبيض، والشمبانيا، والكونياك تغرغر داخلي كالمجرور. لم تكن لدي أدنى فكرة عن موقعي، أو منزل مَنْ كنتُ أزور ومَنْ الذين قدّموني إليهم. لعلّ السفّاح الغاضب كان حاكماً سابقاً للولاية. وربما كانت المضيفة نجمة سينما سابقة، خبا نورها إلى الأبد. وأذكرُ أنَّ أحدهم همس في أذني أنَّ فلان الفلاني قد جمع ثروة من المتاجرة بالأفيون في الصين. لعله اللورد هاو-هاو. لعلّ المرأة الإنكليزية ذات وجه الحصان روائية بارزة - أو مجرد فاعلة خير. وفكّرت في صديقي فريد، وهو الآن الجندي ألفريد برليس، رقم ١٣٨٠٢٠٢٣ في فيلق الروّاد ١٣٧ أو ما شابه. كان فريد سيغني أغنية لورالاي[١٠٠] على مائدة العشاء أو سيطلب نوعاً أفخر من الكونياك أو يرسم بوجهه تعبيرات مُضحكة للمُضيفة. أو كان سيتصل هاتفياً بالممثلة غلوريا سوانسون[١٠١]، متظاهراً بأنه ألدوس هكسلي أو دار نشر تشاتو أند ويندوس في ويمبلدون. وما كان فريد ليسمح لوجبة العشاء أنْ تبوء بالفشل. وإذا فشلت المحاولات الأخرى كلها كان سيدسّ مخلبه الحريري في صدر إحداهن، ويقول كما يفعل دائماً - " الأيسر أفضل. أخرجيه من فضلك ".

إنني دائماً أفكر في فريد أثناء تجوالي في البلد. كان دائماً شديد التوق لمشاهدة أميركا. كانت الصورة التي يحملها عن أميركا أشبه بالصورة التي رسمها كافكا في روايته. وكان من المؤسف أنْ أخيِّب أمله. ومع ذلك مَنْ يدري؟ كان يمكن أنْ يستمتع أيما استمتاع. قد لا يرى إلا ما يختار أنْ يرى. وأذكر زيارتي لمسقط رأسه فيينا. طبعاً لم

تكن فيينا التي حلمت بها. ومع ذلك، اليوم، عندما أفكر في فيينا، تتراءى لي فيينا أحلامي وليس تلك التي تعج ببق السرير وآلات قانون مكسورة ومجاري تفوح برائحة القذارة.

تهاديت أمشي على طريق كانيون. إنه يتسم بقوة بطابع كاليفورنيا. تعجبني التلال بشجيراتها القصيرة، والأشجار المتهدّلة، وبرودة الصحراء. وتوقعت المزيد من العِطر في الجو.

النجوم لامعة بقوة. وعند منعطف الطريق لمحت المدينة في الأسفل. الضياء خياليٌّ أكثر منه في المدن الأميركية الأخرى. يبدو الأحمر مُهيمناً. وقبل بضع ساعات، قرابة الغروب، كنتُ قد لمحته من نافذة غرفة نوم المرأة على التل. وعندما نظرت إليه من خلال المرآة على طاولة زينتها بدا أشد سحراً. كأني كنتُ أنظر إلى المستقبل من نافذة ضيقة في زنزانة. تخيَّل المركيز دو ساد ينظر إلى مدينة باريس من خلال قضبان زنزانته في الباستيل. إنَّ لوس أنجليس تمنح المرء شعوراً بالمستقبل أشد غرابة من أية مدينة أعرفها. وهو مستقبل سيِّئ أيضاً، وكأنه مأخوذ من مخيّلة فريتز لانغ[١٠٢] الضعيفة. ***وداعاً، مستر تشيبس!***[١٠٣]

أمشي في شارع مُضاء بأضواء النيون. ثمة واجهة محل تعرض جوارب نايلون. لا يوجد في الواجهة إلا ساق من زجاج مملوءة بالماء وفرس بحر يرتفع وينخفض كريشة تبحر في هواء ثقيل. وهكذا نرى كيف تنفذ السوريالية إلى كل ركن وزاوية من العالم. دالي موجود في بولينغ غرين، فيرجينيا، يفكر في رفع رغيف خبز ارتفاعه ٣٠ قدماً وطوله ١٢٥ قدماً من الفرن خلسة بينما الجميع نائمون ويضعه بحذر شديد في الساحة الرئيسة لمدينة كبرى، فلننقل شيكاغو أو سان

فرانسيسكو. مجرد رغيف خبز، هائل الحجم، طبعاً. بلا **raison d'etre** (مُبرّر). ولا دعاية. وغداً ليلاً يوضع رغيفا خبز، في وقت واحد، في اثنتين من المدن الكبرى، فلنقُل نيويورك ونيوأورلينز. لا أحد يعلم مَنْ أحضرهما أو سبب وجودهما هناك. وفي الليلة التالية ثلاثة أرغفة - هذه المرة واحد في برلين أو بوخارست. وهكذا، إلى ما لا نهاية. شيء رائع، أليس كذلك؟ سوف يُبعِد أخبار الحرب عن الصفحة الأولى. هكذا يُفكّر دالي، على أية حال. شيء مُثير جداً للاهتمام. ***مُثير جداً، حقاً***. عن إذنك الآن، يجب أنْ أتحدث مع سيدة في الركن...

غداً سوف أكتشف صنست بوليفار. رقص إيقاعي، رقص أسلوب قاعة الرقص، رقص الريت بالأقدام، تصوير فني، تصوير عادي، تصوير رديء، معالجة بالحمى الكهربائية، معالجة بالغسل الداخلي، معالجة بالأشعة فوق البنفسجية، دروس في فن الإلقاء، قراءات نفسية، مؤسسات دينية، ظواهر تنجيمية، قراءة الكف، طلاء أظفار الأقدام، تدليك المرافق، شدّ الوجوه، إزالة البثور، تخفيف الدهون، رفع أمشاط الأقدام، تثبيت مشدّات الأرداف، هزّ الصدور، إزالة مسامير الأقدام، صباغة الشعر، تثبيت النظارات، مزج الصودا، علاج آثار السُكر، التخلص من الصداع، تبديد غازات البطن، تحسين ظروف العمل، استئجار سيارات ليموزين، الكشف عن أحداث المستقبل، جعل الحرب مفهومة، رفع نسبة الأوكتين وتخفيض البوتين، ادخل بالسيارة واحصل على عسر هضم، غسل الكلى، احصل على غسيل سيارة رخيص، أقراص لليقظة وأقراص للنوم، الأعشاب الصينية جيدة جداً لك والحياة من دون كوكا كولا مستحيلة. المشهد من نافذة السيارة يُشبه راقصة تعرّي تؤدي رقصة القديس فيتوس[١٠٤]- رقصة مبتذلة.

ليلة مع المُشتري

حسن، أين وصلنا؟ أوه نعم، بعد استئذاني من كاتب الرصيف وجدتُ نفسي في جادة كاهوينغا، أسير باتجاه الجبال. كنتُ أنظر عالياً إلى النجوم عندما اقتربت سيارة من خلفي واصطدمت بعمود النور. قُتِلَ الجميع. تابعت سيري "لا مبالياً"، كما يقولون، وكلما أطلتُ نظري إلى النجوم أدركتُ أكثر كم أنا محظوظ لأني نجوت دون أنْ تصيبني شظية واحدة. وفي إحدى المناسبات في باريس كدتُ أدقّ عنقي وأنا أُحدِّقُ إلى النجوم. جلستُ على دَرَج أحد المعابد، أعتقد أنه كان في جادة إيفار، ورحت أتأمَّل. أعني في ذلك الهروب الصعب من فيلا سورا.

بين حين وآخر، وأنا في ذروة حيويتي ونشاطي، يُخيَّل إليّ أني منيع – ضد المرض، والحوادث، والفقر، وحتى الموت. وذات ليلة كنتُ عائداً إلى المنزل، بعد أنْ أمضيتُ أمسية رائعة مع صديقي موريكاند[١٠٥]، المُنجِّم، وعندما هممتُ بالانعطاف من جادة دورليان إلى شارع داليزيا فكّرت في شيئين في وقت واحد: أولاً، أنْ أجلس وأتناول كأساً من البيرة؛ وثانياً، أنْ أرفع بصري وأرى أين يقع كوكب المشتري في تلك اللحظة الزمنية بالضبط. كنتُ قد تجاوزت مقهى بوكيه داليزيا الذي يقع مواجهة الكنيسة ولما كان ما يزال هناك بضع دقائق قبل وقت الإقفال لم

أرَ مانعاً من الجلوس على المصطبة والاستمتاع بشرب البيرة بهدوء وحدي. طوال الوقت كانت هناك هالة من الوهج الأحمر تكتنف الكنيسة سحرتني- وفي الوقت نفسه كان في استطاعتي من مكان جلوسي أنْ أنظر إلى كوكبي الخيِّر، المشتري. ولم أفكر قط في البحث عن موقع كوكب زُحل، أو المريخ. حسن، كنتُ جالساً هناك هكذا، مع شعور رائع داخلي وخارجي، وإذا بالزوج اللذين يقطنان تحتي يدخلان مصادفة. تصافحنا ثم سألا إنْ كنتُ أُمانع في أنْ يجلسا معي وينضمّا إليّ في المشروب. وكنت في حالة قصوى من الابتهاج بحيث إني قلت، على الرغم من أنَّ الرجل، الذي كان لاجئاً إيطالياً، كان يُضجرني حتى الموت- " طبعاً، لا شيء آخر أحبّ إلى قلبي". وهكذا رحتُ أعبِّر لهما عن مدى إحساسي بروعة كل شيء. نظر إليّ الرجل وكأنَّ بيّ مسّاً من جنون، ذلك أنَّ كل شيء في العالم في تلك اللحظة بالذات كان عفناً وكان هو يشعر بشكل خاص بتلك العفونة لأنَّ عمله كان أنْ يكتب عن الأحداث والمجريات التاريخية. وعندما ألح عليّ لمعرفة سبب شعوري بالتفاؤل قلت له إنه لا يوجد أي سبب معيَّن فنظر إليّ وكأني تسبّبت له بأذى شخصيّ. لكنه لم يردعني البتّة. طلبتُ جولة أخرى من الشراب، ليس لكي أسكر، لأنَّ البيرة غير ضارة إلى جانب أني كنتُ ثملاً أصلاً، ثملاً بالابتهاج، ولكن لأني أردتُ أنْ أراهما أكثر مرحاً وإنْ بدت أحداث العالم فعلاً عفنة. حسن، أعتقد أني شربت ثلاث جولات من البيرة - ثم اقترحتُ عليهما أنْ نذهب إلى منازلنا. كانت المسافة قصيرة إلى فيلا سورا وخلال تلك الفترة الوجيزة من الزمن ازددتُ إشعاعاً على إشعاع. واعترفت لهما كأبله بأني في حالة وجودية سامية حيث إنَّه لو أنَّ الخالق

ذاته أراد أنْ يؤذيني لما استطاع ذلك. وبهذه النبرة صافحتهما وارتقيتُ الدرج إلى محترَفي.

أثناء خلعي ملابسي خطر لي أنْ أصعد إلى السطح وأُلقي نظرة أخيرة على المُشتري. كانت ليلة دافئة وكنتُ عارياً تماماً إلا من خفّ السجاد. ولكي أصل إلى السطح كان عليّ أنْ أرتقي سلّماً حديدياً لولبياً يؤدي إلى شرفة المُحترَف. حسن، باختصار، ملأت عينيّ من تأمُّل المشتري. كنتُ مستعداً للجوء إلى السرير. كانت الأضواء مطفأة لكنَّ ضوء القمر نفذ من خلال النافذة الطويلة في أعلى الشرفة. مشيت وأنا مُنتشٍ إلى السلّم الحديدي، مددتُ قدمي بحركة غريزية، فأخطأتْ ووقعتُ مخترقاً الباب الزجاجي في الأسفل. عندما وقعت تذكرت غريزياً كم هو شعور لذيذ السقوط نحو الخلف في الفضاء. استجمعتُ قواي ورحت أسير وثباً كعصفور لأرى إنْ كان قد كُسِرَ شيء من عِظامي. كنتُ أثب بشكل جيد لكنني كنتُ أشهق، وكأنَّ أحدهم غرز سكيناً في ظهري. تحسستُ بيدي حولي فشعرت بقطعة كبيرة من الزجاج مغروزة في ظهري، فأسرعت بانتزاعها. وشعرت بوجود قطعة أخرى على جانب ظهري وانتزعتها أيضاً، ثم أخرى في مشط قدمي. ثم بدأت أضحك. ضحكت لأنَّ من الواضح أني لم أُقتَل وما يزال في مقدوري أنْ أثب كعصفور. كان الدم يُلوّث الأرضية وحيثما وطأتُ بقدمي أجد المزيد من الزجاج.

قرّرت أنْ أتصل بالإيطالي في الطابق السفلي وأجعله يفحصني، ويُضمد جراحي، وما إلى ذلك. عندما فتحت الباب وجدته يرتقي الدرج. كان قد سمع ضجيج تحطُّم وتساءل عما حدث لي. وقبل ذلك، عندما

جمعتنا مائدة واحدة، سقطَ أرنب عن السطح وارتطمَ مُهشّماً زجاج المنور على الطاولة. ولكن هذه المرة كان يعلم أنه ليس هناك أرنب.

قال " يُستحسن أنْ تتصل بطبيب؛ إنَّ الجراح والرضوض تملؤك"

قلت له إني أفضّل ألا أفعل - فقط أحضر لي بعض الكحول والقطن وطهِّر الجراح. وقلت إني سأنام بها حتى الصباح، لا يمكن أنْ تكون خطرة جداً.

قال، وقد بدأ يعرك يديه بحركة مسعورة، " لكنكَ تنزف كخنزير"

قام بإيقاظ الرجل القاطن في الشقة المقابلة وطلب منه أنْ يتصل بطبيب. حظ عاثر. أحدهم قال " خذه إلى المستشفى"؛ وآخر قال " الوقت متأخّر، لقد أويت إلى الفراش تواً، اتصل بفلان الفلاني".

قلت " لا أريد أي طبيب فرنسي لعين. أحضر لي كحولاً وضمّد الجراح - سأكون على ما يُرام ".

أخيراً وجدا بعض كحول الخشب ولفافة من القطن الماصّ. وقفتُ في حوض الاستحمام وأخذا ينظفاني بالإسفنج.

قال الإيطالي، الذي لسبب ما لم يحتمل مشهد الدم، " إنك ما تزال تنزف "

قلت " أحضر شريطاً لاصقاً وضمّد الجرح بقطعة قطن ". كان الدم يسيل على ساقيّ ولم أحبّ رؤيته يُهدَر هكذا.

حسن، بذلا ما في وسعهما ثم ساعداني للإيواء إلى السرير. عندما لمست السرير أدركتُ أني مُشخن بالرضوض. لم أتمكن من الحركة. وسرعان ما استغرقت في النوم وأعتقد أني بعد أنْ نمت مدة ساعة أو أكثر إذا بي فجأةً أستيقظ وأشعر بشيء لزج في السرير. مددتُ يدي

إلى الغطاء فإذا به مُبلل بالدماء. جفلت. خرجت من السرير، أدرت الأنوار ورفعت الأغطية. أصابني الذعر عندما شاهدت بركة من الدماء التي كنتُ أستلقي عليها. يا إلهي! إنه دمي ويجري مني كمياه الصرف. أعادني هذا إلى صوابي. هرعت إلى الجيران وقرعت الباب. صرخت "انهض بسرعة! إنني أنزف حتى الموت! ".

لحسن الحظ كان لدى الرجل سيارة. لم أتمكن من ارتداء ملابسي، كان جسمي متيبّساً ومتقرّحاً وكنتُ من شدة الخوف بحيث أهتم لذلك. ارتديت رداء الحمّام وتركته يوصلني على جناح السرعة إلى المستشفى الأميركي في نيويلي. كان الفجر بالكاد بزغ وكان جلياً أنَّ الجميع ما يزالون نياماً. بدا أنَّ ساعات مرت قبل أنْ يصل الطبيب المُقيم ويتلطَّفَ ويتنازل ويُعالج جراحي.

بينما كان يُخيطها هنا وهناك ويتحسس عِظامي وأربطتي انخرطنا في حديث غريب عن السُريالية. كان شاباً صغيراً من جورجيا ولم يكن قد سمع بالسُريالية إلى أنْ قدِمَ إلى باريس. أراد أنْ يعرف كل شيء عنها. حسن، من الصعب جداً شرح ما تعنيه السُريالية في ظل الظروف الاعتيادية ولكن عندما تفقد كمية كبيرة من دمك وتُحقن بعقار مُضاد لمرض التيتانوس ويُحاول رجل أنْ يُخيط مستقيمك ورجل آخر ينظر إليك ويتساءل لماذا لا تصرخ أو تفقد وعيك من المستحيل أنْ يجري الجدل على الطريقة القديمة كما ينبغي. وقدّمت له بعض التفسيرات السُريالية وجدتُ على الفور أنها لم تعنِ له أي شيء ثم أغمضتُ عينيّ وأخذتُ غفوة إلى أنْ انتهى من عمله.

جاءت اللمسة السُريالية بعد انطلاقنا في طريق العودة بالسيارة.

وفجأة انتابت صديقي الشاب، السويسري، والعصبيّ جداً لهذا السبب، رغبة متغطرسة في تناول طعام الإفطار. أراد أنْ يأخذني إلى إحدى المقاهي في الشانزليزه التي تُقدِّم نوعاً ممتازاً من الكعك الهلالي. قال إنَّ القهوة سوف تفيدني، مع قليل من الكونياك.

سألت " ولكن كيف أدخل المقهى وأنا برداء الحمّام؟ ". لم أكن أرتدي بنطلون المنامة- كان قد مُزِّقَ، كما يفعل الأطباء دائماً، ولا أعلم لماذا. إنهم يمزقونه ويرمونه في سلة المهملات، في حين أنَّ من السهل خلعه ووضعه في الغسيل.

لم ير صديقي أرنو أي شيء غريب في تناول الإفطار وأنا برداء الحمّام في الشانزليزه. قال " يمكنهم أنْ يروا أنه وقع لك حادث؛ الرداء ملطّخ بالدماء "

سألت " وفي رأيك هذا يجعل الأمر عادياً؟ "

قال "أنا أجد الأمر عادياً. أما الناس !je m'en fous (لا آبه لهم!)"

أصررتُ بضعف " إذا لم يكن لديك مانع، أفضّل أنْ أنتظر إلى أنْ نصل إلى حيّنا "

قال، متشبثاً بعناد بهوسه كطفلٍ شكس، " لكنَّ الكعك الهلالي هناك ليس جيداً "

قلت " اللعنة على الكعك الهلالي! أنا ضعيف، وأريد أنْ آوي إلى السرير "

أخيراً وافق على مضض على أنْ يرضخ لاقتراحي. قال " لكنَّ حاسة التذوُّق عندي تميل إلى تناول الكعك الهلالي اللذيذ. أنا جائع... أكاد أموت جوعاً ".

في شارع تومب إسوار توقفنا في مقهى صغير وتناولنا الإفطار. كان علينا أنْ نقف على البار. أكلت نصف كعكة وشعرت برغبة في الاستسلام. اعتقد العمال الذين يرتادون المكان أننا ثملان. وأحد الرجال ضخم الجثة كاد يُسدد صفعة قوية إلى ظهري، ومجرّد التفكير بحدوث ذلك كاد يُسبب لي الإغماء. كان أرنو يلتهم كعكة بعد أخرى بهدوء. أكّد لي بأنها ليست سيئة على الإطلاق. وعندما بدأتُ أرى أننا بتنا مستعدّين للمغادرة طلبَ كوباً آخر من القهوة. وقفت هناك أتألم بينما كان يرشف القهوة ببطء - كانت حارة جداً لتناول جرعات كبيرة منها.

عندما عدتُ إلى منزلي رميت الأغطية المُلطّخة بالدم على الأرض واستلقيت برفق على الفراش. كانت الرضوض قد أضحت عندئذٍ مؤلمة إلى درجة أني رحت أئنّ من الاستمتاع. واستغرقتُ في نومٍ - أشبه بالغيبوبة.

عندما أفقت وجدتُ صديقي موريكاند جالساً بجوار السرير. قال إنَّ أرنو اتصل به هاتفياً. بدا مذهولاً لأني كنتُ قادراً على الكلام.

سألَ " أعتقد أنَّ ذلك حدث بين الساعة الواحدة والنصف والثانية صباحاً، أليس كذلك؟ "

نعم، أعتقد أنَّ ذلك كان الوقت. وأنا أردت أنْ أعرفه. إلامَ يرمي؟

رسم على وجهه تعبيراً جدياً. ثم استلَّ ورقة من جيبه الداخلي. قال، وهو يلوِّح بالورقة أمام عينيّ، " هذه هي الصورة التنجيمية للحادثة. في الواقع لقد انتابني الفضول. لقد بدوتَ في مزاج ممتاز ليلة أمس عندما غادرتني. حسن، ها هي... "، ومال عليّ ليشرح الخطوط الحمراء والسوداء التي تحتوي الكثير من المغزى بالنسبة إليه.

قال " كنتَ محظوظاً لأنكَ لم تُقتَل. وعندما دخلت وشاهدت الدماء في كل مكان كدتُ أتيقّن من أنكَ متَّ حقاً. كل شيء كان ضدك في تلك الساعة من ليلة أمس. ولو أنكَ أويتَ إلى السرير في الحال لتجنّبت ما حدث. ولو كان رجل آخر غيرك لمات، هذا مؤكَّد. أما أنت، كما قلت لك مراراً، فمحظوظ جداً. إنَّ أمامك دفَّتي توجيه: عندما تتعب إحداها تحل الثانية مكانها. إنَّ ما أنقذك هو كوكب المشتري. المشتري كان الكوكب الوحيد في دائرة أبراجك الذي شوهد جيداً". وشرح لي المنظومة بالتفصيل. وكأنّي مُحاط بالأسوار. إذا أُغلقَتْ الأبواب كلها فسوف أموت. عرضَ عليّ صورة موت بلزاك، رسماً بيانيّاً مذهلاً للقدر، لا يقلّ في جماله وصرامته عن مسألة شطرنج.

قلت، مع ابتسامة واهية، " هلا أريتني خريطة موت هتلر؟ "

أجاب بكل جلاء " **Mon vieux** (يا صديقي العجوز)، لكان هذا من دواعي سروري الضافي، لو أنَّ في استطاعتي ذلك. لسوء الحظ أنا لا أرى أي حدث كارثيّ في الأفق بشأنه بعد. ولكن عندما سيسقط، علّمْ على كلامي، فسوف يحدث ذلك بسرعة - بسرعة الضوء. الآن هو ما يزال يرتقي. وعندما يبلغ القمة لن يمكث فيها إلا فترة وجيزة ثم ***بووم!*** سيسقط هكذا! أمامنا أيام عصيبة. سوف نعاني من كارثة عُظمى. ليت لديّ كوكب مشتري مثل الذي لديك. ولكن لدي ذلك الكوكب الجحيمي زحل. لا أرى أي أمل...".

شتيغليتز[١٠٦] ومارين

يقول روديار[١٠٧] "***المهمة الأولى هي بعث جوهر الفنون كلها.***

إنَّ الموسيقى الحديثة تبدو سخيفة وبلا معنى عندما تُعزف في قاعة الموسيقى؛ والدراما الحديثة تستلزم مسرحاً حديثاً، والرقص الحديث يتوق إلى بيئات حديثة وعلاقة حرّة بالموسيقى وبالفعل الدرامي. إلى جانب هذا، ظروف الأداء، من وجهة نظر اجتماعية ومالية، سخيفة سُخفاً مأساوياً. لقد أجهزتْ النزعة التجارية على روح التفاني في الفن، وروح المشاركة الحقيقية في الأداء. والجمهور يأتي بحثاً عن الإثارة بدل أنْ يكون مُستعداً ***لاختبار الحياة بوصفها فناً وعبر الفن.*** لعلّ أشد ما يحتاج الفن الحديث هو جمهور حديث، وأشدّ ما يحتاج الفنانون هو وعي بعلاقتهم الحقيقية بجمهورهم. لقد كفّ الفنان عن اعتبار نفسه مُزوِّداً للغذاء الروحي، ومُستنهضاً للطاقة الحيوية؛ كفّ عن اعتبار موقعه "طقساً دينياً"، واعتبار نفسه كاهناً. إنه لا يفكّر إلا في التعبير عن نفسه، إلا في تحرير القِوى التي يعجز عن التعامُل معها داخله. ما الداعي لمثل هذا التحرير؟ إنه غير مهتم في التفكير في هذا. إنه لا يواجه عمداً وطواعية واجبه الروحي بالجنس البشري. وهو بهذا لا يحاول أنْ يشكِّل الجنس البشري، أنْ يجمع حول أعماله الجمهور المناسب لتلك

الأعمال. إنه يبيع بضاعته. لم يعد رسول الحياة، يجذب بقدوةِ حياته هو، الكائنات البشرية إلى الرسالة التي يحمل ".

غالباً عندما أدع عقلي يعبث بفكرة غزو عدو ما أستعيد صورة ألفريد شتيغليتز وهو جالس في "مكانه الأميركي" في الطابق السابع عشر من مبنى مُخصص للمكاتب في نيويورك، مُحاطاً بلوحات جون مارين[١٠٨] المائية. وطوال حياته انتظر شتيغليتز ذلك الجمهور الذي يحتفي بمجيء الفنان. لقد كانت حياته كلها تكريساً وتفانياً – للفن. وشتيغليتز هو الذي أتاح الفرصة لمارين لكي يرسم، ويستمر في الرسم. وهناك قصة رائعة خلف هذين الاسمَين. وكلاهما (مارين وشتيغليتز) تجاوز السبعين من العمر الآن. مارين ما يزال يتمتع بقدر كاف من الحيوية بحيث يتنقّل بنشاط ويرسم المزيد من التحف الفنية.• وشتيغليتز يقضي مُعظم وقته مستلقياً على ظهره في المهجع المجاور لصالة العرض. ومن الناحية الفكرية ما يزال حيوياً كعهده دائماً، مع أنَّ قلبه يضعف. لقد خصّصَ لنفسه أصغر مساحة في " مكان الأميركي "[١٠٩]. مكان بالكاد يكفي للتنقُّل فيه من السرير النقّال إلى الكرسي المريح. ولو أنَّ الغرفة كانت أصغر حجماً أعتقد أنه ما كان تذمّر. في استطاعته أنْ يقول كل ما لديه في مساحة تكفي ليقف فيها شخص أو يستلقي. وهو لا يحتاج أيضاً إلى بوق- يحتاج فقط إلى صوت ليعبِّر عن معتقداته همساً. وهو مسموع. والحقيقة هي أننا سوف نظل نسمعه حتى بعد أنْ يموت.

حاولتُ أنْ أتخيَّل المشهد. العدو متحصِّن داخل بوابات المدينة – وشتيغليتز ما يزال يواصل عمله. ثم يُفتح الباب ويدخل صالة العرض رجلٌ يلبس بدلة رسمية. شتيغليتز موجود في الغرفة المجاورة متمدِّدٌ

على طوله على السرير النقّال. لا يوجد على الجدران غير لوحات مارين. كان شتيغليتز يتوقع زيارةً من هذا النوع بين يومٍ وآخر- هو فقط يتساءل لماذا لم تحدث قبل ذلك. يُلقي الضابط نظرة سريعة حوله في الغرفة، ليطمئن إلى أنها ليست فخاً، ثم يخطو برشاقة نحو باب الغرفة التي يستلقي فيها شتيغليتز.

يقول " مرحبا! ماذا تفعل هنا ؟ "

يقول شتيغليتز " يمكنني أنْ أطرح عليك السؤال نفسه "

" أأنت الحارس ؟ "

" أعتقد أنه يمكنك أنْ تقول هذا. نعم، أنا أشبه بحارس، إذا كان هذا ما تريد أنْ تعرف "

" لمن هذه اللوحات - هناك ؟ "

" لجون مارين "

" أين هو ؟ لماذا تركها هنا ؟ أليست لها أية قيمة ؟ "

أومأ شتيغليتز للضابط كي يجلس على الكرسي المريح. باشر بالقول " تعجبني أسئلتك. إنك تصل إلى لب الأشياء "

يقول الضابط " هيا، هيا، أنا لم آتِ إلى هنا لأجري حديثاً صغيراً هادئاً. أريد بعض المعلومات. أريد أنْ أعرف معنى هذا. ها أنت ذا في مبنى خالٍ وتحرس هذه اللوحات- المائية، كما أرى. لماذا لم تسلّم نفسك، كما فعل الآخرون؟ كيف حدث ولم نعلم بأمر هذه المجموعة ؟ "

يُجيب شتيغليتز بصوت واهن " لا أستطيع أنْ أُجيب عن أسئلتك كلها في وقت واحد. سوف أموت قريباً. تكلّم ببطء، من فضلك "

ينظر الضابط إليه بتعاطُف، وشك وريبة. قال لنفسه " معتوه عجوز". تنحنح. " حسن، أين هو... المالك ؟ "

يقول شتيغليتز بضجر " أعتقد أنه في المنزل يرسم "

" ماذا ؟ هو أيضاً رسّام ؟ "

" مَنْ ؟ "

" حسن، هذا الذي تتحدث عنه "

" أنا أتحدث عن جون مارين. عمَّن تتحدث أنت ؟ "

" عن مالكها - هذا ما أتحدث عنه. لا يهمني إذا كان رسّاماً أم مورِّق الجدران "

" إنَّ مالكها هو الذي رسمها - جون مارين "

" الآن بدأنا نتفاهم. عظيم. بكم يُقدِّر قيمتها ؟ "

" يا عزيزي، هذا أمر لم نتمكن قط من تحديده. وبكم تُقدِّر أنت قيمتها ؟ "

يقول الضابط بسخط "أنا لا أعرف أي شيء عن مثل هذه الأشياء"

" ولا أنا، بصراحة. بعض الناس يعتقدون أني مجنون عندما أقول هذا. إذا أعجبتك، ضع سِعراً وسأقول لك إنْ كان في استطاعتك أنْ تأخذها أم لا "

يقول الضابط " اسمع، أنا لا ألعب معك "

يقول شتيغليتز " أنا جادّ بكل معنى الكلمة. منذ ثلاثين عاماً وحتى الآن والناس يطلبون مني أنْ أضع سِعراً على أعمال جون مارين. ولا أستطيع ذلك. بعضهم يقولون إنَّ عدم وضع سِعر مُحدَّد على لوحاته هو تصرف ماكر وداهية مني. أنا أقول ببساطة: " إلى أي مدى تعجبكم أعمال جون مارين؟ كم ترغبون أنْ تستثمروا لكي تساعدوا جون مارين في مواصلة الرسم ؟ فلنفرض أنكم دفعتم مبلغ ٢٠٠.٠٠٠ دولار لشراء

سـيـارة. حـسن إذن، بكم تقـارنون لوحـة لمارين بسـيـارة بويك أو ستوديبيكر؟"، فيقول الناس إنني بهذه الطريقة لن أبيع أية لوحة. لكني لا أبيع لوحات. أنا أبيع جون مارين. أنا أؤمن به. لقد راهنتُ بكل شيء عليه. ثم إنَّ هناك أناساً لا يمكن أنْ أُعطيهم مارين مقابل أي مبلغ من المال. لكني سأقول هذا - إنَّ مَنْ يرغب حقاً في اقتناء لوحة لمارين يستطعْ أنْ يحصل عليها. ليس أية لوحة، أؤكد لك، بل لوحة لمارين. سوف أُحدد سِعراً يتناسب مع دخل الرجل. أنا لم أرفض قط طلب أي شخص يُقدّم عرضاً حقيقياً ".

" هذا كله مُثير جداً للاهتمام، يا صديقي الطيب، لكني لم آتِ إلى هنا لأناقش الأسعار والقِيم. أنا... "

يُقاطعه شتيغليتز. " أنا أيضاً أشعر بالملل، بصراحة. أفضّل الحديث عن جون مارين ". نهضَ واقفاً ببطء، وبجهد جاهد، يقول، وهو يُمسك الضابط من يده، " والآن تعال إلى هنا. هذه لوحة لمارين لن يحصل عليها أحد إلا بعد موتي. انظر إليها! هل في استطاعتك أنْ تُثمِّن لوحة كهذه ؟ ".

وجد الضابط نفسه رُغماً عنه يُحدِّق إلى اللوحة بإمعان. يبدو محتاراً، مُشوّشاً.

يقول شتيغليتز، متوقعاً حيرة الضابط " خُذ وقتك. إنني أتأمّل هذه اللوحة منذ خمسة وعشرين عاماً ولم أرَ بعد كل ما تحتوي".

وببطء يُزيح الضابط تحديقه بعيداً. ويقول كأنما لنفسه " شيء غريب، أنا نفسي كنتُ أرسم ذات يوم. ولم أرسم قط بالألوان المائية، يجب أنْ أعترف. كان هذا قبل زمن بعيد- كأنه حدث في حياةٍ أخرى ".

وسرعان ما يذوب. ويتابع بالأسلوب نفسه، مُغمغماً كلماته. وأخيراً يقول بصوت مسموع " أنت على حق - ثمة شيء خارق في مارين هذا، كما تسميه. إنه ممتاز. يجب أنْ أدفع القائد فلان الفلاني للمجيء إلى هنا لأريه أعمال جون مارين "

" لا يبدو عليك القلق حول ما يمكن أنْ نفعله بك. إنكَ تتكلّم وكأنه ليست هناك حرب تدور أو أي شيء. أنت رجل غريب. بدأتَ تُثير إعجابي "

يقول شتيغليتز بلا خجل " طبعاً، ليس لديّ ما أُخفي عن أي إنسان. أنا لا أملك أي شيء. لقد عشتُ مع هذه اللوحات طوال حياتي بالمعنى الحرفي. وقد منحتني متعة هائلة، وأثارت فيّ اهتماماً عظيماً. أكاد أكون سعيداً الآن لأنَّ صديقي مارين لم يكن أكثر نجاحاً. هذا ما أعتقد أنه كان. يجب أنْ تزور منزله - لديه مجموعة هناك يستأثر بها لنفسه. اجعله يُريك إياها "

يقول الضابط " ولكن ألم يخطر في بالك أننا يمكن أنْ نحملها إلى بلدنا ؟ "

يقول شتيغليتز على عجل " طبعاً خطر لي. هذا لا يُقلقني. إنها تخصّ العالم بأسره. وكل ما أطلب هو أنْ تعتني بها. وكما ترى " - ويُمسك الضابط من ذراعه من جديد- " ليس هناك أي خدش في هذه الأطُر. لقد صنع مارين هذه الأطُر بنفسه. أريد منك أنْ تُحافظ عليها كما هي. مَنْ يدري أين ستُعلّق بعد عشرة أعوام من الآن؟ وبعد خمسين عاماً من الآن- أو مئة ؟ اسمع، أنا رجل عجوز. لقد شاهدتُ أشياء كثيرة في حياتي - وهي أشياء لا تُصدَّق أيضاً. أنت تعتقد أنك تود أنْ

تحتفظ بها في بلدك. عظيم - خذها. ولكن إياك أنْ تدع أي وهم بشأن الاحتفاظ بها يسيطر عليك. إنَّ الأعمال الفنية غالباً ما تبقى بعد انهيار إمبراطوريات برمتها بزمن طويل. وحتى لو دمّرتَ اللوحات فإنكَ لا تستطيع أنْ تدمّر الأثر الذي تركته على العالم. وحتى لو لم يرها أحد غيرك فإنَّ قيمتها تبقى ويشعر بها الناس. يمكن لمدافعكم أنْ تدمّر لكنها لا تستطيع أنْ تُبدِع، هل تستطيع؟ لا يمكنكم أنْ تقتلوا جون مارين بتدمير لوحاته. كلا، أنا لستُ قلقاً حول مصيرها. لقد تركت أثرها أصلاً على العالم. يمكنكم أنْ تتمادوا وتقتلوا جون مارين نفسه - وهذا أيضاً لا يهم. لأنَّ ما يمثّله جون مارين لا يمكن تدميره. وأعتقد أنه سيضحك إذا سدّدتم مسدساً إلى رأسه وهدّدتم بقتله. في الواقع، هو صلب كعجوز مغرور. طبعاً أنتم لا تريدون أن تقتلوه - أنا أعلم أنَّ هناك حلاً أفضل. قد تعرضون عليه وظيفة جيدة - هذه طريقة أذكى لقتله. ولو كنتُ مكانكم، لتركته يبقى حيث هو. لا تزعجوه. لقد وصل إلى مرحلة هادئة، صافية من حياته الآن حيث لا شيء حقاً يُزعجه. هل لكم أنْ تحرصوا على أنْ ينال ما يكفي من الطعام ؟ أنا لم يعُد في استطاعتي أنْ أعتني به، كما ترى بنفسك. لقد فعلت كل ما في مقدوري. الآن أصبح الأمر بيدك وبأيدي الآخرين للاعتناء به... ماذا كان اسم ذلك القائد من جديد؟ لماذا لا تذهب وتُحضِره إلى هنا ؟ إذا كان خبيراً في الفن أنا واثق من أنَّ هناك قواسم مشتركة كثيرة بيننا. قد أتمكن من تحريره من بعض أفكاره ".

استدار شتيغليتز بهدوء حول نفسه وتوجه نحو السرير النقّال في الغرفة الصغيرة. وقف الضابط في وسط الغرفة الكبيرة يلقي نظرة

جوفاء إلى لوحات مارين المُعلّقة على الجدار. قرصَ نفسه ليتيقَّن من أنه لا يحلم بذلك كله...

هذه هي المهزلة الصغيرة التي أحلم بها عندما أفكّر في اللحظات الأخيرة من حياة شتيغليتز. ولديّ حلمٌ بديل، قد يمثّل ما سيحدث. سوف يكون شتيغليتز واقفاً أمام لوحة لمارين، يتحدث بطريقته المعتادة، وفجأةً، وسط الكلام، يسقط ميتاً. هذه، في اعتقادي، هي الطريقة التي ينبغي أنْ تحل بها النهاية. وأنا واثق من أنَّ شتيغليتز يعتقد ذلك أيضاً.

إنَّ شتيغليتز، الذي يستخدم الضمير أنا كثيراً، أشدّ مَنْ قابلت من الرجال بُعداً عن الغرور. وضمير أنا الذي يستخدمه أشبه بصخرة. إنَّ شتيغليتز لا يتكلّم بصيغة المجهول لأنه إذا فعل فذلك يعني أنّه يُنكِر أنه شخص. إنه نقيض الشخصية البارزة، أو الشخصية. شتيغليتز هو فرد، كيان فريد. إنه لا يتلبَّس التواضع الزائف - ولِمَ يفعل؟ هل تعتذر إذا استخدمت اسم الجلالة؟ إنَّ كل ما يقول شتيغليتز قائم على أساس إيمان صرف. وخلف كل كلمة تخرج من فمه تكمن حياته كلها، حياة، يجب أنْ أكرر، من الإخلاص المُطلَق للأشياء التي يؤمن بها. إنه مؤمن! - هذا هو جوهر الأمر كله. إنه لا يُعطي آراءه - إنه يقول ما يعرف أنه صحيح، ما وجد، أي ألفريد شتيغليتز، أنه صحيح بالتجربة الشخصية. قد يختلف المرء مع وجهات نظره، ولكنه لا يستطيع أنْ يُفنّدها. إنها حيّة وتتنفّس طوال الوقت، مثل شتيغليتز نفسه. ولكي تقضي على آرائه عليك أنْ تقضي على شتيغليتز قطعة فقطعة. إنَّ كل ذرة منه تُؤكّد الحقيقة التي ينطوي عليها. إنَّ أمثاله من الرجال نادرون في أي عصر.

وطبعاً هناك اختلاف هائل في الآراء حوله. ***الرأي*** من جديد! ما أهمية رأي أي شخص؟ لكي تُجيب شتيغليتز سوف تُضطر إلى أنْ تكون قطعة واحدة. ***فهل أنتَ كذلك*** ؟ وما هو الجواب، أخيراً، الذي يمكن أنْ تعطيَه إلى رجل يقول: " أنا أؤمن. أنا أحب. أنا أُدلّل". هذا كل ما يقول شتيغليتز. إنه لا يطلب منكَ أنْ تتفق معه؛ بل يطلب منك فقط أنْ تُصغي إليه وهو يتحدث بحماسة عن الأشياء التي يُحب، وعن الأشخاص الذين كرّسَ حياته كلها لدعمهم.

الناس في الغالب يغضبون منه لأنه يتصرّف كتاجر فن. يقولون إنه داهية أو واهم أو متقلّب- يعلم الله ماذا يقولون كلهم. وهم لا يتساءلون أبداً ماذا كان يمكن أنْ يحدث لمارين أو لأوكيف[110] أو للآخرين لو أنَّ أعمالهم وقعتْ في أيدي أشخاص آخرين. من المؤكّد أنَّ جون مارين كان **يمكن** أنْ يتلقّى مالاً مقابل أعماله أكثر مما كان يمكن لشتيغليتز أنْ يجمعه له. ولكن هل كان جون مارين سيُصبح الشخص الذي نعرف اليوم؟ هل كان سيرسم اللوحات التي يرسمها وهو في العام الثاني والسبعين من عمره ؟ أشكُّ في هذا. لقد شهدتُ بأمّ عينيّ عملية قتل فنان، كما نُفِّذَتْ في بلده. ونحن جميعاً شهدنا نهوض وسقوط عظمائنا "الناجحين". كم أنَّ معبودينا سريعو الزوال! كم نحبهم! وما أسرع ما ننساهم! يجب أنْ نشكر ربّنا على أنَّ رجلاً كشتيغليتز لا يزال بيننا، يكشِف في كل يوم من أيام حياته عن متانة حبّه. إنَّ الرجلَ أعجوبة حقيقية في التحمُّل، والثبات، والصبر، والتواضع، والرقّة، والحِكمة، والإيمان. إنه صخرة ترتطمُ عليها التيارات المتصارعة للآراء الضعيفة دون جدوى. إنَّ شتيغليتز لا يتزعزع، لا يتغيَّر. إنه راسخ. ولهذا تجرّأت

وتصورته جالساً في مكتبه الصغير لا يرعبه انهيار العالم من حوله. فلماذا يرتعد في حضور العدو؟ لماذا يهرب؟ ألم يكن مُحاطاً ومُحاصَراً بالأعداء طوال حياته؟ ليس حتى بالأقوياء، بل بالخسيسين، الغادرين، الحقيرين، الماكرين الذين يوجّهون ضربتهم في الظلام إلى ظهره. إنَّ أعداءنا الشخصيين- هم الأسوأ. أنا أُسميهم أعداء الحياة، لأنه أينما أبرزَ فرعٌ غضٌ، رقيق، جديد، للحياة رأسه يدوسونه. ليس دائماً عن عمد بل بطيش، وبإهمال. إنَّ العدو الحقيقيّ يمكن دائماً مواجهته وقهره، أو الفوز عليه. إنَّ العِداء الحقيقي قائم على الحب، حب لا يُلاحِظ نفسه. لكنَّ هذا النوع الآخر، هذا العِداء القذر، الزاحف الذي تُثيره اللامبالاة أو الجهل، هذا هو الذي تصعب مقاتلته. هذا هو الذي يستنزف نسغ جذور الحياة نفسها. والشخص الوحيد القادر على التعامُل معه هو عبقري، ساحر. وهذا هو شتيغليتز، ومارين أيضاً. وحده مارين يعمل في عالم الرسم، في حين أنْ شتيغليتز يعمل في مجال الحياة. إنهما باستمرار يُخصِب أحدهما الآخر، ويُلهِمَ أحدهما الآخر. لم يعُد هناك صلة زواج رائعة معروفة لإنسان كهذا الزواج بين الأرواح الشقيقة. إنَّ كل ما يلمسان يُصبح نبيلاً. لا توجد بقعة قذرة في أي مكان. ومعهما نصل إلى عالم الروح النقية. وهناك دعونا نرتاح - إلى أنْ يأتي العدو...

قابلتُ شتيغليتز للمرة الأولى في العام الفائت، بُعيد عودتي من أوروبا. لم أكن أعرفه أيام " ٢٩١ "[١١١]؛ ولو أني قابلته حينئذٍ، أُسوة بالعديد من الكُتّاب الشبان والرسامين، فربما كان مجرى حياتي كلّه قد تغيَّر، كما حدث إبّان سماعي إيما غولدمن قبل ذلك بسنين.

" إنَّ المعجزات ما زالت تحدث. أنا متأكّد من هذا - ومتأكد اليوم

أكثر من أي وقت مضى. وأنا متأكد منذ زمن بعيد". هذا ما كتب شتيغليتز على الورقة البيضاء الأولى في كتاب صغير أهداه إليّ بمناسبة لقائنا. الكتاب كان مجموعة من رسائل جون مارين، غالبيتها موجهة إلى شتيغليتز.

أشعر الآن بأني مُذنب قليلاً عندما أستعيد ذكرى تلك اللحظة. فقد كان في نيتي حينئذٍ أنْ أؤلّف كتاباً صغيراً عن أعمال جون مارين. وأعتقد أنَّ مارين يعمل ساعات إضافية. وأعتقد أنه بعد أنْ يموت سوف نعثر على ملء صندوق كبير من اللوحات لم يشكّ أحد بوجودها. ويُقال إنه يرسم بيديه الاثنتين. وأعتقد أنه يرسم بقدميه أيضاً، وبمرفقيه وبمقعدته.

على أية حال، بعد أنْ شاهدتُ قدر ما تستطيع عيناي أنْ تستوعبا، في " مكان الأميركي "، فوجئت مفاجأة عمري عندما قمت بزيارة مارين في منزله في كليفسايد. هناك شاهدت ملء صندوق كبير من لوحاته المائية التي رسمها في نيومكسيكو. ورأيت مارين أيضاً، بقناعٍ جديد. مارين الذي يعيش وسط مشهد عام تقليدي تماماً. أشبه بمُنقِّب أنيق عاد إلى الشرق المُروَّض، العاجز، مع قطع من الذهب خبّأها في علّيته لكي يُملي عينيه بمرآها، ويقلّبها، ويعبث بها في لحظات شعوره بالملل.

عندما أقول جون مارين أضيف دائماً- "الساحر". ربما ساحر أوز Oz[112]. على أية حال، هو ساحر. لا داعي للمداورة، الرجل ظاهرة. وكما استوقفَ رسول الإمبراطور لاو تسه وأمره بأنْ يدوّن ما لديه وبعد ذلك اختفى، كذلك على أحدهم أنْ يظهر ويقبض على جون مارين وينتزع منه آخر إبداعه ثم يغيب عن الأنظار.

في رسالة وجّهها إلى لي سيمونسون[١١٣]، عام ١٩٢٨، يكتب مارين بأسلوبه المميَّز: " لقد تلقّيتُ برقيتك. هلا تفضّلت وأخبرتني لماذا تطلب مني أنْ أسهم في مجلتك؟ أنا لا أطلب ولا أستجدي أنْ أكون مُساهماً فيها. إذا كانت لوحاتي لا يفهمها أصحاب الذكاء العادي، فكيف تتوقع أنت أو أي شخص من كتابتي أنْ تكون كذلك ؟ يمكنكَ أنْ تطلب مني أنْ أُجري تغييراً على لوحاتي لتناسب أصحاب الذكاء العادي بسهولة كأنكَ تطلب مني أنْ أُجري تغييراً على كتابتي من أجلهم. واعلم أنت أيضاً أنَّ مُعظم الكتابات التي أقرأ لا أفهمها. بحيث إنَّ صاحب ذكاء أقلّ من عادي يمكن أنْ يهزمني... لماذا أنتَ شديد الخوف من مظهر الأحمق اللعين ؟ هل السبب أنه يمكن أنْ يتّضح أنه ليس أحمق لعيناً على الإطلاق؟ "

إنَّ ظهور لوحة لمارين في بلد الأشياء التافهة يكاد يكون من المستحيل تفسيره. إنَّ مارين يُعتبَر غريب الأطوار هنا. أضحوكة. كان يمكن لمصيره أنْ يغدو أقسى مصير يلقاه أي فنان أنجبته أميركا - أسوأ من مصير بو، أسوأ من مصير ملفيل - لولا *لقاؤه* المُعجز بشتيلغيتز. آمل أنْ يسامحني مارين لقولي هذا، لأنه قد يبدو وكأني أُشكِّك في قُدراته، وهذا أبعد ما يكون عن الصحة. إنني ببساطة أعني أنَّه عندما تُنجب أميركا رجلاً كجون مارين، فيُستحسن أنْ تقتله سريعاً وبلا رحمة.

أعتقد أنَّ تزولر Zoler هو الذي قال لي إنَّ مارين صلب كعجوز مغرور، وإنَّ من الصعب قتله. وصف دقيق. ذلك أنَّ مارين أشبه بالديك المُقاتل، أنيق، نحيل، خفيف الحركة، مرح، لاذع، ودائماً على أهبة الاستعداد. بمعنى، بالنسبة إلى مَنْ يسعون إلى القتال. تُرِكَ وشأنه، إنه

رقيق، وحكيم، ومسالم، ومُراع وكريم. لكنه يفضّل ألا يتكلّم. يُفضّل أنْ يُزيِّن ما يريد قوله بالريشة.

في معرض كلامه عن لوحة "جزيرة مارين" المائية، يقول السيد إ.م. بنسون[١١٤] : " هنا أخيراً نجد لوحة لا تحتاج إلى إطار لتعيين حدودها؛ نُسِّقتْ أجزاؤها بصورة رائعة بحيث تخلق وهم الحركة **من دون خشية *العماء***. إنَّ عيننا تقودها التيارات الممتزجة لهذه الأشكال ككثير من الحجارة تقفز فوق المياه حسب خطة موضوعة. كل شيء يبدو أنه يتّصل بشيء آخر، لكي يؤدي إلى شيء آخر، لكي يشكّل جزءاً من تصميم أكبر، جزر ومد نظام سام. وبينما نحن ننظر إلى هذه الأشكال لا نعود نعي وجود شجرة، أو ماء، أو سماء بالمعنى التصويري للكلمة، بل رموزها التجريدية. ***الآن أصبحنا نتقبّل التوقيع بخط اليد كحقيقة***: الخط المُسنن هو الحركة السريعة للماء، والمثلث هو الشجرة، وبقعة اللون هي الشمس أو الزهرة. هذه المجازات التشكيلية هي جسدُ ودماءُ فن مارين " (الخط المائل من وضعي).

التوقيع بخط اليد! هذا هو جوهر عبقرية مارين، العلامة المميَّزة لإنجازه المُحلّق. هنا ينضم مارين إلى أفضل ما في الفن الصيني، وينقل التراث العظيم في ذلك الرسم الرمزي الذي يُميِّز تفوّقه. هذا التوقيع الجليّ حتى في أعماله المُبكّرة- بدأ الرجل يشب قبل أنْ يخطو خطواته القليلة!- يُعتَبَر الآن أنَّ له شرعية إقليدس، وغاليليو، وبركليز، وأينشتاين. إنه ليس رساما عظيما آخر فقط، بل هو الرسّام الأميركي ***الأبرز أيضاً***، شقيقٌ في الدم لكل رسامي الماضي العظام سواء في أوروبا، أو آسيا، أو أميركا الجنوبية أو إفريقيا. إنَّ جون مارين هو صلِة الوصل بيننا وبين العالم الذي نتوق بحمقٍ شديد إلى التبرّؤ منه.

هيلر وجدارياته[115]

قلتُ في موقع سابق من هذا الكتاب إنَّ الجداريات[116] في مبنى الحديقة المائية في سان فرانسيسكو هي الوحيدة التي تستحق التحدث عنها في الولايات المتحدة. في الحقيقة، الشيئان اللذان أتذكّرهما عن سان فرانسيسكو هما جداريات هيلر والسيارات المُعلّقة. أما ما تبقى فقد تلاشى.

في اليوم الذي شاهدت الجداريات عدت إلى الفندق وكتبتُ إلى هيلر رسالة عنها. وأعتقد أنَّ رسالتي حيَّرته قليلاً؛ كانت رسالة مرحة موجهة إلى رسّام مرح لطالما فكّرتُ فيه بمرحٍ صارخ. هيلير هيلر، المرح الصاخب. عاش حياةً غنيّة، في الخارج غالباً. أحبّه الجميع، بِمَنْ فيهم أقرانه من الفنانين، وهم كُثُر. وبين فترة وأخرى يأخذ إجازة من الرسم - لكي يعزف على البيانو في نادٍ ليليّ، أو يقوم هو نفسه بافتتاح نادٍ ليليّ، أو يُزيِّن حانة أو غرفة ألعاب، أو يؤلّف كتاباً تثقيفياً عن الأزياء، أو يقوم بدراسة عن الهنود الأميركيين، أو يستكشف قارات مفقودة كالأتلانتس و مو[117] Mu، أو يمارس التحليل النفسي، أو يدحض الشيطان ويفنّد الملائكة، أو ينخرط في مرح صاخب، أو يتعرف على عشيقة جديدة، أو يتعلَّم الصينية أو العربية، أو يؤلّف كراساً عن تقنية

الرسم، أو يدرس نسج السجاد أو الإبحار بالقارب، إلى آخره. إنَّ لديه ألف اهتمام واهتمام ولديه أصدقاء في أركان العالم كله - أصدقاء صدوقون، دائمون، لا يخذلونه أبداً. وفوق ذلك كله هو ممثل هزلي. إنه الجانب الأيرلندي، دون أدنى شك. وعندما يسكر قليلاً ويجلس على البيانو يغني بأشد ما عُرِفَ من اللغات غرابة. وزيادة على ذلك، هو في المعتاد يغني أغاني من تأليفه، سرعان ما ينساها في اليوم التالي. هو ليس غناءً في الحقيقة، بل نوع من عويل سن اليأس على آلة الطبل والقانون. هوسه الأساسي هو اللون. وأعتقد أنَّ هيلر يعرف عن الألوان أكثر من أي إنسان حيّ. إنه يأكل ويشرب ألواناً. وهو نفسه لون اللون. إنه ليس فقط مزداناً بالألوان، كما نقول عن بعض الطيور البهيجة والساحرة، بل هو نفسه لون. وهذا يعني أنه يكسر الضوء بصورة مثالية. وأحياناً يُصبح شفقاً قطبياً شمالياً حقيقياً. إنَّ ما أحاول أنْ أقول هو إنَّ هيلر عندما يرسم على جدار يضع فيه كل ما عاش، وقرأ، وحلُمَ به ويئس منه.

عندما وصلت إلى مبنى الحديقة المائية بدأتُ أضحك- طبعاً. كأني كنتُ أقرأ الكف. بعض الناس يخافون عندما يقرؤون الكف. فهم يرون حوادث، وفشلاً، ورحلات مرتقبة، ومرضاً وزحاراً. حسن، نظرت إلى جداريات هيلر فرأيت أشياء كثيرة. لقد كان حتماً عالماً تحت- مائيّ. ومن المؤكّد أيضاً أنَّ هيلر كان متآلفاً فيه. وهذا ليس مُفاجئاً، لأنه يشعر بالألفة في كل مكان، مع الطيور في الجو، مثلاً، كما مع وحوش الأعماق. ويشعر بالألفة أيضاً في أجنحة مستشفى الأمراض العقلية. كم من ساعات بهيجة أمضى مع المجانين في مستشفى سان آنْ في باريس!

وأية صداقات رائعة عقد هناك - ليس مع الأطباء، أعاننا الله، بل مع المُقيمين. الجمال المُنقذ في شخصية هيلر هو أنه يسمح لكل شخص بالتعاون معه. إنه ديموقراطيّ بالمعنى العميق.

فلنعُد إلى الجداريات... حسن، هناك أسماك لم أر مثيلاً لها من قبل، كما هو حال قلّة من الناس، إلا إذا كانوا محظوظين بقدرٍ كافٍ بحيث تنتابهم بين حين وآخر نوبات هستريا. وهيلر يُقسم على إنه لم يخترع أياً منها - وعلى إنها كلها موجودة وتحمل أسماء، وأعتقد أيضاً جنساً ومكانَ إقامة. ولم أسمح لنفسي بالتشكيك في معرفته الواسعة، لأنها شاسعة بصورة تفوق قدرتي على فعل ذلك. أنا لا أعرف إلا أنواعَ قليلة من الأسماك، غالباً النوع الذي يؤكل، مثل الشبص، والقنبر، والبغروس، والإسقمري، والرنكة، إلى آخره. وفيليه سمك موسى هو المُفضَّل لدي. وهناك أسماك عادية ولعلَّ هيلر ملّها. لذلك نبشَ بعض النماذج النادرة وبدأ يُعيد خلق بيئتها، الموجودة في الذهن، طبعاً. والغريب في الأمر هو أنه على الرغم من أنَّ الديكور كان فرويديّاً بصورة جليّة إلا أنه كان أيضاً مرحاً، ومُثيراً، وصحياً بتفوُّق. حتى عندما تصبح الأسماك تجريدية تكون واقعية وصالحة للأكل وفكهة. أسماك يمكنك أنْ تعيش معها، إذا فهمت ما أعني. وفي حين أنَّ الأسماك الفرويدية كريهة، وعادة تكون سامة وغير قابلة للأكل في المُطلق، فإنَّ أسماك هيلر ليست أيديولوجية. إنها تشكيلية، وملوّنة، ومرحة ومميَّزة، مثل أهالي بابوا وباتاغونيا، أو الحلزون والبزّاق. إنها تبتسم لك، مهما كانت حالة الطقس. إنها تبتسم وإنْ كان هتلر ينظر إليها. إنها لا تخاف، ولا تُثبَط ولا تخجل. إنها أشبه بأسلافنا، إذا صح التعبير. وعلى الرغم من أنها

مُحنَّطة في وجه الزمن كله إلا أنها لا تحتوي أياً من مقومات المتاحف، أو المقابر أو المشرحات. إنها تسبح في شحمها وتستمد غذاءها من الهواء المحيط بها. لقد جعلها هيلر هكذا وسوف تبقى هكذا.

حسن، لقد كتبت رسالة إلى هيلر، كما قلت، وبعد ذلك ببضعة أشهر حصلت منه على جواب. وها هو، لِمَنْ يرغبون بالتعرُّف على الناحية الخفية في الجداريات:

"... وماءدمت أخوض في هذا الموضوع قد يكون من المُثير للاهتمام أنْ أمدّك ببعض النقاط البارزة فيما يتعلّق بها (الجداريات) لأرى إنْ كان ما يدور في خلدي له أي صِلة بردّة فعلك وأفكارك فيما يتعلّق بها؟

واحد، إنها في المقام الأول "أرابيسك متدفّق" - تزيين بالألوان - أو تصميم وتشكيل لوني. (آمل هذا).

اثنان، الخط المستقيم والزاوية الصحيحة، والأفقي والعمودي كان لابد من وجودها لأنها يجب أنْ تكون معمارية- من هنا جاء ذِكر قارتيّ أتلانتس و مو.

ثلاثة، إنَّ معظم "التأثير" أو المادة الفنية جاءت من آسيا في المحيط الهادئ أو عبره وليس من أية جهة أخرى.

الأشياء العَرَضية والأقلّ أهمية (هدية إضافية): الماء، رمز الولادة أو الولادة الجديدة، الفيضان، أو الإيمان بالدين والأسطورة، علم الأحياء، التحليل النفسي، إلى آخره. الأم بالمعنى الحرفي والمجازي. الرموز الفرعية والبدائل والأصداف الصفراء واللولبية-... - الذهب - الأصداف التي تستخدَم كعملة - عبر المحيط الهندي، إلى البندقية، إلى لندن، إلى بائعي الخضار المتجولين، "أزرار لؤلؤية"، إلى آخره. التأثير

البولينيزي من آسيا إلى شواطئ المحيط الهادئ عبر جزيرة إيستر "التي كانت جبلاً في مو" ودافع دورة الذهب-الحياة-الموت لمولد الماء وموت الماء لحضارة أو الحضارة أو "حضارتنا" أو ثقافتنا -؟ إنه ليس بعيداً جداً عن كتابك عن هاملت كما قد تعتقد! وقد نقتنع بأنَّ مصطلح آسيوي-"مانيت[١١٨] خرج من آسيا" - قد يكون ساري المفعول على المدى الطويل. وسواء جاء عبر ممر بيرينغ أو عبر الجزر المرجانية من خلال الهنود، أو الهنود الحمر، فإنَّ رحلة إلى جنوب المكسيك قد يتّضح أنها مُقنعة... ".

في الرسالة نفسها يُبلغني بأنه مُقدِمٌ على افتتاح نادي "ساسة الخيل" في هوليوود، أعتقد أنَّ اسمه "العلبة"، ويُشبه ذاك الذي افتتح في مونبرناس. كنتُ أمرّ من هذا المكان الأخير في صباح كل يوم، أثناء قيامي بالتنزه سيراً على قدميّ. وما أذهلني حول الهنود الذين رسمهم هيلر في الخلاء هو أنَّ الألوان تبقى نضرة وحيوية، وتبدو دائماً كأنها رُسِمَت في اليوم السابق. الأمر نفسه في لوحات الكنفا، ولاسيما في فترة عام ١٩٢٠ التي رسم خلالها اللوحة الخالدة "**Parc dans le Midi**" (متنزّه في ميدي). وغالباً، كما في حالة المخرج السينمائي هيتشكوك، يمكنك أنْ ترى هيلر مختبئاً وسط الحشد الذي يُصوره - عادة وهو يُدير لك ظهره. لقد أراد أنْ يكون هناك مع الآخرين، يستمتع بتحفته الفنية - من الداخل، إذا صحّ التعبير. وأنا مستعد أنْ أهب أي شيء مقابل أنْ أجلس معه الآن على مقعد في مكان ما في منطقة ميدي. ولا يهمني إنْ كان مقعداً تشكيلياً، أو تجريدياً أو أيديولوجياً، طالما أنه سيضمنا معاً ويسمح لنا بألا نفعل أي شيء. لقد تكلّمت عن المتنزّه الأميركي وكيف يفوح بالقذارة. إنَّ متنزهات هيلر تنتمي إلى "المجموعة المثالية" التي

وهبها الدكتور إيريش غوتْكند[١١٩] إلى مواطني المستقبل. الأشجار ليست أشجاراً طبيعية، ولا حتى أشجاراً كالتي نراها في الأحلام، بل أشجار أبديّة جذورها تمتد في وعي الإنسان الكونيّ. إنها تمنح أكثر من ظل وثمار: إنها تمنح الحياة. وهكذا، عندما أفكّر فيه بحنين وبحدائقه العامة، أشعر بشيء يتّسع داخلي، شيء أشبه بالواقع يتّسع، ومعه يتّسع الكون، ومفهوم الله، وكامل البانوراما اللامتناهية للحياة والموت الأبديين، وأشعر برغبة في القفز، في نفض النشوة عني، ومعانقته عناقاً حاراً.

(ملاحظة: هذه دعاية مجانية بالنيابة عن مؤسسة غوغنهايم)

المنطقة الجنوبية

المنطقة الجنوبية هي منطقة شاسعة يمكن للمرء أنْ يكتب عنها إلى الأبد. وأنا تقريباً لم أقُل عنها أي شيء، ومع ذلك الجنوب - والغرب الجنوبي، الذي هو عالم مختلف تماماً- هما المنطقتان من أميركا اللتان تحركان مشاعري بعمق. إنَّ الجنوب القديم مملوء بساحات القتال، وهذا أحد أول الأشياء التي تترك أثرها عليك. إنَّ الجنوب لم يبرأ قط من الهزيمة التي كابدها على أيدي الشماليين[١٢٠]. الهزيمة كانت عسكرية فقط - وأثر هذه قوي جداً. وابن الجنوب له إيقاع مختلف، موقف مختلف من الحياة. لا شيء يُقنعه بأنه على خطأ؛ في أعماقه يضمر احتقاراً فائقاً للشماليّ. إنَّ لديه مجموعته الخاصة من الأبطال- محاربون، ورجال دولة، وأدباء- شهرتهم وعظمتهم لا تنال منها أية هزيمة. يبقى الجنوب معادياً بصلابة للشمال، في كل شيء. إنه يشن قتالاً بلا أمل، يُشبه إلى حدٍ بعيد حرب الأيرلنديين ضد الإنكليز.

إذا كنتَ من الشمال فإنَّ هذا الجو يؤثِّر عليك بصورة غريبة. وسيكون من المستحيل العيش طويلاً في الجنوب من دون أنْ تُبتلى. فالمناخ، والمشهد العام، والسلوك والعادات، والكلام المعسول تمارس سِحراً من الصعب مقاومته. وعالم الجنوب هذا أشدّ قرباً من عالم الحلم

الذي يتخيَّله الشاعر من الأجزاء الأخرى من البلد. وشيئاً فشيئاً تخترق روح الشمال عالم الحلم هذا وتسمّمه. إنَّ الجنوب يتهاوى تحت عقب الغازي. ومن روما إلى سافانا، على طول قافلة العربات، ما يزال في الإمكان اقتفاء أثر مسيرة شرمن[١٢١] إلى البحر. إنه درب محارب قديم، درب جندي قال إنَّ الحرب جحيم وبرهن على ذلك باستخدام النار والسيف. إنّ الجنوب لن ينسى شرمن أبداً، ولن يسامحه أبداً.

في غوتيسبرغ، وبول رن، ومافاساس، وفريدريكسبرغ، وفي قاعة محكمة سبوتيسلفانيا، وفي ميشنري ريدج، وفي فيكسبرغ حاولتُ أنْ أتخيَّل القتال الرهيب حتى الموت الذي بقيَتْ هذه الجمهورية العظيمة أسيرته على مدى أربع سنين طوال. لقد وقفت في العديد من ساحات الوغى في أصقاع متنوعة من الأرض ولكن عندما وقفتُ بجوار قبور الموتى في جنوبنا اجتاحني رعب الحرب بحِدّة مُدمِّرة. أنا لا أرى أية نتائج لهذا الصراع الهائل الذي يُبرر التضحية المرعبة التي طُلِبَ منا نحن كأمة أنْ نقدّمها. لا أرى إلا هدراً فادحاً للحياة وللممتلكات، وتبريراً للحق بالقوة، واستبدالاً لأحد أشكال الجور بآخر. إنَّ الجنوب ما يزال جرحاً مفتوحاً، واسعاً. وأتلانتس الجديدة، التي برزت فجأة من رماد تلك القديمة، هي مدينة قبيحة تعصى على الوصف تجمع الصفات الشريرة والقبيحة للشمال والجنوب معاً. إنَّ ريتشموند الجديدة خالية من الحياة ومن الشخصية المُميَّزة. ونيوأورلينز لا تعيش إلا في ركنها الفرنسي الصغير وحتى هذا يتعرّض للتدمير السريع. وتشارستون هي ذكرى جميلة، جثة عادت أطرافها السفلى إلى الحياة. وسافانا جدثٌ حي ما تزال تُحيط به هالة حسّية كما في كورينث القديمة. ووسط جمر

الماضي هذا يسير الجنوبي على دربه المتحدية. وبمقارنته مع إنسان الشمال، هو مخلوق ساحر، كريم، دمث، وقور ومتحضّر. وهو حسّاس وسريع التأثُّر أيضاً، قادر على أنْ تنتابه نوبات عنف قوية لا يستطيع الشمالي أنْ يتنبّأ بها. ترى بعضهم يعيشون في بهرجة وفخامة زمن جيفرسن؛ وبعضهم الآخر يعيشون كالحيوانات، في حالة لا تُقارَن إلا بحالة الكائنات البدائية في إفريقية وفي أصقاع نائية أخرى من العالم حيث فرضَ الرجل الأبيض فوائد الحضارة؛ وبين حين وآخر تجد قصراً متداعياً تشغله أسرة مُعدمة، بائسون شبه معتوهين مُحاطون ببقايا باهتة للماضي. وهناك مناطق جميلة، كالتي تحيط بشارلوتفيل، مثلاً، حيث يبدو أنه لا يوجد غير أصحاب الملايين. وهناك مدن طواحين في كارولاينا الشمالية والجنوبية، مثلاً، كمدن المناجم في بنسلفانيا أو ويست فرجينيا، تملؤك بالرعب والاشمئزاز. وهناك مناطق للمزارع، حيث كانت ذات يوم المستعمرة القديمة، وتتّسِم الأرض بجمال وصفاء لا مثيل لهما في العالم القديم. وهناك مناظر طبيعية، كالتي في تشاتانوغا، وهاربر فيري، وآشفيل، أو على طول قمة البلوريدج، أو في قلب سلسلة جبال سموكي العظمى، على سبيل المثال لا الحصر، تغرز في القلب الإنساني سكينة عميقة، دائمة. هناك مستنقعات، مثل مستنقع أوكيفينوكي والمستنقع المرعب الكبير في فرجينيا، الذي يبثّ في النفس رعباً وتوقاً يعصيان على الوصف. وهناك أشجار، ونباتات، وشجيرات، وأزهار لا توجد في أي مكان، والتي ليست فقط خارقة الجمال بل وآسرة وتُثير حنيناً غامراً تقريباً. وفي بيلوكسي، وميسيسيبي، هناك صف من أشجار السنديان الحيّة زرعها قبل قرن من الزمان يونانيّ ذو جمال وروعة مذهلين

بصورة تحبس الأنفاس. ومن دَرَج جامعة بلاك ماونتن في نورث كارولاينا يرى المرء مشهد الجبال والغابات الذي يدفع المرء إلى الحلم بآسيا. في لويزيانا هناك مساحات من بلد رافد النهر الذي لم يأسر جماله إلا الشعراء الصينيين. وفي نيو أيبيريا، لويزيانا، وهذا مثال واحد فقط، هناك منزل وحديقة تخص ويكس هول يشكّل في الجوهر وفي الواقع حلماً تحقَّق.

في ميسيسبي، بالقرب من ضفاف النهر العظيم نفسه، صادفت أطلال ويندسر. الآن لم يبقَ أي شيء من هذا المنزل الكبير إلا الأعمدة اليونانية العالية التي تكسوها الكرمة. هناك الكثير من الأطلال الأنيقة والغامضة موزعة في أرجاء الجنوب، والكثير من الموت والدمار، والكثير من الرعب. ودائماً في أجمل البقع، كما لو أنَّ الغازي الذي يُسدد إلى المراكز الحيوية ضربَ أيضاً الكبرياء في ضحيته والأمل. ويرغب المرء حتماً في التفكير في ما كان يمكن أنْ يُصبح عليه الحال لو أنَّ هذه الأرض الموعودة نجت من خراب الحرب، ذلك أنه في ولاياتنا الجنوبية تلك الثقافةُ التي تسمى "ثقافة العبيد" لم تُظهِر إلا براعمها الأولى. نحن نعلم ما الذي أورثته ثقافات العبيد في الهند، ومصر، وروما واليونان للعالم. ونحن ممتنون للإرث؛ ولا نرفض الهدية لأنها نابعة من الظلم. نادرٌ وجود الرجل الذي يفكّر، وهو ينظر إلى كنوز الماضي، في السعر الجائر الذي دُفِعَ في تشكيلها. مَنْ لديه الشجاعة، في مواجهة معجزات الماضي هذه، لكي يهتف: " كان من الأفضل لو أنَّ هذه الأشياء لم توجد على أنْ يُحرَم كائن بشري واحد من حريته المُستحقة!".

مَنْ يدري أية روعة كان يمكن أنْ تُزهِر من جزيئات مثل شارلستن، وسافانا، ونيوأورلينز! قبل أيام، انتقيتُ كتابَ رحلات وقرأت وأنا مذهول ومصعوق عن مدينة باغان البائدة، العاصمة القديمة لبورما. "امتدتْ أمامنا أطلال ما كانت ذات يوم عاصمة بورما، بيضاء بلون العِظام تحت ضوء القمر، خمسة آلاف إسطبة[١٢٢]، وباغودا[١٢٣] ومعبد يبدأ تاريخها من عام ١٠٨ ميلادي وتنتشر على امتداد مساحة تفوق المئة ميل مربّع... ويُقال إنه في أيام مجد مدينة باغان كانت أعداد الباغودا والمعابد والأديرة لا تُحصى؛ وحتى الآن ما يزال في الإمكان اقتفاء آثار بقايا خمسة آلاف منها. إنَّ الأرض مُرصّعة بكثافة بها حيث إنك تكاد لا تستطيع أنْ تحرّك قدمك من دون أنْ تلمس قطعة مقدّسة صنعتها أيادي أهالي باغان البارعة "[١٢٤].

من المشكوك فيه إنْ كانت هذه القارة ستورِّث العالمَ الروعةَ الخالدة لمدنِ الهند المقدسة. ربما فقط في المساكن الجرفيّة في الغرب الجنوبي تُثير أعمال الإنسان هنا في أميركا مشاعر تشبه من بعيد تلك التي تُثيرها أطلال شعوب أخرى في الرحالة. في جزيرة أفري، لويزيانا، صادفتُ تمثالاً ضخماً لبوذا، جُلِبَ من الصين، ومحمياً بقفص من زجاج. كان مرآه مذهلاً في موقعه الغريب. كان يُهيمن على المشهد العام الذي كان بحد ذاته عملاً فنياً بطريقة تعصى على الوصف. إنَّ جزيرة أفري قطعة غريبة من الأرض في قلب البلد الأكادي[١٢٥]. يحتوي منجماً للملح داخله يُشبه زخرفة صرح مذهل من كتاب " ألف ليلة وليلة ". ويحتوي غابة من قصب البامبو تعكس أرضها ضوءاً يوحي بالبريق الشفّاف لمسرحية "***بلياس وميليساند*** ". ويحتوي محمية للطيور تعيد إلى الذهن صفحات

و.هـ هدسن[١٢٦] القرمزية. إنه ملاذ وسفينة ومكان آمن لكل ما هو غريب في الجسد، والشكل والجوهر. ووسط حديقة كثيفة فسيحة، تستقر ثابتة ومتحجرة على قمة هضبة صغيرة مدوّرة، الصورة الوقور لبوذا نُحِتت قبل ثمانية قرون أو تسعة في الصين. وإذا صادف المرء ناطحة سحاب تفوق مرتين في العلو مبنى الإمباير ستيت لن يُدهَش أكثر من دهشته من هذه الصورة الصامتة والوقور التي تهيمن على المشهد العام المُترف والمتشابك لجزيرة أفري. وهذا التمثال الضخم لبوذا يُطلِق توازناً وصفاءً مؤثّرين. والمشهد العام، على الرغم من العناية التي أُغدقتْ عليها لجعلها جذّابة، يبدو في حضرة هذا المعبود المجلوب هشاً كالزجاج الذي يُحيط ببوذا بغرض الحماية المؤقتة غير الضرورية. والتوازن والصفاء في التمثال يُثيران يقيناً يبقى أبداً. إنَّ تراب لويزيانا يبدو أكثر من أي وقت قلقاً، مضطرباً، ومُترعاً بالحياة التي يجب أنْ تزدهر وتتعفّن. ومهما كانت زاوية الشمس، فإنَّ ظل بوذا يسقط بضبط ودقّة، بجاذبية ووقار، وكأنها تُحدد بدقة الحدود القصوى للأمل، والرغبة، والشجاعة والإيمان.

هناك آلاف الأماكن الشبيهة بالحلم في الجنوب القديم. يمكنك أنْ تجلس على مقعد في حديقة صغيرة اتّحادية أو ترتمي على ضفاف سد أو تقف على جرف عالٍ يُشرف على مستوطنة هندية، الهواء عليل، ساكن، وعطِر، ويبدو العالم نائماً، لكنَّ الجو مشحون بأسماء سحرية، وبأحداث صنعت عصوراً، وبمخترعات، وبمكتشفات. الأرز، التبغ، القطن - من هذه العناصر الثلاثة الجنوب وحده خلقَ مهرجان سيمفوني عظيم من النشاط الإنساني.

لقد انتهى كل شيء الآن. لقد وُلِدَ جنوب جديد، واندثر الجنوب القديم تحت التراب. لكنَّ الرماد ما يزال دافئاً.

ملحق

لدى انطلاقنا في رحلة تقدمت وراتنر بطلب للانتساب إلى جمعيات غوغنهايم. أجبنا عن الأسئلة كلها بأمانة، وسلّمنا أسماء الأشخاص ذوي السمعة الطيبة الذين سيُصادقون على طلبنا، وفي العموم سيشهدون على أننا لسنا أوغاداً، أو مراهقين، أو مجانين أو مدمني خمر؛ وسلّمنا أيضاً النماذج الضرورية من أعمال سابقة بالإضافة إلى مشاريع أعمال طور الإنجاز. وعندما جاء الجواب بالرفض وجدتُ في مغلّفي نسخة بأسماء الذين فازوا بالجوائز والأسباب الموجبة لذلك. إذا صدقنا أنَّ جوائز عام ١٩٤١ تمثّل بصدق تراث غوغنهايم فإني أنتقي هنا حفنة منها من أجل متعة القارئ:

– الدكتور إرنست كليفلند آبي، أستاذ مساعد في عِلم النبات، جامعة مينيسوتا: دراسات تأثير العوامل التاريخية، والمناخية، والجيولوجية على الحياة النباتية لمنطقة مثقلة بالجليد في الجهة الشرقية من المنطقة القطبية الشمالية.

– الدكتور سولومون إ. آش، الأستاذ المُساعد في علم النفس، جامعة بروكلن: إعداد كتاب عن تشكُّل التغيُّر في الرأي والموقف.

– الدكتور لويس إ. أثرتن، أستاذ مساعد في مادة التاريخ، جامعة

ميسوري: دراسة الموقع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي والفكري وتأثير المدينة الصغيرة وتاجر القرية في زمن العبودية.

- الدكتور روي فرانكلن بارتون، أستاذ في مادة الرياضيات، ثانوية سينت أندرو، ساغادا، بنسيلفانيا: تسجيل، وترجمة وتزويد بالحواشي " الهدهد "، وهي سلسلة من الملاحم تُنشَد كأغاني تؤدى أثناء العمل وأثناء السهر على الميت بوساطة الإيفوغوس، الوثني، شعب الجزر الفيليبين ساكن المنازل المصفوفة.

- السيد ويلبر جوزيف كاش، صحفي، في صحيفة "شارلوت نيوز"، شارلوت، نورث كارولاينا: الكتابة الخلاّقة.

- الدكتور أندريه بنجامان ديلاتر، أستاذ مساعد للغات الرومانسية، جامعة وين: إعداد طبعة من مراسلات فولتير-مع ثيودور، وفرانسوا وجان–روبير ترونشان.

- الدكتور بول ثيودور إلسوورث، أستاذ مساعد في مادة الاقتصاد، جامعة سينسيناتي: دراسة الاقتصاد الشيلي، من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٠، في إعادة تنظيم التغيُّر الدولي.

- الدكتور إدريان شروود فوستر، أستاذ مساعد في مادة علم النبات، جامعة كاليفورنيا: دراسة خلوية-نسيجية مُقارنة لمرستيمات[١٢٧] البراعم والسرخس الاستوائي، وعاريات البذور وكاسيات البذور.

- الدكتور إدوارد غيردن، مُدرّس مادة علم النفس، جامعة بروكلن: بحث مقارَن في المواد المُحدّدة النفسية العصبية لظاهرة التفكُّك.

- دكتور أرستيد ف. غروس، كيميائي - برونكسفيل، نيويورك:

مواصلة دراسات نتائج قذف نيوترون اليورانيوم، وبروتاكتينيوم والثوريوم (تجديد).

- الدكتور جورج كاتونيا، باحث نفسي، مدينة نيويورك: متابعة دراسات في مجال علم نفس التعلُّم مع تنويه خاص إلى الفروق في التعلُّم عن طريق التعلُّم بالاستظهار والتدرّب (تجديد).

- دكتور وليم كريستيان كرومباين، أستاذ مساعد لمادة الجيولوجيا، جامعة شيكاغو: بحث في العمليات الديناميكية التي تُكشَط بها الذرات الرسوبية، وتغيِّر شكلها، وتُصنَّف إلى ترسّبات موجودة في الطبيعة.

- دكتور كلارنس ديكنسن لونغ الابن، أستاذ مساعد في الاقتصاد، في جامعة ويسليان، ميدلتاون، كنكتيكت: دراسات في تاريخ البطالة في الولايات المتحدة.

- دكتور آرثر ج. ماردر، باحث مساعد، في مكتب البحث العالمي في جامعة هارفارد وجامعة رادكليف: إعداد كتاب حول قوة بريطانيا البحرية في عصر الشجاعة.

- دكتور إدواردو نيل-سيلفا، أستاذ مساعد في اللغة الإسبانية، جامعة ويسكونسن: دراسة الرواية الاجتماعية الإسبانية-الأميركية، مع تنويه خاص إلى أعمال خوسيه يوستاسيو ريفيرا.

- دكتور إليوت فرنس بورتر، عالم أحياء ومصوّر، هبارد وودز، إلينويز: صناعة تسجيل مصوَّر، بالأبيض والأسود وبالألوان، لأنواع معيَّنة من الطيور في الولايات المتحدة.

- دكتور دوروثي ميري سبنسر، مُحاضر في علم الإنسان، جامعة

بنسلفانيا: دراسات الشعب المتحدث بلغة المنداري في نجد تشوتا ناغبور، بيهار، الهند.

- دكتور هارفي إليوت، أستاذ مساعد في الفيزياء، جامعة كاليفورنيا: دراسة وتحليل مطيافيّيَن للغازات المنبعثة من بركان مونا لاو.

- دكتور ديفيد هاريس ويلسن، أستاذ مساعد في مادة التاريخ، جامعة مينيسوتا: الإعداد لسيرة حياة جيمس الأول، ملك إنكلترا واسكتلندا.

- دكتور فرانسيس دنام وورموث، أستاذ مساعد في الحكومة، جامعة إنديانا: دراسات في مجال النظرية السياسية، مع تنويه خاص إلى مبدأ فصل القِوى.

كلمة إلى الحكماء: إنَّ كل مَنْ يعتقد أنَّ في استطاعته أنْ يبلغ المستوى المطلوب عليه أنْ يقابل هنري ألن مو، السكرتير العام لمؤسسة جون سايمون غوغنهايم التذكارية، ٥٥١ الجادة الخامسة، مدينة نيويورك.

- انتهى -

الهوامش

١ – الساتفيكا : في الفلسفة الهندوسية ؛ رمز الطهارة . الشخص الطاهر والنقي والذي ينشر الطهارة والنقاء حوله . إنه الإنسان الذي يعمل من أجل خير ورخاء العالم أجمع ؛ إنه دائماً يقِظ ؛ يعيش حياةً معتدلة ، ويأكل باعتدال ؛ إنه شجاع ويقول الصدق ، ولا يتكلّم إلا كلاماً مهذباً وبعيداً عن السوقيَة ؛ لا ينطوي على الغيرة أو الحسد أو الطمع ، ولا يغش أو يُضلل ، وهنو أيضاً يسعى إلى تطوير معرفته الروحية ، ويقضي وقته في الصلاة والتأمُل . – المترجم

٢ – والتر لوينفل (١٨٩٧ – ١٩٧٦) ؛ شاعر وصحافي وشيوعي أميركي . حاز بالمشاركة مع الشاعر الأميركي إ .إ كمنغز على جائزة ريتشارد ألدينغتن للشِعر عام ١٩٣١ . كان صديقاً لهنري ميللر . اتُهمَ بالتآمر لقلب نظام الحكم في الولايات المتحدة عام ١٩٥٣ وحكم عليه بالعزل ، ثم نُقِضَ الحكم لعدم كفاية الأدلة . – المترجم

٣ – فرانسيس شتيلوف : افتتحت مع زوجها ، ديفيد موس ، سوق غوثام للكتاب ، وجعلته حرماً للكتّاب الطليعين ولبيع كتب ممنوعة حينذاك مثل " عشيق الليدي تشاترلي " و " مدار السرطان " . ورعت مؤلفات أنابيس نن لدى انتقالها إلى باريس . وأصبح المحل صالوناً للكتّاب . وشهد أحداثاً أدبية كبيرة وكثيرة . توفيت عام ١٩٨٩ عن عمر يناهز ١٠١ عاماً . – المترجم

٤ – " معلومات من فضلك! " : برنامج مسابقات كان يُقدّم في الإذاعة . – المترجم

٥ – " الصفقة الجديدة " : هو عنوان لسلسلة من البرامج الاقتصادية وضعها الكونغرس الأميركي لمواجهة الكساد الاقتصادي الذي ساد طوال عقد الثلاثينيات من القرن العشرين . – المترجم

٦ – آبيه راتنر ؛ أو أبراهام راتنر (١٨٩٥ – ١٩٧٨) : رسام أميركي من أصل روسي .

٧ – جون مارين (١٨٧٠ – ١٩٥٣) : رسام ينتمي إلى المدرسة الحديثة . أميركي . معروف بلوحاته المجرّدة والألوان المائية .

٨ – ألفريد شتيغليتز (١٨٦٤ – ١٩٤٦) : مُصوِّر فوتوغرافي أميركي ومتعهد معارض فنية .

٩ – سوامي فيفيكاناندا (١٨٦٣ – ١٩٠٢) : يُعتَبَر التلميذ الأكبر لسري راماكريشنا باراماهامسا ومؤسس إرسالية راماكريشنا . هو الشخصية الكبرى التي أدخلت الفلسفة الهندوسية إلى أوروبا وأميركا . وكانت خُطبه مُلهِمة .

١٠ - سوامي : حكيم ومعلّم هندوسي .
١١ - والتر أرنسبرغ (١٨٧٨ - ١٩٥٤) : جامع أعمال فنية وناقد وشاعر أميركي .
١٢ - فولكان : في الأساطير الرومانية هو إله النار وصناعة الأدوات المعدنية . ، ويُقابله عند الإغريق هيفيستوس . - المترجم
١٣ - من أجل المزيد من التفاصيل حول ما يذكره ميللر هنا عن اليونان يُنصَح بالعودة إلى كتابه "عملاق ماروسي" من ترجمة مُترجم هذا الكتاب عام ١٩٨٣ - المترجم .
١٤ - كينيث باتشن (١٩١١ - ١٩٧٢) : شاعر وروائي أميركي . ينتمي إلى الحركة الدادائية والسريالية وجيل الستينيات ، على الرغم من نكرانه ذلك . كان يُلقي أشعاره بمُصاحبة فرقة تعزف موسيقى الجاز . وكان أول من قدّم ما سماه بالشِعر المرئي . عاش فقيراً مُعدماً .ثم أصيب في عموده الفقري بعد حادث سيارة وأقعده حتى آخر حياته - المترجم .
١٥ - غوستاف دوريه (١٨٣٢ - ١٨٨٣) : رسام رسوم توضيحية . أسلوبه في الرسم يميل نحو الغرابة . وضع رسوماً للكتاب المقدس ، ولكتاب " الجحيم " لدانتي ، ولـ " دون كيخوته " لسرفانتث ولأعمال رابليه . - المترجم
١٦ - سالفادور دالي (١٩٠٤ -١٩٨٩) : رسام إسباني سوريالي .
١٧ - هنري فورد :مُصنّع سيارات أميركي .
١٨- مسرحية لبرنارد شو .
١٩ - كراكاو : مدينة في بولندا .
٢٠ -ح كلينيانكور : إحدى ضواحي مدينة باريس . وهناك محطة مترو وسوق تجارية وفندق تحمل هذا الاسم هناك . - المترجم
٢١ - جيمس فاريل (١٩٠٤ - ١٩٧٩) ؛ روائي أميركي من أصل أيرلندي . أشهر أعماله ثلاثية " ستدز لونيغان " وقد حُوِّلت إلى فيلم سينمائي عام ١٩٦٠وإلى مسلسل تلفزيوني عام ١٩٧٩ . - المترجم
٢٢ - الإيغوروت ؛ قبائل بدائية تقيم في جبال الفيليبين . المترجم
٢٣ - بوبو : من أنواع الكلاب . - المترجم
٢٤ - هرمز تريسماجيستوس : هو الاسم الإغريقي للإله المصري توت . وتُنسَب إليه كثير من الأعمال الغامضة والسحرية . ويعني اسمه : هرمز المُعظَّم ثلاثة أضعاف . - المترجم
٢٥ - البهائية : معتقد أسسه بهاء الله (انظر المادة التالية)

٢٦ – بهاء الله ؛ لقب ميرزا حسين-علي نوري (١٨١٧– ١٨٩٢) ؛ مؤسس مذهب البهائيّة . وهو مذهب شيعي نشأ في القرن التاسع عشر . ادّعى بأنه رسول الله . بشّر بوحدة الإنسانية وادّعى بأنه موحى إليه من الله . تعرَّض للسجن والاضطهاد من الفرس ومن العثمانيين . سُجنَ مدة ٢٤ عاماً في مدينة عكا في فلسطين . له " كتاب الأقداس " . – المترجم

٢٧ – هيلير هايلر (١٨٩٨ – ١٩٦٦) ؛ رسام أميركي . بدأ حياته في فرنسا كعازف على آلة الساكسيفون وآلة البيانو في فرقة لموسيقى الجاز . كان يعزف وعلى كتفه قرد . عاد إلى سان فرانسيسكو وبدأ بالرسم حسب الطلب . كان نصيراً وشارحاً للفن الحديث . اشتُهر بلوحاته التجريدية وأقام معارض في بلدان كثيرة . في ستينيات القرن العشرين عاد إلى فرنسا وبقي فيها حتى وفاته . – المترجم

٢٨ – هانس رايخر (١٨٩٢ – ١٩٥٨) ؛ رسام ألماني .

٢٩ – جورج كروتز (١٨٩٣ –١٩٥٩) ؛ رسام ألماني . عُرِفَ بلوحاته ولاسيما اللوحات التي تصور الحياة في برلين بأسلوب كاريكاتوري خشن . ينتسب إلى الحركة الدادائية . هاجر إلى الولايات المتحدة قُبيل تسلّم هتلر زمام الحكم . في الولايات المتحدة حصل على الجنسية واستقر وقرر أنْ يُغيِّر من أسلوب رسمه . في أواخر حياته افتتح مدرسة فنية خاصة في منزله . في أواخر حياته صمم على العودة إلى ألمانيا وتوفي هناك . – المترجم

٣٠ – نسبة إلى جمعية ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر وزعمت أنها تملك معرفة سرية بالطبيعة والدين .

٣١ – الباغافاد غيتا ؛ أو فقط غيتا : الكتاب المقدس الخاص بالهندوس .

٣٢ – الأنتروبي ؛ عامل رياضي يُعتَبَر مقياساً للطاقة غير المُستفادة في نظام ديناميّ حراري .

٣٣ – النرفانا ؛ في البوذية ، هي السعادة القصوى المُستمدة من قتل شهوات النفس .

٣٤ – الثيوصوفيّة ؛ هي معرفة الله عن طريق "الكشف" الصوفي أو التأمُّل الفلسفي ، أو كليهما .

٣٥ – نسبة إلى اليوم النجمي (أو الفلكي) الذي يُعادل ٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة و٤ ،٠٩ ثانية . والساعة النجمية تعادل ١/ ٢٤ من اليوم النجمي .

٣٦ – ثيودور درايزر (١٨٧١ – ١٩٤٥) ؛ روائي أميركي . له " الأخت كاري " .

٣٧ – الروزيكروشيون ؛ أعضاء جمعية سرية اشتهرت في القرنين السابع عشر ةالثامن عشر وزعمت أنها تمتلك المعرفة السرية للطبيعة والدين .

٣٨ – فيليبوس باراسيلوسوس ، اسمه الأصلي ثيوفراستوس فون هوهنهايم (نحو ١٤٩٢ –

١٥٤١) : طبيب سويسري ، وكيميائي ، رائد في الدواء العلمي . ناصر اللجوء إلى التجربة ، والتشريح . ألّف العديد من الكتب الطبية . - المترجم

٣٩ - الفوغ : ضرب من التأليف الموسيقي الكلاسيكي .

٤٠ - المُصاداة : الترديد المَرَضي لما يقوله الآخرون .

٤١ - "الظلال" هو اسم منزل صديق ميللر الرسّام ويكس هول .

٤٢ - كورنيث هو اسم مدينة في اليونان التي قام ميللر بزيارتها وكتب كتابه " عملاق ماروسي " عنها . - المترجم

٤٣ - الأكادي : هي الصفة التي تُطلق عادة على المقاطعات التي تتكلم الفرنسية في كندا وكانت مستعمرات فرنسية في السابق .

٤٤ - " إيفانجلاين " : حكاية من تأليف الشاعر الأميركي هنري وادسوورث لونغفيلو (١٨٠٧ - ١٨٨٢) وتتحدث عن الفتاة التي تبحث عن حبيبها الضائع غابرييل . - المترجم

٤٥ - بول كلوديل (١٨٦٨ - ١٩٥٥) : دبلوماسي وشاعر وكاتب مسرحي فرنسي .

٤٦ - كريبولي : أحد أبناء جزر الهند الغربية أو أميركا اللاتينية المنحدرين من أصل أوروبي ، ولاسيما الإسباني . - المترجم

٤٧ - هرناندو دو سوتو (١٥٠٠ ؟ - ١٥٤٢) : مُستكشف إسباني ، اكتشف نهر مسيسيبي (١٥٤١) ويُسمّى النهر باسمه أيضاً . - المترجم

٤٨ - آبيه : تصغير لاسم إبراهام . - المترجم

٤٩ - اللينوتايب : هي آلة لتنضيد الأحرف المطبعية في سطور مسبوكة . وهي الطريقة البدائية في الطباعة . - المترجم

٥٠ - فحص فاسرمن : فحص يُجريه الأشخاص المُقبلين على الزواج لتقصي وجود مرض جنسي عند أحد الزوجين . سُمّي الفحص باسم عالِم الجراثيم أوغسن فون فاسرمن (١٨٦٦ - ١٩٢٥) . - المترجم

٥١ - الدرجات : المقصود بها درجات المراتب الماسونية . - المترجم

٥٢ - القباله : أو فلسفة القبول : فلسفة دينية سرية عند يهود ومسيحيي العصر الوسيط . - المترجم

٥٣ - الإشارة هنا إلى فيلم " عيادة الدكتور كاليغاري " : وهو فيلم ألماني صامت إنتاج عام ١٩٢٠ ، ويُعتبر رائد أفلام الرعب وأحد أعظمها قاطبة ومن إخراج روبرت فينه . ويتحدث عن الدكتور كاليغاري المجنون ومساعده اللذين يرتكبان سلسلة من الجرائم .

٥٤ - آلة التجذيف : هي مقعد منزلق مزوّد بمجدافين يُستخدم لممارسة التمرينات الرياضية كأنه قارب تجديف . - المترجم

٥٥ - ستافروجين : بطل رواية دوستويفسكي " الممسوس " . - المترجم

٥٦ - نورمن دوغلاس (١٨٦٨ - ١٩٥٢) : كاتب بريطاني ، كان يكتب ولاسيما عن جنوب إيطاليا ، كما في كتاب "رياح الجنوب" .

٥٧ - المنفاس : آلة للتنفّس الاصطناعي .

٥٨ - كاساندرا : في الأساطير الإغريقية : ابنة بريام وهيكوبا ، كانت موهوبة بالتنبّؤ ولكن قُدِّرَ لها ألا يُصدّقها أحد . - المترجم

٥٩ - دانييل بوون (١٧٣٤ - ١٨٢٠) : رائد ومكتشف ودليل أميركي ، ولاسيما في ولاية كنتكي . - المترجم

٦٠ - الكديش : الحمار الذي يُستغَل أسوأ استغلال . - المترجم

٦١ - كروسوس (توفي نحو عام ٥٤٦ ق .م) : ملك ليديا . أكمل غزو المدن الأيونية في آسيا الصغرى . تحالف مع البابليين والمصريين لمقاومة بلاد فارس ، لكنه دُحِر وأسره سيروس الأعظم . كان مضرب المثل في الثراء . - المترجم

٦٢ - صكوك الحرية : أو صكوك الحرب . بيعت في الولايات المتحدة دعماً للحلفاء في الحرب العالمية الأولى . وأصبح الاكتتاب بها رمزاً للواجب الوطني في الولايات المتحدة الأميركية وأدخلت فكرة الضمان المالي إلى العديد من المواطنين . - المترجم

٦٣ - الحلال : هنا بالمعنى اليهودي للكلمة ، أو kosher .

٦٤ - كونت بيسي : اسمه الأصلي وليم بيسي (١٩٠٤ -١٩٨٤) : عازف جاز على البيانو ، وقائد فرقة موسيقية ، ومؤلف موسيقي ، يرتبط اسمه ولاسيما بموسيقى البيغ باند . - المترجم

٦٥ - فاسلاف نيجينسكي (١٨٩٠- ١٩٥٠) : راقص باليه روسي . كان معروفاً بحركاته المُلهَمة العبقرية . أصيب بالجنون وهو في عز عطائه . (انظر المادة التالية) . - المترجم

٦٦ - سيرجي بافلوفيتش دياغلييف (١٨٧٢- ١٩٢٩) : أشهر مدير فرقة باليه . أنعش فن البالية الروسية . من أعلام الراقصين الذين اكتشفهم بافلوفا ونيجينسكي ، والموسيقار سترافينسكي وفوكين وباكست . كان شاذاً جنسياً وأجبر الراقص نيجينسكي (وآخرين) على أنْ يُصبح عشيقه ومارس الجنس معه باستمرار مما أدى إلى جنون نيجينسكي . - المترجم

٦٧ - إدغار فاريز (١٨٨٥- ١٩٦٥) : مؤلف موسيقي فرنسي المولد . تلميذ داندي ، وروسل وفيدور . شجّعه ديبوسي . خدم في الجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى ، لكنّ صحته تدهورت فهاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩١٦ . في عام ١٩٢١ شارك في تأسيس نقابة المؤلفين الموسيقيين العالمية ، وبعد ذلك أنجز الكثير في دعم الموسيقى الحديثة في الولايات

المتحدة . بوصفه تجريبياً متفانياً ، استخدم نوعية الصوت (ما سمّاه بـ "كثافة") لكل آلة موسيقية كنقطة بداية لأفكاره الموسيقية . له أعمال كثيرة على آلات عدة . - المترجم

٦٨ - شيرلي تمبل (ولدت عام ١٩٢٨) ؛ اسمها الكامل شيرلي تمبل بلاك ؛ كانت طفلة السينما الأميركية في الثلاثينيات . من أفلامها " الآنسة الصغيرة ماركر " و " وي ويلي وينكي " و " هايدي " . بعد ذلك تركت التمثيل وانخرطت في العمل السياسي . - المترجم

٦٩ - حادثة بونْويتْ تلر : في عام ١٩٣٩ كلّفَ مخزن بونويت تلر النويعي (سوبرمارت) الرسّام السريالي سالفادور دالي بتزيين واجهة المحل ، فقام دالي بتصميم لوحة عنوانها " نهار وليل " ؛ مثّل " النهار " بوضع حوض استحمام عتيق تحيط به مصابيح فارسية سوداء ومملوء بالماء ، وتظهر من الحوض ثلاثة أذرع من الشمع تحمل مرايا ، وتقف أمام الحوض تتأمّله عارضة أزياء مكسوّة بريش أخضر اللون وذات شعر أحمر ، طويل وبرّاق . الجدران مكسوّة بمرايا صغيرة وقرمزية اللون ، وإمعاناً في نرجسية الجو يُرى نرسيسوس يعوم في الحوض . ومثّل دالي " الليل " على واجهة أخرى بعارضة أزياء مستلقية على سرير من الجمر الملتهب تحت رأس حيوان مُحنَّط وصفه دالي بأنه " الرأس المقطوع والحوافر الوحشية لثور مُسرنم (يسير أثناء نومه) تمّت تهدئته بألف عام من النوم " . ظل دالي يعمل على ذلك التصميم طوال الليل مع فريق عمله استعداداً لافتتاحه في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي . وأتمّ دالي التصميم . هذه الحادثة كانت فاتحة تعرُّف الجمهور الأميركي للمرة الأولى على فنان عبقري اسمه سالفادور دالي . وبعد افتتاح المتجر (الذي كان يبيع ملابس للسيدات) أبدت بعض الزبائن اعتراضها على التصميم واعتبرنه " متطرفاً " ، وعندما مرَّ دالي بعد ظهيرة ذلك اليوم من أمام المتجر وجد أنَّ ثمة مَنْ غيَّر في التصميم وعبث به ، فثارت ثورة دالي ، وإذا به يندفع إلى داخل الواجهة وينتزع الحوض من مكانه ويُهشّم به الواجهة الجميلة ذات الزجاج الملوّن . - المترجم

٧٠ - جيمس هنيكر (١٨٥٧ - ١٩٢١) : كاتب وناقد موسيقي أميركي .

٧١ - أرتورو توسكانيني (١٨٦٧ - ١٩٥٧) : قائد أركسترا إيطاليا ومدير مسارح لاسكالا ، و ميلانو ، وفرقة الإذاعة الوطنية في نيويورك . - المترجم

٧٢ - إيفا تتراتزيني (١٨٦٢- ١٩٣٨) : صوت سوبرانو أوبرالي . إيطالية . . وأختها لويزا تتراتزيني (١٨٧١- ١٩٤٠) : صاحبة صوت كولوراتورا سوبرانو . - المترجم

٧٣ - في كتاب " الفن كتحرير للطاقة " ، من تأليف دين روديارد . - المؤلف

٧٤ - عبارة تصف نوعاً غير مألوف من التأليف الموسيقي والتناغم الخالي من الاعتماد على المقامات الموسيقية المعروفة . - المترجم

٧٥ – لعبة الأقراص والكأس : لعبة قِوامها قذف أقراص صغيرة ملونة بحيث تستقر في كأس .
٧٦ – صحراء غوبي : يقع معظمها في دولة منغوليا في آسيا ، وجزء منها في دولة الصين الشعبية . – المترجم
٧٧ – غاسبر وملكيور وبالتازار : في التراث المسيحي ، هم المجوس الثلاثة الذين حضروا مولد السيد المسيح في المغارة . – المترجم
٧٨ – فاسكو نونييث دو بالبوا (١٤٧٥ ؟ – ١٥١٩) : مستكشف إسباني ، اكتشف المحيط الهادئ في عام ١٥١٣ . – المترجم
٧٩ – أميريغو فيسبوسيوس أو فيسبوتشي (١٤٥٤ ؟ – ١٥١٢) : رحّالة من فلورنسا في العالم الجديد بين (١٤٩٩ – ١٥٠٠) ، وسُميت القارة باسمه . – المترجم
٨٠ – خنازير الجرجسيين : إشارة إلى ما ورد في إنجيل متّى : (ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جداً حتى لم يكن أحد يقدر أنْ يجتاز تلك الطريق . وإذا هما قد صرخا قائلين ما لنا ولك يا يسوع ابن الله . أجئتَ إلى هنا قبل الوقت لتعذّبنا . وكان بعيداً منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى . فالشياطين طلبوا إليه قائلين إنْ كنت تخرجنا فأذن لنا أنْ نذهب إلى قطيع الخنازير . فقال لهم امضوا . فخرجوا ومضوا إلى قطيع الخنازير . وإذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات في المياه) ، والعبارة تُستخدَم للدلالة على التصرف المتسرّع الأهوج .– المترجم
٨١ – روديسيا : الاسم السابق لدولة زيمبابوي حتى عام ١٩٧٩ . – المترجم
٨٢ – ألفريد برليس (١٨٩٧ – ١٩٩٠) : كاتب نمساوي يهودي (حصل على الجنسية البريطانية لاحقا) . اشتُهر بسبب ارتباط اسمه بهنري ميللر ولورنس دريل وأناييس نن ، وبقي صديقاً مُقرّبا لهنري ميللر حتى آخر حياته . ذكره ميللر في الكثير من مؤلفاته وكان يُشير إليه باسم " جو " أو " جوي " . – المترجم
٨٣ – برق صفيحي : هو برق يبدو كصفيحة عريضة ، ويُسبّبه انعكاس برق أكثر بُعداً . – المترجم
٨٤ – أندريه سيغوفيا أو سيغوبيا (١٨٩٣ – ١٩٨٩) : عازف إسباني للموسيقى الكلاسيكية على آلة الغيتار . – المترجم
٨٥ – ب . د أوسبنسكي (١٨٧٨ – ١٩٤٧) : فيلسوف روسي .
٨٦ – سام لانغفورد (١٩٩٣ – ١٩٥٦) : أبرز ملاكم كندي أسود في أوائل القرن العشرين ، وكان يُلقَّب بـ "أعظم ملاكم لا يعرفه أحد" . كان قصير القامة ، ١,٦٩م ، ولم يتعدّ وزنه في أحسن الأحوال عن ٨٤ كغ . – المترجم .

٨٧ – الليليبوت : أحد أفراد مجتمع تخيُّلي من الأقزام في رواية " رحلات غاليفر " لجوناثان سويفت (١٦٦٧ –١٧٤٥) . – المترجم

٨٨ – المستودون : حيوان قديم بائد يُشبه الفيل .

٨٩ – يقصد الحرب العالمية الثانية . – المترجم

٩٠ – تشارلز أوغوستوس ليندبرغ (١٩٠٢ – ١٩٧٤) : طيّار أميركي ، كان أول مَنْ عبر المحيط الأطلسي جواً إلى أوروبا دون توقّف في عام ١٩٢٧ . كان مُناهضاً بقوة للحرب ولتورُّط الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية . – المترجم

٩١ – حافلة الكارانك : حافلة تُخصص عادة للسياح في زيارة المناطق الطبيعية . – المترجم

٩٢ – الكريوسوت : سائل زيتي يُستعمل في تقطير القطران ولصيانة الخشب . – المترجم

٩٣ – جان كوكتو (١٨٨٩ – ١٩٦٣) : كاتب مسرحي ، وروائي ، وشاعر ، وناقد ومُصمم ومخرج سينمائي فرنسي . – المترجم

٩٤ – العصر الثلثي : هو العصر الجيولوجي الذي تشكّلت فيه سلاسل الجبال الكبرى كالألب والهيمالايا . – المترجم

٩٥ – كوني بوزويل (١٩٠٧ – ١٩٧٦) : مطربة أميركية . شكّلت مع أختيها فريق "الأخوات بوزويل" . كان لها تأثير كبير في أدائها لأغاني الجاز على المطربة الكبيرة إلاّ فيتزجيرالد التي كانت تحاول جاهدة أن تقلّد أداءها .

٩٦ – توماس ديه توركويمادا (١٤٢٠ – ١٤٩٨) : راهب دومينيكاني إسباني . أول قاضي لمحاكم التفتيش في إسبانيا . كان مسؤولاً عن إحراق نحو ٢٠٠٠ من المهرطقين . – المترجم

٩٧ – ليون فرانك تشولغوتس (١٨٧٣ – ١٩٠١) : اغتال الرئيس الأميركي وليم ماكنلي في عام ١٩٠١ . أثناء محاكمته رفض المحامين اللذين عُيِّنا للدفاع عنه ، ورفض الإدلاء بأي اعتراف . وكان خلال سنوات عمره الأخيرة اعترف بتأثير شخصيات فوضوية مثل إيما غولدمن وألكسندر بركمَن عليه . – المترجم

٩٨ – ملفين دوغلاس : اسمه الأصلي ملفين إدوارد هسلبرغ (١٩٠١ – ١٩٨١) : ممثل أميركي . – المترجم

٩٩ – جيمي كاغني ؛ أو جيمس فرانسيس كاغني (١٨٩٩ – ١٩٨٦) : ممثل أميركي . اشتُهر بتمثيل أدوار الرجل القاسي .

١٠٠ – لورالاي : في الأساطير الجرمانية ، هي سيرينة ، يُقال إنها كانت تقيم على صخرة على حافة نهر الراين إلى الجنوب من كوبلينتز وتقود راكبي الزوارق إلى الدمار . القصيدة من وضع الشاعر كليمنس برينتانو (١٧٧٨– ١٨٤٢) . – المترجم

١٠١ – غلوريا سوانسون (١٨٩٩ – ١٩٨٣) : ممثلة أميركية . اشتهرت ولاسيما في زمن الأفلام الصامتة . – المترجم

١٠٢ – فريتز لانغ (١٨٩٠ – ١٩٧٦) : مخرج وكاتب سيناريو وأحياناً ممثل ومنتج أميركي من أصل نمساوي . صاحب المدرسة التعبيرية الألمانية في السينما . كان يُسمّى بـ " سيد الظلام" . من أشهر أفلامه الصامتة " متروبوليس " و " م " .

١٠٣ – " وداعاً ، مستر تشيبس! " : عنوان رواية وفيلم شهير (١٩٣٩) تتحدث عن أستاذ مدرسة عجوز يستعيد تاريخ حياته في مجال التعليم . مؤلف الرواية جيمس هيلتُن (١٩٠٠– ١٩٥٤) روائي إنكليزي ومؤلف لعدد من الروايات الرائجة ، يُقال إنَّ المؤلف أكمل رواية " وداعاً ، مستر تشيبس! " في أربعة أيام . – المترجم

١٠٤ – رقصة القديس فيتوس : لقب لمرض الكوليرا .

١٠٥ – موريكاند : المنجّم الذي كتب عنه ميللر قصة شائقة موجودة ضمن كتاب ميللر "بيغ سور وبرتقالات هيرونيموس بوش" عنوانها "الفردوس المفقود" .

١٠٦ – ألفريد شتيغليتز (١٨٦٤– ١٩٤٦) : مصوّر أميركي . في عام ١٩٠٥ افتتح معرضه في نيويورك على أساس التصوير أحد الفنون الجميلة . طور أسلوب التصوير الفوتوغرافي . عرّف التصوير الأوروبي إلى الجمهور الأميركي . – المترجم

١٠٧ – دين روديار (١٨٩٥ – ١٩٨٥) : كاتب ومؤلف موسيقى للموسيقى المتطورة ومُنجّم من مدخل إنساني . له روايات وكتب في التنجيم وفي الرسم المتسامي (شبيه بالرسم السريالي) وكتب في التأليف الموسيقي . – المترجم

١٠٨ – جون مارين (١٨٧٠ – ١٩٥٣) : رسام أميركي . معروف بلوحاته المائية التجريدية ، غالباً للبحر . بدأ حياته مهندساً معمارياً ، لكنه في عام ١٩٠٥ انتقل إلى باريس حيث تأثّر بالرسام ويسلر . عاد إلى أميركا في عام ١٩١١ ، واشترك في معارض كثيرة . – المترجم .

١٠٩ – " مكان أميركي" : في عام ١٩٢٩ افتتح شتيغليتز صالة عرض خاصة به سمّاها" " مكان أميركي" وظل يعرض فيها أعمال الرسامين المفضلين لديه أمثال دوف ، ومارين وأوكيف حتى وفاته ١٩٤٦

١١٠ – جورجيا أوكيف (١٨٨٧ – ١٩٨٦) : رسامة أميركية .

١١١ – معرض التصوير الأول الذي أقامه شتيغليتز عام ١٩٠٥ كان تحت عنوان : " ٢٩١ " . –المترجم

١١٢ – أوز : بطل رواية " الرائع الساحر أوز " . تحولت إلى فيلم سينمائي شهير في عام

١٩٣٩ . وهو ساحر يحكم أرض أوز التي يرضخ له أهلها بإخلاص لإيمانهم بأنه الشخص الوحيد القادر على حل مشكلاتهم ، ويظهر بأشكال مختلفة . ولكن يتضح في النهاية أنه شخص عادي يلجأ إلى بعض الخِدع لكي يبدو ضخماً وقوياً . . . . - المترجم

١١٣ - لي سيمونسون (١٨٨٨ - ١٩٦٧) : مهندس معماري ، ورسام ومُصمم ديكور للمسارح ، أميركي .

١١٤ - من كتاب " جون مارين ، الرجل وأعماله " ، تأليف إ . م . بنسون .

١١٥ - ملاحظة الناشر : نلفت انتباه القارئ إلى كتاب " لماذا التجريد ؟ " من تأليف هيلير هيلر ، وهنري ميللر ، ووليم ساروبان ، نشر دار نيو دايركشن ، ويحتوي مقالة مُبكّرة عن هيلر وأعماله بقلم ميللر .

١١٦ - الجدارية : هي لوحة ضخمة تُرسم على الجدار - عادة في الأماكن العامة أو المؤسسات الرسمية . - المترجم

١١٧ - قارة مو : هي قارة افتراضية قيل أنها وُجِدت في أحد المحيطات المعروفة على الأرض . ادّعى الرحّالة والكاتب أوغسطوس دو بلونغون في القرن التاسع عشر أنّ لاجئين من تلك القارة هم الذين ساهموا في بناء حضارات قديمة كالمصرية والبابلية . العلماء اليوم يُنكرون هذا الافتراض جملة وتفصيلاً . - المترجم

١١٨ - المانيت : روح مُسيطر على قوى الطبيعة . - المترجم

١١٩ - أيريش غوتكند : جامع لكتاب شهير يحمل اسمه للأقوال المأثورة والشهيرة .

١٢٠ - خلال الحرب الأهلية الأميركية ، في ستينيات القرن التاسع عشر . - المترجم

١٢١ - وليم تيكمشه شرمن (١٨٢٠ - ١٨٩١) : قائد أميركي اتحادي خلال الحرب الأهلية . قاد مسيرته المُظفَرة خلال ولاية جورجيا عام ١٨٦٤ ، أصبح قائداً عاماً للجيش في عام ١٨٦٩ . - المترجم

١٢٢ - إسطبة : برج بوذي على شكل هرم أو قبة .

١٢٣ - باغودا : هيكل أو معبد بوذي (هندي أو صيني أو ياباني) متعدد الطوابق .

١٢٤ - من كتاب " أرض العين " . تأليف هاسولت ديفيز .

١٢٥ - أكاديّ : نسبة إلى أكاديا : وهي المناطق التي تطل على الأطلسي من كندا ، ويتحدث أهلها الفرنسية . أو أية مستعمرة فرنسية سابقة .

١٢٦ - و . هـ هدسن (١٨٤١ - ١٩٢٢) : أرجنتينيّ من أصل أميركي . مهتم بالطبيعة وبعالم الطيور . انتقل إلى إنكلترا واهتم بالحياة النباتية هناك . ألّفَ كتباً كثيرة في هذا المجال ، وله

أيضاً روايات . والأوراق القرمزية المُشار إليها في النص هو كتاب الرحلات الذي ألّفه وعنوانه "الأرض القرمزية التي خسرتها إنكلترا" - المترجم .

١٢٧ - المرستيمة : نسيج جنيني مؤلف من خلايا قادرة على الانقسام غير المحدود في علم النبات .

إبّان عودتي إلى محترفي في منتصف الليل،كنتُ غالباً ما أقفُ عند الطاولة وأسجّل في ذلك السجّل السماوي بنوداً صغيرة لا حصر لها تؤلّف دفتر حسابات الكاتب: أحلاماً،خُطط هجوم ودفاع،ذكريات،عناوين كتب صمّمتُ على قراءتها، أسماء وعناوين دائنين محتملين،تعبيرات آسرة،محُرّرين يجب حثّهم على الإسراع في العمل،ساحات القتال،نُصُب تذكارية، مُعتزلات رهبانيّة،وما إلى ذلك.

وأتذكر بوضوح الإثارة التي انتابتني وأنا أُدون كلمات مثل موبايل،نهر سواني، نافاخوس، الصحراء المرسومة، النحل القاتل، الكرسي الكهربائي.